

مكتبة
مجمع محمد بن عبد الوهاب

أستاذ ورئيس قسم البلاغة
مكتبة اللغة العربية
جامعة الأزهر

الأسرار
غافر - فصلك
في أسرار التبيان

مكتبة محمد بن عبد الوهاب

إهداء من اللجنة الوطنية
للأوقاف الإسلامية
٢٢١٠٢١٦١٠٠٠٠٠

دكتور
محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

الْحَمْدُ لِلَّهِ

غَافِرٍ - فَصَّلَتْ

دُرِّسَتْ فِي سِرِّ السَّنَائِدِ

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: آل حم غافر - فصلت

دراسة فى أسرار البيان

اسم المؤلف: الدكتور محمد محمد

أبو موسى

الطبعة: الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩م.

مكتبة وهبة، ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة.

٥١٢ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ١٨٤٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 225 - 244 - 9

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة
(للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة
نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء
منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع
أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية،
أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره،
أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ
موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wabhab Publisher.
No Part of this Publication may be
reproduced, stored in a retrieval system,
or transmitted, in any form or by any means,
electronic, mechanical, photocopying, recording
or otherwise, without the prior written
permission of the publisher.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اللهم يستر وأعن

تتراحم الأفكار التي أريد أن أنبه إليها في هذه المقدمة:

أجمع الكلمة من علمائنا رضوان الله عليهم أن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا عن رسول الله ﷺ لفظ القرآن ومعناه، كما أخذوا عنه السنة، وأن أجيال الأمة تلقّت القرآن عن رسول الله ﷺ لفظاً ومعنى. وهذا مما يجب أن يعلمه كل سلف لكل خلف حتى لا يقعوا في هذه المهالك الدائرة الآن، والتي أساسها الاجترار على القرآن وتفسيره من قبل جهات مشبوهة، وهو تفسير يفرغ القرآن من مضمونه ويأتى الأمة بقرآن غيره.

وكان كثير من علماء الأمة يتخوفون من القول في التفسير، وروى الشعبي عن مسروق قال: «اتقوا الله في التفسير فإنه الرواية عن الله» وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد العزى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم. سالم ابن عبد الله، وسعيد ابن المسيب ونافع» ونافع هذا هو الذى كان يترصده مالك بن أنس ويقف له فى الطرقات ليسأله، وكان كما قال مالك فيه حدة، ويقول أبو مليكة: «سئل ابن عباس عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها» لأنه كان لا يقول إلا بما سمع من رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه سور القرآن، يعنى يعلمهم معانيها وهم أصحاب اللسان الذى نزل به القرآن، قال جابر: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما كان يعلمنا السورة من القرآن» وكان ﷺ يعلمهم القرآن بوحى من ربه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وإنما كان هذا لأن القرآن هو الدين والدين كله لله فلا يجوز أن يقال فيه برأى، وقال علماؤنا: من قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، وقد أخطأ ولو أصاب المعنى. لأنه لم يأت الأمر من بابه، وكان حاله كحال من حكم بين الناس على جهل. فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب، وحاله أيضاً كحال من قذف ولم يأت بشاهد، فهو من الكذابين ويقام عليه الحد ولو كان قذف من زنى. وهذا كلام نفيس جداً لأنه يقوم على ضرورة ضبط الوسائل المفضية إلى الحقائق، ولو أصبت الحقيقة خبط عشواء لا تؤخذ عنك هذه الحقيقة، ولا بد أن تأتي الأمر من بابه يعني لا بد من ضبط المنهج.

ومن الحرص على ألا يدخل في معاني القرآن شيء ليس من مراد القرآن، وضع علماؤنا علوماً سموها علوم القرآن، وهى أدوات التفسير وطرائقه، ولا يجوز أن تدخل في القرآن علماً لم يحزر من أجل القرآن، وأنا أريد العلوم المعينة على التفسير. والمبينة لمعانيه وأحكامه، وليس معنى هذا أن نغلق باب فهم القرآن؛ لأن هذا يصادم ما أمرنا ربنا به وهو التدبر والتفكير وهذا التدبر والتفكير في القرآن مما تعبدنا الله به، وللقرآن دلالات ومعان منها ما يقع في نفوس العامة والخاصة عند سماعه فتخشع له قلوبهم وتلين له جلودهم، وهو القدر الذى قامت به الحجة على الناس ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة: ٦] ومن معاني القرآن ودلالاته ما يعلمه أهل العلم بالعربية بضوابطها المعروفة، وقد كان علماؤنا وهم يحزرون قواعد العربية يدركون فى كل لحظة أن هذه القاعدة ستنتقل إلى القرآن، فإذا لم تكن محررة أدت إلى الفساد فى التفسير، فلو قال البلاغيون: إن كلمة «إنما» تفيد الحصر وهى ليست كذلك لاضطرب كلام العلماء فى الآيات التى جاءت فيها. والمهم أن ضوابط العربية بولغ فى تحريرها من أجل الكتاب والسنة، وكل ما تعين هذه الأصول على بيانه من الكتاب، فهو منه وليس فى ذلك مشاحة،

وإنما الكلام فى المعانى التى لا تنال بهذه الأدوات، ولذلك روى عن ابن عباس «التفسير على أربعة أوجه، تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعَدُّ أحد بجهله، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» والتفسير الذى تلقته الأمة عن رسول الله ﷺ هو التفسير الذى يعلمه العلماء.

ومن أجل أن أخرج من هذه العهدة سلكت طريقاً أظنه أمناً، وهو مراجعة ما يتاح مراجعته من كتب التفسير، ومعرفة الخطوط الأساسية التى يرجع إليها كلامهم، ثم معرفة الخلافات المذهبية التى دارت حول الآية إن كانت الآية مما يدور حولها مناقشة فى هذا الباب. ثم وقفت أتدبر التراكمات والكلمات لأستخرج منها ما سكتوا عنه. ثم مضيت فى هذا التدبير والتأمل ملتزماً بالنظر السببى، وملتمساً منازع الشيوخ من أمثال الزمخشري والرازي والإسكافي والغرناطى والظاهر وغيرهم.

والمهم فى هذا السياق هو مراجعة الأسباب التى كانت وراء الأمر الإلهى فى أن يكون بيان القرآن يعنى تفسيره بلاغاً من رسول الله عن الله. ثم احتياط الصحابة ومن تبعهم من علماء الأمة إلى يوم الناس هذا فى أمر التفسير.

والسبب فى ذلك هو أن الدين دين الله ولا يجوز أن يكون لغير الله فيه شىء، وأن صفوة خلق الله ﷺ ليس له فيه إلا البلاغ، وأن القرآن هو معدن هذا الدين ومنبعه والضابط له والمعبر عن كل ما فيه. وأن اقتحام تفسيره على غير المنهج الذى وضعه علماء الأمة واستخرجوا أصوله من أصحاب رسول الله ﷺ يُفضى إلى فساد كبير ولهذا ترى كل اتجاه مضاد لدين الله لا يجد مدخلاً لتغيير حقائق هذا الدين وإفساده إلا القرآن وتفسير القرآن.

وقد كثر الكلام فى زماننا فى التفسير والتأويل. كما كثر الكلام فى القراءات المتنوعة واصطناع المناهج الأكثر حداثة، والمتابع لما يدور الآن يجد أموراً عجيبه ما كان لها أن تكون لولا تدمير التعليم وتسطيح العقول وضعف مناعة

الأمة وممانعتها، ويكفى في هذا الباب أن تقرأ كتاباً في الدراسات القرآنية يقدمه صاحبه بقوله: إنه هو وتلاميذه يفسرون القرآن الكريم في ضوء المنجزات المنهجية المعاصرة، ويستخرجون من القرآن الإسلام الحقيقي الذي غيَّبه الشيوخ، والذين استخرجوا بمناهجهم القديمة إسلاماً متحالفاً مع الرجعية والإمبريالية والإرهاب، وهذا كلام قديم قاله الماركسيون ووصفوا به تحالف رجال الكنيسة مع الرجعية والإقطاع، والأستاذ المثقف ينقل هذا إلى الإسلام وعلمائه، ثم أضاف الإرهاب ليقارب السلطة ويماشى الحملة الإعلامية على ما يسمى بالإرهاب، والمهم أنه هو وحده وتلاميذه أخرجوا الأمة من عمائتها لما خدعها الشيوخ بإسلام غير الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، وعبدت الأمة ربها على غير الوجه الذي أمرها به من يوم أن نزل القرآن إلى أن ظهر العلامة وتلاميذه وإذا أردت أن تعرف مستوى تلاميذه الذين شاركوا في هذا الإنجاز التاريخي فراجع مستوى التعليم ومستوى الطلاب، ثم راجع مستوى طلاب الأقسام الأدبية، ثم راجع مستوى من يدخل منهم أقسام اللغة العربية، ثم راجع كلام الأستاذ لتتأكد من الذي قلته وأن هذا ما كان له أن ينشر لولا أن الأمة ضعفت مناعتها في هذا الزمن الذي نحن فيه، ثم إن هذا الهزل صار في الكتب الجامعية علماً يربى عليه الطلاب المفرغون، ويعتقدونه علماً مُصَفَّى ويزرعونه في عقولهم وقلوبهم لأنهم لن ينجحوا إلا إذا استوعبوه، وهذا مثال ذكرته وله نظائر كثيرة وبعضها أسوأ منه، ثم إن هذا ليس في مصر وحدها وإنما هو في كل بلد عربي وكل بلد إسلامي. ولو راجعت ما يكتب هناك وهنا لوجدت الأصل واحداً، فإذا كان صاحبنا استخراج الإسلام المغيب وراء مناهج الشيوخ المتحالفين مع الرجعية والإمبريالية والإرهاب، فإن غيره ممن هم في مرتبة أعلى في الثقافة وأرجح في ميزان النخبة والتنوير يقول: إن السلف لم يفهموا القرآن، لأنه لم يتح لهم أن يظطلعوا على منجزات العصر وخصوصاً الألسنيات الحديثة، ومن لم يطلع على هذه المنجزات بمعزل عن فهم الكتاب

وأن الفكر المعاصر يعتبر كشفًا جديدًا لكل ما فى الوجود بما فيها الأديان، وأنه أخضع كل شىء للبحث والدرس والمراجعة والنقد، بما فى ذلك الكتب المقدسة، ولا يجوز أن نجعل المقدس عندنا بمعزل عن الدرس النقدي، ولا بد أن نعرض المقدس الذى هو الكتاب والسنة لهذا النقد. وأفضى به هذا إلى القول بأن القصص القرآنى أساطير، ولا بد أيضًا أن نؤمن بشرعية تعدد القراءات وأن كل قراءة تلغى التى قبلها وأن ثبات المعنى فى النص من العبث والجهل.

ولم يقف الأمر عند هذا وإنما تجاوز كل حد ووقف عارياً على شاطئ الإلحاد، وقال من قال: إن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً لم يعد هو الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وإنما هو التقدم والتنمية والتصنيع والعلم وإعمال العقل. وكل هؤلاء من أعلام النخبة وأعلام التنوير والتحديث. وليس تجديد الخطاب الدينى بمعزل عن ذلك، وصار يدعو إليه من يعقل ومن لا يعقل حتى سمعت ممن لا يحسن الوضوء المطالبة بتجديد الخطاب الدينى. وأكثر هؤلاء أساتذة فى الجامعات وطلابنا يقرؤون هذا كما قلت على أنه علم شريف دخلوا الجامعة ليتعلموه.

والمصيبة فيهم وليس فى هؤلاء الضلال، لأن هؤلاء الطلاب خُدموا وتشكَّلت عقولهم بهذا، وتخرج كثير منهم على أيدى هؤلاء فى الدراسات العليا وألفوا كتباً، وهذه الكتب وإن خلت من الكفر البواح فهى على شاطئه، لأنها دخلت الدرس القرآنى ليس من باب علوم القرآن وإنما من باب هذه المنجزات التى يهوى بها هؤلاء ويهوشون، وقد هالنى وأنا فى معرض الكتاب أن أجد كتباً لها هذه العناوين: «التناص فى القرآن» «القرآن وعلم النص» «دراسة سيميائية لسورة كذا» «دراسة بنيوية لسورة كذا» وحملت من هذه الكتب ما حملت وأحزنتنى أن كثيراً من كتَّابها من الشباب الناشئ المؤمن المعتقد أنه يطور الدرس القرآنى. ويقدم خدمة لأمته من خلال إضائه للقرآن بهذه المناهج، ورأيت أن هذه هى الطامة، وأيقنت أن هؤلاء الضلال الكبار نجحوا فى

استقطاب هذا الجيل المغيب عن علوم أمته، وهذا يوجب على أهل العلم وخصوصاً علماء التفسير وعلوم القرآن المزيد من الجهد والمزيد من المتابعة، وليس هذا أو أن الحديث في الختان ورضاع الكيسر والخلاف حولهما، لأن الأمر أهول من أن نشغل بذلك، وقد جاء أو أن الشد فاشتدى زيم، وهذا أو الطوفان.



من الحقائق التي لا يجوز أن تغيب أن البيان العالى المتقن فى هذا اللسان الشريف لا يزال منطويًا على كثير من أسرار جودته وإتقانه. وأن الذى اكتشفناه من أسراره فى أصول البلاغة والتقد ليس كل ما فيه، وأن هذا البيان لا يزال يمد كل من يتدبرونه بشىء من أسراره، وأن الأجيال تتعاقب على ذلك وكنزه المدفون فى باطنه لا يفنى. وليست المناهج النقدية والأدبية التى يستخرجها الجادون من أبناء الأمم الأخرى من لسغاتهم وآدابهم إلا دليلاً واضحاً على ذلك.

وإذا كان بيان العربية لا يزال منطويًا على كثير من أسراره، وإذا كانت علوم البلاغة الثلاثة مع أهميتها ودقتها وإتقانها وضرورتها ليست هى كل أسرار هذا البيان، وليست مفاتيح لكل مداخله فإن هذا يوجب علينا أن نراجع أمرا مهما فى خط سير الدراسات التى ننجزها.

وأول ما يراجع هو أننا جعلنا العناية كلها والجهد كله فى تحرير وتدقيق ما استخرجه علماؤنا من أسرار وأصول، وهذا جيد وضرورى ولا يجوز التساهل فيه، ولكن يجب أن يكون معه العناية الأكثر بتدبر أسرار الكلام، نستخرج منه أسراراً بيانية جديدة ولنكشف عن الأصول البلاغية التى لاتزال مكنونة فى هذا اللسان. وهذا يقتضى منا أن ندرس طرائق العلماء فى استخراج ما استخرجوا من الأصول، ولا يكفى أن ندرس المسألة البلاغية، وإنما يجب أن نتعرف على قصة خروجها من رحم البيان، وهذا التعرف ينتهى

بنا إلى معرفة الشعر الذى هو معدنها، والذى وقع عليها العلماء فيه، وفى كلام علمائنا ما يُنبئ إلى ذلك لأنهم لم يذكروا الشعر شاهداً للقاعدة البلاغية فحسب، وإنما ذكروه أيضاً معدناً لها، وبنوعاً كانت منه. وفى الكتب مواطن كثيرة ذكر العلماء فيها مقطوعات من الشعر ذات بناء بلاغى متميز، واستخرجوا منها هذا البناء وصيروه مُفردةً من مفردات متون العلم، والذى يقرأ ويدقق يجد هذا وأكثر منه.

وتاريخ البلاغة يدلنا دلالة قاطعة على أن ما بين أيدينا من أصول بلاغية ليس هو كل ما فى الكلام، وأول دليل على ذلك هو أن عالماً واحداً هو عبد القاهر الجرجانى كان صاحب القسط الأوفر فى استخراج الأصول التى بين أيدينا. وعبد القاهر وإن كان قدّم لأمته أفضل ما يقدمه عالم لقومه، لا أستطيع أن أقتنع بأنه أحاط بكل أسرار بيان العربية، فضلاً عن أن يكون قد استخرجه لأن العربية أوسع من أن يحيط بأسرارها عالم واحد مهما كان قدره، وقد أدرك الشافعى هذه الحقيقة وقال: «هذه لغة لا يحيط بها إلا نبى» وليس المراد باللغة فى كلام الشافعى الألفاظ لأنها مهما اتسعت فهى محصورة، وأما الذى لا يحصر فهو التراكيب والصور والأسرار، وهذا هو الذى لا يحيط به أحد من الناس وإنما يحيط به النبى بوحى من ربه وهذا ظاهر

والأمر الثانى: هو أن عبد القاهر نفسه كان يقف عند بعض الأصول ويستقصى ويحلل ثم يطول به المقام فيشير إلى أن ههنا أسراراً لا تستقصى. ويكتفى بما قال، ويشير أحياناً إلى أنه سيعود إلى هذه المسألة لاستيفاء الكلام فيها ثم لا يعود ولا يعود غيره وتبقى المسألة ناقصة. وكلام عبد القاهر فى كتابيه مشحون بهذا. وقد كنت أروم أحياناً أن أحاول تمام ما لم يتمه الشيخ فتصرفنى صوارف أخرى كنت أهنم بها أكثر، وتام ما لم يتمه عبد القاهر يحتاج إلى تفرغ فى زمن طويل.

وإذا كان هناك الكثير من أسرار بيان العربية لم يستخرج، وكان من الواجب أن نتجه إلى ذلك، فإنه من الواجب أيضاً أن نعلم أن هذا صعب

جداً ولا يناله كل من يرومه، وأنه محتاج إلى أدوات كثيرة منها ما يكتسب ومنها ما يرجع إلى الطبع والدربة. ثم إن الطبقة التي تزاوِل هذا الشأن هي الطبقة التي أفنت أيامها ولياليها في البحث في البيان والمراجعة لعيون الشعر وكلام علماء التفسير وعلماء الحديث، وهذا بعض ما يجب أن يتوفر فيهم وهم قليل في الناس

ثم إنه لا يجوز لنا أن ننتظر حتى يأتي هذا القليل. لأن هذا القليل لا يأتي وحده وإنما يخرج من صفوف المجاهدين العاملين المنقطعين، وخروج هذا القليل من صفوفهم هو من إكرام الله لهم جميعاً، لأن الله يعلم منهم أن الذى يعينهم هو فتح أبواب العلم لأجيالهم، ويسوى أن تفتح هذه الأبواب بأيديهم أو بأيدي غيرهم المهم أن تفتح، وإخلاص هؤلاء للعلم أكثر من إخلاصهم لأنفسهم، وليس منهم ولا من صفوفهم من يحب أن يقول ها أنذا، وإنما هم النموذج الذى وصفه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه بأنه: «الغنى الخفى التقى» وهم أهل الله وخاصته.

وقد يقضى الواحد منهم ما يقضى من أيامه وهو لم يقع على شيء مما يروم، ولكن هذا الذى وقع عليه مما لا يروم قد يكون السبيل إلى وقوع غيره على ما يروم، لأن جهاد الصادقين فى العلم لا يذهب هباء. والمجاهد الذى يجاهد فى سبيل فكرة ولم يصل إليها يكون جهاده هذا تعبيراً وتمهيداً لطريق غيره من السالكين الذين يأتون بعده والذين يتهيأ لهم الوصول إلى ذات الفكرة.

والأسرار الغائبة المكنونة طريقها طويل وفيه مراحل، ومحطات يسلم بعضها إلى بعض، وقد تكون وأنت تعبد مرحلة من مراحلها فى طبقة الذى وصل إليها، وربما كنت أمكن منه وإنما جاء هو إليها بعد ما اقتربت. ورؤيتها أنت وهى لانزال بعيدة. وحسبك أنك أحسست بها، وطلبتها، أو قلت هنا دفين يجب أن يبحث عنه ويخرج، أو هنا خبئى يجب أن يطلب، ومن قال هذا فليس بأقل ممن طلب الخبئى واستخرج الدفين، وهذا شأن المعرفة منذ كانت وهذا سبيلها وهؤلاء هم رجالها.

وهذه المعانى الجليلة هى التى تجعلنا نستمر ولو لم نحقق نتائج وإنما نشير مرة إلى سمت الكلام الأول، ومرة إلى منازع الشعراء، ومرة إلى أصول بيانية لا تزال واكنة فى وكناتها فى هذا البيان الشريف.

ونحب الاجتهاد ونؤمن بأنه سفينة النجاة، ونكره التبعية والتقليد ونراه يزرى بأهله. والإخفاق فى الاجتهاد أفضل من النجاح مع التقليد، ولهذا يُقدم أهل العلم على ما يقدمون عليه بطلاقة نفس ووفرة نشاط، وتام الهمة غير ناظرين إلى ما يمكن أن يحصلوه، والمطلوب فقط أن يتَهَيَّؤُوا للأمر وأن يأخذوا له أُهْبَتَهُ وأن يُعدوا له عُدَّتَهُ وأن يتزودوا له بزاده؛ لأن الطريق طويل والغاية بعيدة وقد ينقطع الظهر دونها، «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» وهل ترى أسعد ممن وقع أجره على الله؟ مع أنه أدركه الموت ولم يفعل شيئاً، وإنما خرج بزاده وراحلته ونيته المعقودة على طلب وجه الله لاغير

وقد أسستُ هذا الكتاب على الانتفاع بما بين أيدينا من أصول، والبحث عن ما كان منها لا يزال مكنوناً فى البيان، وأشارت إلى ما رأيتُه وبينت ما استطعت بيانه، وتركت ذلك وما وراءه لأهل العلم ولم أطالب نفسى إلا بشيء واحد هو أن أبلغ بها وسعها، لأنى لا أملك لقومى أكثر من ذلك وهذا غاية التكليف وبلوغ الوسع، يعنى بلوغ العذر، ونسأل الله القبول ونصلى ونسلم على صفوته من خلقه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

المعادى الجديدة

١٤ من شوال ١٤٢٩هـ

الموافق ١٤ من أكتوبر ٢٠٠٨م

دكتور

محمد محمد أبو موسى

سورة غافر وتسمى سورة المؤمن

ذكر كثير من علماء التفسير أن تكرار ذكر المجادلة والمجادلين وتوابع ذلك من ذكر عقاب الله الذي أنزله بهم، وما استدعاه من ذكر ثواب من تركوا المجادلة، وأوا أن ذلك هو موضوع السورة وهو معناها الأم الذي دارت حوله معانيها الفرعية، وأن ذكر قصة موسى عليه السلام وحديث فرعون والرجل الذي يكتنم إيمانه إلى آخر كل هذا هو صور للمجادلة: فرعون والذين معه يجادلون في آيات الله، وموسى عليه السلام والرجل المؤمن يجادل عن آيات الله.

وليس فينا من يشك في أن معرفة المعنى الأم الذي تدور حوله السورة هو من أهم ما يجب أن يعرف؛ لأنه يتأسس عليه معنى هو جوهر التفسير، وهو معرفة كيف تفرعت هذه المعاني الجزئية المكونة للسورة من هذا المعنى الأم، وكيف ترتبت عليه، وكيف ترتب بعضها على بعض.

ثم إن هذا ليس جوهر التفسير فحسب وإنما هو جوهر تحليل كل بيان صقله صاحبه شعراً كان أو نثراً، أو ما شئت.

بل إن معرفة هذا في دراسة الشعر والنثر أوجب؛ لأنه يحدد لنا صورة البيان الذي ندرسه بجزئياته وكلياته وأصوله وفروعه في نفس قائله، حتى يصير القارئ ليس مُلتبساً بالنص اللغوي فحسب وإنما هو ملتبس بنفس وقلب وعقل من صنع هذا النص، وليس شيء من ذلك في تحليل كلام الله، وإنما غاية النظر في كلام الله هو استكشاف غوامض الدلالة لمعرفة مراد الحق من كلامه سبحانه، لمعرفة أسرار بيانه الذي أعجز به خلقه وجعله آية نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

فإذا كنا نحاول أن ننفذ من الشعر إلى ما اعتمل واعتلج في نفس قائله، وما أهمته أو أثاره وبعثه إلى أن يقول ما قال، فإن شيئاً من ذلك لا يكون في كلام الله الذي ليس كمثله شيء.

وهذا المعنى الأم وما تفرع منه غالباً ما يُغشيه الحفاء في الكلام كله، وإذا كان لا يجوز لنا أن نتجاوزه فقد وجَّبت علينا الوقفة الطويلة التي تراجع، وتدبر، حتى تكشف عن هذا الجذر ما غشاه، ثم إن هذا الغموض الذي يغشى هذا الأصل الجامع للسورة يكون أكثر وأغمض في السور الطوال، لأن الفروع فيها تطول أحياناً وتلتبس ببعض الأصول، لأن المعنى الأم تتفرع منه فروع وتتفرع منها فروع فتصير الفروع الأولى أصولاً لما تفرع منها؛ وعلينا أن نردَّ الفروع إلى الأصول، ثم نردَّ الأصول إلى الأصل الأول، وهذا شاقٌّ جداً في السور الطوال، وقد حاولته في سورة الرعد إلى المعوذتين، وأظهر ما ظهر لى أنه يمكن لمجموعة من الدارسين المؤهلين والمجتهدين أن يذهبوا في بيان الغرض الأصلي للسورة مذاهب مختلفة، ويستطيع كل منهم أن يَحْتَجَّ لما ذهب إليه بِحُجَّةٍ لا تُرَدُّ، ومرجع ذلك إلى ثراء المعانى القرآنية وغزارتها، وشدة تشابكها وهذا يزيد البحث في هذا الباب أهمية وثراء ونفعاً.

ثم إن شيئاً آخر يمثل ضرباً آخر من الصعوبة في هذا الباب، وهو أن معانى القرآن تشبه بعضها بعضاً، ويرجع بعضها إلى بعض، فالآيات الدالة على القدرة القادرة على كل شيء أو الدالة على الرَّحْمَةِ التي وسَّعت كل شيء - أو الدالة على الملك الذي لا يخرج عنه شيء أو الدالة على البعث والنشر والجنة والنار، والإيمان والكفر، كل ذلك كثير جداً ومتكرر في الكتاب العزيز، وصور البيان عنه مختلفة اختلافاً شديداً، وهذا الاختلاف في صور البيان يتناسق ويتقارب ويتلاءم مع مكونات السورة، فالذين رفضوا آيات الله ودلائل نبوات الأنبياء عليهم السلام يقولون مرة: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، ويقولون مرة: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ويقولون مرة: ﴿ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥]. وهكذا تتوارد الصور على المعنى الواحد، والمهم ليس هذا وحده، وإنما المهم أيضاً أن تعقيب القرآن على كل

قول من هذه الأقوال محتلف اختلافًا ما سن تعقبه عن غيره، ومتلائم مع سمت هذا القول. فالدين قالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] يعقب القرآن على قولهم هذا بقوله ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٢٢) يوم يرون الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢] وراجع لتدرك الملازمة.

والذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِكُمْ حِجَابٌ﴾ يعقب القرآن على هذا بقوله جل شأنه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، وهذا متلائم جداً مع قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ لأنه مادام ليس إلا واحداً منهم فلا مبرر لهذا الحجاب الذي جعلتموه بينكم وبينه، ووحى الله إليه وأمره لكم بعبادة الله الذي خلقكم يقتضى المقاربة، وفتح القلوب والأسماع، ولما ارتفع الكلام إلى درجة التخويف والتهديد انحرف الأسلوب انحرافاً جليلاً قاربت ولاطقت، لأنه سبحانه قال ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل وويل لكم وكأنه قال. والويل للمشركين الذين أرجو ألا تكونوا منهم، ثم ينجر الكلام إلى ما انجر إليه.

وهذا الباب المتسع فى فقهه بيان القرآن لم أجد أحداً توقّر عليه، وإنما انصرفت عناية علمائنا رضوان الله عليهم، إلى تحليل اللغة واستنباط الأحكام واستنباط العقائد وهذا أكثر أهمية مما لم يتوفروا عليه مع أهميته. نعم إنه من المفيد جداً والغامض جداً أيضاً أن تكون بين أيدينا دراسات متنوعة تقول لماذا كان الحديث عن القدرة المطلقة هنا بقوله سبحانه كذا وهناك بقوله كذا وما وجه المشابهة بين قول نوح عليه السلام وهو أبو الأنبياء لقومه ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ حَعِي نَكْمُ الْأَبْصَارُ سَاطِءٌ [روح: ١٥]. إلى آخره. أقول ما وجه

المشابهة بين قول نوح عليه السلام لأول أمة بعث الله فيها نبيا وقول محمد صلوات الله وسلامه عليه لآخر أمة تَلَقَّتْ آخِرُ وَحَى اللّهِ فِي سُورَةِ النَّبَاِ ﴿۱﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿۲﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿۳﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿۴﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿۵﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿۶﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿۷﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿۸﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿۹﴾ إِلَى آخِرِهِ .

وما وجه المشابهة بين ما كان من أول أمة تلقت وحى الله سبحانه لما جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، وما كان من آخر أمة تلقت وحى الله لما قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ . وكيف ذهب الكلام فى سورة نوح إلى ما ذهب إليه، وذهب الكلام فى النبأ وفى فصلت إلى ما ذهب إليه، وكيف التأم كل مع مقام السورة وسياقها، وكيف كان هذا السياق فى كل سورة ممسكاً بكل جملة فيها، وكيف نعود بعد الدراسة التفصيلية لكل هذا إلى المقام والمطابقة الذى جعله علماء البلاغة رأس هذا العلم، وكيف كان مدلوله عندهم أكثر اتساعاً مما حصرناه فيه حين قلنا إن مقام التنكير غير مقام التعريف، ومقام الذكر غير مقام الحذف، وهذا حسن جداً ولكنه ليس كل الحسن .

أقول: إن القرآن الكريم لم يدرس من هذه الزاوية دراسة كاملة مُفَصَّلَةً وافية، ثم هو باب لا يَتَيَّنُّ عَلَى الْوَجْهِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ إِلَّا بَعْدَ التَّحْلِيلِ الدَّقِيقِ للكلمات والتراكيب والآيات والسور .

وأختصر القول بالقول بأن الدراسات القرآنية فى التفسير وعلوم القرآن مع كثرتها واتساعها وسدادها هى قليل من كثير مما يجب أن يدرس فى هذا الكتاب العزيز، وأتجه الآن إلى السورة ولن أخوض فى شىء مما قلته وإنما أخطو خطوات قصيرة على طريق طويل؛ لأننى لا أستطيع أن أتجاوز طاقتى وحسب المرء أن يبلغ طاقته .

ولا يستطيع أحد أن يدرس كل ما يرى وجوب دراسته . وطول النظر وكثرة القراءة تضع العين على أبواب كثيرة منها ما فُتح ولم تشبعه الدراسات السابقة، ومنها ما لم يفتح، ثم يبلغ كل منا من ذلك ما يتسع له الوقت وتعين عليه الطاقة، وربما كنت من أكثر الناس حظاً في رؤية ما لم يدرس . ومن أقل الناس حظاً في إنجاز ما يرى، وقدرتي على السير في الطريق الذي لم تطرقه أقدام العلماء محدودة جداً . وسأجتهد في دراسة السورة في بيان ما لم يبين عنه العلماء أو في التنبه إليه فقط، وسأقسم السورة إلى فصول على وفق تماسك المعنى ووحده في الآيات .

قال سبحانه: ﴿حَمَّ (١) تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ١ - ٦]

كثر كلام علمائنا في هذه الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور وكثير منهم قال إنها مما استأثر الله بعلمه، وسكت عن الكلام فيها، وكثير منهم يراها اسماً للسورة، وأنها إشارة إلى الإعجاز وأن هذا الكلام الذي لا تستطيعون أن تأتوا بمثله ولا بسورة من مثله هو من كلامكم ومؤلف مما تألف منه كلامكم، وهذا جيد وقريب، ولم أقرأ أن أحداً ممن سمعوا القرآن من المسلمين وغير المسلمين في زمن رسول الله ﷺ تحدث في هذه الحروف، ولم أعرف كيف كان يعقلها أصحاب رسول الله ﷺ .

وكذلك لم أقرأ كلاماً مقنعاً في بيان أسرار التنوع في هذه الحروف، وأعني الاختلاف الذي بين طس الم والر والر وحم وكفهيعينص إلى آخره، ولماذا

ابتدأت هذه بحم وهذه ب الم وهذه ب المر وهكذا وهل يمكن أن تكون ص
مكان ق أو مكان ن؟ ولماذا؟

ولا شك أن وراء كل ذلك من الأسرار ما وراءه، ولم أجد أحداً كشف
سراً من هذه الأسرار، ومادام سر مجيء هذه الحروف مما استأثر الله بعلمه،
فسر تنوعها الذي هو فرع وجودها أيضاً مما استأثر الله بعلمه .

وكل سورة ابتدأت بهذه الحروف ذكر الكتاب فيها بعد هذه الحروف إلا
سورة كهيعص فقد ذكر بعدها ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴿ كَهَيَعَص ١ ﴾
ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿ و ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١] .

وهذا مما يرجح القول بأنها إشارة إلى العجز عن الإتيان بسورة من
مثله؛ لأن ذكر الكتاب يعنى ذكر الحجة، والاقتران بين ذكر هذه الحروف
وذكر الحجة يؤكد أن لها مدخلاً فى الحجة، والحجة قائمة بالكتاب إلى أن
تقوم الساعة، والعجز عنه على طول الزمان كله كالعجز عنه يوم نزل،
وأن من يتردد فى هذا فليس عليه إلا أن يعود إلى ما تحت لسانه من
حروف هذا المعجم، وأن يصوغ لنا سطرًا واحدًا هو مثل: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ
الْكُوثَرَ ﴾ [الكوثر ١]، ثم يعرض ذلك على نفسه هو ليكون خصمًا
وحكمًا، فإن رأى أن الذى جاء به مثل: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴾ فقد قامت
حججه، ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ ﴾ .

وقد نبه الباقلانى وتبعه الزمخشرى إلى أن عدد هذه الحروف التى
افتتحت بها السور نصف حروف ألف باء ونصف الحروف المهموسة ونصف
الحروف المجهورة ونصف حروف الشدة وهكذا واعتبر ذلك وجهًا من وجوه
لإعجاز

والذين يقولون إن حم اسم لسورة يقولون إنه مبتدأ وخبره تنزيل الكتاب، وهو إخبار بالمصدر لأن السورة منزلة وليست تنزيلًا فالمصدر بمعنى اسم المفعول، والإخبار عن السورة المسماة حم بأنها تنزيل إعلان دائم وجهير بالتحدى، ووراء هذا القطع بأنه لا يؤتى بسورة من مثله وأن ذلك ليس في طوق أحد يسمع هذا القرآن في كل جيل وكل أمة، ولا تجد بُرهاناً ولا حُجة أقرب ولا أيسر من هذا البرهان وهذه الحجة، وعلى هذا وبه يكون عليه السلام أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة.

وراجع الكلمات التي تعلقت بكلمة تنزيل لأنها من تمامها يعني هي من تمام الخبر، ونهاية هذا الخبر هو قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، وهي الآية الثالثة، وحروف المعجم التي هي حم آية وهي في كل سورة آية وحدها الم آية طسم آية الر آية وهكذا، وهذا يعني التمييز الشديد والعناية بدلالة هذه الحروف، وأن معنى التحدى فيها ظاهر وكل ذلك يؤكد أن الذى يأتى بعد آية التحدى هذه هو من عند الله ولا يدخل في طوق البشر.

والتعريف فى الكتاب فى قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾ يفيد معنى الكمال المطلق، والألف واللام فيه كالألف واللام فى أخواته تشير فى كل إلى أن من يخالجه شك فى كمالاته المطلقة فليضع اليد على شىء مما لا يرى فيه الكمال المطلق، من لغة وقصص. أو تشريع أو فى أى باب من أبواب معانيه، فإذا لم يستطع ولم يستطع من سبقوه من المجادلين فى كلام الله فليستق النار التى وقودها الناس والحجارة، وإضافة الكتاب إلى تنزيل من إضافة المصدر إلى المفعول وقوله سبحانه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ زيادة تأكيد لمعنى التحدى، وأن هذه السورة المسماة حم هي من الله ولا يمكن أن تكون من غيره، ومن يرفض ذلك فعليه أن يروز نفسه فإن جاء بمثل سطر منها فقد قامت حجته، فإن لم يستطع هو فعليه أن يعود إلى ما حفظه من كلام الناس، فإن وجد فيه سطرًا يساوى سطرًا من هذه السورة فقد قامت حجته، وإن لم يستطع فعليه أن يستعين بكل

من يعرف من الإنس ومن الجن إن استطاع، فإن عجز عن ذلك كله فليس أمامه إلا أن يشهد بأنه كلام الله، فإن أبى بعدما ظهر له كل ذلك فليذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم. ٧] وراجع ما يضيفه لفظ الجلالة من قوله ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ على هذا المعنى ولفظ الجلالة جامع لكل ما فى أسماء الله الحسنى. جامع لكل الكمالات المطلقة التى نراها فى العزيز والعليم والقادر والباسط والسميع والبصير والغفور والرحيم إلى آخره. وفى هذا تعظيم ما أنزل فى هذه السورة وإغراء بالأخذ به وإغراء بتدبره، وقوله سبحانه: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) غافِر الذَّنْبِ ﴿ إلى آخر الخبر، كل هذا يتضمنه لفظ الجلالة، وإنما جىء به كما يأتى الخاص بعد العام للإشارة إلى مزيد العناية بدلالة هذا الخاص وأن له فى السورة مقامًا ومقصودًا، ولو رجعت بكل ما فى السورة إلى جملة المبتدأ والخبر هذه لوجدتها تتسع له وكأن هذه الآية هى رأس السورة التى فيها ذاكرتها، والعزيز هو الغالب الذى لا يغلب والمجبر الذى لا يجار عليه، والقاهر الذى لا يقهر، ومعناها أيضاً المتفرد الذى ليس كمثلته شىء، والعزيز بمعنى الغالب القادر المتفرد معناه ممتد فى السورة كلها، وامتداده ظاهر، وترجع إليه آيات ظاهرة فى السورة من مثل قوله سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقوله جل شأنه فى عجز السورة الذى رد إلى صدرها ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾. وتأمل تكرار كلمة بأسنا وارجع بها إلى العزيز القاهر القادر الذى لا يقهر.

وكلمة العليم مثل كلمة العزيز، يعنى العليم بالكليات والجزئيات وبكل ما كان وبكل ما هو كائن وبكل ما سيكون، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى

السموات ولا في الأرض. ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. وإن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتى بها الله، وعلم الله الذى هذا شأنه يسرى في الكون كله وفى القرآن كله وفى الزمان كله وفى المكان كله وفيما قبل الزمان والمكان، وما بعد الزمان والمكان، فأى خصوصية فى هذه السورة دعت إلى ذكره بعد العزيز، ثم لماذا اقترن العزيز بالحكيم فى الجاثية والأحقاف، ولم يقترن بالعليم كما هنا، ولا ريب أن فى معانى غافر والجاثية والأحقاف ما يُجيب عن هذه الأسئلة إجابات ظاهرة، ومقنعة، ولا شك أيضاً أن هذه المعانى التى تجيب عن هذه الأسئلة باللغة الدقة، والخفاء، والغموض، وسأجتهد فى استشرافها فإن لم أستطع فلا حول ولا قوة إلا بالله؛ لأنها لا تكشفُ الحجبُ عنها إلا لقوم هُدوا إليها ودلوا عليها، والأمر فى ذلك لله، وسوف أتلمسه فى تحليل السورة لأنه لم يظهر لى الآن كما ظهر امتداد لفظ العزيز فى السورة، وقد رأيت ما يشبهه شبهاً ظاهراً فى الشعر وتلمّسته وأظن أنى أصبته وذلك فى قول امرئ القيس فى قصيدة «قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل»، وفى قصيدة «قفا نيك من ذكرى حبيب وعرفان» ورأيت أن عرفان لا يمكن أن يوضع موضع منزل وبيّنت ذلك، وقال مرة «الأعم صباحاً أيها الطلل البالى» ومرة «الأعم صباحاً أيها الربيع وانطق»، وراجعت وأدركت مناسبة كل لقصيدته وفيه خفاء، ولكن الدأب كشف غموضه والأمر هنا أخفى وأغمض. والحديث فى كلام الله أشد حذراً وحسبى أنى سألت والمسألة نصف العلم.

ثم إن هذا الاقتران الذى تغمض دلالاته فى مطالع السور تراه أقل غموضاً فى فواصل الآيات، وترى العزيز يتقدم على ما يقترن به من العليم والحكيم والمقتدر وذى الانتقام إلى آخره، كما ترى العزيز العليم كثيراً ما يكون فى آيات الحكم والقضاء والعلم وعلو السلطان كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨].

وتتبع ذلك وأشباهه والاجتهاد في تحليله ودرسه من أجل ما يقوم به العلماء
الراسخون وليس الذين يبتدئون. وقد قلت إنى رُضتُ نفسى على فهم شىء
منه في الشعر فارتاضت ثم التبس على ما فى الكتاب لأننا لا نقول فى الكتاب
إلا بما علمنا أو غلب على ظننا. وقوله جل شأنه . . ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ﴾ إن كنت شديد العناية بمعرفة علاقات معانى
الكلمات المكونة للبيان وطلبت ذلك فى الشعر ورأيت أنه هو فى القرآن أعجب
وأخصب، راجع كلمات ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وتطلب
معناها فى العزيز العليم تجد أنه لا يغفر إلا العزيز الغالب القادر القاهر والعليم
الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة. واللحمة بين غافر الذنب وقابل التوب وما
قبلها لحمَةٌ حية يجرى فيها دم حى، وهى كلمات ممسك بعضها ببعض. ثم
تنظر نظرة أخرى فتجد اختلافًا ظاهرًا بين العزيز العليم وغافر الذنب وقابل
التوب، وذلك لأن العزيز العليم هى من صميم الحديث عن منزل الكتاب وأن
من أنزله العزيز هو عزيز لا يغلب. ومن نصره العزيز لا يغلب، ومن أنزله
العليم فهو الكامل فى كل ما حدث عنه وأخبر به وهكذا، ثم إن غافر الذنب
وما بعده متجه اتجاهًا أكثر إلى من أنزل عليهم الكتاب، وخوطبوا به، وأن
مبادرة الحديث عنهم بغفران الذنب فتح رقيق لأبواب الرحمة أمامهم، وأنهم
حين يدخلون فى زمرة من رأى آيات الله فأذعن لها إنما يدخلون بذلك بوابة
من يغفر الذنب ويقبل التوب ولا يهلك على الله إلا هالك.

ثم إن مجيء قابل التوب بعد غافر الذنب يفيد معنى عظيمًا، وعطاء
لا يقادر قدره، لأن غفران الذنب هنا يعنى غفران الكبائر، لأن الله منَّ علينا
بغفران الصغائر، فلا يكون قوله سبحانه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ راجعًا إلى غفران
الصغائر لأنه حينئذ يكون لامنة فيه وهذا ظاهر، ثم إن مجيء قوله سبحانه
بعده ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] يعنى أن الذنب المغفور فى قوله ﴿غَافِرِ
الذَّنْبِ﴾ هو الكبيرة المغفورة بلا توبة، ولو كانت الكبيرة لا تُغْفَرُ إلا بالتوبة لما

كان لقوله جل شأنه ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ معنى جديداً، ولامنةً جديدة، وهذا هو باب العطاء الواسع لمن رأوا الإعجاز في السورة المسماة حم والمنزلة من الله العزيز العليم، فشهدوا بأنها كلامه سبحانه وكلامه ليس كمثل كلام لأنه جل شأنه ليس كمثل شيء. وكل هذا مستخلص من كلام المفسرين ولهم طريقة في التحليل بالغة اليقظة والوعى بمدلول الكلمات، ويدهشك أن يكون هذا المنهج مقصياً في دراستنا الأدبية، والمغفرة أصلها من الستر من قولهم غفر الشيء إذا ستره، واستعمالها في مغفرة الذنوب إشارة إلى أن الذنوب عورات وقبائح يُستحى من كشفها، وأن الستار سبحانه يمن بأمرين بمغفرتها بمعنى ترك العقوبة عليها، ويسترها إكراماً لمن اقترف المعصية ووسعته رحمة ربه.

ومن طرائف الدلالات أن تعمل التغطية والستر في الشيء وضده، فهي من الله ستر للذنوب وغفران له، وهي من العبد ستر لآيات الله وجحد لها وكفر بها، لأن الكفر أخو المغفرة في الدلالة اللغوية، يقال: كفر الزرع الأرض إذ غطاها، وسمى الليل كافراً لأنه يكفر الأشياء يعني يغطيها، فالعبد كفار والله غفار.

والواو في قوله: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ دالة على المغايرة بين الصفتين، وأن مغفرة الذنب شيء وقبول التوب شيء آخر يعني أنه سبحانه يغفر الكبائر بلا توبة، وأنه سبحانه يقبل التوب، والمعتزلة لا يرون مغفرة الكبائر بلا توبة، ولهذا يقول الزمخشري في هذه الواو إنها للإشارة إلى أن الله سبحانه يغفر ذنب التائب ويثيبه ثواباً آخر على التوبة، فالتائب يعطى أمرين مغفرة الذنب الذي تاب عنه وثواب رجاء المغفرة بالتوبة، وهذا ذكاء عجيب وتشدد في ردع النفوس عن معصية الله.

والتوب: صالحة لأن تكون مصدرًا مثل صام صوماً وقام قوماً ولأن تكون جمع توبة من قولهم توبة وتوب كتمرّة وتمر.

وباب التوبة مفتوح حتى يحضر الموت، ولها شروط مذكورة في الكتب، وقد منَّ الله علينا لما أوجب على نفسه قبولها وذلك في قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. فقد أكرمنا في هذه الآية مرتين: مرة حين قال: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وعلى في هذه الآية أخت على التي في قوله في السورة نفسها ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وناهيك عن من وقع أجره على الله، والمرة الثانية قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧] وهذا وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وليس المهم أن تتوب وإنما المهم أن يتوب الله عليك لأن من تاب الله عليه فقد تاب، وهذا التوب من الله هو القبول المذكور في غافر

وقوله سبحانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ صفة مشبهة والأصل شديد عقابه، وهي نكرة وجاءت بدون واو لأنه ليس الذى بينها وبين ما قبلها كالذى بين قابل التوب وغافر الذنب، وإنما هو وصف آخر من باب آخر دخل على ما قبله دخول الشيء المستقل لا يُعْطَفُ ولا يعطف عليه، لأن هذه الصفة صفة ترهيب، وقد سبقتها صفتان من صفات الترغيب غافر الذنب وقابل التوب، ودخلت عليها صفة ثالثة من صفات الترغيب وهي قوله سبحانه ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾.

وقد ذكر العلماء أن غافر الذنب وقابل التوب مجردتان من الدلالة على الزمن، وليس فيهما معنى الفعل الذى هو التجدد والحدوث لأنها صفات قديمة، ولذلك تعرف غافر وقابل بالإضافة، وصح وقوعهما صفة لأعرف المعارف وهو لفظ الجلالة ومثلهما قوله سبحانه ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾، والطول الفضل المتسع المتطاوّل، ويقال تطول عليه أى تفضّل. والطولُ الغنى والسعة. والإشكال فى وقوع شديد العقاب وهو نكرة بلا ريب صفة بين هذه المعارف، والنكرة لا توصف بها المعرفة فضلاً عن أن توصف بها المعرفة التى هى أعرف

المعارف، ولذلك اختلف فيها كلام العلماء فقال بعضهم: هي بدل، وقال الزمخشري: إن وقوعها بدلاً بين أخواتها يجعل هذه الأخوات أبدالاً، ومثل لذلك بالقصيدة التي على مستفعلن فنقول إنها من الرجز، فإذا وجدنا فيها بيتاً على مستفعلن قلنا إنها كلها من الكامل. وقال غيره إن وقوع النكرة بين المعارف يسوغ وقوعها صفة، وذكروا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦] فالكل، معارف إلا قوله سبحانه ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وفي المسألة كلام كثير جداً وهذا أبينه.

وراجع ترتيب هذه الصفات الأربع تجد ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ يفتح باب رحمة الله لمن عاند تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم إذا فكّر في الأوبة، وأن مغفرة الذنب كما قلنا تعني مغفرة الكبائر بدون توبة إلا كبيرة الشرك، فتأتى ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾ وتفتح الباب لمن سقط في هذه الكبيرة، ثم يأتى ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فيلوح بالانتقام ممن أصرّ ولجّ في عناده، ثم يأتى ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ فيتجاوز حالة الثواب والعقاب إلى حالة المَنِّ والعطاء المتسع لمن آمن ومن كفر، وتأتى كلمة (ذى) بدل عظيم الطول أو كثير الطول ليلانم شديد العقاب لأن كلمة «ذى» تدل على ملازمة الطول وسعة العطاء، وكل ذلك شامل لخلقه جميعاً، فكل من خلقه ربنا جعل سبحانه على نفسه رزقه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] تأمل كلمة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾، وكيف أوجب على نفسه رزق كل دابة، وكيف بالإنسان الذى سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه، ثم إنه لا يعطى من آمن به ومن كفر ومن والاه ومن عاداه إلا الله الواحد الأحد، وبهذا تكون كلمة ذى الطول مهيشة لكلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ ولو وَقَفْت، عند ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ لجرى فى خاطرك معنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه لا تسع نعمه على كل خلقه المؤمن منهم والكافر إلا الواحد الأحد، ولو أعدت ترتيب الصفات وقلت العزيز العليم ذى

الطول شديد العقاب غافر الذنب وقابل التوب لما وجدت هذا التواصل الحى بين لا إله إلا هو كما تجده مع الترتيب الذي جاءت عليه الآية، وكذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تهيم النفس إلى قوله ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ وأكرر أنك لو وقفت عند ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لجرى فى نفسك معنى ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ لأن المصير لا يكون إلا للواحد الأحد. ثم إن جملة ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ التى كانت نهاية الخبر الذى ابتداءً بتزليل الكتاب وانتهى بهذا المصير هى فاصلة شاملة مستوعبة لهذا السطر المعجز الذى هو رأس السورة التى اسمها حم، ولو تحركت به إلى الورا ووجدته ممسكاً بآخر آيات الزمر من قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ إلى قوله جل شأنه ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾.

وإذا تحركت إلى الأمام وجدت إليه المصير يلقاك عند يوم الآزقة، ويوم التلاق، وإذا القلوب لدى الحناجر، ونداء الذين كفروا لقت الله أكبر من مقتكم، ونُجِزَى كل نفس بما كسبت، وهذا اللون من التماسك والتساند لا يوجد فى كلام على هذا الحد الذى نراه.

والألف واللام فى كلمة «المصير» تفيد الحقيقة والجنس، ثم إن إطلاقها من غير قيد يُحدِّد الذين مصيرهم إليه من إنسان وحيوان وطيور وسماء وأرض. يفيد هذا الإطلاق وهذا التعريف أن مصير كل كائن إليه فى حياته وفى مماته وفى وجوده وفى عدمه وفى رزقه وسعيه وهدايته وضلاله، ليس فى الوجود شىء إلا ومصيره فى يد خالقه جل شأنه.

وقد ذكر المفسرون أن وقوع كلمة العقاب الشديد بين المغفرة والتوبة والطول تؤكد معنى سعة الرحمة وهذا ظاهر وقلناه، إنما أعدته لأشير إلى ملمح فى كلام النحاة لما قالوا إن النكرة لما جاءت بين الصفات المعارف اكتسبت منها شيئاً أجاز لها أن تكون صفة لمعرفة وهذا يعنى من وجه آخر أن شديد العقاب لما جاء فى آيات الرحمة اكتسب منها شيئاً من الرحمة، لأن امتصاص الكلمة من جاراتها شيئاً من الإعراب يفتح الباب لامتناسها شيئاً من المعنى. وليس هذا بعزيز فى لغة العرب لأن الاقتران له دلالاته التى يعرفها من يعرف اللسان. والرحمة التى نراها فى شدة العقاب رحمة ظاهرة؛ لأن الإنذار والتخويف وعرض صور العذاب ومقَامِ النار والثياب التى قُطعت من النار وصب الحميم وهم يصطرخون فيها كل ذلك من آيات الرحمة؛ لأنه كف وزجر والله سبحانه وتعالى حين يخوفنا من عقابه الشديد إنما يدعونا إلى رحمته التى فتح لها باب المغفرة وباب التوبة وباب الطول ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله جل شأنه: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ هاتان جملتان تفيضان معنى متسعاً جداً بلفظ مختصر جداً، والجملتان الأولى جاءت على طريقة القصر والجملتان قبلها اشتركتا معها فى هذا القصر، والجملتان الثلاثة موصولة كل بما قبلها من غير واصل لقوة الربط فى المعنى الذى أغناها عن حرف الوصل، وراجع لترى أن الذى لا إله إلا هو لا مصير إلا إليه ولا يجادل فى آياته إلا كافر مبطل.

والمجادلة منها ما هو مقبول ومنها ما هو مرفوض قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ والمجادلة المذمومة هى المحاجة فى الحق لإبطاله، وراجع سداد كلمات الجملة الأولى وأول شىء وأهمه إضافة الآيات إلى الله

سبحانه، وهذا يعنى أنها آيات بينات لا يداخلها نُبسٌ ولا غشٌ ولا فساد ولا شبهة وأنها حق من محض الحق. وهذه الإضافة تلخص معنى الجملة الطويلة السابقة، لأن هذه السورة المسماة حم مادامت تنزيلاً من الله الموصوف بكل كمال وهو العزيز العليم إلى آخره هي آيات الله البينات الباهرات القاهرات، فيجب أن يتلقاها من أنزلت لهم بالقبول والإذعان، والكلام هنا انتقل من بيان مصدر الآيات إلى بيان موقف من أنزلت عليهم؛ وابتدأ الحديث بمن جادل فيها لأنهم هم الصادون عنها والمحادون لها، وهذه الإضافة ﴿آياتِ اللَّهِ﴾ هي وجه مجيء الكلام على طريق القصر لأنها مادامت آيات الله فلا يجادل فيها إلا ضال، والتعبير عن المجادلين بالاسم الموصول فيه معنى أنهم مَعْرُوفُونَ بالصلة مشهور أمرهم بها، والصلة هنا هي ﴿كَفَرُوا﴾ والكفر الستر والتغطية والمراد هنا إخفاء الحق وطمسه وإطفاء نوره. كأنهم معروفون في الناس بهذه الخليقة الخسيسة وليس في الخساسة أخس من إخفاء الحق وجحده.

وراجع الكلام من أول السورة لتدرك حقيقة الفاء في قوله سبحانه ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ لأنها بادرت بالوعيد والتهديد؛ وفتحت باب أخذ ريبك لهم. وقلت راجع الكلام لأنك حين تأمل التنزيل ومصدره وأبواب الرحمة والمغفرة والتوبة التي فتحها لعباده وهو الغالب المقتدر ثم تفاجأ بهذا السلوك المتمرد على كل هذا، ستدرك سر المبادرة بالوعيد لأن من يجادل في ذلك لا ينفع معه البرهان.

وأول ما يلاحظ في جملة ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ﴾ هو خطاب رسول الله ﷺ بهذه الجملة، وهذه الجملة جاءت بطريق خطابه عليه السلام لأن لها مزيد اختصاص به صلوات الله وسلامه عليه، لأنه هو المبلِّغ لهذا التنزيل وهو الذي يواجه هؤلاء المبطلون بالمجادلة في آيات الله.

والتقلب فى البلاد يعنى أنها فئة وطبقة متميزة فى مجتمعاتها، وأن لهم جاهاً وقوة وثروة، وفيه إشارة إلى أن هذا الذى هم فيه من أهم صوارفهم عن الحق وعن الإذعان له، ومعنى لا يفررك هذا التقلب أنهم فى قبضة العزيز الغالب، وهذه الجملة ترجع إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعنى الذى لا يغلب وأن عزة وحيه وعزة المؤمنين به مستمد ذلك كله من عزه هو سبحانه «وَلِيُغْلِبَنَّ الْمُغَالِبُ الْغُلَّابَ».

وهذه الجملة مؤسسة على ما قبلها ومرتبة عليها، وهى أيضاً مقدمة لما بعدها وفتحة بابها وهى قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾.

هذه الآية مزيد بيان وتفصيل لجملة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأن جملة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفيد العموم، وأن الجدل لا يكون إلا ممن شأنهم الكفر، هكذا فى كل الأمم وكل الأزمان، وإنما جاءها الاختصاص وأنها دالة على قومه عليه السلام من خارجها من قوله سبحانه ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ﴾ ومن قوله جل شأنه ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فدل هذا وذاك على أن المقصود بجملة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ هم قومه عليه السلام، ويلاحظ أن هنا مقابلة بين قوم نوح وقومه عليه السلام لأن قوم نوح هم أول الأمم وقومه عليه السلام هم آخر الأمم، وما بينهما من الأحزاب على الطريقة نفسها، وكان قوم نوح من أشرس الأمم عنادا وإيغالا فى الكفر وأشدّها استمساكاً بالوثنية، وظل نوح عليه السلام يدعوهم ليعبدوا الله وليستغفروه ليغفر لهم ذنوبهم ويرسل السماء عليهم مدراراً وهم يضعون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم، وقد بقى الحال على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يعرض لهم آيات الله البيّنات ولا يزيدهم ذلك إلا ضلالاً،

فلما استياس عليه السلام قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقد تكررت جملة ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ كما تكرر كذبت عاد وكذبت ثمود وكذبت قوم لوط، وتكرر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أكثر لأنهم هم أصل الأمم وأولها، وكل من كذب بعدهم إنما هم من أصلاب من حملنا مع نوح عليه السلام وهم الذين آمنوا به، ولكن الكفر سرعان ما ينسلل إلى أجيال أهل الإيمان، كما تسلل إلى ذرع إبراهيم عليه السلام، وكل هذا تسلية لرسول الله ﷺ الذي أحزنه حال قومه وصدّهم عن سبيل الله. والأحزاب هم أمم الأنبياء من بعد نوح عليه السلام وهم عاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب وكل هؤلاء أخذهم الله، وعلى هذا أفادت الآية الوعيد والتهديد لما جمعت بين المجادلين من قومه عليه السلام والأمم المجادلة من قبلهم والتي أخذها الله، ثم هي تفيد من وجه آخر أن اللجاجة في الحق والمرء فيه ومظاهرة الباطل وتثبيته، كل ذلك لأبد أن يكون أمراً متوقفاً، لأنه عريق في الأرض وعريق في بنى الإنسان من لدن أبيهم الثانى وهو نوح عليه السلام الذى ظل يدعو إلى ربه بالآيات البيئات ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكانت حصيلة من اهتدى معه نفعراً حملوا في سفينة من ألواح ودرسر، ولم يكونوا هم وحدهم الذين شغلوا السفينة وإنما شغلها معهم من كل زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مما خلق الله من الدواب والأنعام والطيور، فلا يسيئس أهل الحق من قلتهم وكثرة أهل الباطل. وقوله سبحانه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ من الجمل التي تظهر بلاغتها ظهوراً واضحاً، وذلك لسعة الدلالة التي تراها في فعلى ﴿هَمَّتْ﴾ و﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ لان ﴿هَمَّتْ﴾ تفيد القصد وعقد النية والتآمر والغيط والحقد والإصرار على الجريمة والقتل والدم وكل وجوه الإيذاء، وكذلك ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ وقد وقف الباقلانى عندها يعجب ويعجب ويقول: لو قال ليقتلوه أو ليطردوه أو ليعذبوه أو قال كل ذلك

لم يكن وافيًا بما وَقَّتْ به كلمة ليأخذه، وقوله جل شأنه ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ بيان آخر للمراد بالمجادلة فى آيات الله، وأنه جدال بالباطل ليدحض الحق وكأنه اتجاه يخالف ويعاند اتجاه الفطرة المستقيمة التى تجادل بالحق لتدحض الباطل. وهذا هو شأن أهل الحق، وشأن أهل الباطل على الضد منه هؤلاء يزرعون الحق وَيُشْبِتُونَهُ ويحاصرون الباطل ليدحضوه.

وهؤلاء يزرعون الباطل ويثبتونه ليحاصروا به الحق، وهذا بعينه الذى تراه حولك وأراه حولي. بل وهو الذى تراه يدور فى كل مساحة وعلى كل منبر، وفي كل جامعة صراع دائر ودائم بين فريقين يهدف كل إلى دحض وإبطال ما عند صاحبه، والأجيال تتابعت فى الماضى وسوف تتابع فى المستقبل على ذلك وهذا من دفع الله الناس بعضهم ببعض.

وقوله سبحانه ﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الفاء تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها من غير مهلة، وكلمة أخذتهم تفيد أن الجزء من جنس العمل. ثم تفيد أن الله سبحانه حافظ رسله، وكائهم وأن أعداءهم لن يصلوا إليهم وأن الله يعصمهم من الناس. ولاحظ أن أخذ الله للمكذبين والمجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق مُرْتَبِّ عَلَى همهم برسولهم أن يأخذه فلم يدعهم سبحانه ليأخذوا رسلهم، كما قال سبحانه لموسى وهرون وقد قالَا ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَنَى﴾ [طه: ٤٥]، فقال الله سبحانه لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، يعنى أكف يده لو امتدت نحوكما، وكلمة ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ كلمة جامعة لمعان كثيرة جداً لأنها تعنى إغراق قوم نوح الذى كان لما فجرنا الأرض عيوننا وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وتعنى الرياح الصرصر الذى أهلك عادًا، والصيحة التى أهلكت ثمودًا، وما كان لقرى قوم لوط وأصحاب الأيكة وقلق البحر فكان كالطود العظيم ثم غشيهم من اليم ما غشيهم، كل هذا وأكثر منه تجمعه كلمة ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ حث على النظر في تفاصيل كلمة ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ ووعد من الله لهؤلاء الذين يُديرون الصراع مع أهل الباطل والمدافعين عن الحق وأن يد الله في النهاية هي التي ستحسم هذا الصراع.

وراجع الآية من أول قوله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنه من جدالهم ومواجهتهم للحق ليس فقط باللجاجة والتلبيس وإنما بالقتل أيضاً والمؤامرة، وأن أعداء الحق لم يكتفوا برفضه والانصراف عنه، وإنما يجادلون فيه ليدحضوه، ثم لم يكتفوا بذلك وإنما يسلكون مسالك دموية لتصفية رموزه، وقد قلت إن هذه الآيات رأس السورة ولذلك تستطيع أن تجد إشارات كثيرة مرسله منها إلى أغراض أساسية في السورة، وأظهر ذلك قوله سبحانه في هذه الآية: «الرأس» همت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وأنها موصولة بوجه ظاهر يقول فرعون ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر: ٢٦]، كما تجد قوله سبحانه ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ موصولاً بقول الرجل المؤمن: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣، ٣١]، كما تجد قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ موصولاً بقول الرجل المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله جل شأنه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ موصولاً بقوله ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، ويقول: ﴿إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ وهكذا وكل هذا يؤكد أن هذا المطلع شامل وجامع لكل ما في السورة، ولا شك أن علاقة المطلع بالمقاصد جزء من علاقة الجزئيات المكونة للسورة ببعضها ببعض. وعلاقة الكليات المكونة للسورة ببعضها ببعض، وهذا كله يُمْنح السورة هياً وشكلاً ولوناً ومذاقاً تختلف به اختلافاً ما عن غيرها، وقل مثل ذلك في القصيدة والمقالة والخطبة مع الاختلاف البين في طبيعة الجزئيات والكليات والعلاقات ووجوه الترتيب؛ لأن كل ذلك فيه مراتب يتفاوت بها الكلام ويتفاضل.

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أعراب الزمخشري قوله ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدلاً من قوله: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وكان أصل الكلام «وكذلك حق على الذين كفروا أنهم أصحاب النار» ثم جاء الكلام على ما جاء عليه ليؤكد أن هذا الذي حق عليهم هو كلمة ربك وكلمته سبحانه لا راداً لها، وهذا توجيه جيد؛ ويرى الإمام الرازي أن هذه الآية، رجعت بالكلام إلى قومه ﷺ وأنه حق على الذين كفروا منهم أنهم أصحاب النار، وأنهم لن يتمكنوا من إبطال هذه الآية، وأنهم على فرض أنهم يدخلون في الدين لأبطلوها ولكنهم لن يتمكنوا، ثم إنهم على فرض تمكنهم ودخولهم في الدين سيكونون لا محالة مؤمنين بهذه الآية القاطعة في أنهم أصحاب النار، والقطع بأنهم أصحاب النار يعنى القطع بعدم إيمانهم وهذا تناقض شديد وتكليف بما لا يطاق، والرازي له ولع بأمثال هذه المقولات، والوجه في الآية يحسن أن يبعد بنا عن هذا لأن السورة مكية، وقومه عليه السلام آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ثم دخلوا في دين الله أفواجاً ولم يبق على أرضه عليه السلام إلا من آمن، وكل هذا لا يغرى بقبول كلام الرازي، وإنما الآية تبين مصير الذين كفروا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وأنهم كما أخذهم الله في الدنيا فقد حقت عليهم كلمة العذاب في الآخرة، والكاف في قوله جل شأنه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ تشبيه لاسم الإشارة العائد على أخذ ربك وعقابهم في الدنيا بما كتبه عليهم في الآخرة، وحق عليهم بكلمته سبحانه، والواو للاستئناف لبيان وجه آخر من وجوه المعنى يعنى لبيان حالهم في الآخرة وإحاقه ببيان حالهم في الدنيا، وبهذا تم الكلام على هؤلاء وكان هذه الجملة أغلقت هذه الصفحة، ثم إن هذه الجملة فاصلة جامعة من قوله سبحانه ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم هي بفحواها تفتح باب الكلام بعدها لأنها تقول بلفظها هذا حال الذين كفروا وتقول بفحواها فما بال الذين آمنوا، وبهذا ينتقل الكلام إلى هذه الآيات.

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [غافر: ٧ - ٩].

هذا الجزء من المعنى كما تراه كأنه جملة واحدة، لأن معناها يتم عند قوله ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وراجع هذه الآيات لترى أنها كلها داخلة في خبر الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، وهذا الخبر هو يسبحون ويؤمنون ويستغفرون، ثم كل ما جاء بعد يستغفرون هو تفصيل وبيان لهذا الاستغفار، ثم إن قوله: يستغفرون وما بعده هو المتعلق بالذين آمنوا، وهو الجزء الأكبر من الآيات، وقوله ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ مدخل لذكر الذين آمنوا لأنهم هم المقابلون للذين يجادلون في آيات الله، وإنما جاء ذكر الذين آمنوا من خلال ذكر حملة العرش ولم تذكرهم الآيات ذكراً مباشراً كما ذكرت الذين يجادلون، لأن ذكرهم بواسطة استغفار حملة العرش لهم فيه تكريم لهم ليس بعده تكريم، وهو المقابل للغضب والتهديد والوعيد في الآيات السابقة، ولاحظ المقابلات الدقيقة بين الفريقين، الفريق الأول يمتلئ حقداً وبغضاً لأهل الحق حتى إنهم هموا برسولهم الذي هو المثل الراقى لداعى الخير ليستقلوه، وقد قوبل ذلك بحب حملة العرش ليس للرسول فحسب وإنما لكل من آمن من أتباع الرسل، ولاحظ كيف يتحرك الفريق الأول لجلب الشر كل الشر للرسول وأتباعهم، وكيف يجتهد حملة العرش في الدعاء لهم، وكيف كانت الوقاية من السوء الممثل في عذاب الجحيم والوقاية من السيئات، كل السيئات من أهم دعاء حملة العرش لهذا الفريق.

وقد بدأت الآيات بذكر حملة العرش وهم أفضل الملائكة، ثم من حولهم وهم الحافون بالعرش يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . وجملة ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ جملة مستأنفة استثنافاً بيانياً لأنها تبين حال الذين آمنوا كما قلت، وذكر العرش وحملة العرش ومن حولهم من ملائكة الله المسبحين بقدسه فيه من عز الربوبية وجلال الألوهية ما فيه، ثم فيه من بيان مكانة الذين آمنوا عند ربهم ما فيه، ثم إن هؤلاء الحملة ومن حولهم يسبحون والتسبيح ذكر الجلال، وتسبيحهم بالحمد والحمد ذكر الإكرام وحملة العرش بين الجلال والإكرام، وليس وراء هذين لأهل القرب مطلب . قال الرازي: التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي . والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق، فالتسبيح إشارة إلى الجلال، والتحميد إشارة إلى الإكرام، انتهى كلامه، ولم يوفق العبد لشيء أفضل من تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي الذي هو التسبيح، فإذا وفق وسبح وأكرم بنعمة سبحانه الله فأوجب ما يجب عليه هو شكر وحمد هذه النعمة التي هي التسبيح، وهذا وجه من وجوه ارتباط التسبيح بالحمد، لأن كل تسيحة تستوجب حمداً وهذا هو الشغل الأول للذين يحملون العرش وشغل من حوله، وقوله سبحانه: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لها دلالة غير دلالة الظاهر لأن الإخبار عن حملة العرش بأنهم يؤمنون بربهم تحصيل حاصل . ثم مجيء الإخبار بالإيمان بعد الإخبار بالتسبيح بحمد ربهم أيضاً تحصيل حاصل . لأن المسيح بحمد ربه مؤمن به لا محالة، ولهذا كان المقصود الإشارة إلى أن الإيمان بالله عند الله بمكان، وأن تحصيله وتبنيته في القلب وتسكين القلب به وتسكين القلب عليه، كل ذلك ليس الأمر فيه يدرك بالهونا، وأن استغفار صفوة الملائكة للذين آمنوا برهان على ذلك، وأن هذا الإيمان يرتقى بالعبد إلى درجة أن تستغفر له الملائكة الثمانية الذين يحملون العرش ومن حولهم من صفوف الملائكة الصافين يسبحون ربهم في مقام ليس مثله مقام، لأنهم ليسوا أهل الملاء الأعلى

فحسب وإنما هم صفوة هذا الملائ، وقد أدرك الزمخشري من جملة ويؤمنون به معنى جليلاً جداً وهو أن الملائكة لم يروا ربهم وأن حملة العرش ومن حولهم لم يروا ربهم، لأنهم لو رأوا ربهم لما استحقوا الشاء عليهم بالإيمان، لأن الذى يؤمن بما يرى ليس أهلاً للشاء، قال الرازى: وأعجب بهذا الاستخراج من الزمخشري ولخص كلامه وبينه قال رحمه الله: إن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله، فأى فائدة فى قوله ويؤمنون به؟ قلنا: الفائدة ما ذكره صاحب الكشاف وقد أحسن فيه جداً قال: إن المقصود منه التنبه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح والشاء لأن الإقرار بوجود شىء حاضر شاهد معين لا يوجب المدح والشاء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والشاء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الشاء والمدح والتعظيم علم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضرًا جالسًا هناك قال الرازى. ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يُحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرقاً انتهى كلامه.

وهذان الخبران ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ﴾ شأنان من شئون الملائكة وعبادتهم لربهم وكانهما مقدمتان للاستغفار للذين آمنوا، كما يقدم العبد لدعائه بالتسبيح والتحميد والذكر، والمقصود هو الدعاء الذى هو الاستغفار للذين آمنوا، وقد نبه بعض الأئمة إلى أن الملائكة لم يستغفروا لأنفسهم لأنه لا حاجة لهم إلى الاستغفار، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولو كانوا فى حاجة إلى الاستغفار لبدأوا بأنفسهم كما أمر الله النبيين عليهم السلام واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، وما داموا ليسوا فى حاجة إلى الاستغفار فهم أفضل من الناس.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جاء بعد الخبرين السابقين لأن هذا الخبر يعنى اشتغالهم بغيرهم، وإنما يكون هذا بعد أداء ما يجب عليهم

وبعد فتح باب الله لهذا الاستغفار بتسبيحهم بحمده وجلاله، وأفعال هذه الأخبار كلها أفعال مضارعة لأن معانيها تتجدد وتحدث شيئاً بعد شيء، وكل فعل مضارع منها له متعلق، فالتسبيح بحمد ربهم والإيمان به وهذان شأنان إلهيان والاستغفار للذين آمنوا، يعنى الذين حصلوا أصل الإيمان من غير أن يضاف إلى ذلك عمل صالح أو توبة ومن غير أن يستثنى منه أحد فدخل فيه أصحاب الكبائر؛ لأنهم من الذين آمنوا ودخل فيه الكبائر من غير توبة لأنه ليس من الحسن أن تستغفر الملائكة لمن تاب لأن الله سبحانه وعد بقبول التوبة، وليس المراد الصغائر لأن الملائكة لا يستغفرون لأصحاب الصغائر، لأن الله وعد بمغفرتها، وتجد علاقة واضحة بين جملة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقوله سبحانه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لأن مغفرة الذنب هناك تعنى الذنب قبل التوبة حتى لا يكون قوله وقابل التوب مكرراً، وكذلك هنا الاستغفار لمن آمن ولم يتب.

يرى الزمخشري أن ذكر إيمانهم فى قوله تعالى ويؤمنون به ثم استغفارهم للذين آمنوا فيه إشارة إلى أن الذى دعاهم إلى الاستغفار للذين آمنوا هو اشتراكهم معهم فى أصل الإيمان، وأنهم رَقُّوا لمن كان مؤمناً مثلهم لأن الإيمان رابطة بين القلوب المؤمنة تحمل صاحبها على طلب الخير لمن آمن ومن كان مثله فى عبادة الله الواحد الأحد، ثم إن هذه الرابطة هى أقوى الروابط وأنها فوق رابطة العرق والجنس وفوق رابطة المكان، فالملائكة من العالم السماوى والذين آمنوا من عالم الأرض، والملائكة ليسوا من جنس الذين آمنوا، والملائكة من عالم الغيب والذين آمنوا من عالم الشهاد، ولكن الإيمان بالله وتسيحه وتحميده كاف فى إلغاء كل هذه الفروق، وجامع الملائكة مع الذين آمنوا وباعت حملة العرش على الاستغفار لهم وهم أصحاب كبائر قال الزمخشري. «وقد روعى التناسب فى قوله ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنه قيل ويؤمنون ويستغفرون لمن فى مثل حالهم وصفتهم، وفيه تنبيه

على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن فإنه لا تجانس بين ملكٍ وإنسان، ولا بين سماوى وأرضى قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى والتناسب الحقيقى حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. انتهى كلامه رحمه الله، وهذه براءة فى الاستخراج.

ولو أن هذه الحقائق الدينية عرفت فى الأمة لما رأينا هذه الخلافات العرقية فى داخل الأمة كالخلاف الذى بين العرب والاكرد والبيربر إلى آخره، لأن الإيمان بالله جمع أهل السماء وأهل الأرض فكيف لا يجمع بين العربى والكردى؟ الدين لحمة قوية تربط مكونات الأمة، وإضعافه يعنى تفكيك هذه الوحدات وهذا ما يعمل له العدو ويساعده جهلة الحكام وقسّة الكتاب.

وقوله سبحانه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ هذا مقول قول محذوف أى يقولون ربنا وسعت كل شيء، وهذا القول المحذوف بيان لقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكل الآيات التى جاءت بعد قوله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ داخلة فى مقول القول المحذوف وكلها دعاء للذين آمنوا واستغفار لهم، ولو قلت: إن قولهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ والقول المحذوف بيان لقوله "يسبحون ويؤمنون ويستغفرون" لكان كلاماً صحيحاً؛ لأن كل ما جاء ودخل فى مقول القول المحذوف يصح أن يكون تسييحاً وتحميداً وإيماناً واستغفاراً، لأنك لو قلت اللهم اغفر لفلان لكان هذا تسييحاً ودعاءً وتحميداً وإيماناً لأن التوجه إلى الله بالحاجة جامع لهذا كله.

ومتابعة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وما بعده هو متابعة لاستغفار حملة العرش والخافين حوله، ومن أراد أن يدور لسانه بما قالوه، وأن يداخل قلبه وحسه ما ضرعوا به إلى ربهم فعليه بهذا لأنه تسييحهم وحمدهم ودعاؤهم.

وقد تأمله المفكرون من جهات:

أولها: أنهم خاطبوا الحق جل شأنه بقولهم ربنا، ولفظ الجلالة أشمل وأدل على الألوهية والهيمنة المطلقة فلماذا؟

والجواب: أن كلمة الرب هي الأجرى في الدعاء وذلك كقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، وهو كثير جداً حتى قالوا: إن من أرجى الدعاء أن ينادى العبد ربه بقوله يا رب، وإنما صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء لأن لفظ الرب فيه معنى الرعاية والتربية وتواتر نعم الله على العبد من يوم أن كان كما يقول الرازي: «فى كَتَمَ العَدَمِ المحض - والنفى الصرف، وكان العبد يقول لربه كنت فى كتم العدم المحض والنفى الصرف فأخرجتنى إلى الوجود وربيتنى - فاجعل تربيتك لى شفيعاً إليك فى ألا تُخَلِّينى طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك» انتهى كلام الرازي، ومعناه: أن دعاء الله بلفظ الرب استشفاع بنعمه لطلب المزيد منها، لأننا لا نستطيع أن نجعل طاعتنا وعبادتنا لربنا شفيعاً لنا فى طلب حاجتنا من الله، لأن عبادتنا لا تفى بشكر نعمة واحدة من نعمه التى لا تحصى. وإنما نجعل عطاءه سبحانه لنا ومَنَّ علينا وتفضله علينا بنعمه التى لا تحصى شفيعاً فى طلب المزيد منها، وهذا كلام العارفين الذين يقوم دعاؤهم لربهم على بصيرة وهو معنى رفيع جداً.

وحذف حرف النداء يفيد قوة إحساس الداعى بقربه من ربه، وأن استحضاره لنعم ربه من يوم أن أخرجه من كتم العدم المحض جعل له دالة على الله، ثم إن كلمة «رب» بهذا المعنى الذى ذكره الرازي فتحت باب ذكر سعة الرحمة والعلم، لأن سعة الرحمة مؤسسة على سعة العلم، وبهذا ترى

التقارب الشديد بين «ربنا» و«وسعت» ثم إن قوله جل شأنه ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أصله وسعت رحمتك كل شيء، ووسع علمك كل شيء، ولكن الإسناد صرف إلى مخاطبة الحق جل شأنه للدلالة على مزيد الإغراق في سعة الرحمة والعلم. قال الزمخشري: الأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجنا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، انتهى كلامه، وإنما قدمت الرحمة على العلم مع أن الرحمة مؤسسة على العلم وذلك لأن المقام مقام طلب المغفرة والرحمة، فكانت الرحمة أحق بالتقديم لأن المقام بشأنها أعنى. ومعنى أن علمه وسع كل شيء أنه لا شيء خارج عن علمه وأنه يعلم الجزئيات والكليات لا يخفى على الله شيء، ولو لم يكن العبد مُستيقنا من ذلك ما ذكر ربه في سره وعلايته، وما ذكر بقلبه، وما تهيبه من خطرات السوء تحاول أن تنعقد في قلبه، فشمول علم الله للظاهر والباطن هو أصل العبادة والرغبة والرهبة، ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠] ومعنى أن رحمته وسعت كل شيء أن كل ما في الوجود من ناطق وصامت وبر وفاجر، ومؤمن وكافر، كل ذلك مشمول برحمة الله، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦].

وقوله جل شأنه ﴿ فَأَعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾.

هذه الفاء لها موقع جليل جداً لأنها ترتب طلب المغفرة على سعة الرحمة والعلم، وأن من وسعت رحمته كل شيء هو أهل لأن تطلب منه المغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيله، وبذلك يصير قولهم ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مقدمة لدعائهم بالمغفرة للذين تابوا، وأن التقديم للدعاء بالتسبيح والحمد والذكر والتضرع هو سنة الصالحين والأنبياء والملائكة المقربين، وقالوا. إن إجابة الدعاء

تكون بمقدار صفاء نفس الداعى وقربه وثقته فى ربه ويقينه فى عطاء ربه، وأن هذا الذكر الذى يقدم به الدعاء إنما هو داخل فى تهيئة النفس وصفاتها واستحضارها المهابة والمخافة والرغبة والرهبة.

وقد لفظ الزمخشري ملحظًا دقيقًا جدًا على عادته فى التنبيه الشديد لدقائق مبانى البيان، هذا الملحظ هو أن الذى سبق الفاء ذكر الرحمة والعلم، والذى بعد الفاء يتصل بالرحمة وهو طلب المغفرة، وأن تعادل الكلام يقتضى أن يكون ما بعد الفاء متوازنًا مع ما قبلها، والجواب: أن طلب المغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيلك مؤسس على علمه سبحانه بتوبتهم واتباعهم، وقد تحرش ابن المنير بكلام الزمخشري فى الآية وأدخله سراديب الاعتزال، ومن أراد تحقيق ذلك فليراجعه هناك، وإنما اكتفينا هنا بما يتعلق بتعادل الكلام وتوازنه، وتقييد المغفرة هنا بالذين تابوا واتبعوا سبيلك يعنى أنهم لم يدخلوا فى دعائهم الذين لم يتوبوا، والآية قبلها تفيد أنهم يسغفرون للذين آمنوا من غير قيد التوبة، وأن الدخول فى الإيمان بالله ورسله يجعل هذا المؤمن ممن تستغفر لهم الملائكة ولو كانوا من أهل الكبائر وهذا ما عليه الجماعة، ولهذا قالوا: إن التوبة فى قوله تعالى ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ هى التوبة عن الشرك وليست التوبة عن الذنب، وأن السبيل الذى يتبعونه هو الإيمان بالله وملائكته ورسله وهو صراط الله المستقيم، ولو كان المراد باتباع السبيل هو اتباع أمر الله ونهيه لم يكونوا فى حاجة إلى استغفار حملة العرش. ولو كان المراد بالتوبة التوبة عن الذنب لم يكونوا فى حاجة إلى استغفار حملة العرش. لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد خالف المعتزلة فى كل ذلك مع أنهم يرون وجوب قبول التوبة على الله لأنه سبحانه أوجب على نفسه قبولها، وأهل السنة ومنهم الأشاعرة يرون أن قبول التوبة من فضله ومنه سبحانه، والمهم أن الذين تابوا واتبعوا سبيل الله هم الذين حصلوا أصل الإيمان، وأن دخولهم فى جماعة المؤمنين بالله ورسله هو الذى عطف حملة العرش نحوهم فاستغفروا الله لذنوبهم التى لم يتوبوا عنها، والكلام هنا راجع إلى ما قيل فى

قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ وأن المراد غافر الذنب الذي لم يتب مرتكبه منه بدليل ما بعده .

هذه خلاصة ما ذكره المفسرون، ويحسن أن نذكر هنا أنه لاشك في أن الإيمان يزيد وينقص، وأن العمل الصالح ومنه الذكر والاستغفار والتسبيح كل ذلك يزيده، وأن الغفلة والمعصية والكبيرة وإلّف ذلك كل هذا ينقصه، وأن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والحساب والجنة والنار وقر كل ذلك في قلبه واستيقنه وسكن فيه لا يقع في خطيئة كبيرة كانت أو صغيرة إلا بادر بالاستغفار والذكر، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكل هذا معلوم ومستفق عليه، وأن علماءنا حين قالوا: من قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولو مرة واحدة في عمره فهو ممن يستغفر لهم الملائكة وهو ممن يغفر الله له ذنبه من غير توبة، إنما يبيّنون ما دلت عليه الآيات ويؤكدون أنه لا حرج على فضل الله وأنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وإذا كان لا يجوز لأحد أن ييأس من رحمة الله لأنه سبحانه غافر الذنب، فإنه لا ينبغي لأحد أن يلهو عن ذنبه لأنه سبحانه شديد العقاب .

وقوله سبحانه ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ قوله ﴿ وَقِهِمْ ﴾ أمر من وقى يقى أى اجعل بينهم وبين عذاب الجحيم وقاية من مغفرتك ورحمتك، ومن أجل أن تحكم فهم كلمة عذاب الجحيم عليك أن تسترجع صور عذاب الجحيم، وحسبك أن تستحضر ﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَثَّىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وأن تستحضر ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَتَلَهُمْ مَّقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١]، وهذا الاستحضار يجيب عن سؤال في الآية: لماذا قالوا ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ مع أن هذا مفهوم من قولهم ﴿ فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ لأن المغفور له ناج من عذاب الجحيم؟، والجواب: هو التحويل من عذب الجحيم وأن الدعاء بالوقاية منه لا يكتفى فيه بالدلالة

المتضمنه لأنه أمر عظيم، فجاء النص عليه بالدعاء الصريح، ويكفى أن تذكر كلمة الجحيم وتوابعها وما يطوف حولها من صور، وأن هذا الذكر قَادِعٌ وراذِعٌ للنفس الطلعة مادام صاحب هذه النفس استيقن بما في القرآن من صور العذاب، قال الرازي: فإن قيل لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله فاغفر لهم وبين قوله وقهم عذاب الجحيم، قلنا: دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لأجل التأكيد والمبالغة، انتهى كلامه رحمه الله.

قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إعادة نداء ربهم وما في معناه من التشفع بفضله ومنه القديم لما يرجونه من عطاء جديد، إشعار بأن المعنى انتقل إلى معنى جديد، والواو في قوله ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ عطف لما بعدها على قوله ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ وإذا كانت الفاء في قوله ﴿فَاغْفِرْ﴾ رتبت الدعاء بالمغفرة على ذكر سعة الرحمة والعلم، فإن الواو في قوله ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أفادت الجمع بين مغفرة الذنب ومحض التفضل والعطاء بالخلود في النعيم، وكان حملة العرش والحافين حولهم يعلموننا شيئاً عظيماً جداً هو أن رب العرش لا حدود لرحمته وعطائه، فلم يكتف عبده العارف به بدعائه بمغفرة الذنب من غير توبة، ولم يكتف بوقايته من عذاب الجحيم وإنما يطمعه كرم ربه في طلب جنات عدن، وليس له وحده وإنما له ولأبيه وإن علا ولفرعه وإن بعد، وهذا هو الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، ولا يهلك عليه إلا هالك.

وراجع ترتيب المعاني لتقوم في نفسك هياةً للسورة تختلف بها عن غيرها كما يختلف رجل عن رجل وفرس عن فرس وقد بدأ الحديث عن حملة

العرش بأنهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، وهذان خاصان بذكرهم لربهم ثم هما مقدمة لطلب المغفرة كما هي سنة الأنبياء والصالحين، ثم تراهم يخرجون من دائرة نفوسهم إلى الاشتغال بمن هم شركاء لهم فى الإيمان بربهم، وكان الملائكة لتعظيمهم الإيمان بربهم يدعون ربهم لكل من شاركهم فى هذا الإيمان العظيم، ثم يأتى التفصيل فى آية ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وتجد جملة ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قريبة جداً من جملة ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لأن كلا جاء مقدمة لطلب المغفرة، ثم تجد تقديم ﴿تَابُوا﴾ من الشرك على جملة ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ على أن التائب من الشرك لا محالة متبع لسبيل ربه، ليدل هذا الترتيب وهذا الذكر على أن اتباع السبيل من دين الله بمكان، وأن من تاب عن الشرك يجب أن يكون متبعاً لا مبتدعاً، وأن التوبة عن الشرك هى فى جوهرها اتباع لان الدين اتباع والإيمان يفضى إلى الانقياد والانقياد هو الاتباع، ثم يأتى قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وهو نتيجة يفضى إليها الإيمان والاتباع، وبهذا يتم ما يمكن أن نسميه التخلية لتبدأ الآية التى هى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بما يمكن أن نسميه التحلية، وأول ما يقال فيها: أن كل من وقاه الله عذاب الجحيم فهو فى جنات عدن لأن الله سبحانه الذى من بالمغفرة والوقاية من الجحيم هو سبحانه يمنُّ بالجنة والرضوان فما وجه هذا المطلب، والجواب من وجوه، أولها: أنه للإشارة إلى أن النعمة فى أن يدخلهم ربهم جنات عدن نعمة عظيمة تستحق أن يُنص عليها ولا تترك لتفهم بطريق اللزوم كما قيل فى ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

والثانى: أن حملة العرش الذين يجب أن نحبهم كما أحبونا وأن نحبهم فى الله كما أحبونا فيه يريدون بهذا الدعاء إظهار حبهم للمؤمنين والدلالة على تقربهم إليهم بهذا الدعاء العظيم، وإظهار العِبْطَةِ بما منَّ الله عليهم من نعمه.

والثالث: أن المقصود به ما بعده وهم ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ وكأنهم طلبوا لهم دخول الجنة مرتين مرة في قولهم وقهم عذاب الجحيم ومرة وهم في صحبة آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وكل هذا من تكريم حملة العرش ومن حولهم لمن آمن بالذي آمنوا به .

ومعنى ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ من آمن فالصلاح هو الإيمان بدليل قوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] يعني وما أنقصناهم وإنما هو محض فضل، وفيه معنى إن الإيمان ومعرفة الحق صلاح للنفوس والعقول، والكفر فساد فيها، وراجع الترتيب تجد الآباء أولاً لأنهم الأصل والآباء يعنى الآباء والأمهات، وإنما ذكر بلفظ المذكر للتغليب، ويقال الأبوين للأب والأم وحقهم أوجب وهم أول من يكرمهم الحق بكرامة آبائهم، ثم إن المراد الأب والأم والشاملين للجد والجدة ومن قبلهما، والمطلوب فقط أن يتوفر الإيمان، ثم قُدِّمَت الأزواج على الذرية، لأن الذرية لا تكون إلا بهن، والمراد الذرية وإن بعدت مادام توفر شرط الإيمان .

وقوله جل شأنه ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أول ما يتبادر من هذه الفاصلة هو كثرة التوكيدات وأولها إن التي هي أم الباب، ثم توكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل . ثم تعريف الخبر بالألف واللام، وكل هذا دال على وفرة الرغبة من الداعين المقربين في أن يجاب دعاؤهم ووراءه ما وراءه من تكريمهم لأهل الإيمان، وإن الإيمان عند هؤلاء الحملة بمكان، ثم لماذا جاءت الفاصلة بالعزیز الحكيم وقد فتحوا دعاءهم بقولهم ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا ﴾ وهذا يقتضى في الظاهر أن تكون الفاصلة بين معنى الرحمة والعلم، والذي قرأته في الكتب التي بين يدي هو تفسير مفردات الفاصلة، وأن العزيز هو الغالب الذي لا يغالب، والحكيم هو الصادر كل فعل له عن حكمة جل شأنه .

ولم أجد لذلك وجهًا إلا وجهًا واحدًا وهو أن عزتك واقتدارك وحكمتك كل ذلك يغرى الضارعين إليك أن يكون الفريق الذي آمن بآياتك واتبع سبيلك. ودعوته فأجاب، وأسمعته فأطاع، آمننا من عذاب الجحيم وقِيَّتْ أنت بنفسك (وقهم) وأدخلته أنت بنفسك جنات عدن هم ومن صلح من آبائهم وهم عبيدك، وبعزك عَزَّوْا، وبحكمتك، استناروا واهتدوا وبفضلك أكرمتهم، والخلاصة أنهم عزوا بعزك واهتدوا بحكمتك، وكلمة العزيز فى الفاصلة راجعة إلى العزيز فى قوله تعالى ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢] وأن العزيز الذى أنزل الكتاب هو المنعم بالمن والفضل على من آمن بالكتاب، وإنما جاء الحكيم هنا للإشارة إلى أن المغفرة الواسعة الشاملة لمن آمن إنما تكون بحكمة الحكيم الذى يفتح باب مغفرته وباب رحمته، للمُقْتَرِفِينَ ذنوبًا غير الكفر حتى لا يياس أحد من رحمته وحتى يطمئن كل من شرد إلى أن باب الأوبة إلى الله مفتوح أبدًا، لأن اليأس يُدْمِرُ وتمتلئُ به الأرض فسادًا ويشقى به العباد من بر ومن فجر، ثم إن فى هذه الفاصلة إشارة إلى خلقه وتعليم لهم بأن العزة والغلبة يجب أن تكون مكفوفة بالحكمة وحسن التقدير، وأن من شأن العزيز من الناس أن يغفر وأن يكرم، وكلمة العزيز جاءت فى الكتاب فى وصف نبي الله يوسف لما قال له أخوته ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ ﴾ [يوسف: ٨٨]، وكانوا قد اقترفوا معه شر ما يقترفه الإنسان فى حق الإنسان. فما كان منه إلا أن قال ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وَتَخَلَّقَ الْعَزِيزُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ فَعْفَى وَدَعَا لَهُم بِالْمَغْفِرَةِ، وهذا يؤكد وجه الفهم الذى قلناه فى موقع هذه الفاصلة.

وقد ذكر الشيخ الطاهر أن حرف التوكيد (إن) بمعنى اللام التى تفيد التعليل، وكانهم قالوا اغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وأدخلهم جنات عدن لأنك أنت العزيز الحكيم.

وهذا فهم جيد وكان الشأن في العزيز الحكيم أن يغفر وأن يمن بالوقاية من النار، ثم يَمُنُّ بالنَّعِيمِ المقيم في الجنة على من آمن، يَنْعَمُ بذلك من آمن ومعه من أحب من آبائه وذريته ليكون أكثر غبطة وهو في صحبتهم، وإذا راجعنا هذا الشطر من الدعاء وهو ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ سنجد أن هؤلاء الصالحين من الآباء والذرية داخلون في أصل دعاء الملائكة من حيث هم من المؤمنين، فهم من الذين آمنوا واتبعوا سبيل ربهم، وعلى هذا يكون ذكرهم في هذا الشطر من الدعاء المقصود به الصحبة، وأن من آمنوا يَمُنُّ عليهم ربهم بالمغفرة والوقاية من عذاب الجحيم ودخولهم جنات عدن، كما يمن عليهم برفقة من آمن من أصولهم وفروعهم، فجدك الأعلى الذي لم تره تكون في صحبته في هذا النعيم، وحفيدك الأدنى الذي لن تراه يكون في صحبتك في هذا النعيم، وهكذا تلتقى الأصول والفروع وهذا من آخر وعطاء آخر عطاء غير مجذوذ. وقوله جل شأنه ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

هذا آخر دعاء حملة العرش ومن حولهم للذين آمنوا بتزليل العزيز العليم. وهو شامل لكل ما دعوا به وزائد عليه، لأن السيئة بمعنى كل ما يسوء في الدنيا والآخرة أشمل من عذاب الجحيم، وإن كان عذاب الجحيم أبشعها وأسوأها، ثم هو أيضاً أشمل من دخول جنات عدن، لأن دخول جنات عدن وإن كان يُبْعَدُ مَنْ دَخَلَ عَنْ كُلِّ سَيِّئَةٍ إِلَّا أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَأَهْوَالِ الْمَوْقِفِ وَالْحِسَابِ إِلَى آخِرِهِ، وقولهم ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ دعاء بأن يجعل الله لهم وقاية تقيهم من كل ما يسوؤهم من أهوال الآخرة ابتداء بهول الموت، ثم هول القبر، ثم هول البعث عند الصيحة، ثم هول يوم التلاق، ثم هول الموقف، ثم هول الصراط، إلى آخر هذه الأهوال التي كتبها الله على بني آدم. ثم قِهِمُ فِي الدُّنْيَا السَّيِّئَاتِ يَعْنِي كُلَّ مَا يَسُوؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا سِوَا مَا كَانَ فِي صِحَّتِهِمْ أَوْ فِي أَوْلَادِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ تَسْلِيطِ حُكَّامِ السُّوءِ عَلَيْهِمْ، ويدخل

فيه وقايتهم من السيئة التى هى الذنب، فيصرفهم عن كل ما يوجب غضبه سبحانه، وهكذا نجد هذا الدعاء الأخير جامعاً وكأنهم فى هذه الجملة الأخيرة يُعمِّون هذا التعميم إيداناً بالنهاية، ويخرجون من نفوسهم آخر صيحة حب للذين آمنوا.

وكل أهوال القيامة التى كتبها الله على بنى آدم وليس لهم منها مفر لا يجد من آمن منها شيئاً، ولا يجد الصالحون بمعنى المؤمنين منها شيئاً، وإنما يأتون كل هذه الأهوال وهم آمنون لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون- لا يحزنهم الفزع الأكبر، ويأتون آمنين يوم القيامة وتتلقاهم الملائكة، أما وقاية السيئات فى الدنيا فلم أفهم منها أن المؤمنين الصالحين لا يبتلون فى أنفسهم وأهليهم، وإنما أفهم منها أن وقاية الله لهم من السيئات لها معنى آخر وهى أن يكون المؤمن محتسباً دائماً وصابراً وراضياً حتى أنه ليغتبط أحياناً بما يصيبه لأنه معتقد أن البلايا عطاء وأن المصيبات بعض النعم، ولذلك ترى الرجل الصالح فقيراً أعمى مريضاً مقطوع اليد أو الرجل وعاجزاً عن الكسب، وهو فى غاية الرضى ولسانه لا يفتر عن شكره لربه، وهذا فى معمعان ما يسوء ولكنه رزق شيئاً فى نفسه أذهب عنه هذا المعمان الذى هو فيه وصار مغتبطاً بما هو فيه، وقد رأينا هذا الصنف بعيوننا وهم من الذين وقاهم الله السيئات، وقوله جل شأنه ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ ظاهر هذه الجملة أنها انتقال من الخصوص إلى العموم على طريقة قول الشاعر:

وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيذا تقيدا

والآية وإن جاءت على هذه الصورة إلا أنها فى المعنى ليس فيها انتقال، لأن قوله ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ ليس فيه شخص واحد زائد عن وقهم السيئات لأن هذا دعاء لكل من آمن، ولا يقى الله السيئات غير المؤمنين وإنما هو تأكيد للمعنى الأول على وجه يوهم اشتماله لكل من كان على شاكلتهم، وليس

هناك من هو على شاكلتهم إلا هم، وتأمل جواب الشرط ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ وكيف أكد بقد وبمجيء الفعل في صورة الماضي المؤذن بتحقيق الوقوع، ثم كيف تعود بك كلمة رحمته إلى مفتتح دعائهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، وتؤذن بطرف خفى إلى انتهاء الكلام ورجوع عجزه إلى صدره والقييد الذى فى قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ليس قيذا لقوله ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾، لأن وقاية السيئات تشمل يومئذ وما قبل يومئذ لأنها شاملة لوقاية السيئات فى الدنيا على حد ما بينا، ولأنها أيضاً وهو أهم يدخل فيها صرف العبد عن أن يتعدى حدود الله وصرفه عن أن يقع فى محارم الله، ووقاية المؤمن من الوقوع فى حرمان الله أهم ألف مرة من وقايته فى صحته وماله وولده، وهذا يجعل قيد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ غير مستوعب للفعل لأن وقاية السيئات عامة فى الزمن كله وليست مُقَيِّدَةً بيومئذ، ويمكن أن يكون المعنى ومن وقيته السيئات فى الدنيا فقد وقيته السيئات يومئذ، لأن السيئات يومئذ هى نتيجة وثمره سيئات الدنيا، ويسعد أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من جملة جواب الشرط، والمعنى ومن تق السيئات فقد رحمته يومئذ لأن تقييد رحمته بهذا اليوم غير ظاهر، لأن وقاية السيئات فى الدنيا من الرحمة.

وقوله سبحانه: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فاصلة متميزة جداً وأول ما يميزها اسم الإشارة الذى للبعيد والمنبئ عن علو ورفعة هذا الفوز، ثم المجيء بضمير الفصل المفيد مع تعريف الخبر، قصر الفوز العظيم على ذلك الراجع لوقاية السيئات لأنه لا فوز فوق هذا الفوز، وهذه الفاصلة ممسكة بكلام حملة العرش ليس ابتداء من قولهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وإنما ابتداء من إخبار الحق عنهم بأنهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا إلى آخر الآيات؛ لأن التسييح بحمد الله والإيمان به وذكر الذين آمنوا من غير جنس الملائكة والدعاء لهم كل ذلك حقيقة واحدة قدم فيها ما قدم ليمهد فيها لما بعده ويهين نفس الداعى للضراعة لأن إجابة الدعاء تكون بمقدار ما فى النفس من صفاء ورجاء، هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿

من المفيد جداً أن نستكشف علاقات الآيات المكونة لجزء من أجزاء المعنى في السورة بالفصول التي سبقتها، ومن الواضح أن السورة بعد بيان أن حم تنزيل العزيز العليم ذكرت المجادلين في آيات الله وهم أهل الكفر وما استتبع ذلك، ثم كان من تمام هذا المعنى أن يذكر الوجه المقابل له وهم الذين آمنوا واتبعوا سبيل الله وما استتبعه ذكرهم من معانٍ وتكريم حملة العرش لهم بالدعاء على ما مر .

ثم جاء هذا الفصل أو هذا الجزء من المعنى ليكشف صورة سريعة من أحوال المجادلين في الآخرة، وهي صورة فيها حوار منسوب على أن ما هم فيه من حذاب ومقت سببه هو أنهم دعوا إلى الإيمان بما أنزل الله فأشركوا، يعنى أن هذه الصورة من صور الجحيم مصبوغة بمعنى ما قبلها وداخله في حيزه، وحسبها اعترافهم فيها بذنوبهم التي هي المجادلة في آيات الله، وراجع علاقة هذه الآيات بقوله تعالى آخر الآيات السابقة ﴿وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وكان هذه الآيات هي الوجه المقابل لمن رحمه الله يومئذ ووقاه السيئات وفاز الفوز العظيم، وهذا ظاهر في قوة الربط حتى إنك لتجد الآية التي ختم بها الفصل السابق كأنها ممهدة لهذا الفصل. لأن المعانى والأحوال في هذا الشأن تستدعى أضدادها، وكأنها حوار بين متناقضات. ثم تلاحظ علاقة بين قوله سبحانه هنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ ونداء حملة العرش ودعائهم رب العرش ليغفر للذين آمنوا، هناك نداء من خاصة الملائكة وهم الحملة

والخافون بالمغفرة والرحمة، وهنا نداء من عامة الملائكة بالملت وشدة الغضب، ثم تجمد رابطة ظاهرة بين إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون والذين آمنوا واتبعوا سييلك، ثم تجمد رابطة ظاهرة بين ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقوله سبحانه هناك ﴿وَقِهِم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

والعناية بهذه الروابط الجزئية هي في الحقيقة دراسة لنسيج السورة، وكشف عن جوهر وحدتها الذي يكسبها حياة وسمتا، وما أعظم أن تصل إلى الهيئة والسمت وما أصعبه.

وأول ما يبدأ في هذه الآيات هو التوكيد المشعر بشدة العناية بالمعنى المؤكد، ثم إن مجيء اسم إن اسما موصولاً هو ذاته فاعل يجادل في آيات الله في أول السورة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أقول: إن دخول أداة التوكيد على هذا الموصول المستدعى نظيره في أول السورة مشعر بنوع الخبر الذي هو ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم، وبناء فعل ينادون للمجهول للإشارة إلى أن العناية هنا منصبه على وقوع النداء عليهم من غير نظر إلى من وقع منه النداء، واللام في قوله ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ لام الابتداء لأنها داخلة على المبتدأ وتفيد التوكيد المضموم إلى التوكيد الذي بدأت به الجملة، وهذا كله دال على شدة الغضب والمقت، وتلاحظ أن جوهر المعنى هو لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم، ومعنى مقتهم أنفسهم قالوا: يجوز أن يكون المراد مقت كل واحد منهم نفسه، أو أن يكون المراد مقت بعضهم لبعض، وإنما كان المقت على تفويت فرصة الإيمان واتباع السبيل الذي نجا به أصحاب الفوز العظيم.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ قالوا: هو مؤخر عن تقديم، وأصل الكلام لمقت الله إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون في الدنيا أكبر من مقتكم أنفسكم في الآخرة، لما رأيتم الآيات الملجئة التي لا ينفع الإيمان بعدها

والبناء للمجهول فى تدعون كالبنا للمجهول فى ينادون، وذكر الفاعل لا يتعلق به الغرض والذى دعاهم إلى الإيمان هم رسل الله إليهم، وكان ذلك فى دار التكليف وانتهى وقته.

والفاء فى قوله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فاء جيدة جداً فى موقعها لأن العقل يقتضى من يدعو رجلاً من قومه يدعى أنه رسول الله أن يتمهل وينظر فى الأدلة وألا يسارع بالرد، ولكنكم لم تفعلوا ذلك، وإنما ما إن دعيتم حتى بادرتم بالكفر، وهذه المبادرة بالكفر هى علة المقت وشدة غضب الله عليهم، وأفهم من هذا المعنى الإلهى أن المبادرة بنفسى الأدلة فى أى باب من أبواب العلم ليس هو طريق أهل العلم، وإنما لابد من الروية والأناة والمراجعة قبل البت فى المسألة بالقبول أو الرفض. وأن الذى أهلك الأمم وجلب عليها مقت ربها هو المبادرة برفض الدليل. أو قل هو ترك النظر والاستدلال وإقصاء العقل واتباع الهوى، والمقت معناه أشد البغض وأشد الغضب، والمراد أشد العذاب، وقد ذكرت كلمة المقت فى القرآن فى ستة مواضع موضعان فى هذه الآية: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، وموضع ثالث فى السورة نفسها فى قوله تعالى: ﴿اللَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ والكلمة فى هذه المواضع الثلاثة مرتبطة بالجدال فى آيات الله، وجاءت فى موضع رابع فى غير السورة مرتبطة أيضاً بكفر الكافرين وذلك فى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ [فاطر: ٣٩]، وجاءت فى النهى عن نكاح ما نكح أبائكم وقال سبحانه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وكل هذا يؤكد حقيقة المعنى والغضب الجارى فى هذه الكلمة وأنها مُشبعة بغضب الله.

ثم إن نداءهم بهذه الجملة ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يفيد أن هناك كلاماً محذوقاً سكتت عنه الآية، وأنهم نودوا لما كان منهم هذا المحذوف وهو مدلول عليه دلالة إجمالية بقوله: ﴿مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وكأنهم كانوا

يتلاومون ويُحمَلُ بعضهم بعضًا مسؤولية ما هم فيه أو يلومون أنفسهم فتودوا، وقيل لهم مقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم. وكلمة إذ في قوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تفيد التعليل والسببية، وأنهم لما قيل لهم إن مقت الله كان بسبب رفضكم الدعوة إلى الإيمان وإصراركم على الكفر، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ هذه هي الجملة التي نطقوا بها في الآية لما سمعوا ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِّنْ مَّقْتِكُمْ﴾، واستيقنوا أن مقت الله كان بسبب أنهم دعوا إلى الإيمان فكفروا، ولذلك بدأت جملتهم بالاعتراف بالدليل والبرهان، وهو أن الله هو الذى أماتهم وأحياهم وأنه المعبود بالحق، ولكنهم قالوا ذلك فى وقت لم ينفع نفساً إيمانها، وقد اختلف العلماء فى تفسير الإماتتين والإحيائين وشمل الخلاف حياة البرزخ.

قال المنكرون للحياة فى البرزخ: الإماتتان واحدة قبل نفخ الروح فى الجنين والثانية عند الموت فى الدنيا ويستمر الموت فى القبر إلى البعث ولا حياة فى القبر، والحياتان واحدة عند نفخ الروح فى الجنين والثانية عند البعث ولا حياة بينهما.

وقال المبتون للحياة فى البرزخ: إن الذى كان عليه الناس قبل نفخ الروح فى الجنين هو موت وليس إماتة كما جاء فى قوله سبحانه: ﴿وَكُنْتُمْ أَمَواتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والإماتة تعنى أن يكون حياً فيميتة الله، وهذا لا يتأتى إلا عند الموت فى الدنيا ثم الموت بعد حياة البرزخ عندما ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض، وقد أطل المفسرون الكلام فى هذا، ثم إن بعضهم ذهب إلى أن هذا كلام الكافرين ولا يستشهد به ونوقش هذا القول.

والفاء التى فى قوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ تفيد ترتيب الاعتراف على رؤية الآية الملجئة لما كشف الغطاء، يعنى أننا رأينا ما لا سبيل إلى إنكاره ولا سبيل إلى الجدل فيه واستيقنا أن الجدل فيه كان ذنباً نعرف الآن به.

وقوله سبحانه: ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ هذه الجملة هي مطلبهم الذى قدموا له بقولهم. ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ إلى آخره، وفى هذه الجملة دقائق فى ميناها وأولها تقديم الجار والمجرور الواقع خبراً، وإنما قدموه لأنه هو الذى هم بشأنه أعنى، وأصل الكلام هل سبيل إلى خروج وفيه زيادة من الداخلة على المبتدأ النكرة وذلك للدلالة على الاستقصاء، يعنى هل من سبيل أى سبيل إلى خروج، وفيه الاستفهام الدال على اليأس والحيرة، قال ابن المنير. وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وقد جاءت أخت هذه الجملة فى سورة الشورى فى مثل مقامها وذلك فى قوله سبحانه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا العَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مَرَدٌ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وقد جاءت كلمة مرد فى الشورى لأن الظالمين قالوها لما رأوا العذاب، وجاء الخروج فى غافر لأن الكافرين قالوها بعدما ذاقوا العذاب فطلبوا الخروج منه، والكافرون هم الظالمون، وفى الشورى تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى. وفى غافر ينادون وهم فى النار يمقت بعضهم بعضاً فناسبت كل كلمة سياقها، وقوله جل شأنه ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾.

لم تلتفت الآيات إلى قولهم ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وضربت عنه صحفاً واتجهت إلى بيان العلة وهى علة ثابتة لا يستطيعون الآن التخلّى عنها، وهى الموجبة للعذاب، ومادمت لا تستطيعون دفعها كذلك لا يستطيعون الخروج من العذاب.

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ عائد إلى ما هم فيه من العذاب كما قال الزمخشري وقوله ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ معناه أنكم خالفتهم صريح العقل وأسستم اعتقادكم على أصل فاسد وهو الكفر بالواحدية والإيمان بالشرك، وهذا مناقض لبديهة العقل لأن الله

الذى يُعَبَّدُ بحق لا بد أن يكون موصوفًا بالكمالات المطلقة، فهو القادر الذى لا تُرَاحِمُ قدرته فى الكون قدرة، وهو المالك الذى لا يخرج عن ملكه شىء، وهو المرید الذى لا ترد إرادته، وهو المدبِّر الذى لا يرد تدبيره، ولا يتصور أن يكون فى الكون إلهان موصوفان بهذه الكمالات، لا يتصور أن يكون هنا إلهان كل منهما يملك ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما، وكل منهما يحيى ويميت، وكل منهما السموات مطويات يمينه، وكل منهما يقول للشىء كن فيكون، وكل منهما خلق السموات والأرض وما بينهما، وكل منهما يُسَخِّرُ الشمس والقمر كل فى فلك يسبحون، وكل منهما يُغشى الليل النهار يَطْلُبُهُ حثيثًا، وكل منهما يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل.

لقد اخترتم الشرك وهو فساد فى العقل والمنطق، ورفضتم التوحيد الذى تقوم البراهين كلها على تثبيته.

كان يمكن أن يقال ذلكم بأنكم كفرتم بآيات ربكم أو كفرتم بما جاءكم به رسلكم ولكن الآية جاءت على ما جاءت عليه للتشهير بفساد اعتقادهم، وللتشهير بالأصل الذى أسسوا عليه اختيارهم.

ولاحظ موقع «إذا وإن» فى الآية وأن الأصل هو أن يدعى الله وحده سبحانه لا ينازعه فى ملكه منازع، ولو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا، لأن هذا الوجود لا يملكه إلا واحد، وجاءت إن فى حالات الشذوذ العقلى والعقائدى وهى الشرك، والشرك غباء وبلاء ومحنة سقط فيها الناس منذ زمن نوح عليه السلام، وقالوا لا تدرن آلهتكم بعد ما دعاهم إلى ربهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وبنو إسرائيل خرجوا من الطريق اليسب الذى رأوه فى البحر ومشوا فيه ورأوا موسى عليه السلام وهو يضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ثم رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ليست الهداية لازمة لمعرفة الحق لأن

الإنسان قد يرى الحق رؤيا العين ويختار الباطل ويعبدون من دونه سبحانه ما ليس بشيء، وجاء الفعل مبنياً للمجهول في الجملتين لأن الغرض هو دعوة الله وحده من غير نظر إلى معرفة الداعي. وكذلك الشرك بالله وحده من غير نظر إلى معرفة الذى أشرك، وجاء المضارع مع إذا فى صيغة الماضى لأن دعوة الله وحده هى الحق. ومادام كذلك فالذى سيقع من هذه الدعوة كالواقع بخلاف الشرك، ولاحظ أيضاً المقابلة بين الجملتين وأن كفرهم مرتب على الوجدانية، إذا دعى الله وحده كفرتم، وإيمانهم مرتب على الشرك وإن يشرك به تؤمنون، ثم لاحظ الإشارة إلى المسارعة إلى الكفر وذلك بالتعبير عن المضارع بالماضى فى قوله كفرتم يعنى سارعتم إلى الكفر، وصار ما لم يقع منكم كأنه وقع لأنه بالقطع سيقع.

وقوله جل شأنه: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ هذه الفاصلة واقعة موقفاً سديداً جداً، والآية من أول قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾. تهين لقولهم. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وهذه الفاصلة ردّ حاسم على هذا المطلب وإن كان هذا الرد لم يكن رداً مباشراً على مطلبهم، وإنما تأسس على بيان العلة التى لها صاروا إلى ما صاروا إليه، ولاحظ الربط بين ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ وبين ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾، ثم هذه الفاصلة التى بَتَّتْ الحكم وأنه قاطع ولا رجعة فيه، لأنه حكم من لا ينازع حكمه حكم غيره، والعلی هو الذى يعلو كل شيء ولا يعلوه شيء، والكبير الذى هو أكبر من كل شيء، وليس أكبر منه شيء، وهذا هو التفرد والوجدانية التى إذا دُعِيتُمْ لها كفرتم، والفاء فى قوله فالحكم لله العلى الكبير، فيها دقة وخفاء لأنها رَتَّبَتْ ما بعدها وهو الحكم لله العلى الكبير على مضمون الآية، وهذا المضمون ملخص كله فى الجملتين الشرطيتين قبلها ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ والحكم حكم من إذا دعى وحده

كفرتهم به، فلا تلوّموا إلا أنفسكم حين آتتم بمن لا حكم له، وكفرتهم بمن لا يكون الحكم إلا له، وفي اختيار كلمتي العلي الكبير دلالة ظاهرة على أن الكون لا يملكه إلا على واحد يعلو ولا يُعلا عليه، وكبير واحد يقضى ولا يقضى عليه، وكل هذا بيان من طرف خفى إلى فساد اختياركم.

وهذه الفاصلة البالغة السداد والمسكة بما قبلها فتحت الباب للآيات بعدها التي تتجلى فيها الوحدانية بآياتها البيّنات ويتجلى فيها رفيع الدرجات ذو العرش، ويتجلى فيها القضاء بالحق، وأن من توهموهم شركاء لله وآمنوا بشركهم لله لا يقضون بشيء وهي آيات كلها صادرة عن عز الربوبية وتفرد الألوهية، وبراهينها أنور، وأدلتها أقطع وهي من الآيات التي أحب أن أكررها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبٍ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿غافر. ١٣ - ٢٠﴾.

قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبٍ﴾، الضمير في قوله ﴿هُوَ﴾ راجع إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ وهذه الآيات المفتحة بهذا الضمير امتداد للكلام السابق وتفصيل لإجمال الفاصلة التي ختم بها الكلام السابق، وهي مع هذا الامتداد انتقلت إلى بيان تجليات العلي الكبير الذي إن يشرك به تؤمنون وإذا دعى وحده كفرتهم.

وراجع الجمل الثلاثة الواقعة صلة الموصول يعنى التى دخلت فى الاسم الموصول المفرد الواقع خبراً، وهى جمل واسعة الدلالة جداً يقوم بها وحدها الإعجاز وتصلح وحدها حجة للنبي ﷺ وهى ﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، ومعناها يجعل آياته لكم بحيث ترونها فهى فى مطارح أبصاركم وحواسكم لا يقع بصرك على شىء فى الوجود إلا وهو آية من آيات الله، فالشمس آية والقمر آية والضياء آية والعين التى ترى بها الأشياء آية، والأذن التى تسمع بها آية، والرياح آية، والجسم الذى يحس بالرياح آية، وهكذا، وكلمة يريكم تعنى يجعلكم ترونها، فليس المعنى أنها فى مطارح حواسكم فحسب وإنما أيضاً خلق القدرة فيكم التى ترونها بها، ومجىء هذه الجملة فى أعقاب الذين إذا دعى الله وحده كفروا وأن يشرك به يؤمنوا، فيها رحمة جليلة لأنها نقلت الحديث من يأس الذين فى النار ينادون لَقْتُ الله أكبر من مقتكم ويقولون هل إلى خروج من سبيل. وهذه صورة تملأ القلب بالخوف والإشفاق، فجاءت آية يريكم آياته لياخذ بأيديكم من المهلكة التى فيها من يقولون هل إلى خروج من سبيل إلى جنات عدن ومعهم من صلح من آبائهم، وذَكَرَ ﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بعد هاتين الصورتين سو الأخذ الرفيق بيد عباده بعيداً عن النار، وتأمل هذا لأن كلامى فيه شديد الاختصار، وقوله جل شأنه ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ هو من ذكر الخاص بعد العام لأن إنزال المطر من آيات الله، وإنما خص من آياته الكثيرة هذه الآية لقوة صلتها بحياة الناس الذين يتعهدهم ربهم ببيان الحق ورؤية الآيات حتى لا يهلكوا، وإذا كانت رؤية الآيات من الذى تقوى به الأرواح فإن إنزال الرزق من السماء مما تعيش به الأجسام، وكأنه سبحانه يتعهد قلوبنا بما تحيا به ويتعهد أجسامنا بما تحيا به، ونحن نقول فى البلاغة: إن الرزق هنا مجاز مرسل والمراد به المطر وهو من إطلاق المسبب على السبب، وهذا جيد ونقوله فى تحليل الشعر وغير الشعر وهو مثل قولهم: «أُسْمَةُ الأَبالِ فى سحابه» أو مثل قول الناس أمطرت السماء نباتاً، وتبقى فى

الآية حقيقة إلهية لم نُنَبِّه إليها وهي أن الأمر الإلهي ليس فى التعبير عن المطر بالرزق وإنما فى القدرة القاهرة الباهرة التى تحول المطر إلى رزق، وقبلها القدرة فى إنشاء السحاب ثم فى سوق السحاب، ثم فى نزول المطر، ثم فى أن تحيا الأرض به، ثم فى أن تثبت نباتها وتخرج به مرعاها، ثم فى أن يأكل الحيوان والإنسان، ثم فى كل ذلك وفى غير ذلك، ولو لم يُقَدَّر فى الأرض أقواتها لما أخرجت بالمطر مرعاها، وهذه هى الآية، والمضارع فى قوله جل شأنه يريكم وينزل للإشارة إلى أن هذا يتجدد ويحيط بنا ويلفنا فإذا لم نسبح بحمده طوعاً سبحنا بحمده كرهاً، لأننا شئء من الأشياء التى قال فيها ربنا ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ وأول ما يلفت فى هذه الجملة أنها الجملة الثانية التى جاءت بطريق النفي والاستثناء بعد الجملة الأولى. والثى هى ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمنفيان متقابلان ويتولد أحدهما من الآخر، فإذا كان لا يجادل إلا من كفر فإنه لا يتذكر إلا من ينيب ولذلك نجد هذه الجملة المذكورة فى سياق يريكم آياته ترجع رجوعاً ما إلى جذر السورة وهو المجادلة فى آيات الله التى لا تكون إلا من كفر.

وفى هذه الجملة معنى آخر وهو أن رؤية الآيات المحيطة بنا ليست كافية فى الهداية، وإنما تكون الهداية ممن يرى ويراجع ويتدبر، ومعنى ينيب يرجع ومن معانيها أن أرجع بكل شىء إلى أصله وأعود بالفرع إلى الأصل وبالمسبب إلى السبب وأن أبحث فى كل شىء أراه عن حقيقة لا أراها، وأن تكون بصيرتى وراء بصرى. فإذا رأيت السماء رجعت إلى من بناها، وإذا رأيت الأرض رجعت إلى من دحاها، وإذا رأيت الطير فى جو السماء رجعت إلى من يمسكه، وهكذا حتى سمعى وبصرى وأنفاسى أنا فى كل ذلك أرجع إلى من أنشأه.

وهذا سلوك فكري في غاية الاستقامة لو طبقه كل منا على ما يزاوله من عمل لفتح له في عمله المحدود أبواباً غير محدودة.

وراجع الجمل الثلاثة المكونة لصلة الموصول: نجد الأولى يريكم آياته بهذا العموم وهذا الشمول، ثم ينزل لكم من السماء رزقاً وهذه آية من آياته، ثم إن هذه الآيات لها طريق واحد للانتفاع بها ولا يتذكرها ويذكرها ويستحضرها إلا من ينب، وهذه الجمل الثلاثة تحيط بحقيقة عظيمة إحاطة كاملة من بداية رؤيتها إلى نهاية نتائجها والانتفاع بها، وراجع أنت بنفسك دقة الترتيب.

وقوله سبحانه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ هذه الفاء لها مقام رفيع في الفصاحة والعقيدة معاً لأنها رتبت الأمر بالدعاء على الجمل الثلاثة الواقعة صلة الموصول، فالذى أراه الله آياته فرأها ورأى من آياته ما يجرى في الأشياء التي يتحول بها المطر رزقاً، وفكر في ذلك وراجع وأتاب ونظر واستدل واستخرج واستيقن فليتجه بلا إبطاء إلى ربه مخلصاً له الدين.

وكلمة الدعاء تأتي بمعنى طلب الحاجة وبمعنى العبادة، والحقيقة أن طلب الحاجة من الله عبادة، لأن الحاجة لا تطلب إلا من المعبود بحق، ولأن مدَّ اليد إلى الله في طلب الحاجة ضراعة لله وهي أفضل العبادة ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] ومن وجد مذاق مد اليد إلى الله لا يستطيع أن يمد يده لغيره سبحانه، فالدعاء عبادة والعبادة دعاء بمعنى طلب الحاجة، لأن العبد إذا شغله ذكر ربه عن طلب حاجته من ربه أعطاه الله حاجته لأنه أعلم به وبحاجاته، وأعطاه ربه فوق حاجته، وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كلمة مخلصين حال من واو الجماعة يعنى ادعوه حال الإخلاص. لأن حالة الإخلاص هذه هي حالة قبول الدعاء الذي هو طلب الحاجة، وحالة قبول الدعاء الذي هو العبادة، وبمقدار الإخلاص يكون القبول

وتكون الإجابة، وهذا الإخلاص يقود النفس إليه رؤية آياته وأصل الكلام مخلصين الدين له فتقدم الجار والمجرور لأنه معقد الإخلاص ومصبه، وهذا الجار والمجرور المتقدم فى هذه الجملة يناظر ويلاحظ الجار والمجرور المتقدم فى جملة ﴿ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾، لو قلت ينزل من السماء رزقاً لكم لكان كلاماً آخر . لأنه ليس فيه العناية بكم على حد العناية التى تراها فى لفظ الآية، وكذلك لو قلت مخلصين الدين له، ثم هنا شىء آخر وأنه كما أنزل لكم فأخلصوا له والبادى أكرم، والدين معناه الانقياد والطاعة ولا عبرة بانقياد ولا بطاعة ما لم يكن ذلك مصحوباً بالإخلاص الذى لا تدخله شائبة من رياء، لأن الرياء قادح فى الثقة بالله رب العالمين، ومن استيقن أن الأمر كله لله لايرائى أحداً من خلقه والرياء القادح فى الإخلاص نقص فى اليقين، والنفاق فى كل صورته خلل فى بناء النفس وقدح فى إنسانية الإنسان.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ هذه الجملة فيها لمحة إعجاز، وذلك لأن الكافرين كانوا ولا يزالون وسيظلون يسوءهم ملازمة أهل الدين الحق لدينهم الحق، وقد ذكر القرآن فى آيات أخرى أنه يسوءهم إحقاق الحق وإبطال الباطل . وأنهم يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم، ومثل هذا كثير، والذى فى هذه الجملة أنه يسوءهم أن تدعوا الله مخلصين له الدين، والأصل أن هذا لا يضرهم فى شىء، فإذا كان إظهار هذا الدين على الدين كله يسوءهم فلأن لهم مصلحة فى ألا يظهر على دينهم، وإذا كان إبطال الباطل يسوءهم فلأن لهم مصلحة فى الباطل . ولكن أى شىء يسوءهم فى أن أدعو أنا وأنت الله مخلصين له الدين؟ ونحن ندعو الله فى محاربتنا منقطعين عنهم وعن غيرهم؟ ولو رأيت بوذياً أو يهودياً أو نصرانياً منقطعاً لعبادة إلهه الذى يعبد لم أجد فى نفسى حقداً عليه وربما دعوت له بالهداية، فلماذا يجد هؤلاء حقداً علينا ونحن فى مساجدنا نمد أيدينا إلى ربنا؟

لا أجد لذلك إلا جواباً واحداً وهو شدة بغضهم لهذا الدين ولأهله، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وراجع ما حولك تجد هذه الحقيقة على الأرض كيوم أن نزلت الآية، ثم تجد شيئاً آخر وهو أنك لا تجد منهم بغضاً لأهل الأديان الأخرى التي تخالفهم في دينهم، وإنك لسجد تعاطفاً شديداً بين المسيحية في الغرب والبوذية والهندوسية في الشرق، وبغضاً بينهم وبين أهل الإسلام المجاورين لهم، وتفسير ذلك أنهم لا يخافون بوذية ولا هندوسية لأنها أضعف من أن تدخل عليهم ديارهم، وإنما يخافون الإسلام لأنه يدخل على كل ما دخل عليه الليل. وهم يرون أفراداً من رعاياهم يدخلون فيه.

وقوله جل شأنه: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

أول ما تلاحظ أن هذه الكلمات الثلاث الواقعة خبراً تُلِمُّ كل كلمة منها بمعنى مسع جداً، وهي في مبناها أخت يريكم آياته، وينزل لكم من السماء رزقاً، وما يتذكر إلا من ينيب، وهو الذي ترتب عليه فادعوا الله مخلصين له الدين، وكان الخبر في قوله الذي يريكم آياته وما ترتب عليه تم عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ثم بدأ خبر آخر لقول سبحانه ﴿هُوَ﴾ يعني هو الذي يريكم آياته وهو رفيع الدرجات، وإذا كان الخبر الأول بياناً لآياته سبحانه الدالة عليه جل شأنه فهذا خبر يحدثنا عنه سبحانه ليس عن طريق آياته وإنما عن طريق مباشر لتعرف الله عن طريق آياته وعن طريق حديثه جل شأنه عن ذاته، ومعنى ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ معنى مسع لأن صيغة فعيل تكون بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، فهو سبحانه يرفع الدرجات وهو سبحانه ذو الدرجات الرفيعة وذو المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ومعنى أنه يرفع الدرجات معنى أيضاً

متسع لأنه يفيد أنه سبحانه يرفع درجات عباده في الرزق، ويرفع درجات عباده في التقوى، ويرفع درجات عباده الصالحين والصدّيقين والشهداء والأنبياء، ويرفع درجات عباده في الجنة إلى آخر ما ترى عليه الاختلاف في الدنيا والآخرة وهذا هو معنى الاتساع.

وقوله ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ يعني مالكة والعرش أعز المخلوقات وأعظمها، وذكر العرش يفيد العزة والسلطان والألوهية والتدبير ونفاذ الأمر، وذكره هنا في سياق بيان جلال الألوهية التي يرينا الله آياتها وعزها وسلطانها فيه قدر من التوكيد لكرامة الذين آمنوا واتبعوا سبيله، لأن الذين يستغفرون لهم هم حملة أعز المخلوقات وأرفعها، وأدلها على عز الربوبية ونفاذ الأمر وتدبير الخلق.

وقوله جل شأنه: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الروح معناه الوحي. وجعله روحًا لأنه تحيا به الأرواح كما تحيا الأجسام بالأرواح، فإذا كانت الأرواح في الأجسام وليس في هذه الأرواح روح بمعنى الوحي كانت هذه الأجسام بأرواحها ميتة، ولذلك قال سبحانه ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني ضالًّا فهديناه، فالوحي في الروح روح والوحي يُنْفَخُ في الروح فتحيا كما تُنْفَخُ الروح في الجسد فيحيا، وقد سُمِّيَ الوحي روحًا في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقد جاءت الروح هنا معرفة وجاءت في الشورى نكرة، لأن المراد بالروح هنا وحي الله إلى جميع أنبيائه يلقى من أمره على من يشاء من عباده من ملائكته إلى رسله سبحانه، والذي في الشورى هو ما أوحاه الله إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه، والروح في الآيتين متبوع بقوله جل شأنه: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو مع النكرة صفة ومع المعرفة حال، وهذا تعظيم لشأن الوحي، وحسبه أنه أمر من أمر الله سبحانه وأنه بلاغ من الله لعباده وأنه لا يزيغ عنه إلا هالك ولا يرد شيئًا منه إلا كافر، ولا يعانده إلا أحمق مغرور جاهل.

وراجع العلاقة المعنوية الدقيقة بين هذه الأخبار الثلاثة: رفيع الدرجات . . ذو العرش . . يلقي الروح من أمره، ولا شك أنك ستجد رفيع الدرجات يقود إلى ذى العرش لأن رفع الدرجات اقتدار وهيمنة وعزة وسلطان، وهذا كله تراه فى ذى العرش. ثم إنك ترى أن قوله ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ يعنى فيما يعنى تدبير شئون خلقه، وهذا يقود إلى قوله يلقي الروح من أمره، لأن أعلى صور تدبير شئون الخلق ما أرشدهم إليه الوحي. الذى هو حَبْلُ الله المتين، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والترابط الذى بين هذه الثلاثة من معدن الترابط بين الأخبار الثلاثة السابقة، يريكم آياته، وينزل لكم من السماء رزقا، وما يتذكر إلا من ينيب، وهذه الأخيرة حال والحال خبر وجزء من الجملة ولكنه تتم الفائدة بدونه، ولهذا نتوسع فى تسميته خيرا.

ولا يجوز أن نُغفل الرابطة بين رفيع الدرجات وما بعدها وبين ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وذلك لأن رفيع الدرجات بيان ساطع وقاهر لأهليته سبحانه لأن يعبد، وفيه إشارة إلى أن بغضاء الكافرين لدعاتكم ربكم لاتشغلکم لأن رفيع الدرجات ذو العرش من ورائكم، وهو ناصرکم إن نصرتموه ورافع درجاتکم إن استمسکتُم بوحیه وأمره، ثم إنك تجد صيغة الفعل المضارع تأتيك فى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ من أمره، لأن رفيع الدرجات وذو العرش معان ثابتة، وإلقاء الروح يتجدد مع بعث الأنبياء عليهم السلام، وإذا كان قوله ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ يتواصل مع قوله ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: 7]، فإن قوله سبحانه ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يتواصل مع قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وكان الباقلانى واضح المعرفة بما فى هذه الكلمة من الإعجاز يقول فى ذلك: «أى خاطر يتشوف إلى أن يقول ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، وأى لفظ يدرك هذا المضمار، وأى حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغور؟ وهذا كلام جليل لأن الخاطر يتشوف إلى ما يدخل فى طوقه وهذا

خارج عن الطوق ولأن لفظ الناس لا يدرك هذا المضمار ولأن حكمة الناس لا تهتدى إلى هذا الغور.

وهذه الكلمة من الكلمات الصادرة عن سز الربوبية، لأن معناها وفاعلها لا يكون إلا من الواحد الأحد، فليس فى الكون من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده إلا مالك الكون ومالك العباد ومن له الأمر، وليس لغيره فى الوجود أمر، تأمل كلمة «من يشاء» وكلمة «من عباده» تجد الله.

وراجع نسيج الآيات من رأس السورة لتدرك أن صدور إلقاء الروح عن عز الربوبية هو الرد الحاسم على من يجادل فى آيات الله، وتأكد معنى أنه ما يجادل فيها إلا الذين كفروا، وهم الذين ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم وهم الذين يكرهون أن ندعوا الله مخلصين له الدين، ثم إن ذكر إلقاء الوحي بعد رفيع الدرجات وبعد ذى العرش يزيد من التجهيل والتشهير والوعيد والغضب على الذين يجادلون فى الوحي، وهكذا كلما رجعت إلى العناصر المكونة للسورة ونسيج بيانها وجدت أشياء يمسك بعضها ببعض ولكن فى دقة وغموض ما يلبث أن ينكشف بمراجعة النظر.

وقوله سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ اللام فيه لام كى والمضارع منصوب بعدها، وهذا معناه أن علة إلقاء الروح هى الإنذار، ولا يكون الوحي منذراً إلا إذا كان الوحي متضمناً أمراً ونهياً، لأن الإنذار لا يتصور وجوده إلا بمخالفة أمر ونهى. ولهذا تجد كلمة ينذر متضمنة للدلالة على الشريعة كلها والنبوة كلها، وما وجب الإيمان به وما وجب الأمر به وما وجب النهى عنه، ثم إنك تجد فى الربط بين الوحي والإنذار ربطاً أكيداً بين الدنيا والآخرة والقانية والباقية، وأن هذه الدنيا القانية هى التى تنتج الآخرة الباقية، وأنها هى دار التكليف والآخرة دار الجزاء، فكل ما يفضى إلى الجنة أو إلى النار فقد صنع فى هذه الدنيا القانية، وهذا معناه أن من أراد الآخرة فعليه بالدنيا، لأنها هى بوابة الآخرة، ولا معنى لأن نطلق الدنيا وحدها، وحبل النجاة هو الوحي وما خوفاً منه، وما أغرانا به وكل ذلك فى الدنيا لأنها دار العمل.

ويوم التلاق من الكلمات الجامعة والقبالة لأن تفسر بصور مختلفة، قالوا: هو الذى تتلاقى فيه الأرواح بالأجسام، يعنى يوم البعث، وقالوا: هو الذى يتلاقى فيه الناس بالأعمال ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 3] وقالوا: هو يوم يلتقى فيه أهل السماء بأهل الأرض. وقالوا: هو يوم يلتقى فيه الناس يتعارفون، وقالوا: غير ذلك واللفظ يحتمل، وإن كان ذكره فى سياق الإنذار يرجح لقاء الناس بأعمالهم أحصاها الله ونسوها.

وقوله سبحانه ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بدل من يوم التلاق، وفى كلمة ﴿بَارِزُونَ﴾ السعة التى فى يوم التلاق، فقد فسرها العلماء بأنهم لا يسترهم ساتر لأن الأرض قاع صقصف، لا يسترهم فيها جبل ولا أكمة، أو بارزون من بطون القبور إلى ظهورها، أو بارزون بمعنى كشف أسرارهم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9]، وهذا أقرب لأن الإنذار به أهول، وقوله جل شأنه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ العموم الذى فى هذه الجملة ليس راجعاً إلى تنوع التفسير لأن له فى الدلالة وجهاً واحداً، وإنما العموم والسعة ما تفيده كلمة شيء بتكبيرها، لأن المعنى لا يخفى على الله منهم أى شيء لا من أعمالهم ولا من أحوالهم ولا من ظاهرهم ولا من باطنهم، ويمكن أن تكون حالاً من المبتدأ «هم» وأن تكون خيراً بعد خبر، وهى فى كل داخله فى حيز «يوم» والله سبحانه لا يخفى عليه منهم ولا من غيرهم شيء فى كل زمان وفى كل مكان، فلماذا حُص هذا اليوم بهذه الجملة فى هذا المقام؟ قال العلماء: لأنهم كانوا يعتقدون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون ويمكن أن يذكر هذا فى هذا السياق لمزيد من التهديد والوعيد وهم فى الدنيا حتى لا يكون منهم ما يفزعهم بين يدى الله يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء، وقد تكرر هذا المعنى فى مثل هذا السياق مع اختلاف الأحوال المذكورة فى السور تبعاً لاختلاف سياقها، ومن ذلك ما جاء فى سورة الحاقة التى

انعقد معناها على الحاقة التي بينت وفسرت بقوله جل شأنه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٨].

نلاحظ أن سورة غافر اقتصرت على يوم التلاق، لأن الكلام عن تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الذي هو الوحي الذي يلقيه ربنا على من يشاء من عباده لينذر هذا اليوم، وسورة الحاقة فصلت الأحداث والأحوال لأن السياق ذكر الحاقة وما أدراك ما الحاقة.

وقوله سبحانه في الحاقة ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] اختصار لما فصل في غافر، ثم انتقلت الحاقة ليس إلى الجزء وإنما إلى نتيجة الجزء فأما من أوتى كتابه بيمينه... وأما من أوتى كتابه بشماله وغافر فصلت الجزء إلى آخره، وهذا اللون من النظر في الكتاب العزيز فيه أسرار وفوائد لا يقادر قدرها، وإن كانت لم تدرس على الوجه المطلوب والكتاب فيه من هذا منادح وراءها منادح لو سارت بها العيس كلت ولله المثل الأعلى. وهو باب حذر مثله مثل كل أبواب الدرس القرآني لا يجوز أن يدخل ميدانه إلا من اجتهد في تكوين أدواته.

قوله سبحانه ﴿لَئِنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

هذه الجملة لم أجد لها رابطة لفظية تربطها بما قبلها فليست حالاً ولا خبراً معطوفة، وإنما هي جملة مستأنفة. وكأنها دخلت على الكلام السابق من خارجه، ثم إنها أبهمت المنادى الذي نادى بهذا السؤال، وقال ﴿لَئِنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، كما أبهمت المجيب الذي قال ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وإنما هو نداء في هذا الموقف الأعظم بهذه الحقيقة المطلقة، وأن كل ملك قد زال وكل مالك قد

نزع منه ملكه وبقي المالك الواحد القادر القاهر، وهذا موقع حجيب لهذه الجملة البارعة، ولم أعرف كلاماً بنى على هذا الوجه ولا سياقاً أفضى إليه، وتأمل الكلام لتدرك شرفه وعلو مقامه ولتعرف كيف يصدر الكلام عن عز الربوبية وكل ما فى القرآن صادر عنها وهذا من أظهرها، ثم إن هذه الجملة تعود إلى قوله سبحانه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ لأنها تأكيد وتحقيق لكل هذا، وكأنها خلاصة الموقف من قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وكل ذلك تأكيد وترسيخ للمعنى الأم والمطلب الأم وهو قوله سبحانه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ولو لم يكن فى الحث على أن ندعوه مخلصين له الدين إلا هذه كانت كافية، ولكن الله سبحانه يَمُنْ بِالآيَةِ بعد الآية ليهلك من هلك عن بينة، يعنى يكون هلك باختياره، ولما جاءت هذه الجملة العالية من غير رابط لفظى قال المفسرون إن فى الكلام حذفاً وتقديره: ويوم ينادى لمن الملك اليوم، والمحذوف معطوف على يوم هم بارزون وهو داخل فى حيز، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ويوم ينادى لمن الملك اليوم، وهذا النداء والجواب فى سياق الإنذار عدلٌ ليوم ﴿هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ثم قالوا هل المنادى هو الله سبحانه وهو المجيب جل جلاله أم أن الملائكة نادت والخلق جميعاً أجابوا؟.

وإذا قلت: لماذا بنيت الجملة على ما بنيت عليه من السؤال والجواب وكان يمكن أن يقال الملك اليوم لله الواحد القهار؟ فالجواب: هو أن المقام مقام تقرير المنكرين، وعلى القول بأن الخلق هم الذين أجابوا يكون إقرار المؤمنين الذين اتبعوا سبيل ربهم إقرار غبطة ولذة وليس أبرد فى قلب المؤمن من قوله الملك اليوم لله الواحد القهار، فكيف إذا رددَ هذا القوم يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء؟ أما إقرار المنكرين فهو إقرار الندم والتحسُّر.

قوله جل شأنه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

أول شيء ينظر إليه هو هذه الصلة الرابطة بين هذه الجملة والجملة قبلها، ولا أعنى بذلك أنهما حديث عن اليوم لأن هذا ظاهر، وإنما أعنى أن جملة ﴿لَئِنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ كانها أتمت موقفاً جزئياً في هذا الموقف الأعظم، وتأمل تدرج أحوال اليوم الذي بدأ بالتلاقى يعنى لقاء الناس أعمالهم، ثم تدرج إلى يوم هم بارزون يعنى أعمالهم ظاهرة وأسرارهم ظاهرة وليس شيء يخفى منهم أو لا تخفى منهم خافية، ثم إن هذا الظهور تؤكد بقوله سبحانه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ثم جاءت جملة ﴿لَئِنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ فأفادت أن هذا الموقف كله فى قبضة الله، ثم جاء الجزء وتكرار اليوم وبنيت الجملة عليه لأن هذه آخر أحوال هذا اليوم، وبعدها يُسَاقُ أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، وأملى أن أكون قرّبت الرابطة التي أريدها بين النداء الذي فى آخر الآية السابقة وبين الحساب، وأن النداء أعلن أن مالك الملك فى يوم الدين هو الله وأن الجزء هو غاية الدين وغاية الخلق ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ .

ثم إن فعل الجزء جاء مبنياً للمجهول لأن فاعل الجزء هو الله، ولا ينصرف الفهم إلى غيره، وإذا كان سبحانه هو الذى يجازى كل نفس فجزاؤه عدل لأنه سبحانه حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يظلم أحداً، وأنه إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صحرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتى بها سبحانه وقوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعنى لا تزيد ولا تنقص وفيه إثبات الكسب للنفس لأنها اختارت، وفيه أن النفس هى التى تجزى مع أن الذى يجزى هو الذى اكتسب، وهذا من باب قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ آتَمَّ قَلْبُهُ﴾ وفيه شوب من التحذير من هذه النفس ومن أهوائها وحيلها ونزواتها، وكل هذا يرشح ويمهد لكلمة

﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾، وهذا مفهوم من قوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وإنما جاء صريحاً لأنه من الأهمية بمكان، وأن خالق الخلق الذى لا يسأل عما يفعل ليس بظلام للعبيد فلا تتظالموا، وليس أبشع على هذه الأرض من ظلم الظالمين وتسلطهم على الضعفاء، وقد جاء التعبير بالظلم عن الكفر فى الكتاب العزيز زيادة فى تبشيع الظلم، وقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فاصلة ابتدئت بالتوكيد ووضع فيها لفظ الجلالة موضع الضمير، لأنه من التذليل الذى يستقل بالمعنى ويتداوله الناس. ثم هى فاصلة متضمنة لكل ما فى الآيات من أول قوله بعد حكاية الذين إذا دعى الله كفروا وأن يشرك به يؤمنوا وهو الذى يريكم آياته، ويلقى الروح لينذر يوم التلاق إلى اليوم تجزى إلى سريع الحساب، ثم راجع الكلمات الثلاثة المكونة منها الآية وهى كلمات مؤتلفات الأولى: اليوم تجزى، والثانية: مترتبة عليها وهى لا ظلم اليوم، والثالثة: نتيجة لهاتين والمراد الخلق جميعاً من آدم إلى أن ينفخ فى الصور ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] التقى كل هؤلاء يوم التلاق، ثم كان من أمرهم ما كان، ثم حوسبوا جميعاً كل نفس بما كسبت ومن عملت مثقال ذرة شراً رأتها، ومن عملت مثقال ذرة خيراً رأتها ثم تم كل ذلك من غير أن تظلم نفس فى حبة من خردل، ثم كان ذلك من الله وحده، ثم جاءت جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لتؤكد أنه لا يشغله سبحانه شأن عن شأن.

ويلاحظ أن كلمة يوم تكررت فى هذه الآيات خمس مرات يوم التلاق. . . يوم هم بارزون. . . لمن الملك اليوم. . . اليوم تجزى كل نفس. . . لا ظلم اليوم.

وهذا التكرار دال دلالة ظاهرة على أن اليوم هو أبرز وأبين ما تدور حوله الآيات، وأن الإنذار الذى هو علة الوحي مصبته هو هذا اليوم، ولو رجعت إلى ذكر هذا اليوم فى الكتاب العزيز لوجدت ذكره متسعاً جداً ولوجدت أطيافاً من المعانى تُطيف به فى كل موقع كهذه الأطياف التى تراها حول يوم التلاق، والأطياف التى تراها يوم هم بارزون. ولن الملك اليوم إلى آخره،

لا شك أن قوله سبحانه ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَيْبًا قَمَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] فيه من الظلال ما ليس في ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، و﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ إلى آخره، ولو راجعت اليوم الذي قبل هذا اليوم وهو يوم القيامة وليس يوم البعث لوجدت معاني كثيرة تتراحم حوله، فقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥] ليس كقوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦] وهكذا الصور والأحوال الكائنة في هذا اليوم فقوله سبحانه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ غير قوله جل شأنه ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢] غير قوله سبحانه ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ انشَرَّتْ﴾ ومن أراد أن ينظر إلى القيامة فليقرأ هذه الآيات.

وإذا كانت دراسة الظلال المطيفة بذكر يوم البعث ويوم الحشر ويوم الجزاء من الأهمية بـمكان، فكذلك دراسة المعاني المطيفة بيوم الحاقة أو الأحوال المصاحبة للنفخة الأولى كل ذلك لم يُفرد بالدرس في الكتاب العزيز.

وقبل أن أنتقل إلى آيات أخرى أتبه إلى كلمة ﴿يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ وأن فيها معنى غير معنى يوحى أو يبلغ، لأن الإلقاء فيه دلالة على استقرار الروح أو الوحي في قلب متلقيه من ملك أو رسول أو قارئ للكتاب أو سامع له.

وهذا الإلقاء الذي يستقر في أعماق نفس متلقى الوحي هو الذي يُنتجُ هذا الإنذار والتخويف من هذا اليوم الذي نزل وحى الله إلى أنبيائه من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه، لينذروا به، لأنه هو الحاسم والفاصل بين الانقياد والطاعة من جهة والعصيان والتمرد من جهة أخرى، وفرق بين أن تبلغ الناس كلام الله وأن تلقى في القلوب آيات الله، لأن الإلقاء يعنى التغيير القاطع لنفس من يتلقى. وهذا كما في قوله عليه السلام «ألقي في روعي» وقل مثل ذلك في المعرفة التي نقرؤها أو نكتبها أو نعلمها لطلابنا إذا لم تستقر في القلب فليس لها قيمة.

وقوله جل شأنه: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (١٨٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٨٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٩٠﴾ .

هذه الآيات تتفق وتختلف مع الآيات السابقة، ومن وجوه اختلافها أن الكلام انتقل من ﴿ يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾، وهذا شامل لكل النبوات من نوح عليه السلام ومن بعده إلى خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وكأنها تَقْصُّ قصة الوحى وتحكى خلاصتها، وهو إنذار يوم التلاق إلى أن تجزى كل نفس. وهذه الآيات خطاب لخاتم النبيين عليه السلام لينذر قومه الذين هم نحن وهذا تخصيص بعد تعميم وفيه إكرام له صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إن الإنذار هنا واقع على يوم الأرزقة وهو غير يوم التلاق، والأرزقة القريبة من قوله سبحانه ﴿ أَزِفَتِ الْأَرْزَاقُ ﴾ [النجم: ٥٧] وقالوا هو يوم القيامة والقيامة قريبة لأن رسول الله ﷺ بعث فى نفس الساعة، وقالوا: هو يوم يساق الناس إلى النار، يعنى بعد الجزاء وقالوا: هو يوم المنية لأن من مات فقد قامت قيامته، وَيُرْشَحُ هذا أن ما جاء بعد يوم الأرزقة من قوله سبحانه ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ ﴾ مما جاء فى وصف يوم المنية كقوله تعالى فى سورة الواقعة ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ وجاء مثله فى سورة القيامة ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ ﴾ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ .

وسواء كان يوم الأرزقة هو يوم القيامة أو يوم المنية أو يوم يساق الناس. أو يوم التلاق فالواضح أنه سيق لا لبيان أحواله كما كان فى يوم التلاق ويوم هم بارزون إلى آخره، وإنما سيق لبيان أحوال الهول الذى أصاب الناس فيه،

ولذلك أعقبه بيان هذه الأحوال البالغة الفزع في قوله سبحانه ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ﴾ وتأمل هذا البيان، والقلوب لا تكون لدى الحناجر إلا في الهول الذي ليس بعده ولا قبله هول، ووازن بين تصوير القلوب يوم الآزفة وتصوير القلوب في حالة الموت المذكورة في الواقعة، هناك بلغت الحُلُقُوم والمراد الروح، وكلمة بلغت يعنى أنها سلكت سبيلها إلى الحلقوم حتى بلغت، وفي ذلك رَيْثٌ وإبطاء؛ والذي هنا القلوب لدى الحناجر وكأنها أُلصقتُ بها من الفزع فلا هي خرجت ولا هي رجعت، وتأتى كلمة كاظمين وهي حال من أصحاب القلوب أو من القلوب على حد قوله تعالى ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] والكاظم هو الساكت الممتلئ همًا وغمًا ويعبئه أن ينطق، لأن القلوب لدى الحناجر يعنى حَبَسَتْ نُطْقَهُ. وليس شيء من ذلك في وصف الواقعة.

وقريب من هذا ما جاء في سورة الأحزاب في وصف الفزع الذي أصاب أصحاب النبي ﷺ لما رأوا الأحزاب جاء وهم من فوقهم ومن أسفل منهم، قال سبحانه ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠].

راجع المفاجأة التي عبر عنها القرآن بقوله ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وكان السماء انشقت عنهم فسقطوا عليهم منها، وكان الأرض رمتهم بهم من باطنها، ثم جاء بيان حال المؤمنين فبدأ بقوله ﴿زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ ثم ارتقى الحال إلى قوله ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وهذا فزع شديد ولكنه غير الفزع المعبر عنه بقوله ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ﴾.

وقوله سبحانه ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ كناية عن الفزع والمفاجأة لجواز إرادة المعنى الحقيقي وقوله ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ مجاز لوجود القرينة المانعة لأن القلوب لا تبلغ الحناجر

أما الذى معنا وهو ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ﴾ فإنه يحتمل الحقيقة لأن أحوال الآخرة لا تقاس على أحوال الدنيا. يعنى لا يقاس الغائب على الشاهد كما قال العلماء .

وهذه الجملة التى لم أقرأ أنفذَ منها فى تصوير حالة الكرب والهم والغم مهَّدتْ للتى بعدها حتى جعلتها واقعة أحسن موقع وهى جملة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لأن بلوغ الهول هذا المبلغ مَظَنَّةُ الشفاعة والرقعة، والتعاطف مع هؤلاء من حميم أو شفيع، والحميم هو القريب ويدخل فيه الأب الصالح للابن غير الصالح، أو العكس وقد يرقُّ أحدهما لما فيه الآخر من الهول، فجاءت جملة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ مستأنفة لنفى ما قد يمكن أن يكون من شفاعة، وأن ما هم فيه من كرب وهول دائم لا ينقطع، ودخول النفى فى الجملة المستأنفة على الخبر الجار والمجرور المتقدم على المتبدأ النكرة الداخلة عليه من الزائدة الدالة على الاستقصاء وأنه ليس لهم من حميم أى حميم، وكل هذا صالح لأن يكون مفيداً الاختصاص إذا كان المراد بالظالمين الكافرين لأنهم هم خصوصاً لا شفاعة فيهم بخلاف غيرهم من أصحاب الكبائر من المؤمنين فإن لهم شفاعة. وهذا مذهب أهل السنة، والأشاعرة، والمعتزلة يرون أنه لا شفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين، ووجههم فى ذلك أن الشفعاء وهم أهل الله وخاصته من عباده الصالحين لا يحبون إلا من يحبهم الله ولا يشفعون لأهل الكبائر لأنهم ليسوا من أهل محبة الله ورسوله، وفى الآية كلام كثير من هذه الناحية، وقد أطال فيه الإمام الرازى، وكلمة يطاع معناه، تقبل شفاعته، والطاعة تكون من المخلوق للخالق ولا تكون من الخالق للمخلوق هكذا قالوا، مع أن الله مَنْ عَلَى عباده الصالحين حتى إنهم لو أقسموا عليه سبحانه لأبرَّهم ولو سألوه أجابهم، ثم إن وصف الشفيع بأنه يطاع يؤكد معنى نفى الشفاعة لأن هذه الصفة تصير بمثابة دليل على نفى الشفاعة، وكان المعنى ما للظالمين من

شفيع بدليل أنه لا يطاع، ولا يكون الشفيع شفيعاً إلا إذا قبلت شفاعته على حد قولهم «على لا حب لا يهتدى بمناره» المراد نفى المنار بدليل نفى الاهتداء به ولو وجد المنار لوجد الاهتداء به.

قلت: إن دخول حرف النفى على الجار والمجرور المقدم صالح لأن يفيد الاختصاص. يعنى قصر نفى الشفاعة على الظالمين الذين هم كافرون، وصالح لأن يفيد التقوية والتوكيد وليس الاختصاص. وعليه لا يكون فى الآية شاهد لإثبات الشفاعة لغير الظالمين.

قوله جل شأنه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

جملة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يراها الزمخشري خبراً من أخبار ﴿هُوَ﴾ فى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ وقد جاء بعد خبر آخر هو قوله سبحانه ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وأن الآيات من ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ إلى قوله ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ من تمام هذا الخبر ثم جاء يعلم خائنة الاعين؟ قال الزمخشري: فإن قلت بما اتصل قوله يعلم خائنة الاعين؟ قلت: هو خبر من أخبار «هو» فى قوله ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ مثل يلقي الروح ولكن يلقي الروح علل بقوله لينذر يوم التلاق، ثم استطرذ ذكر أحوال التلاق إلى قوله ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ فبعد لذلك عن إخوانه. انتهى كلامه، وهو كلام جيد لأن فيه متابعة دقيقة منه رحمه الله إلى فروع المعانى وكيف يطول بعضها، ثم يعود كلام جديد يرد إلى الأصل الذى تفرع منه هذا الفرع، وهذا من أحسن ما يلاحظ فى تحليل البيان، مع أنه من المقبول أن نجد علاقة وثيقة تربط الآية بالتى قبلها، وأن تكون داخله فى ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ لأن معناها يدخل فى الإنذار بيوم الآزفة، والجملة التى قبلها ذكرت الاهوال التى تفرع الظالمين فى يوم الآزفة، وأنها أهوال مستمرة وليس لهم

سبيل إلى التخلص منها، ثم جاءت هذه الجملة لتشير إلى أن قضاء الله عليهم بما قضى مؤسس على علم شامل بأحوالهم لا تخفى عليه خافية من ظاهر أمرهم وباطنه، وليس في الإنذار أفضل من أن تعلم أن عين الله من ورائك تحصى عليك خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ثم إنك تجد رابطة بين جملة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وقوله سبحانه قبلها ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ لأن خائنة الاعين وما تخفى الصدور من كسب النفس، كما تجد علاقة بين ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ وقوله سبحانه ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ وقوله ﴿تُجْزَى﴾ لأن القضاء من الجزاء، كما تجد علاقة بين ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ وقوله قبلها ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لأن القضاء في يوم الدين لمن له الملك وحده.

وإذا رجعت إلى الوراء وجدت العلاقة بين ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ وقول الذين يُنَادُونَ ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ كما تجد هذا كله يرجع إلى رأس السورة وهو قوله سبحانه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا البحث الذي يرجع بعناصر السورة بعضها إلى بعض مهم جداً وإنك لتجد هذا في الشعر وإن كان على وجه دون ذلك بكثير.

وللزمخشري ملاحظة بالغة الدقة في إعراب ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وأنها لا يجوز أن تكون صفة قدمت على الموصوف ثم أضيف الموصوف إليها كقولنا حسن العين وطيب الريح وكريم السمائل وإنما هي إما أن تكون صفة لموصوف محذوف أى نظرة خائنة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، أو هي مصدر كالعافية، وذلك لأن المعطوف عليها المقابل لها قوله سبحانه ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هو المناسب للنظرة الخائنة أو الخيانة، ولو قلنا العين الخائنة لكان المناسب أن تعطف عليها الصدور وليس ما تخفيه الصدور، وهذا بحث دقيق فى التلاؤم والتطاعم الذى بين الكلمات، والموجب لترتيبها،

وعبارة الزمخشري عن هذا شديدة الاختصار لأن الزمخشري كان شديد الذكاء، ولهذا كان يطوى المعنى الكثير فى اللفظ القليل قال فى هذا: ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله من الصدور لا يساعد عليه. انتهى كلامه، وقد عقب عليه ابن المنير بقوله: «إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناها الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور لا ما تخفيه الصدور بخلاف التأويل الأول، فإن المراد به نظرات الأعين فيطابق خفايا الصدور، ورحم الله الشيخين شيخ المعتزلة وشيخ أهل السنة فما أجل ما سطرنا لنا من طرائق فى تأويل البيان، قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لو راجعت الجملة قبلها رأيتها مع شدة ارتباطها بالإنداز كأنها مقدمة لجملة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن علم القاضى ركن أساسى فى قضائه، ولا قضاء لمن لا يعلم فإذا كان سبحانه يعلم خائنة الأعين، وهذا أغمض ما فى الظاهر، ويعلم ما تخفى الصدور وهذا أغمض ما فى الباطن، ليس لأنه فى الصدور فحسب وإنما لأن الصدور نفسها تخفيه، يعنى تحرص على ألا يظهر منه شىء، وهذا هو الفرق الذى تراه بين ويعلم ما فى الصدور وبين ويعلم ما تخفى الصدور، وليس ما يخفيه الناس فى صدورهم وإنما الصدور نفسها تخفيه، وفرق بين أن تقول فلان يضم هذا الأمر فى نفسه وأن تقول تضمه نفسه، فإذا كان سبحانه ينفذ علمه إلى خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ثم كان سبحانه غنياً عن كل ما سواه أفضى هذا إلى جملة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾.

وللشيخ الطاهر ملاحظة جيدة فى بناء جملة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ خلاصتها أن مقتضى الظاهر أن يكون الكلام يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويقضى بالحق ليتعادل الكلام، فتعطف الفعلية على الفعلية ويؤتى بالضمير كما قال بعدها ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ولكن الآية بدأت بلفظ الجلالة، ووضع موضع المضممر، لأن لفظ الجلالة جامع لكل الكمالات الموصوف بها الحق جل جلاله وذلك للإشارة إلى مزيد العناية بالقضاء، ثم إن

إحاطة علمه سبحانه بخائنة الأعين وما فوقها وما تخفى الصدور وبناء القضاء بالحق على هذا وعلى الاستغناء عن كل ما سواه، ثم بناء جملة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ على ما بنيت عليه كل ذلك يشير إلى أن جملة ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ سيق مساق السخرية والتهكم، لأنهم ما يعبدون من دونه من شيء والذي ليس بشيء لا يقضى بشيء.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فاصلة ترى الجملة التي قبلها ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ فتحت الباب لمعناها، لأن القضاء بالحق يكون من السميع البصير، ثم هي مؤكدة للجملة التي فتحت الطريق لمعناها، ثم هي راجعة بمعناها إلى الكلام كله من أول قوله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾. وبناء جملة الفاصلة متضمن عناصر كثيرة أولها التوكيد لبيان مزيد العناية بهذا المعنى، ثم وضع لفظ الجلالة موضع المضمرة لدلالته على مزيد الهيبة والتعظيم وما يشعر به لفظ الجلالة من الجلال والكمال؛ لأنه متضمن لكل الصفات، ثم ضمير الفصل المؤكد لمعنى القصر، ثم ذكر الألف واللام في الخبر ودلالاتها على الكمال المطلق وكل هذا قريب، والذي يحتاج إلى تأمل هو لماذا قال السميع البصير مع أن القضاء بالحق ويعلم خائنة الأعين يقتضيان العليم الحكيم؟ وجواب ذلك والله أعلم بمراده هو أن السميع البصير أقرب إلى رأس الآية الذي هو قوله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ لأن هذا الإنذار هو المعنى الذي جرى في الآية كلها؛ والسميع البصير يفيد أن الله يسمعكم ويراكم وهذا أكد للإنذار الذي هو التحذير؛ والتخويف من مخالفة أمر الذي يسمع ويرى.

قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر ٢ ٢٢].

لا تزال الآيات جارية في محيط الإنذار والتخويف من رفض الآيات
البيانات، وقد تغير أسلوب الكلام تبعاً لتغير لون المعنى. وتغير الإنذار وزمانه
فقد انتقل من الإنذار بيوم التلاق ويوم الأزفة ويوم تجزى كل نفس إلى الإنذار
بالاستئصال في الدنيا وأخذهم كما أخذ الذين قبلهم.

أما تغير الأسلوب فهو الانتقال من مثل: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ
الْآزِفَةِ﴾ وهو تعبير عن المعنى باللفظ الموضوع له إلى هذه الجملة الاستئنافية
التي أفرغت على المعنى ألوانا من اللوم والتجهيل والتقصير والغفلة، وإنما
احتجتم إلى الإنذار وقرع العصا لشدة غفلتكم وجهلكم بحقائق التاريخ من
حولكم، ولو نظرتهم إلى ما في الأرض التي تعيشون عليها نظر اعتبار وفهم
لرأيتهم أخذ الله للآمم التي هي أشد منكم قوة وأكثر آثاراً، لأنهم سلكوا الطريق
الذي تسلكونه ورددوا كلام رسل الله ورفضوا الانقياد للآيات البيانات.

وقوله ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ يؤول معناه إلى قولنا سيروا في
الأرض وانظروا، ولكن البناء على الذي جاءت عليه الآية فيه دلالات كثيرة
منها دلالة الاستفهام على الإنكار والتعجب والتجهيل والمناداة على الغفلة؛
لأنهم يرون مصارع الأمم المنكرة تحت سيونهم ثم يمضون على الطريق
المفضى بهم إلى هذه المصارع.

ودخول همزة الاستفهام على الواو العاطفة له دلالة أخرى يصير بها الكلام
أكثر سعة من أن لو قال ألم يسيروا، وفي هذا زيادة حفاوة بالمعنى الذي تأسس
على هذا الاستفهام وهو قوله تعالى ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ لأن حقيقة استئصال الأمم
التي كذبت الآيات ماثلة أمامهم، وأن عذاب المعاندين لأمر الله استئصال في
الدنيا وعذاب الجحيم في الآخرة، ودخول همزة الاستفهام على الواو والفاء
وتم كثير في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وقليل في الشعر وهو من الأساليب
العالية، وقد تراجع ديوان الشاعر فلا تستخرج منه صوراً بعدد أصابع اليد

الواحدة، والحسُّ يشهد بتفوق هذا الأسلوب، وتجد ذلك ظاهراً في الفرق بين قول رسول الله ﷺ لورقة بن نوفل لما قال له ورقة «ليتني كنت حياً إذ يخرجك قومك» فقال عليه السلام «أو مخرجي هم» وبين لو قال أمخرجي هم، وراجع قوله تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ...﴾ [الروم: ٨] ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [سبا: ٩] ﴿أَفَعَبَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ...﴾ [ق: ١٥] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ [المؤمنون: ١١٥] ﴿أَفَعَبَّبْنَا بِسْتَعْجَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤] ﴿أَتُمُّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١].

لا شك أنك تجد لهذا اللون من الكلام ما لا تجده لو حذف حرف العطف وأدخلت الهمزة على الفعل. وهذا معناه أن هذا الحرف تكمن فيه طاقة وقوة تذهب بذهابه، ولا شك أيضاً أن ثمة فروقاً بين الواو والفاء وثم، وهذه الفروق راجعة إلى أصل دلالة كل حرف من هذه الحروف، وأن الواو تجمع معنى إلى معنى والفاء ترتب معنى على معنى من غير مهلة وثم ترتب معنى على معنى بمهلة، وكل هذا يخفى تحقيقه في هذه الأساليب ولا يظهر إلا بمزيد من المراجعة، وليس هذا هو الأصل في قوة هذه الأساليب، وإنما الأصل كما قال العلماء هو أن هذه الحروف ترمى بك في حيرة شديدة لا مخرج لك منها إلا بمزيد من الوعي ومزيد من اليقظة ومزيد من المراجعة، لأنها عاطفة على جملة محذوفة وعليك أن تتصيداً من الكلام السابق لتملأ بها الفراغ الذي قبل هذا الحرف حتى يصح عطف ما بعدها عليه وهذا صعب جداً، وقد قرأت محاولات العلماء في تقدير هذه الجملة وكنت أجد اختلافاً شديداً بينهم في هذا التقدير، وقد اجتهدت في أن أقدر هذه الجملة فلم أنجح في تقدير ما أراه سادا هذا الفراغ، وكنت أضيع ذرعاً بعجزى مع قضاء العمر كله في التفكير والمراجعة في كلام الله وكلام الناس. ثم بدا لى أن الكلام

جاء على هذا الوجه لتذهب فيه النفوس كل مذهب، وأن ذهاب النفس فيه كل مذهب هو قيمة هذا الأسلوب، ولو كان غرض الكلام معقودا على جملة معينة تعطف عليها الجملة الداخلة عليها الواو لجيء بها، وإنما الغرض أن تظف الجملة المعطوفة معلقة أو سابحة في فضاء تبحث عن أختها التي تقترب بها، وأن يظل المتدبرون للبيان في كلام الله في شغل يملؤون به هذه الفراغات التي يوقظهم ويشيرهم وجودها في الكلام.

ثم إن العلماء اختلفوا في بيان موضع لحملة المسكوت عنها والمعطوف عليها هل هو بعد همزة الاستفهام، وتكون الهمزة داخلة على المعطوف عليه المحذوف، وأن هذا المحذوف المعنى تقديره هو مصب الاستفهام. أم أن همزة الاستفهام من الجملة المعطوفة والأصل أن يكون حرف العطف قبلها فقدمت الهمزة على حرف العطف؟

كل هذا قاله العلماء وقالوا غيره وفيه دلالة واضحة على وفرة التأويل والتنوع في تحديد دلالة هذا الأسلوب، وأن الدلالة القاطعة للأسلوب تروغ منهم، وقوله سبحانه ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ معطوف على قوله ﴿يَسِيرُوا﴾ والفاء تعنى ترتيب النظر على السير، والنظر هنا فيه معنى النظر بالعين لأن آثار الأمم البائدة في أرضهم وهم يمرون عليها؛ وفيه معنى النظر بالعقل المتدبر كالنظر الذي في قوله تعالى. ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وهذا صريح في ضرورة السير في الأرض للمعرفة والدرس والبحث في آثار الأمم البائدة والموعلة في التاريخ القديم، ومعرفة ما كانت عليه من خلال آثارها، يعنى أن نستخلص من خلال هذه الآثار أحوال الأمم وقوتها وتفكيرها وعقائدها وقيمها وحضارتها وسلوكها، وهذا جيد وأجود منه أن يكون هذا السير وهذه الدراسة لآثار الأمم القديمة بابا من أبواب معرفة الله، وأنه سبحانه لم يمهل الأمم المعاندة المعارضة للحق وإنما استأصلها، وأن هذه ستة سبحانه، وأن المعاندين لله لهم عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة.

وتعجب حين ترانا نجهل آثارنا على أرضنا ونتنظر حتى تأتي بعثات الآثار من خارج بلادنا لتحدثنا على آثارنا مع هذا الأمر القرآني الواضح الذي لم يجعل دراسة الآثار نافلة ولا ترفاً فكرياً، وإنما هو أمر جاء في صورة عتاب وتجهيل وإنكار لمن لم يفعله، ثم هو طريق من طرق الهداية ومعرفة الله، وقوله سبحانه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني المطلوب من النظر والاستدلال ودرس الآثار ليس هو معرفة العاقبة، وإنما كيف كانت العاقبة ومعرفة هذا كيف تقتضى معرفة ما أهلكوا به ﴿فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وهذا فيه معنى أن تنوع ضروب الهلاك والاستئصال مرتبط بنوع الذنب، فالذين أخذتهم الصيحة لهم ذنب غير ذنب الذين أرسلنا عليهم حاصباً وهكذا، وأن الكيفية تعنى الوعى بهذا والوعى بالملاءمة بين الذنب والعاقبة وهذا شئ آخر يهدى إليه النظر فى كيفية العاقبة، ولم أقرأ فى كتب التفسير التى بين يدى جواب سؤال يقول لماذا أهلك الله هؤلاء بالصيحة وأرسل على هؤلاء حاصباً وخسف الأرض بقوم وأغرق قوماً آخرين هل هناك مناسبة بين أنواع المعاصى وأنواع العقاب وهل أغرق فرعون لأنه كان يقول وهذه الأنهار تجري من تحتى فأجراها الله من فوقه؟

وقوله سبحانه ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ كلمة ﴿آثَارًا﴾ يمكن أن تفسر بالحصون والقصور وما هو من قوة الأمم، وبذلك تكون معطوفة على ﴿قُوَّةً﴾، ويجوز أن يكون المراد بها ما هو أعم من ذلك فتشمل آثار العلم والحضارة مع الحصون والقصور، وعلى ذلك تكون معمولة لفعل محذوف يناسبه والتقدير أشد قوة وأكثر آثاراً، على حد قوله: زَجَجْنَ الحواجب والعيونا.

ويلاحظ أن كلمة «كان» تكررت فى الآية وكان يمكن أن يقال كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة، وظنى والله أعلم بمراده أن

فى تكرارها معنى الإيغال فى الماضى البعيد، وأن أمة كثيرة موغلة فى الزمن
 وأن سنة الله فيها لم تتغير، وهذا هو المناسب لما جاء فى مطلع السورة فى
 قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم إن موقع الآية
 هنا قد هيات له هذه الآية فى المطلع لان آية ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا ﴾ راجعة إلى هذه
 الآية ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وإعادة بصورة أخرى لقوله تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ
 كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ ثم هى
 ناظرة إلى قوله سبحانه ﴿ يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لأنها
 أثر من آثار إلقاء الروح على من يشاء من عباده منذ أول أنبيائه، ولكن علاقة
 هذه الآية بآية ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أقوى، لأن هنا روابط لفظية تشير
 إلى العلاقة بين الآيتين راجع: ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ... ﴾ ﴿ كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ترى مقابلة لطيفة وترى كلمة كان التى يمكن
 أن يستغنى عنها توغل فى الماضى لتصل إلى قوم نوح، ثم تأمل ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ
 فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ﴾، وضع هذه الجملة: بإزاء ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ
 قَبْلِهِمْ ﴾ ثم راجع ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾، وضعها بجوار ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾،
 وقوله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ هذه الفاء ليس قبلها ما تعطف عليه وتترتب
 عليه، فليست كالفاء فى قوله ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ لأنها عاطفة على ﴿ يَسِيرُوا ﴾،
 ومرتبة عليه، وليس أنهم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض موجياً لأخذ الله لهم
 أخذ استئصال، لأن القوة والشدة فى الأرض لا تورث غضب الله لأنها عمارة
 الأرض. وإنما هنا فراغ دلت عليه هذه الفاء، ولك وجوه فى تقديره تقول.
 كانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فاستكبروا وعاندوا وكفروا فأخذهم
 الله، ولك أن تقول: كانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض وأنتهم رسلهم
 بالبينات فكفروا كما دلت عليه الآية اللاحقة فأخذهم الله، وهنا ملاحظة
 دقيقة هى أنه قال هنا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾

ثم قال فى الآية الثانية ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ فعلى الأخذ فى الآية الأولى بذنوبهم وعمله من الآية الثانية بكفرهم، ثم إن أخذ الله لهم فى مطلع السورة كان لأنهم هموا برسولهم ليأخذوه فأخذهم الله، فدل كل ذلك على أن الكفر هو سبب الأخذ، وإنما عبر عنه بالذنب تهويلاً لأمر الذنب وتبشيعاً له، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾، كان هنا أخت كان التى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٧] لأنها ليست لطفى أن يفترى وإنما لطفى أنه يصح أن يفترى لأنه معجز وليس له قائل إلا الله الخالق البارى، ومن تأمله استيقن من ذلك فلا يصح أن يقال فيه أنه افتراه أحد، والمعنى هنا الشأن أنه لا واقى لهم من عذاب الله لأن عذاب الله لا يقى منه أحد، فلا يصح ولا يتوهم أن يكون لهم واق، وقد جاءت كان بهذا المعنى الدال على نفى أن ذلك يكون أو الشأن فيه أنه لا يكون، ومنه قوله جل شأنه ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] يعنى أن هذا تقوم الأدلة على نفيه والشأن فيه أنه لا يكون ومثله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣] وهو معنى جيد جداً ومنه قول النابغة:

أناك بقول لم أكن لأقوله ولو كُبت فى ساعدى الجوامع

لم يرد نفى أنه قاله لأنه لو أراد ذلك لقال لم أقله، وإنما يريد أن الشأن فيه والمعهود منه والمتلائم مع أخلاقه أنه لا يقوله ولفظ الجلالة فى الجملة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾، يؤكد هذا النفى لأن لفظ الجلالة جامع لكل الكمالات، ويستحيل أن يدفع دافع عذابه الواقع على من يشاء من عباده، وبناء هذه الجملة الفاصلة مثل بناء جمل كثيرة وقعت فواصل كقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩]

ومن الداخلة على المبتدأ النكرة المؤخر تفيد مع التوكيد معنى الاستقصاء وتأكيد النفي كما تقول ماله من صديق بدل قولك ماله صديق، وإنما جئت بمن لتؤكد استقصاء النفي لأى صديق.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

اسم الإشارة راجع إلى قوله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ لأن هذا الأخذ هو المعلل بقوله ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾ وليس راجعاً لقوة شدتهم وكثرة آثارهم، لأن هذا من عمارة الأرض ولا يوجب الغضب، والذي تكرره الآية وتؤكد هو أخذ الله لهم بذنوبهم التي هي مجيء الرسل لهم بالبينات وإصرارهم على الكفر، وتلاحظ أن هذا التكرار فيه إضافات وليس تكراراً محضاً، وكل ما فى الآية مما يشير إليه مبناها وكلماتها هو من الإضافة، وأول شىء هو ما تراه فى هذا الاستئناف واسم الإشارة لأن هذا الاستئناف دال على الحفاوة بالمعنى وشدة العناية به، لأنه عند الله عظيم وهو ردُّ مقالة رسله ورد بيناتهم ثم اسم الإشارة الدال على البعد، وإذا كان راجعاً إلى الأخذ دلَّ ذلك على أنه أخذ شديد بعيد فى شدته، ثم التوكيد الدال على مزيد الغضب لأنه توكيد لسبب الأخذ، وهو الموجب له والموجب لغضب الرحمن الرحيم، ثم المجيء بباء السببية التى هى نص فى هذه السببية، ولو قال لأنه كانت تأتيتهم لما كان كما قال لأن التعليل فى هذا ليس كالسببية، ثم كلمة ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وما فى كلمة ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ من الدلالة الظاهرة على أن هؤلاء الرسل ليس لهم فى هذه البينات إلا أنهم أتوا بها يعنى جاؤوا بها وليس لهم فيها شىء، والفاء التى فى قوله ﴿فَكَفَرُوا﴾، أفادت الترتيب من غير مهلة ثم هو ترتيب الشىء على شىء لا يترتب عليه، لأنهم رتبوا الكفر على البينات والأصل أن يترتب عليها الإيمان، وهذا هو س عقد المعنى وعقد الغضب

ومعقد الأخذ، ثم إن هذا الترتيب المتناقض هو الذنب الذى فى الآية السابقة، والفاء فى قوله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ عاطفة على كفروا ومرتبة عليها ترتيبا لا تناقض فيه، لأن الكفر سبب الأخذ وليس المجيء بالبينات سببا للكفر، ثم تكرار كلمة الأخذ المسند إلى لفظ الجلالة الجامع لكل الكمالات، وكان هذا يُغنيا عن جملة الفاصلة وهى ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، وذلك لأن الأخذ إذا كان من الله فهو أخذ قوى وأنه شديد العقاب، ولكن هذه الجملة الفاصلة بما فيها من استئناف مؤسس على التوكيد والإخبار عن الضمير العائد على لفظ الجلالة بأنه قوى ثم بأنه شديد العقاب كل ذلك لا يراد به الإبانة عن ظاهر معناه لأنه معلوم علم ضرورة، فكل مؤمن بالله يعلم أنه قوى، وكل عابد لله يعلم أنه شديد العقاب، وإنما المراد به الإبانة عن شدة غضب الله على هؤلاء الذين جاءتهم البينات فرفضوها، ولم يرتكب الإنسان أبشع ولا أشنع من رفض الدليل والبرهان، لأن كل حق فى الأرض يستند دليل وبرهان، ومن رفض الدليل رفض الحق، ورفض البراهين تعنى أن تتحول حياة الناس على هذا الكوكب إلى جحيم، ولهذا كان النكير الشديد على من جاءتهم رسالهم بالبينات فكفروا، وكان الغضب الشديد وكان البيان الجلى الواضح.

ثم إنك حين تضع جملة الفاصلة السابقة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ بجوار جملة هذه الفاصلة ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ نجد تشابها قويا بين الجملتين ثم ترتيبا لطيفا بين المعنيين، وكان الفاصلة الثانية تعليل للفاصلة الأولى وأنهم ليس لهم من الله من واق لأن الله قوى شديد العقاب.

ثم إنك تلاحظ رجوعا لطيفا خفيا فى قوله: ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لأن المجادلة لم تكن إلا بعد مجيء الرسل. وأن كلمة كفروا المكررة فى الآيتين رباط لفظى واضح.

ثم إن جملة ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ إلى آخره كأنها إعادة لجملة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ التي هي شرح لقوله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والذي هو قطب المعنى فى السورة، وهكذا تجد الكلام فى السورة يرجع بعضه إلى بعض من جهات كثيرة، ويمسك بعضه بعضاً ثم هو عمسك كله بجذر المعنى. والله أعلم.

وكما أنك إذا استصحبت الآية وراجعت الذى مضى ووجدتها بسبب من أكثره مما يؤكد لك أنها من معدنه وأنها امتداد له، كذلك إذا استصحبت الآية ورجعت بها إلى ما بعدها ستجد ضرباً من الوشائج تؤنسك بالعلاقة الحميمة بين كل مكونات السورة، وهذا باب لم يكتشف فى الشعر ولم يستوف حقه فى دراسة القرآن والحديث أيضاً، والمهم الآن أن آية ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وأختها التى هى ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ﴾ هى وطاء ومهاد وباب وبوابة تدخل منها إلى ما بعدها من قصة سيدنا موسى عليه السلام إلى آية ٥٤ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وعندها ابتدأ الكلام حديثاً جديداً ورجع إلى جذر المعنى فى السورة وقال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾.

والآيات من أول ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ آية ٢٣ إلى آية ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ حق آية ٥٥ كأنها جملة واحدة تصور حقيقة واحدة من حقائق الأمم التى كانت أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض وجاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله، وأهم ما يلاحظ أن هذه الحادثة الواحدة لامة واحدة كفرت بآيات الله بُنِيَتْ على المجادلة حول الحق، وأنها كأنها محاوررة بين ثلاثة واحد يجادل فى آيات الله وهو فرعون، وواحد جاء بآيات الله هو موسى عليه السلام، وواحد يجادل عن آيات الله هو مؤمن آل فرعون.

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ .

قلت وأكرر لماذا ذكر هذا الجزء من قصة موسى عليه السلام مع فرعون في هذه السورة؟ وقصة موسى عليه السلام ذات شقين: الشق الأول منها قصة موسى مع فرعون والشق الثاني قصة موسى مع بنى إسرائيل. فلماذا سكنت غافر عن قصة موسى مع بنى إسرائيل؟

ثم لماذا اختارت هذا القسم من قصة موسى مع فرعون؟ ولم تذكر مثلاً ما ذكر في الشعراء من حوار موسى مع فرعون من مثل قوله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣] إلى آخره، وهكذا قل، في الذى جاء منها فى قصة طه والنمل والقصص وغير ذلك من المواضع التى ذكرت فيها أجزاء بأعيانها فى سورة بأعيانها، والذى يقال فى قصة موسى عليه السلام يقال فى قصص الأنبياء جميعاً عليهم السلام، ولك أن تصوغ هذا فى سؤال يقول: لماذا اختير من القصص القرآنى فى كل سورة ما اختير؟ ولم أجد أحداً أجاب عن هذا السؤال إلا تلك الإجابة العامة التى تقول: إن هذا الجزء من هذه القصة أو تلك هو المناسب لسياق السورة، وهذه الإجابة إحالة إلى مجهول هذا المجهول هو سياق السورة وكيف تناسب هذا الجزء مع هذا السياق؟

والذى يجد جواب هذا لا يكتبه للناس إلا إذا كان هو مقتنعا به لانى أعلم أنه صعب جداً، وأنه لا يتأتى على وجهه إلا بعد مزيد من التدبر والتحليل والأناة واليقظة، ولا بد من تحليل السورة كلمة كلمة وجملة جملة ومعرفة

روابط الجمل وروابط الفقرات، ووجوه ترتيب المقاصد، وكيف تتلاقى وتدخل في مقصد واحد هو جذر المعنى في السورة وهو السياق الذي ينساق منه السباق واللحاق، يعنى ما يسبق الآية وما يلحق بها وكيف اندس السياق بسباقه ولحاقه وراء كل جملة وبنائها على الوجه الذى يقتضيه؟ واندس فى كل جملة واختار لها الأجزاء التى تكونت منها؟ حتى إنك لو نقلت جملة من سورة إلى سورة لبا بها موضعها؛ لأنها ذات لون آخر وذات طعم آخر ومن معدن سياق آخر، وكل هذا ضرورى لمعرفة كيف اقتضت السورة هذا الجزء من هذه القصة، وأن وجه الملاءمة هو كذا وكذا، وكل ذلك بعلم وليس بتهویش. والتهویش داخل الحياة العلمية والثقافية لأن كل شىء عندنا مؤسس على التهویش. السياسة كلها من رأسها إلى قدمها تهویش والإعلام تهویش إلا من عصم ربك، وهذه هى مصيبتنا التى لا مخلص لنا مما نحن فيه إلا بعد أن نتخلص منها، قلت هذا لأنى أخشى أن يدخل غير القادر هذا الميدان فيفسد أكثر مما يصلح ويُهيم أكثر مما يبين، وقد أشرت إلى أن الذى جاء من قصة موسى عليه السلام فى هذه السورة كله من باب المجادلة التى توزعت بين مجادل فى آيات الله وهو فرعون، ومجادل عن آيات الله وهو مؤمن آل فرعون، وأن السورة دائرة حول مطلعها الذى هو ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا ظاهر جداً فى هذه السورة.

والواو التى فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ هى واو الاستئناف التى يعطف بها معنى على معنى أو يُقَصُّ بعدها معنى. ثم تعطف قصته على معنى اقتصص قبلها، وهذا مرادهم حين يقولون إنها تُعْطَفُ قصة على قصة يريدون معنى مقتصصا، والمعنى المقتصص المعطوف هنا هو من أول آية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ إلى نهاية الحديث عن آل فرعون لما حاق بهم سوء العذاب، ثم تفسير سوء العذاب بقوله ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وما استتبعه من وصف حالهم وهم يتحاجون فى النار يعنى تتحول المجادلة فى آيات الله فى الدنيا

إلى هذه الحالة ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إلى آخره.

وتلاحظ عناصر توكيد فى الجملة أولها اللام فى قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ثم كلمة قد المفيدة للتحقيق، ثم إسناد الإرسال إلى ضمير مالك السموات والأرض وما بينهما، ثم ذكر الآيات وأن الله سبحانه أرسل رسوله وكليمه فى تسع آيات إلى فرعون فكان ما كان، ثم نلاحظ أن هذا المعنى الذى هو إرسال موسى وما ترتب عليه إلى آخر القصة هو صورة مفردة من صور كثيرة أجملها قوله سبحانه: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ وهكذا كان فرعون، ثم قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وهكذا كان فرعون، وكان الكلام الثانى هو الكلام الأول ثم تفتتح فيه ومنه معان وأحداث وأحوال تفيض فيضاً فيصير بهذا الفيض من الأحداث والمعانى والصور مغايراً للأول مغايرة واضحة، وهذا التداخل الشديد مع التباين الشديد لم أجده إلا فى هذا البيان وهو غنى عن التزيد.

ويلاحظ أن الحق جلت حكمته ووسعت رحمته ذكر أنه أرسل موسى عليه السلام بآياتنا وسلطان مبين، فجمع الآيات والسلطان المبين لثلا يكون للناس حجة، وقد فسروا الآيات بالمعجزات لأن موسى عليه السلام أرسله ربه إلى فرعون فى تسع آيات، وفسروا السلطان المبين بالنبوة، وهذا تأكيد للغرض المسوق له الكلام وهو أنهم جادلوا فيما لا تجوز المجادلة فيه لأنه آيات الله، يعنى الذى له فى كل شىء آية وحين تضاف الآيات إليه ويقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ فإن هذا يعنى أنها قاطعة لكل ريب، ثم هى مع السلطان الذى فوق كل سلطان، وكل هذا يجعلها بمعزل عن أن يجادل فيها إلا الذى من شأنه الكفر أى دفن الحق والصواب وتغطيته، ثم إن كل هذا

تسلياً لرسول الله ﷺ وإحضار صور أكرم خلق الله من النبيين بين يديه وما كان من الأقسام معهم، وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ وأكثر الآيات إلى فرعون وملئه أو إلى فرعون وحده أقول والله أعلم: أن المراد رؤوس الكفر الذين جادلوا في آيات الله، وهم الذين واجهوا موسى عليه السلام بعقل واحد ولسان واحد، وقالوا ساحر كذاب، وتأمل الفاء التي في قوله ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وكيف أفادت أنهم بادروا آيات الله وسلطانة المين بهذا الرد وهذا البهت، وأنهم فعلوا ذلك بلا ريث ولا مراجعة وبفجور شديد، لأن موسى عليه السلام لم يعرف عنه أنه سحر. وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ هذه الآية فيها أشياء لم أجد كلاماً للمفسرين في بيانها، أولها: هذه الفاء التي تعنى أنها ترتبت على شيء قبلها والذي قبلها هو إرسال الله سبحانه لكليمه بآياته وسلطانة الميسن، وقول فرعون وهامان وقارون ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا يعنى أن ثمة موقفاً جديداً قد كان بعد قولهم ساحر كذاب، وأن موسى عليه السلام أظهر آيات ووصفت بأنه عليه السلام لما جاءهم بها جاءهم بالحق من عند الله، ثم إنه ترتب على هذه الحالة الجديدة تغير وتطور في موقفهم، فقد انتقلوا من القول بأنه ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى القول بـ ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، ووراء هذا إشارة إلى أن زمنا تراخى بين إبلاغهم رسالة ربهم وردّها بقولهم ساحر وبين قولهم ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، لأن هذا صريح في أن قوماً آمنوا معه وهذا بالقطع زمن غير زمن البلاغ الأول الذي اعتمد على الآيات والسلطان الميسن، وأن هذا القول الثاني في الزمن الثاني كان مؤسساً على ما وصفته الآية بقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾، ونلاحظ أن التعبير فيه تجسيد للحق وكأنه حى يتحرك مع موسى عليه السلام ويجيء معه، وهذا فيه إشارة ليس إلى قوة الآيات الثانية وإنما إلى قوة ظهورها.

والذى يعين على فهم هذا هو ما جاء فى سورة الشعراء لأن فيها تفاصيل لخطوات بلاغ موسى عليه السلام لفرعون فالآية الأولى فى غافر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٢) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ جامعة وشاملة لما جاء مفصلاً فى الشعراء من حوار موسى عليه السلام مع فرعون إلى أن قال فرعون لما ضَيَّقَ عليه موسى الخناق قال فرعون ﴿لَنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٢ - ٣٤]. ولو فسرت السلطان المبين الذى فى غافر بإلقاء العصا ونزع اليد الذى فى الشعراء لم يكن تفسيراً بعيداً، وقد ترتب عليه القول بأنه ساحر ثم أضيف إليه «كذاب» فى غافر لموضوع المجادلة بالباطل، وليفتح الباب لقول المؤمن ﴿وَإِنْ يَكَادُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾، وأضيف إليه «عليم» فى الشعراء ليفتح الباب لجمع كل سحار عليم.

ثم لما جمع السحرة فى الشعراء واحتشد الناس ليتبعوا السحرة إن كانوا هم الغالبين وقول السحرة لفرعون ﴿أَنْتَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] وقول فرعون لهم ﴿وَإِنِّكُمْ إِذَا لِنَ الْمُقْرِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] ثم انتكس هذا الموقف كله لما ألقى السحرة ساجدين.

أقول هذا فى الشعراء هو المجرى بالحق فى غافر وقولهم ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ من تمام قول فرعون ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [الشعراء: ٤٩].

والمهم أن الحق المذكور فى غافر فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يمكن أن يفسر بالذى عليه ألقى السحرة ساجدين، وقد بدؤوا وهم متحمسون لأجر فرعون وأن يصيروا من ملئه المقربين ثم فوجئوا بما انقلبوا له.

وعبارتهم عن الشيء الذى جعلهم انقلبوا ساجدين قريبة من عبارة سورة غافر فقد قالوا مرة ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢] وقالوا مرة ﴿وَمَا نَنْقِمُ مَنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦] فهى مرة بينات ومرة آيات وهى فى المرتين جاءتهم كما جاء فى سورة غافر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ويمكن أن يقال: إن الذى فى غافر تصوير لأحداث فى زمن متأخر لهذه الملاحظات التى ذكرتها ولأن فرعون قال فى غافر ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. وقد يكون هذا الكلام من فرعون مسبقاً بقول الملائكة من قومه ﴿أَتَنْذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِكَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وتحليل آيات القصص من هذه الزاوية التى تتعرف على المرحلة الزمنية فى قصة الأنبياء التى تناولها الآيات نادر ليس منه فى كتب التفسير إلا لمع قليلة، وربما ابتعد عنه المفسرون لدقته وخفائه والتخرج من الخوض فيه والله أعلم، ثم إن فى هذه الآية التى هى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فيها دلالة على أن شراسة المجادلين فى آيات الله وقوة مدافعتهم للحق تتصاعد بتصاعد قوة ظهور برهانه، لأنهم لما رأوا آياته وسلطانه المؤيد به من ربه قالوا ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فلما ووجهوا بالسحرة ينقلبون ساجدين ويقولون: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠] انتقلوا هم من وصف كليم الله بالسحر لأن هذا لم يعد ممكناً بعدما أكد السحرة أن الذى جاء به ليس هو السحر، انتقلوا إلى استعمال القوة والاضطهاد وقتل الذرية وسبى النساء وهذا فجور بالغ وانحطاط بالغ، ودال من جهة أخرى على أن الذين يرفضون الأدلة الساطعة ليس فى قلوبهم رحمة وليسوا على شيء من الصفات الإنسانية. قلوبهم منكرة، وأن الأثرة والأنانية والحرص على المواقع الموالية لفرعون حوكتهم إلى سباع وذئاب، والأمر لا يزال كما كان من عهد

فرعون موسى عليه السلام، العصابة هي هي وأهل البلاد من المعارضين المخلصين مفسدون في الأرض ومقموعون وتخرب بيوتهم والحلقة مفرغة والشعب يدور فيها ولا يدري أين طرفاها.

وقوله سبحانه ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ فيه إشارة إلى بوار كيد الذين يجادلون في آيات الله، ثم فيه إشارة إلى قوله سبحانه بعد ذلك ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ثم إن هذه الجملة التي قصرت كيدهم على الضلال بأداة القصر التي هي أم الباب تعني أن كل كيدهم في ضلال يعني في تيه وضياع وأنه لم يقع منه شيء، وهذا هو مقتضى جملة القصر، ثم إن المراد بالكيد هنا هو قولهم ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾، وهذا معناه أنهم لم يقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ولم يستحيوا نساءهم، ويرجح هذا الاستنتاج آيات كثيرة ذكرت من نعم الله على بنى إسرائيل أنه سبحانه نجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٤١] والفعل أنجيناكم واقع على بنى إسرائيل وليس على بعضهم، وإنما تتم النعمة بالنجاة لو أنجاهم جميعاً ولم يقع على أحد منهم شيء من سوء العذاب، ويعكر على هذا الاستخراج الجملة الحالية ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ وما عطف عليها، لأن المعنى أنجيناكم حالة كونهم يسومونكم سوء العذاب، ويدفع هذا تخريج يسومونكم وما عطف عليه على معنى الإرادة والتعبير عن إرادة الفعل بالفعل غير عزيز في الكتاب العزيز كما في قوله تعالى ﴿ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا ﴾ [الأعراف: ٤] لأن ترتيب مجيء البأس يكون على معنى أردنا إهلاكها لأن مجيء البأس بعد الهلاك لا يجوز، ويمكن أن يكون من باب التعبير عن مشاركة الفعل بالفعل كما قال زهير: «تداركتما حيسى وذيان بعدما تفانوا» لأن الذي تفانى لا يتدارك، وإنما أراد بعد إشرافهم على التفانى. ويلاحظ أن موسى عليه السلام بقى في مصر زماناً يدعو إلى الله وفرعون ينازعه وموسى عليه السلام

يرد عليه منازعته، فإذا قال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً، رد عليه موسى وقال له: وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً يعني هالكا، ولم يلجأ فرعون إلى السلوك الوحشى فلم يأمر شرطته بتدبير مؤامرة لقتله فى حادث قضاء وقدر كما نرى، أو أن الذى قتله مختل عقلياً، وفرعون ملعون ملعون ولكنه كان رجل سياسة يعرف كيف يسوس أكثر مما يعرف كيف يبطن. والغيبى هو الذى يسوس الناس بالبطش، ثم لما ضاق موسى ومن آمن معه من قومه أراد أن يستفزه من الأرض فأغرقه الله ومن معه

والذى يدلنا على أن موسى بقى زماناً يدعو إلى الله فى مصر على مرأى ومسمع من فرعون وملته آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠)﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿[الأعراف: ١٣٠]. وقوله سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴿[الأعراف: ١٣٣]. إلى آخر ما يدل على أن الله سبحانه ابتلاهم بآياته زماناً حتى يتذكروا ويؤوبوا إلى الحق ويؤمنوا مع موسى عليه السلام، ولا معنى لهذا إلا ما قلناه من أن موسى بقى زماناً يدعو إلى الإيمان بالله وترك دين الدولة ورفض ألوهية فرعون والتمرد على كل ما يدعو إليه فرعون، وكل الذى كان من فرعون هو أنه يخطب فى الناس ويقول ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٦)﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴿[الزخرف: ٥٢]. إلى آخره، ولم يرم موسى عليه السلام فى المعتقلات لأنه يحمل أفكاراً ضارة بأمن المجتمع أو أنه يعكر صفو الأمن العام كما يفعل الفراعين الأغبياء المهزومون.

وبقيت مصر فى زمن فرعون اللعين ساحة مفتوحة للجدل وخالية من إرهاب السلطة حتى ضاق فرعون ذرعاً وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾

وإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿ [الشعراء: ٥٤ ، ٥٥] ، وخرج عليهم بجيشه، وأوحى الله إلى موسى ﴿ فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنِّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣] ثم كان ما كان، والمهم أن الزمن الذى بين تكليف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وخروجه بقومه لا أظنه إلا زمنًا غير قليل. والله أعلم.

وقوله جل شأنه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾

هذه الواو تدل على أنهم قالوا كذا وقال فرعون كذا، وليس بلازم أن يكون قوله مرتبًا على قولهم، ويترجح أن يكون القولان فى زمانين. وكلمة ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ تعنى اتركونى أقتل موسى. وتحتمل أن يكون المأ من حوله كانوا يكفونه عن قتل موسى لأنه لو قتله لشهر أمره، ووقع فى أوهام الناس أن هذا القتل عجز عن الحوار ومقارعة الحججة بالحجة. ويحتمل أن يكون المراد بيان قوة إرادته فى قتل موسى كما يقول الرجل ذرنى أفعل كذا من غير أن يكون هناك من يمنعه، وإنما هو المبالغة فى حرصه على فعل الشئ كالذى يقول:

ذرىنى للغنى أسعى فإبنى رأيت الناس شرهم الفقير

وكما فى قوله جل شأنه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مُمْدُودًا ﴾ [المدثر: ١١ ، ١٢] ويحتمل أن يكون المأ كضوء لأنهم اعتقدوا أن موسى على حق وخافوا أن يتزل بهم سوء لو قتلوه، وقوله: ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ مبالغة فى التحدى وإنكار أن يكون لموسى إلهًا قادرًا على حمايته من فرعون وتهكما بموسى وربه، وقد أدرك موسى عليه السلام هذا الإنكار وهذا التحدى وهذا التهكم فقال: ﴿ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ فعاد بربه وربهم ليواجه قول الملعون ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وقول فرعون ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾ من أكاذيب فرعون،

لأن فرعون خاف على ملكه واستشعر الخطر لما رأى الآيات، ومن بين ما قاله لقومه ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥] وفطن صاحب الكشاف إلى ما وراء قوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من الإحساس بالخطر، ثم إن موسى عليه السلام كان يعلم أن فرعون يعلم أنه نبي وأن ما جاء به من البينات هي من عند الله، وقال له ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاوِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فالخوف ليس على دينهم لأنه يعلم أنه دين فاسد، وإنما هو كلام قاله له الملا الموالي له وجماعة المنافقين المتربحين بنفاق أصحاب السلطان، فقد ذكرت آية الاعراف أنهم قالوا له ذلك في قوله سبحانه ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِكَ﴾ [الاعراف: ١٢٧]، وراجع قول فرعون في سورة غافر ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ إلى آخره نجد كلمة ﴿أَنْذَرُ﴾ عادت على لسان فرعون ﴿ذُرُونِي﴾ وكلمة ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عادت على لسان فرعون في غافر، وكلمة ﴿وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِكَ﴾ في الاعراف هي ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ وهذا معناه أن فرعون كان ينطق بلسان الملا من حوله، وأن أحداث غافر تمثل مرحلة زمنية متأخرة بالنسبة لأحداث كثيرة، وسوف يتأكد هذا في ظهور شخصية رائعة هي مؤمن آل فرعون.

ولا تزال القيادة السياسية المستبدة والغيبية إذا ووجهت بأصحاب الفهم والرأى والاحتجاج تتهمهم بالفساد وترميهم في السجون وتدبر لهم المؤامرات والمكايد محافظة على مصلحة البلاد، وتزعم ذلك وكأنهم هم البلاد، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وقول فرعون ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ راجع رجوعاً ظاهراً إلى قوله تعالى في رأس السورة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وكلامه كله راجع إلى المجادلة في آيات الله التي لا تكون إلا من الكافرين، وتجد تداخل الكلام وارتباط بعضه ببعض وإمساك بعضه ببعض بطريقة لم تصادفتي في

شعر ولا فى كلام إلا فى هذا البيان المعجز، وقد قدم فرعون الخوف على تبديل الدين على الخوف على إظهار الفساد فى الأرض لأنه كان ملكاً يعرف كيف يضبط الملك، وأن الدين فى الجماعة هو خير عاصم يعصمها وخير جامع يجمعها وخير دافع يدفعها، وأن السياسة الناجحة هى التى تغرس هذا الدين فى قلب الجماعة وليست هى التى تحاربه وتؤذى أهله وتهدهم، حتى إن الناس يخفون فى مجتمعهم سمت التدين، هذه سياسة الأغبياء ولا ننسى أن فرعون موسى عليه السلام وهو كافر هالك كان رجل سياسة ووعى كما قدمنا وكما ستقدم، وتاريخه من بين الفراعنة تاريخ سياسى محتك .

وقوله ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ فيه من خبث فرعون ودهائه الكثير، لأن معناه أنه لو ترك وآمن معه من آمن من قومه أو من غير قومه سيظهر فى البلاد دين آخر له طائفة أخرى وبذلك تحدث الفتن الطائفية الناجمة عن تعدد الدين، وتحدث انشقاقات فى الصف الواحد، وهذا هو إظهار الفساد، فالوحدة مع الدين الباطل أفضل من التفرق بالحق. قوله سبحانه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ الواو دالة على أن هذا القول لم يكن رداً على فرعون فى زمن واحد، وإنما هو كلام معطوف على كلام وليس كلاماً متولداً من كلام كما هى قاعدة الفصل والوصل. ثم إنه دال على أن موسى عليه السلام سمع مقالة فرعون أو بلغته فلم يزد على أنه استعاذ بمن لا يخالجه ريب فى أنه سبحانه يعوده، لأنه سمع من ربه لما قال له هو وهرون ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ﴾ [طه: ٤٥] فقال الحق ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقد كانا يعلمان فيه الإفراط والطغيان.

ثم إن موسى عليه السلام وهو فى تلك اللحظة الحرجة لم يخل كلامه من الدعوة إلى الله، فلم يقل إني عدت بربى وإنما أردف وربكم فذكرهم بالذى أنشأهم وأخرجهم من العدم، والكل يعلم أن فرعون يزعم أنه إله وأم يعرف

لهم إلهًا غيره، ولكنه لم ينشئهم من العدم وإنما هي ألوهية الإفراط والطغيان والبطش، فكلمة وربكم يمكن أن تحرك في نفوسهم الشك في دينهم الذي يزعم فرعون اللعين أنه يخاف عليه أن يتبدل.

ثم قول موسى عليه السلام ﴿مَنْ كَلِمَتُكَ لِيَأْمُرُنِي بِتَمَكُّبٍ أَوْ سَوْءِ عَمَلٍ فَلَا تُجِبْنِي يَوْمَ أَذْرُونِي أَقْتُلُ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لوجدت الفرق الهائل بين من يتكلم بلسان النبوة ومن يتكلم بلسان الغطرسة، ثم إن موسى عليه السلام بهذا العدول يعلمنا أن نَحْذَرُ نَمَطِينَ مِنْ أَمَاطِ الْبَشَرِ وَأَنْ نَسْتَعِذَ بِاللَّهِ مِنْهُمَا، الأول: هو المتكبر وأن الكبير ولوازمه من الإفراط والطغيان هو شر كله، وبلاء كله، وحماسة كلها، وجهل كله، وهو مما يجب أن يدفع لأنه ضد الحياة الإنسانية الطبيعية، وضد الإنسان وضد حرمانات الناس في مجتمع الناس. ثم يحذرنا صلوات الله وسلامه عليه من كل نفس إنسانية لا يسكن فيها الخوف من يوم الحساب، لأن هذا الخوف يكف من غلواء النفس إذا همت ويردع غرورها، وكل مؤمن بيوم الحساب هو مأمون الجانب لأنه لا يكون منه إلا ما يعلم أنه سيلقاه في حسابه «والذين لا يؤمنون بالآخرة فلو حبس عليهم منكرهم منكرة»، ثم إن موسى عليه السلام لم يضع لسانه في شخص فرعون لأمر آخر ذكره المفسرون وهو جيد، ذلك أن موسى عليه السلام لم ينس أنه ربي في بيت هذا الرجل وأكل طعامه وسكن في مسكنه وعاش في رعايته، نعم كان طغيان فرعون هو السبب في أن ربي موسى في بيت فرعون، وكانت حماسة فرعون لما قتل ذراري اليهود أيام ولادة موسى لأن المنجمين أخبروه بأن زوال ملكه على يد واحد من أبناء

إسرائيل فكان ما كان، والمهم أن موسى لم ينس هذا وكان فرعون يذكر موسى بهذا ويقول له ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وموسى عليه السلام لم ينكر هذا ويقول لفرعون ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّكُمُ فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١]. يعنى لم أترككم إلا لَمَّا خَفَّكُم، وما عرضت عليك أن ترسل معى بنى إسرائيل إلا لما أمرنى الله بذلك، ووهب لى حكماً، ثم إنك تلاحظ شبهاً مضيئاً بين موسى مع فرعون ويوسف مع العزيز، وكلاهما من ولد يعقوب عليه السلام، يوسف جاء بهم أجمعين إلى مصر وموسى خرج بهم أجمعين من مصر، وليس هذا مرادى وإنما مرادى أن موسى يحفظ لفرعون مَتَّه عليه كما حفظ يوسف للعزيز مته عليه، تهيأت له امرأته وهمت به وقال لها ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، صلوات الله وسلامه عليه، ويا بعد ما بين العزيز وبين فرعون، كلاهما رجل سياسة ناجح جداً، وكانت مصر فى عهد فرعون ظاهرة على الأرض كلها، وكانت فى عهد العزيز تصدر الغلال والطعام للناس من حولها، ولكن العزيز كان شيئاً آخر ولازلت أعجب منه كيف جعل يوسف على خزائن الأرض مع ما أشيع حول امرأة العزيز وأنها تراود فتاها وأنه شغفها حباً إلى آخره، وليس هذا وإنما أمر آخر وهو أن العزيز يحكم بلداً وثنياً ويوسف كان من أهل التوحيد ومن الداعين إلى التوحيد، وكان يجاهر بأنه يترك ملة المصريين ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ويقول لصاحبيه فى السجن ﴿أَرَأَيْتُمْ مَتَّفِرِقُونَ خَيْرًا أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾، ومع هذا كله رأى العزيز فيه كفاءة وحصافة وعلم وأمانة، فأهمل العزيز هذه الخلافات الدينية وأغمض العين عما حدث من امرأته وولاه، لأن الحاكم الذى يستحق أن يحكم والسياسى الذى يستحق أن يسوس هو الذى لا يجعل شيئاً فوق الكفاءة، وهو الذى يستفيد من أكفأ من فى البلد وليس من المنافقين

حواله ولا من وأهل الولاء له، كل هذا ثقافة الرئيس المتخلف والويل للناس من الرئيس المتخلف، وتلاحظ ما قاله يوسف للعزير ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فجعلله العزير على خزائن الأرض وهذا الوصف نفسه هو وصف موسى عليه السلام لما قالت ابنة الشيخ الكبير الصالح ﴿يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] والحفيظ العليم والقوى الأمين وصف واحد للنبيين الكريمين موسى ويوسف ابنا يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

ولا تستكثر على أن أتكلّم عن الذين حكموا مصر أيام أن كانت ظاهرة في الأرض كلها، لأن الهم الذي على صدرى كالجبل، ولا تستكثر أنى أحدث عن العزير وفرعون بلسان المؤرخ وليس بلسان المفسّر، وأختتم هذا بفضيلة لفرعون اللعين وهى أنه ترك امرأته حرة تدين بما تشاء فضرب الله مثلاً للذين آمنوا بها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ وقالوا إنها آمنت بما جاء به موسى لما سمعت بما كان من السحرة، وقالوا إنها كانت من ولد يعقوب، وأنها عمّة موسى عليه السلام، وقالوا عذبها فرعون، وقالوا كلاماً كثيراً، وكل هذا لا يقدح فى أن أمر موسى عليه السلام تسلل حتى دخل مخدع فرعون، وأن فرعون لم يحل بين أقرب الناس إليه وبين الدخول فى دين الله.

وأعود إلى جملة ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وفيها شىء أوماً إليه الرازى وهو هذا التوكيد الذى يؤكد التجاء موسى إلى ربه عند الشدة كما هو الحال والشأن فى الصالحين وأهل الله الذين يلوذون إلى الله ولا يجدون لهم ظهيراً إلا هو، وهو كافيهم وراعيهم وحاميهم ولم يلتفت الرازى إلى التوكيد من حيث هو

توكيد إسناد فحسب وإنما من حيث وقوع الجملة موقعها، وأن موسى قالها لما سمع تهديد اللعين له، وفي تلك اللحظة؛ وأن المطلوب التشبه ليس إلى اللجأ إلى الله فحسب وإنما إلى لحظة اللجأ إلى الله، وأنها هي لحظة الكرب، لك أن تستعيد بالله من الشرور في كل لحظة ولكن الاستعاذة بالله في لحظة الكرب لها عند الله مكان، وهذا ما هُديت إليه آسيا بنت مزاحم لما قالت ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

قال الرازي. فهذا -يعنى التوكيد- يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس هو الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى. انتهى الكلام.

قوله جل شأنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

ذكر أهل العلم أن مجيء هذه الآية عقب التي قبلها دلالة على أن الله سبحانه أعاذ من استعاذ به وهو نبيه وكليمه صلوات الله وسلامه عليه، فسخر رجلاً من صلب آل فرعون يذود عنه ويرمى من ورائه.

وراجع قول فرعون ثم قول موسى عليه السلام، ثم قول هذا الرجل المؤمن تجرد التهديد المستبشع في قول فرعون ثم العياذ إلى الله واللجأ إليه في قول موسى، وموسى يعلم سلم اليقين أن فرعون لن يصل إليه لأن الله وعده أنه معه يسمع ويرى ويحميه من أن يفرط عليه فرعون أو أن يطغى. وما إن استعاذ بالله حتى أعاده برجل من جند الله. وليس في سورة غافر من كلام موسى عليه السلام إلا قوله ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، وليس في القرآن كله كلام صادر من غير نبي

يتكاثر ويتتابع مثل كلام هذا المؤمن الرائع الذى كان اسماً من أسماء السورة لأن من أسمائها المؤمن، وهذه الواوات الداخلة على (قال) فى المواضع الثلاثة دالة كما قلنا على أنهم لم يكونوا فى مجلس واحد، وأنه ليس من تعليق قول على قول، وإنما هو من ضم قول إلى قول، قال الطاهر رحمه الله: عطف قول هذا الرجل يقتضى أنه قال قوله فى غير مجلس شورى فرعون، لأنه لو كان قوله جارياً مجرى المحاورة مع فرعون فى مجلس استشارته أو كان أجاب به عن قول فرعون ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ لكانت حكاية قوله بدون عطف على طريقة المحاورة، انتهى كلامه رحمه الله، وأصل هذا هو ما قاله البلاغيون من أن أساليب المقابلة يأتى بعضها فى إثر بعض بدون واو لأن قول الأول يثير فى النفس سؤالاً يقول وماذا قال الثانى؟ فيأتى الكلام بدون واو على طريقة شبه كمال الاتصال، ومثله حوار موسى مع فرعون فى سورة الشعراء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٢) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لَنْ حَوَلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٧] إلى آخره، فإذا جاءت الواو دلت على أنه كلام يضم بعضه إلى بعض. وليس كلاماً يتولد بعضه من بعض. وهذا من النظر الدقيق فى طرائق العربية فى الإبانة.

والظاهر الذى عليه الجمهور أن الرجل المؤمن ليس من بنى إسرائيل وإنما هو من آل فرعون، وآل فرعون هم أهله وخاصته ولا يقال آل فلان إلا لمن كان منهم بمكان كآل نبينا عليه السلام وهم الذين منه بمكان، وفى كلام هذا الرجل المؤمن ما يؤكد أنه من آل فرعون وليس من بنى إسرائيل كما ذهب إليه البعض. وليس هو الرجل الذى جاء يسعى ويقول لموسى عليه السلام ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] وقوله ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ﴾ دال

على أنه ليس من بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل لم يكن لهم فى مصر ملك وإنما تعبدهم فرعون وبش ما فعل.

وكلام هذا الرجل من أنفـس الكلام وأعلاه سواء فى لفظه وفى معناه، ولنبدأ بحديث الله عنه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وأول شىء فى هذه الجملة أنها ذكرته بصفته ولم تذكر اسمه كما ذكرت الآيات السابقة هامان وقارون وذلك للإعلام من أول الأمر بأعظم مناقبه وهو الإيمان، قالوا وكان ولى عهد فرعون وصاحب شرطته، ويدل كلامه على أنه آمن بما جاء به موسى عليه السلام منذ زمن، وأنه ظل يكتـم إيمانه زمناً وذلك لوفرة علومه فى الدين وفى إنفاذ الله أمره فى الأمم المعاندة، ثم علمه بأحوال الآخرة إلى آخر ما تراه فى كلامه مما يؤكد أنه سمع من موسى عليه السلام كثيراً، وأنه أيضاً احتفظ ببقايا من دين يوسف عليه السلام، وإنما خرج من الكتمان لما وجد نـبى الله يتعرض لمؤامرة من فرعون. ويدل إيمانه بنبوة موسى عليه السلام من أول دعوته على أنه رجل نظراً فى الأدلة باحث يبحث عن الحق والصواب، وقد كان يعى دقائق ما كان من القوم مع يوسف عليه السلام وأنهم لم يرفضوا دعوة يوسف فحسب وإنما قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً، ولم يكن يوسف يـنازع الملك بل كان من رجاله، ويبدو أن الملك كان علمانياً قديماً لأنه أغمض العين عن نبوة يوسف عليه السلام وولاه خزائن الأرض. وليس فى الكتاب ما يدل على أنه دخل فى دين يوسف، والمهم أن الرجل المؤمن كان يحدث بحقائق لا تعرف إلا من الوحي. ولهذا قلت إنه كان يسمع من موسى كثيراً.

وقد رجح البلاغيون أن قوله سبحانه ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ وصف للرجل ولا يجوز تأخيره حتى لا يلتبس المعنى ويظن أن قوله من آل فرعون صلة لقوله ﴿ يَكْتُمُ ﴾ ولم يفهم من الآية والحال كذلك أنه من آل فرعون، ولم يعلق من آل فرعون بـيكتـم إلا قلة قليلة من أهل العلم، وعلى هذا التوجيه الذى ذهب

إليه البعض يحتمل أن يكون الرجل من عامة القبط أو من بنى إسرائيل. وإن كان يعكر على هذا الأخير أن السحرة وهم من بنى إسرائيل لم يكتموا إيمانهم من فرعون، وما إن رأوا آية الله لموسى إلا انقلبوا ساجدين وكأنهم ابتهجوا لنبوة جديدة فى بنى إسرائيل. وقد تهددهم فرعون بأشنع ضروب النكال وهم قلة مستضعفة ولم يتراجعوا وأجابوا طغيانه وتسلطه وقوله لهم ﴿فَلَا قُطْعَنٌ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. بقولهم ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] أى لا ضير علينا، وعجيب أن يواجهوا هذه المجزرة الفاجرة بهذا الثبات وهذا التحدى، وهذا يثير سؤالاً يقول: إذا كان هذا حال هذه الجماعة المستعبدة التى كان يصفها فرعون بأنها «شرذمة» فلماذا كتم هذا الرجل الحكيم العالم بالنبوات وبالتاريخ إيمانه وهو من آل فرعون وله من أهله عصابة تحميه؟ ولم أجد أحداً من المفسرين طرح هذا السؤال فضلاً عن أن يكون أجاب عنه، والجواب فيما أرى والله أعلم أن كتمان إيمانه يؤكد أنه كان من أهل السلطة، وأن له فيها مقاماً وأنه بحكمته يعلم أن إعلانه الإيمان بموسى عليه السلام يحدث زلزالاً فى آل فرعون وكل ما فى الدولة من قوانين ونظم وكهنة ووزراء وأعوان، كل ذلك مؤسس على دين ثابت للدولة، ولذلك كان الربط واضحاً بين تبديل الدين والفساد وكان يأتى على لسان الملام من قوم فرعون وعلى لسان فرعون، فالدين وأصول الحكم من المناطق التى يحظر الاقتراب منها بأى تغيير، وليس مهماً أن يكون الدين حقاً أو باطلاً والمطلوب الاستقرار ولو على باطل كما هو الحال الآن وأى تغيير يهز الاستقرار مرفوض ولما رأى هذا الرجل الحكيم المثقف اليقظ النظار آيات موسى لم يكذب على نفسه كما كذب فرعون وهامان وقارون، وإنما أنصف ودخل فى دين الله، ثم دعت الحكمة ألا يحدث هذا الزلزال، فلما رأى موسى معرضاً للخطر لم يكشف عن دخوله فى الدين كشفاً ظاهراً وإنما وارى ولوح وعرض ودخل بحسم لإنقاذ حياة موسى عليه السلام وسرى ذلك فى تحليل منطقته رضوان الله عليه.

قال سبحانه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] هذا أول كلام الرجل وقد بدأه بهمزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتعجيب والتجهيل والتوبيخ، والمعنى هذا الذى لا ينبغي أن يكون لأنه فعل شنيع ليس له ما يبرره فى منطق العقلاء، وهذا المعنى الذى جعله فى أنف كلامه هو الذى أهاجه وأخرجه من الصمت وجعله يتدخل ليعارض مقالة فرعون، وليقف بحذر وحكمة فى جانب موسى عليه السلام الذى استشعر فرعون خطره واستيقن فى أعماقه صدقه كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وداخله شعور بعيد عميق بأن موسى سيهدم ملكه، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠] كما داخله الفزع والاضطراب والاختلال ووضع نفسه من ملئه موضع المأمور فقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥] الرجل المؤمن الحكيم اليقظ يرى كل هذا ويدركه وهو صامت، ثم جاءت اللحظة التى لا يجوز له فيها أن يتخلى عن موسى عليه السلام.

وقد أدخل همزة الاستفهام على الفعل يقتلون وجعله مصب الإنكار وهم لم يقتلوا موسى. والأصل أن يقول أنهمون بقتل رجل يقول ربى الله، ولكنه لما وجد الفعل منهم عزيمة وفرعون مصر عليه ومشارف له عبر بالقتل عن عزيمة القتل وإرادته، أو قل عبر بالفعل عن مشاركة الفعل فدل ذلك على قوة إرادتهم فى تنفيذه وقرب مشارفتهم لوقوعه.

وأعتقد أن هذا المعنى المجازى فى قوله: أتقتلون هو الذى عجل بدخول هذا الرجل الصالح فى تلك اللحظة التى ما كان له أن يتخلى عن موسى فيها، ثم إننا يجب أن نستحضر شيئاً هو أن الرجل كما يظهر من كلامه كان قد سمع من موسى كثيراً، أو كان ذا ثقافة تاريخية ودينية عالية وكان يقظ القلب حساس

النفس. وكل هذا جعله محباً لموسى عليه السلام، وإذا كان كل من آمن بنبوته نبي ودخل في دينه أحبه كحبه لدينه الذي جاءه به هذا النبي الكريم فإن هذا الرجل يزيد في حبه لموسى بهذه الخصوصيات الشخصية التي رأيناها يتمتع بها من خلال تلك اللغة العالية جداً وهذه الطرائق الحكيمة جداً، وهذا الحب، وهذا الحرص الشديد على نبي الله نراه في هذه الكلمات الثلاثة ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ولاحظ أنه قال رجلاً بالتنكير ولم يكن موسى الذي ربه في بيت فرعون وجاءهم بالآيات البينات وبالحق نكرة، وإنما أراد هذا الحكيم الأريب أن يقول إن هذا المسلك الذي تسلكونه وهو قتل موسى لا يجوز أن يقبل مع كائن من كان، وأنا لا أدافع عن شخص موسى ولا أنكر عليكم قتله لخصوصية فيه، وإنما أنكر أن يكون هذا منكم لرجل أى رجل. وهذا معنى جليل وراء ذكر كلمة رجل، وقوله ﴿ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ واقع موقع المفعول لاجله، أى لأن يقول ربي الله، وحذف لام التعليل هنا لأن المقام مقام تدارك يحتاج إلى الإيجاز السريع، وفيه إشارة خفية إلى أن لسان هذا الكريم الصالح أراد أن ينفذ بسرعة إلى تلك الكلمة التي هي برد على قلوب العارفين وهي ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾، وتأمل اختيار هذا الرجل الصالح لهذه الجملة من بين كلام كثير قاله موسى عليه السلام من مثل قوله لفرعون ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: ١٩] أو ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧] وغير ذلك كثير، وإنما عدل إلى هذا لأنه هو الجذر والأصل من ناحية، ثم في هذه الجملة الشديدة الاختصار منطوق لا يغالب؛ وحكمة لا تدفع، وعقل لا ينازع، لأن معناها أن ربي الذي رباني وأنشأني من العدم وجعل لى السمع والأبصار والأفئدة وجعل الأرض مهاداً ومعاشاً وأنزل من السماء رزقى إلى آخره هو لا غيره الحقيقي بالالوهية وبأن يعبد، لأن تربيتى وإخراجى من العدم وفعل كل ما يلزم لمعيشتى من تسخير ما فى الأرض التى جعل فيها أقواتها التى هى أقواتى كل ذلك لا يكون إلا من الحى القادر القاهر الغالب المتصف بكاملات

الالوهية، فهل الذى يفكر هذا التفكير يقتل؟ ثم يقول من وراء ذلك أيضاً ما لكم ومال عقائد الناس؟ لماذا تحاربون الذين يعبدون الله ربهم؟ دعوا الناس وما يختارون من عقائد، ولا يجوز فى عقل من له عقل أن يقتل الرجل من أجل أنه اعتقد عقيدة تغاير عقيدة جمهور الناس. ويجب أن ترفعوا سلطانكم عن قلوب الناس وعقائدهم، وهذا مستوى من الوعى قد بلغه هذا الرجل فى هذا الزمن الموغل قبل فلسفات اليونان وغير اليونان بقرون ربما قاربت العشرة، وليس فى هذه الجملة ما يشير إلى ميله إلى ما جاء به موسى عليه السلام وإنما هى حقيقة عقلية وموضوعية محضة يقولها كل ساقل حكيمًا كان أو من عامة الناس. وقوله سبحانه ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ جملة حالية تعود إلى الإنكار الذى ابتدأ به كلامه وتزيده إنكاراً واستبشاعاً، وتعود إلى هذا الرجل النكرة الذى قال أعلى وأرفع ما يقوله لسان وهو ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وترفعه إلى مقام المصطفين الأخيار والذين هداهم الله فبهدهم اقتده، والذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، لأنه لا يأتى بالبينات من ربه إلا نبي مختار، وفى هذه الجملة الحالية يكشف هذا المؤمن الغطاء عن حاله أو يُميل الغطاء قليلاً عن الذى كان يكتمه لأنه ذكر البينات ولم يذكر أنه آمن بها، وإنما ذكرها فى سياق التشنيع بمن يُصرُّ على قتل من جاء بالبينات، وهذه الكلمة راجعة إلى أول القصة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ ثم تأمل حكمة الموعظة والقول اللين الذى تراه فى قوله ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولم يقل مثلاً: وقد جاءكم بالبينات من ربه أو بالبينات من الله أو من رب العالمين، وإنما اتجه إليهم وذكرهم بالذى أنشأهم ورزقهم وأنشأ لهم السمع والأبصار وهم يتقبلون فى نعمه، ولا يستطيع فرعون الذى يزعم أنه الإله أن يرزقهم إن أمسك الله رزقهم، هو يلفتهم إلى ربهم المالك لأمرهم والممسك بالسماوات والأرض أن تزولا، والذى جعل لهم جنات وأنهاراً وكأنه رضوان الله عليه لما قال جاءكم بالبينات كان قد ابتعد عنهم قليلاً وانحاز إلى جهة موسى عليه السلام، فتدارك

واقترب وقال هذه البيئات من ربكم، الذى هو ربه وربكم، وبعدما بين شناعة قتل من قال ربه الله وقد جاء بالبيئات وأن مثله لا يقتل إلا بقرارات المسرفين المفرطين.

لم يشأ هذا الرجل المؤمن أن يكون فى صورة من يدعو إلى موسى وينحاز إليه، واكتفى بهذا القدر من التوبيخ والتشيع الذى لم يكتف فيه بوصفهم بالهمجية، وإنما وصفهم بسوء التصرف مع ربهم الذى جاءهم رسول منه بيناته، لأن البيئات لا تكون صناعة بشرية قط وإنما هى أمر الله ساقه الله على من اختاره من خلقه وأرسله إلى عباده فهموا به ليقتلوه، وهذا من أشنع الشناعات، أقول بعد ما ارتفعت حدة الخطاب إلى هذه الذروة رجع الحكيم إلى القول اللين وناصح وجارى وافترض فقال: ﴿وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وهو يعلم أنه صادق لأن الكاذب لا يجىء وفى صحبته بيئات من ربه، ولكن الرجل افترض هذا مجازاة لهم واقتراباً منهم ومناصحة لهم، وليبعد عن نفسه تهمة الانحياز إلى موسى لأن هذا الانحياز يفقد نصحه القبول.

وكلمة ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ كلمة بالغة النفاذ والبلاغة والإيجاز ولكنها شاعت على الأستنا فأغفلنا حسنها وبهاءها، وتأملها لتدرك ذلك. والمعنى فعليه عاقبة كذبه، ولكن العبارة جعلت الكذب عليه حملاً يحمله وثقلاً يثقله، ووراء ذلك من التصوير والإيجاز والمجاز ما وراءه، والمهم أن هذا الكذب عليه لا عليكم، ولهذا كان تقديم الخبر الجار والمجرور هنا مفيداً للاختصاص بمعونة قرائن الأحوال، وهذا أعدل كلام يقال فى التبيه على الخطأ مع أن القوم غارقون فى مستنقع الإفراط لأنهم يقتلون من قال ربه الله وجاءهم بالبيئات من ربهم فهموا بقتل رسول ربهم إليهم.

وقوله ﴿وَأَنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، جملة مقابلة للجملة التى قبلها وحذيت على حذوها وفيها الرفق الشديد والملاينة التى نراها فى قوله

﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ لأن الصادق لا يتخلف وعد من وعده وإنما هي الملاينة والمقاربة من القوم والبعد عن لغة التهديد والوعيد، ثم إنه قدم ﴿وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ من أجل هذا، والإمعان في بعده عن أن يكون في الجهة التي فيها موسى عليه السلام، وقوله ﴿وَأَنْ يَكُ صَادِقًا﴾ معطوف على قوله ﴿وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ وهو وما عطف عليه معطوف على قوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وداخل في حيز الحال، وكل هذا تشنيع على العزم على قتل من يقول ربي الله، والحال أنه قد جاءكم بالبينات من ربكم الذي رباكم وليس ربكم الذي يقول لكم أنا ربكم الأعلى. والحال أيضًا أنه إن يك كاذبًا فعليه كذبه، وكل هذه الأحوال تبعد أن يؤدي فضلاً عن أن يقتل.

ثم إن كلمة إن الشرطية التي بنيت عليها الجملتان المتقابلتان تأتي في الأمر النادر المشكوك فيه، وهي هنا جاءت في معنيين، الأول مقطوع بنفيه وهو كونه كاذبًا، والثاني مقطوع بإثباته وهو كونه صادقًا وذلك لبناء الكلام على سبيل الفرض والتقدير، لأن الرجل المؤمن لم يحدثهم عن ما يراه في موسى عليه السلام وإنما يحدثهم بالذي ينبغي أن يكون مع الذي يقول ربي الله وقد جاء بالبينات من ربه إلى آخره، وهذا الفرض والتقدير يتيح لهم فرصة المراجعة والتحقق من الحالة التي هو عليها، ثم إن الكلام فيه إدانة لمسلكتهم من موسى على كل حال لأنه لا يخلو من أن يكون كاذبًا أو صادقًا ولا ثالث له، وهو في الحالين لا يجوز قتله.

قال الزمخشري في بيان قوله ﴿يُصِبُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ إنه يريد أنهم ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا فضلاً عن أن يتعصب له أو يرمى بالخصم من ورائه، وقال في تعليقه على جملة الشرط: أنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره إلى أن يلاوصهم ويدارهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه. انتهى كلامه رحمه الله.

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ جملة الفاصلة: وهى متناسبة جداً مع طريقة المؤمن فى علاجه للموقف، لأن كلامه موسوم بالأناة والوعى والصدق والبعد عن الإسراف، ثم هو من أول كلامه ينهى عن الإسراف وقتل رجل لا ذنب له إلا أنه قال ربي الله، ثم ينصح قومه بصدق. هذا جانب من هذه الفاصلة وهو جانب عام، أما دراسة خصوصيات بناء ألفاظ هذه الفاصلة ودلالاتها على خواطر ومعانى هذا الرجل المؤمن فأول ما تجده فيها هذا القطع وهذا الاستئناف، وهما دالان دلالة ظاهرة على مزيد من الحفاوة بالمعنى، وذلك لأن الكلام السابق كان يحرص فيه المؤمن أن يتعد عن الانحياز لموسى. فلماذا وجد فى شأن موسى مالا سبيل إلى تجاهله كمجيئه بالبينات من ربه رأيته بعد ذكر هذا الذى هو بطبيعته دال على الميل نحو موسى ما دام قد أكرم من ربنا بهذه الكرامة، أقول: رأيته بعد ذلك يحرص على أن يأخذ مكاناً وسطاً حتى إنه ليميل أحياناً عن موسى فيقدم إن يك كاذباً على وإن يك صادقاً، ثم يأتى القطع والاستئناف بجملة هى فى ظاهرها جملة محايدة ولكنها فى الحقيقة لصالح موقف موسى وإدانة موقف فرعون، فإذا كان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب فموسى ليس مسرفاً ولا كذاباً لأنه جاء بالبينات من ربكم، والله سبحانه وتعالى لا يمنح آياته البينات ودلائل نبواته لمسرف كذاب، ثم إنك ترى مزيداً من العناية بالمعنى ومزيداً من عمق إحساس هذا الرجل المؤمن به، نجد ذلك فى التوكيد «بإِنَّ» وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى وبالجملة بلفظ الجلالة الدال على كمال الكمالات، ثم نجد تلويحاً خفياً فى قوله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ لأن مَنْ اسم موصول وهو مبتدأ ومسرف كذاب خبر والجملة صلة الموصول، وفرق دقيق بين هذا وبين قولنا إن الله لا يهدى المسرف الكذاب، لأن مجيء اسم الموصول وصلته فى قوله سبحانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يعنى أن هذه الصلة أمر مشهور معلوم وأن ثمة شخصاً عرف

بهذه الصلة وشهر بها، وهو بالقطع ليس موسى الذى آتاه ربه البرهان، وما دام ليس موسى فلا بد أن ينصرف الكلام إلى المقابل وهو فرعون، وهو مسرف لأنه ليس فى الإسراف أشنع ولا أبشع من سفح دم من لا ذنب له إلا أنه يقول ربى الله وقد أرسله ربه مؤيداً بالبرهان والسلطان والآيات البينات، فإذا كان سفح الدم إسرافاً فسفح دم الذى جاءنا وفى يمينه برهان من ربه إسراف فوق إسراف، ثم إن الرجل المؤمن الذى هذا عقله وفهمه حين يسمع فرعون يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] لا يشك فى أنه أكذب الكذابين، وكل هذا متضمن فى جملة الفاصلة لتعود به إلى الكلام الذى جرى على سبيل الفرض والتقدير والمناصحة والمداراة أو الملاوصة كما سماها الزمخشري، وتضىء حوله بعض الإضاءات من غير أن يكون الرجل أخذ موقفاً منحازاً إلى موسى عليه السلام، ومحاداً لقومه، وهذا من الهدى الذى عليه هذا المؤمن.

قوله جل شأنه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

انتقل الكلام فى هذه الآيات من معنى إلى معنى ومن أسلوب إلى أسلوب، أما انتقال المعنى فقد كانت الآيات السابقة فى إنكار أن يقتلوا رجلاً يقول ربى الله، وبنيت الآية على جملة ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وتفرع منها ما تفرع، وكأن كل الآية وما تفرع منها داخله ومضمرة فى همزة الاستفهام المشحونة بالإنكار والتوبيخ والتعجب والتجهيل إلى آخره، ثم ينتقل الكلام إلى الدولة والملك والغلبة والظهور فى الأرض. والفجوة تبدو بعيدة بين الكلامين، وأن الكلامين من المخلف، ويجب أولاً أن نحلل الكلام الثانى. لأن المعانى الدقيقة المدلول عليها بخصوصيات اللغة من أهم ما يضىء لنا حفيقة ما جرى فى نفس هذا الرجل المؤمن.

وأول ما يلاحظ هو افتتاح كلامه بقوله نداء، ثم بحرف النداء الذى للبعيد، ووراء ذلك إشعار بأن معنى جلاً ينادى قومه له، لأن النداء إحضار للمنادى حتى يسمع ما يقال وهو شاهد مفاطن ولا يكون ذلك إلا لأمر له خطر وله بال. ثم إنه قال يا قومي. فوصفهم بأنهم قومه وهو منهم وهم منه وقوم الرجل هم الذين يقومون لنصرته ويقوم هو لنصرتهم، وهذا تذكير برابطة حميمة بينه وبينهم ولها مقام فى هذا المقام لأنه ذكرهم بأنهم يدفعون عنه وهو يدفع عنهم، وهو هنا يحذرهم من بلاء لا يستطيعون دفعه ولا يستطيع دفعه عنهم، ولذلك تجد كلمة قومي هنا كلمة متغلغلة فى جوهر المعنى وقوله: ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ جملة لكم الملك دالة على الاختصاص. وفيها إثارة لنخوتهم والمحافظة على عزهم وسلطانهم وغلبتهم، وليس فى حياة المرء أفضل من أن يكون فى وطن عزيز ظاهر غالب قادر على حماية أرضه، وقادر على كسر أنف عدوه، وليس فى الذل أبشع من أن يعيش المرء فى وطن ذليل مقهور، مغلوب، يحميه عدوه القابع فيه أو المستعمر له، وإن كان بعض القيادات غير الوطنية وغير المؤهلة للقيادة أدخلت المستعمر بلادنا تحت غطاء الدفاع المشترك، وهذا شيء يثير الضحك والاشمئزاز معاً، وحياة المرء فى وطن يمتنه عدوه تحت أى تسمية، ولو بموافقة الخونة الذين نسميهم رؤساء وأولياء أمر وملوك وسلطين كل هذا من أشنع ضروب الذل الذى يكسر النخوة، وخصوصاً حين ترى ترابك وتراب آبائك تحت أقدام من يذلون قومك ويذلون تاريخك، ويذلون قيمك وعقائدك، كان الرجل المؤمن صاحب بصيرة حين ذكر قومه بعزهم وسلطانهم وقوتهم وأنهم ظاهرون فى الأرض. وأن كل ذلك مما يجب أن تحافظوا عليه.

وكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ والمجئ بها ظرفاً للجملة قبلها، أجد لها نظائر كثيرة فى الشعر الجاهلى. وإن كان يقال يوم بالتنكير وخصوصاً فى التشبيهات الضمنية مثل قول الخنساء: وما عجول لدى لدى إلى أن قالت يوماً بأوجد منى ومثله كثير،

والذى أفهمه من ذكرها هنا هو الإشارة إلى أن عزهم وملكهم الظاهر والغالب لم يكن فى يوم من أيامهم كما هو الحال اليوم، وأن لكم فى يومكم هذا ما يجب أن تحافظوا عليه، وكلمة ظاهرين فى الأرض يعنى غالبين فيها يعنى أن سلطانكم على أرضكم وثرواتكم، وترايبكم، سلطان ظاهر، وبجوار هذا غلبتكم فى الأرض. ومكانة قوتكم وهيبتكم فى صدور الأمم من حولكم.

فإذا رجعنا إلى الآية التى قبلها لنبحث عن وجه اقتران هذه الآية بالتى قبلها رأينا ترتيباً منطقياً جداً، لأن معنى هذا أن بقاء هذا الملك مشروط بالأسس والقيم الأخلاقية، وليس بالبطش وسفك الدماء والقوة لأن هذه القوة المادية وحدها لا تكفى لبقائه ظاهراً فى الأرض. وإنما لا بد من الأساس الأخلاقى الذى هو الرحمة والعدل والحق واحترام الإنسان، واحترام اختيارات الإنسان، ولا يؤثم من يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ فضلاً عن أن تهموا بقتله، هذا المؤمن الصالح ينفذ بذكائه ومكانته وعلمه، وخبرته، إلى هذه الحقيقة التاريخية والسياسية والأخلاقية، فإن القيم الأخلاقية والأساس الأخلاقى إذا افتقدته أمة سقطت ملكها، ولو كانت ظاهرة فى الأرض. وهذه قاعدة لا تتخلف وتطبق فى كل زمان وفى كل مكان، وبهذا تكون قد رُدِمَت الفجوة التى بين الكلامين الجليلين وصار المختلف مؤتلفاً.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ تجد فراغاً بينها وبين الجملة التى ترتبت عليها، لأن قيام الملك والسلطان والقوة الظاهرة لا يترتب عليها مجيء البأس من الله، ثم لا نجد من ينصرنا منه لأن الملك والقوة والسلطان لا يوجب بأس الله، ولا بد من أن يكون بين الكلامين معنى مطوى من جنس المعنى الذى بيناه بين إنكار جريمة العزيمة على قتل من جاء بالبينات والحديث عن الملك، وكأن الملك يجب أن يصاب بغير هذا الأسلوب الذى تتبعونه، وتحريض كبار الدولة على موسى والقول بأنه سيبدل دينكم ويظهر

فى الأرض الفساد ثم الهَمُّ بقتله، كل ذلك ليس حمايةً للملك وإنما هو تدمير للملك، لأن الظلم والبغى وسفح دماء الكرام هو المعسول الذى لا تخطئ ضرباته مفاصل الملك، وهذا كلام رفيع جداً، وتأمل عبارة الرجل الورع الصالح ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ تجد أولاً أنه لم يقطع بمجىء بأس الله، لأن كلمة إن تأتي فى المعنى المشكوك فيه، وبهذا ابتعد عن التهديد والتخويف الأشد، وجعل فرصة النجاة مفتوحة، ثم إنه قال ﴿يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ وهو يعلم أن بأس الله لا يدفع، ولا يُرد، ويأتى بالاستفهام الإنكارى والمفيد أنه لا أحد، وأن قوتنا هذه الظاهرة واللغو الفاسد المحيط بها من مثل ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كل هذا لا يمدُّ بنصر وإنما العدل والرحمة والمحافظة على أصول القيم الإنسانية الرحيمة التى لا تمُدُّ بالأيذاء للمصالحين من الناس. وهذه معان من أكرم المعانى. والعجيب كما نهت أن هذا الفكر الإنسانى النبيل الذى يحكيه لنا ربنا عن رجل منا كان قبل زمان اليونان بقرون غير ملتفت إليه، ونقوم ونفعد بسقراط وأفلاطون وأرسطو وهم يسحقون، ولكن هناك فى الفكر القديم الشرقى والمصرى والعربى ما هو أجدر بالعناية، ولعل سر العناية باليونان هو الانغماس فى الحضارة الأوربية التى هى امتداد لهذا الفكر، والمهم أنك تجد هذه الثقافة العالية قبل أن تفتح الفلسفة اليونانية فمها بكلمة.

ونلاحظ أن الرجل المؤمن لما سقّه وأنكر قتل موسى لم يعقب فرعون، ولما ربط بين دوام الملك والمحافظة على القيم الأخلاقية وأن حماقة من همَّ بقتل موسى خطر على الملك الظاهر فى الأرض فى هذه اللحظة تدخل فرعون.

قال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وقد جاءت هذه الجملة من غير واو وفى ضوء القاعدة يكون قول فرعون تعقيباً على قول المؤمن، ثم جاءت الآية بعدها بالواو للإشارة إلى أن الرجل

المؤمن لم يشأ أن يطاول الحوار مع فرعون فقال ما قال فى مقام آخر، ولم يعقب على قول فرعون فى المجلس كما عقب فرعون على قوله، أقول هذا مقتضى ما أفهم من القاعدة والله أعلم. ثم إن جملة فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ لم تدخل فى تنفيذ قول المؤمن دخولا مباشراً، والمؤمن أنكر قتل رجل يقول ربى الله. وأندر بضياع الملك وهما أمران ملتصقان بفرعون لأنه هو الذى هم بما يجلب على الأمة بأساً لا يتصر منه، وكان فرعون رأى أنه لا يليق بهيته أن يرد على كلام هذا المؤمن فلجأ إلى أسلوب الغطرسة والاستعلاء والاستبداد، ولم يغير كلامه ولم يصف شيئاً وإنما جاء بجملتين مبنيتين على القصر المؤكد بالنفى والاستثناء، الأولى تأكيد ما يراه وأنه لا يريهم إلا ما يراه، والثانية تأييد ما يراه وأنه لا يهديهم إلا سبيل الرشاد وليس كما سمعتم، وكلمة أريكم بضم همزة المضارعة من قولهم: أراه كذا أى جعله يراه، فإن كان مما يرى بالقلب كالرأى دلت الكلمة على أنه اسبقته كأنه يراه بعينه، ومنه ما جاء فى الدعاء: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه» وقوله جل شأنه ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٠] وقوله سبحانه: ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الاعراف: ١٤٣] ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وكرر هذا الكلام لتذوق شهدة البيان، وجملة فرعون معناها لا أدلكم ولا أبين لكم إلا الذى أراه، يعنى أنى أقدم لكم خالص نصحى. وتحت هذه الجملة نفى أن أكون كاذباً لكم لأن الذى يريك غير ما يراه وهو ما يحرص فرعون على نفيه يكذبك فى رأى، والقرآن دال على أن فرعون كان يكذب على نفسه لأن موسى عليه السلام أراه الآية الكبرى فكذب وقال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰئِرٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولذلك ترى هذه الجملة المؤكدة بالنفى والاستثناء والدالة على أنه لا يريهم إلا ما يراه غطاء للحقيقة وليست هى الحقيقة، والجملة الثانية ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ

إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿﴾ حذيت حذو الجملة الأولى وهي من وجه -توكيد لها ومن وجه آخر إبعاد الخطأ والضلال عن الذى يرى، راجع تجد قوله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ هو قوله ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ لأن الذى يريك الشيء يهديك إليه، وإن كان فى أهديكم معنى زائد لأن الهداية خطوة عملية تلى الإراءة وقوله: ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يقابل قوله ﴿مَا أُرِي﴾ وكأن الذى يراه هو سبيل الرشاد، وليس كما قال المؤمن من أن رأى فرعون وقتل موسى ليس سبيل الغى فحسب وإنما هو سبيل الهلاك والاستتصال، ولذلك جاءت الآيات بعد ذلك لنقض هاتين الجملتين وخصوصاً الجملة الثانية، وقبل أن أنتقل إليها أشير إلى نزعة الاستبداد والغطرسة والعناد وفرض الرأى والكذب على الشعوب، وأن رأى الزعيم هو الرأى وأن رأى الحكيم هو الحكمة، وقد تطرفنا فى ذلك وزدنا على ما كان عليه فرعون قبل ميلاد المسيح بعشرة قرون، ولم يعد الزعيم وحده هو الذى يقول ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وإنما صار نشيداً يُغَنِّيه من يطوفون حول هُبْلٍ ولا بُدَّ أن يتغير كل هذا. هذا أو الطوفان.

قوله جل شأنه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ .

قوله ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ أخت جملة ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ولذلك أراها معطوفة عليها، وأعيدت الواو وكلمة قال ووضع الموصول وصلته مكان رجل مؤمن، وهذا ظاهر فى أن الكلام سيدخل مدخلاً جديداً بطريقة أكثر وضوحاً وأبين تصريحاً، وخلاصتها أن سلوك الطاغية والصمم عنه يدمر الكل ويستأصل الكل، وإذا كان الرجل المؤمن يُلَوِّحُ بذلك فى مثل قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ فإنه هنا يصرح بعذاب الاستتصال. ثم إننا نلاحظ أن الآية لما بدأت بالواو وقال إلى آخره احتفلت

بالمعنى احتفالاً ظهرياً. فقد جل شأنه ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾
 (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿وكان يمكن أن يقول إنني
 أخف عليكم مثل دأب قوم نوح من غير أن يبنى الكلام على البيان بعد
 الإبهام، ولكنه أثر تقرير هذا المعنى في نفوسهم فأبهم يوم الأحزاب
 فاستشرفت النفوس إلى معرفة حقيقته، فلما جاء البيان وأن المراد قوم نوح
 وعاد وثمود والذين من بعدهم تقرر المعنى وتأثل وليس مجيئك الشيء بغتة
 غفلاً كمجيئك بعد التهيئة والتقدمة، ثم إنه أعاد النداء وأعاد كلمة قومي
 ومالها من دلالة على الاقتراب منهم والإخلاص لهم والصدق في
 مناصحتهم، ثم مجيء جملة ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وقد هيأت لها كلمة قومي
 وجعلتها أمكن في معناها، ثم التوكيد، ثم قوله ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ وهو
 إنما يخاف عليهم يوماً مثل يوم الأحزاب، فحذف الموصوف ودلت الصفة عليه
 وفي حذفه إشارة إلى اسهواله وشناعه ما يقع بهم وعليهم فيه من عذاب
 الاستئصال. ولذلك أغمضه ولم يظهره لأنه لا يريد أن يجرى على لسانه يوماً
 يُستأصل فيه قومه، ثم قوله ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ وإعاده مثل وإضافة الدأب
 إليه ولم يقل مثل يوم قوم نوح، أو مثل قوم نوح، والدأب معناه الديدن
 والعادة وما دأبوا عليه وهذا هو المنكر، وكانت عاداتهم وديدنهم ودأبهم
 تكذيب من جاءهم بالبينات من ربهم، ثم إنه ذكر نوحاً عليه السلام ويوم
 قومه وقد أغرقوا بخطيئتهم وكان فيه إحساساً غامضاً بإغراق فرعون وقومه.
 ثم ذكر عاداً ويومهم لما قالوا من أشد منا قوة فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً
 في أيام نحسات، ثم ذكر ثمود وقد أهلكوا بالطاغية، ثم اختصر وقال الذين
 من بعدهم مثل قوم لوط الذين أرسل الله عليهم حاصباً وأصحاب الأيكة. ثم
 إنه قال مثل يوم الأحزاب فأفرد اليوم وجمع الأحزاب، ولم يكن لهم يوم
 واحد وإنما كان لكل أمة يوم، ولكنه لما كان البلاء منه بلاء واحداً وهو الهلاك
 والاستئصال صار كأنه يوم واحد، ثم إن هذا وإن كان يدل من وجه على

علم هذا الرجل المؤمن بالتاريخ القديم وأحوال الأمم ومصارع من حادوا الله ورسوله يعنى العلم بسنن الله فى خلقه وتاريخ الأنبياء، وأنه دال على طول ملازمته لموسى عليه السلام فإنه دال من وجه آخر على أن قومه على مثل هذه الدرجة من العلم بالتاريخ القديم وأحوال الأمم البائدة، لأنه ما كان له أن يخوفهم إلا من شىء يعلمونه، وهذا يشير إلى درجة عالية من العلم فى أمة الفراعنة الأولى، وأن كفرهم وبغيهم وأخذ الله لهم لا يجوز أن يحجب عنا معرفة المدى الذى وصلوا إليه من شيوخ المعرفة الدقيقة والعامّة التى تعم مجتمعاتهم، وأن هذا الإنسان القديم الموغل فى القدم كان له فى العلم قدم، وأن فرعون الجذ كان يقوده ذكاؤه إلى إشاعة العلم فى قومه بخلاف فرعون الغيبى قلت: إن ذكر كلمة ﴿دَاب﴾ قوم نوح فيها إشارة إلى أن الهلاك لم يكن مسبباً عن الأقوام وإنما هو مسبب عن ما ألفوه من ردّ البيئات، وأن هذا الرد كان لهم دأباً وديناً وعادة. وأقول: إن فى هذا إشارة خفية إلى قول فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ لأنه رجع إلى قوله: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ ولم يتزحزح عنه، وبذلك يصير ردّ الذى جاء بالبيئات من ربكم والله به لتقتلوه صار ذلك إن لم يكن دأباً وديناً فهو قريب منه، لأن فرعون اللعين أصرّ على ما أراد وهذا هو باب الدأب.

ثم يلاحظ أن الرجل الصالح غير سفايرة خفيفة بين ذكر قوم نوح وذكر عاد وثمود والذين من بعدهم، لأنه لم يقل مثل، دأب قوم نوح وهود وصالح وإنما ذكر الأقوام وترك ذكر الأنبياء بعد نوح عليه السلام، ووجه ذلك والله أعلم بمراده أن نوحاً عليه السلام كان فى بدئ الخليقة ولم تكن هناك قبائل اتسعت وصارت أمماً وبعث فيها أنبياء، فلم يكن لقوم نوح جد يعرفون به بين غيرهم كما هو الحال فى عاد وثمود، والذين من بعدهم، والقرآن الكريم يبدأ ذكر الأنبياء بنوح عليه السلام، ويقول العلماء فى قوله تعالى. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] أنه سبحانه لما قال ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ

نُوحٌ ﴿ ذَكَرَ أَوَّلَ الْآبِيَاءِ وَآخِرِهِمْ ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ زَمَنٌ مَتَطَاوَلَ بَيْنَ نُوْحٍ وَهُودٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْقُرْآنُ نَبِيًّا بَيْنَهُمَا وَكَانَ كُلُّ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ هُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَهَذِهِ الذَّرِيَّةُ تَكَاثَرَتْ حَتَّى صَارَ وَلَدُ عَادٍ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ أَحْفَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمَّةٌ وَحِدهَا وَكَذَلِكَ قَلَّ فِي ثَمُودَ إِلَى آخِرِهِ ، وَكُلُّ هَذَا مُتَضَمِّنٌ فِي عُدُولِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ عَنِ ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَذْكَرُ فِرْعَوْنَ مَكَانَ ذِكْرِ الْأُمَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٩] . وَإِذَا قَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [النمل : ٤٥] قَالَ فِي جَانِبِ فِرْعَوْنَ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، أَوْ قَالَ : ﴿ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه : ٢٤] . وَلَا أَعْرِفُ وَجْهًا لِهَذَا إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنَّ الْمَجْتَمِعَ الزَّرَاعِيَّ الْمِصْرِيَّ الْقَدِيمَ لَمْ يَكُنْ مَجْتَمَعًا قَبْلِيًّا وَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ قَبِيلَةٌ تَنْتَهِي إِلَى جَدِّ كَعَادٍ وَثَمُودَ .

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ ﴿ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴾ . فَاصِلَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى مَرَاجَعَةٍ لِيُبَيَّنَ سِدَادُهَا فِي مَوْقِعِهَا ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّ هَلَاكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْكَثِيرَةَ ذَاتَ الْعُدَّةِ وَالشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالثَّرَاءِ كَمَا وَصَفَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكَمَا كَانَ يَعْلَمُ الرَّجُلَ الَّذِي آمَنَ وَكَمَا يَعْلَمُ قَوْمَهُ الَّذِينَ يَخَاطِبُهُمْ بِمَا يَعْلَمُونَ يَحْتَاجُ هَذَا الْهَلَاكَ إِلَى بَيَانٍ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَظْلِمَهُمْ ، وَلِذَلِكَ دَخَلَ النَّفْيَ لَيْسَ عَلَى الظُّلْمِ وَإِنَّمَا عَلَى إِرَادَةِ الظُّلْمِ وَنَفْيَ إِرَادَةِ الظُّلْمِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الظُّلْمِ ، بِدَلِيلِ نَفْيِ إِرَادَتِهِ . وَهَذَا مَعْنَاهُ تَفْظِيحٌ وَتَشْبِيحٌ مَا ارْتَكَبَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، ثُمَّ يَرَى الرَّجُلَ قَوْمَهُ بِصَدَدِ ارْتِكَابِ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ الْقَاصِمَةِ فَوْقَ وَحْدَرٍ . وَأَمْرٌ آخَرٌ فِي هَذِهِ الْفَاصِلَةِ وَهُوَ أَنَّ حَرْفَ النَّفْيِ دَخَلَ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْمَقْدَمَ عَلَى الْخَبْرِ الْفِعْلِيِّ فَصَارَ الْكَلَامُ مِنْ بَابِ مَا أَنَا فَعَلْتُ ، وَهَذَا التَّرْكِيبُ كَمَا أَفَادَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ يَفِيدُ الْإِخْتِصَاصَ قَطْعًا ، وَالِإِخْتِصَاصَ مَعْنَاهُ أَنَّ النَّفْيَ مَقْصُورٌ عَلَى الْمَذْكَورِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا إِنَّكَ لَا تَقُولُ : مَا أَنَا فَتَحْتُ الْبَابَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْبَابُ قَدْ فَتِحَ

لأن مقتضى الاختصاص أن يكون الفعل قد وقع من الغير، وهذا معناه أن في هذه العبارة التي قالها الرجل المؤمن إشارة إلى أن ثمة من يريد ظلماً للعباد، وليس هذا إلا الذى يصر على أن يرتكب ما يفضى إلى هلاك القوم وهو فرعون، لأن هلاك هذه الأمم الذين هم قوم نوح وعاد وثمود والذين بعدهم كان لأنهم ردوا مقالة من جاء بالبينات، فكيف بالصر على قتل من لا ذنب له إلا أنه قال ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وقد جاء بالبينات، وهذا واضح فى أنه قسم من دلالة هذه الجملة. لأن هذا التركيب كما قلت له دلالة مزدوجة هى النفى عن المذكور والإثبات لغير المذكور على الوجه الذى نفى به الفعل عنه، فإذا قلت: ما أنا أعددت هذه المائدة تكون قد نفيت عن نفسك إعدادها وأثبته لغيرك، ولذلك قالوا إذا كان مفعول الفعل المنفى نكرة مثل قولنا: ما أنا أعددت مائدة وما أنا رأيت إنساناً وما أنا قلت شعراً كان ذلك كله فاسداً وليس من كلام العرب، لأنه يقتضى أن تكون قد أسندت لغيرك أنه أعد كل مائدة ورأى كل إنسان وقال كل شعر إلى آخره هكذا قال عبد القاهر، وذلك بخلاف ما إذا أدخلت النفى على الفعل وقلت: ما قلت شعراً وما رأيت أحداً من الناس فهذا صحيح لأنه لا يلزم منه أنك تثبت لغيرك الفعل الذى نفيت عنه نفسك على الوجه الذى نفيت، وعبارة الشيخ هى: «فكان خَلْقًا أن تقول ما أنا قلت شعراً قط وما أنا أكلت اليوم شيئاً وما أنا رأيت أحداً من الناس. وذلك أنه يقتضى المحال وهو أن يكون ههنا إنسان قد قال كل شعر فى الدنيا وأكل كل شيء يؤكل ورأى كل أحد من الناس فنفيت أن تكونه» انتهى كلام الشيخ.

وهذا كله يجب أن يراجع فى ضوء قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ لأن النفى دخل على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلى والمفعول نكرة، ولن تجد فرقاً بين الآية وبين ما أنا رأيت إنساناً، وما عدّه الشيخ من الخلف، وأدع هذا لأذكر بما أشرت إليه من أن مجيء مثل هذا المعنى عقب ذكر العذاب فيه دلالة واضحة على شدة العذاب وبشاعته، وأله، وأن هذا الذى نزل بهم

لم يكن من جهة أن الله يظلمهم أو يريد ظلمهم أو يريد ظلم أحد من العباد، وإنما هو من جرم أخطائهم وبشاعة سلوكهم، وليس في البشاعة أبشع من رد الدليل البين، ولم يرتكب الإنسان خطأ أفدح من مدافعة الحق ومحاربتة وإقصائه والانتصار للكذب وللباطل وتقويته، وتجد هذا الطريق في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٦] راجع ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ثم ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ ثم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وكل ذلك يثير الشفقة عليهم فيأتى قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لمزيد من الدلالة على هول ما هم فيه وأن هول ما هم فيه لهول ما ارتكبهه ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾، والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢].

قوله ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على قوله ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ والنداء مكرر، وكلمة قوم المضافة إلى ياء المتكلم والمشعرة بأنهم عزه ونصره والقائمون لنصرته، وكذلك أخاف عليكم بنوكيدها ودلالاتها القلبية أعنى على ما يجده في قلبه من الخوف على قومه الذين هم عزه وقوته ونصره، وكل هذا فيه ما ترى.

ثم إنه يتنقل بكل هذا الهم وهذا الإحساس وهذا الاقتراب البالغ حد الاندماج من حالة من حالات الخوف عليهم إلى حالة أخرى، ولاحظ التدرج بدأ الكلام بفداحة قتل رجل يقول ربى الله، ثم يربط هذا ببقاء الملك الظاهر فى الأرض وأن الظلم وقتل الصالحين يزلزل أركان الملك، ثم يتنقل إلى التخويف من عذاب الله بالاستئصال للأمم المعاندة للحق فيذكر الأحزاب من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يترك هذه المخاوف المتذبذبة على

ظهر الأرض وفي الدنيا إلى باطن الأرض في الآخرة وهم بين يدي الله، وهذا ترتيب عجيب وكلام من أبلغ الكلام وأعلاه وليس فوق هذا المؤمن الصالح إلا أنبياء الله .

وقد أجمع المفسرون على أن يوم التناد هو يوم القيامة، وإنما سُمي يوم التناد لأن أهل الجنة ينادون فيه أهل النار وأهل النار ينادون فيه أهل الجنة، ولأنه ينادى فيه بالويل، وينادى فيه بالثبور، وينادى المؤمن ويقول هاؤم اقرؤوا كتابيه، وينادى الكافر ويقول ليتنى لم أوت كتابيه، وأهل النار يقولون يا ليتنا نرد، والضعفاء يقولون للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا، وهكذا وهذا كثير جدًا.

والمهم محاولة بيان السر في اختيار المؤمن ذكر القيامة بيوم التناد مع أنه لها أسماء أخرى كثيرة أكثر تخويفًا مثل يوم الراجفة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم تشقق السماء بالغمام ويوم الصيحة ويوم تسيير الجبال ومثله كثير في الكتاب العزيز، ولم أجد فيما قرأت أحدًا من المفسرين أشار إلى سر اختيار هذا الاسم، وإن كان الشيخ الطاهر نبه إلى مناسبة لطيفة بين اختياره لذكر القيامة بيوم التناد وندائه لقومه وهذا جيد، ولكنه ليس هو الذي نطلبه، ولم أجد في الذي أطلبه إلا شيئًا واحدًا وهو أن فرعون كان ينادى في قومه في مواطن كثيرة، وقد نادى منذ قليل وقال ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ كما نادى وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص . ٣٨] وقال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النارعات: ٢٤] وقال ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] إلى آخر ما حكى القرآن عنه، وكان خطيبًا يخطب بمعان رديئة ويستخف قومه فيطيعونه. ويستبغثهم فيتبعونه، ومن أهم ما في يوم التناد هو التناد الذي يكون بين الذين استضعفهم الطواغيت من أمثال فرعون فأوردتهم النار وهم يحتاجون فيها ويقول ﴿ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾

وكأن اختيار يوم التناد لتنبه هؤلاء المستهلكين في التبعية والمغيبين تحت ضغوط القَهْر والغطرسَة والاستبداد، ولا مناص لهم من أن يستحضروا الولايات التي يُفَضَى بهم إليها هذا التغييب وهذه التبعية التي استهلكت عقولهم واختيارهم ونظرهم وكل طاقاتهم، ولهذا المعنى أردف يوم التناد بما يكشف عن شيء هو من أسوأ أشياء هذا اليوم وذلك قوله سبحانه ﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ﴾ وهذه عبارة بالغة السخاء وفيها صورة حية من التدافع والفرع والارتباك وافتقاد السيطرة، وذلك لأنها تصف حالة من يساقون إلى النار فيسمعون زئيرها فيولون مدبرين، والتولى الفرار والمدبر هو الذى يفر إلى الجهة التى جاء منها وهناك يجدون الملائكة يَزُحُونَهُمْ زَحًّا ليعودوا إلى ما فروا منه، وهذا من أهول ما فى هذا اليوم، ولذلك كان بيان يوم التناد بقوله ﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ﴾ تدرج فى الإبانة عن أهوال هذا اليوم وانتقال من حالة الصباح والفرع والصراخ إلى حالة الفرار الفاقد للعقل من هول ما يجد، ووراء كل هذا أن هذا الذى تتبعونه لن يغنى عنكم فى هذا اليوم شيئاً فراجعوا موقفكم قبل أن تداهكم هذه الأهوال. وهذه صورة حية لإيقاظ الشعوب المغيبة.

وراجع الإعراب لأنه هو وحده الذى يكشف لك ملامح وجه المعنى. وهذه الملامح هى التى تخلى طريقك إلى معرفة سره، وأعنى بذلك أن قوله سبحانه ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال من ﴿تُولُونَ﴾ وقوله ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ حال من ﴿مُدْبِرِينَ﴾ يعنى حال من حال، وقد قال ﴿تُولُونَ﴾ بصيغة الفعل لأن هذا التولى يتجدد وهم يساقون إلى النار، وكلما سمعوا زئيرها تولوا، ثم جاء قوله مدبرين بصيغة الاسم والفرق بين دلالة الاسم ودلالة الفعل فرق تمس الحاجة فى علم البلاغة إليه كما قال أكارمنا وأكابرننا رضوان الله عليهم، ومعنى هذا أن الإدبار يعنى الرجوع إلى الجهة التى جاؤوا منها كان على ضرب واحد من الثبات والاستمرار وأنهم كانوا فى إدبارهم على حالة واحدة ثابتة لا تتجدد.

ثم يأتي الحال من الحال وهو قوله ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ليسد أمام هذا الإدبار كل المنافذ، لأنهم بهذا الإدبار يريدون الفرار من العذاب، والحال أنهم ليس لهم من الله من عاصم، وجملة ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ دخل فيها النفي على الخبر الجار والمجرور المقدم والمبتدأ نكرة، ومن الداخلة على المبتدأ زائدة لتأكيد الاستقصاء وأنه ما لكم عاصم أى عاصم، ومن الله متعلق بعاصم، وراجع لتدرك أنت ولتكون فى غنى عن كلامى وكلام غيرى، وتبين كيف تكاثرت عناصر التوكيد وداخلت الجملة خصوصيات فى صياغتها وهى أخت جملة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصفافات: ٤٧] والتي يؤكد كثير من البلاغيين أن التقديم فيها للاختصاص وأن خمر الجنة خصوصاً لا تغتال العقول بخلاف خمر الدنيا، ولهذا خولف هذا فى قوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] وكل هذا جيد، ولكن التقديم فى ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ليس دالاً على الاختصاص لأن المعنى لا يستقيم عليه لأنه يؤدى إلى أن يكون لغيرهم من الله عاصم وليس هذا صحيحاً، وقد كثر هذا الأسلوب ومنه ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨] والقول بالاختصاص فى هذه الآية يستقيم لأن المراد بالظالمين الكفار وهم خصوصاً لا شفاعة لهم بخلاف المؤمنين.

قوله جل شأنه ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ جملة مستأنفة وهى فاصلة الآية ومعناها مختلف عن معنى التى قبلها ﴿ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ووجه مناسبتها لها، أنه يدعوهم إلى الهدى ويلح فى الدعاء ويخوفهم يوم الأحزاب ويخوفهم يوم التناد وكأنه يقول لهم هذا كل الذى أملكه لكم، أما تحويل قلوبكم مما هى عليه إلى الهدى فذلك ليس لى لأنه من يُضِلِلِ الله فما له من هاد، وبناء الكلام فى قوله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ هو بناء الكلام فى قوله ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ومعنى الاختصاص هنا

يستقيم لأن المعنى فليس للذى يضلّه الله من هاد، بخلاف من يضلّه غير الله من البشر فقد يوجد له من الله هاد، وتحت هذا المعنى معنى آخر، وهو أن الذى أضلكم ليس هو المعبود بالحق وإنما الذى أضلكم هو فرعون فلا تأسوا من هداية الله لكم، ثم إن فى هذه الفاصلة معنى آخر خفياً راجعاً إلى قول فرعون ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وكلام فرعون هذا عند الرجل المؤمن هو الذى يُفْضَى إلى عذاب يوم الأحزاب وعذاب يوم التناد، وهذه الفاصلة ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لها قرينة تلازمها فى أكثر مواقعها وهى المعنى المقابل وهى قوله سبحانه ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ [الزمر: ٣٧]، وبناء ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ [الزمر: ٣٧] هو بناء ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ وربما كان هذا وأشابهه من باب تأليف المختلف بشريف النظم يعنى حذو الكلام على وجه واحد ليقرب بين المعانى المختلفة ويصير به المختلف مؤتلفاً، وهذه القرينة لم تذكر هنا لأن الرجل يرى قومه غارقين فى ضلالات يقودهم إليها فرعون، ولم ير فى آخر الطريق ما يعين على الإحساس بالأمل، وإنما هو الإفراط فى التبعية لفرعون الذى يكتفى بأن يقول ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وبهذه الكلمة المختصرة يحبط كل اجتهاد هذا المجتهد، وسيظهر لنا ذلك فى آخر كلامه، والمشكلة أن الناس كانوا ولا يزالون يتبعون صوت القوة وليس صوت الحق.

ويلاحظ أن هذا المؤمن لم يخاطب الملأ ولم يخاطب فرعون وإنما خاطب قومه وهو خطاب أشمل لأنه جامع لسواد الناس والشعب المُغَيَّب، لأن التنبيه إلى الضلال والتحول بالموعظة لا يختص به قبيل دون قبيل، وكان من عادة فرعون أن يخاطب الملأ وهم العصابة التى حول فرعون، ومن عادة الملأ أو هذه العصابة أن تخاطب فرعون ولا تتجه بخطابها إلى سواد الناس، وكان الخطاب كله سواء من جهة فرعون أو من جهة عصابته يقوم على الحكم

وتبئته، وليس حول الشعب ورعايته وقد اخترق هذا الرجل المؤمن هذا الحاجز وأحضر في توجيهه وإرشاده كل من يتأني له الخطاب.

وقد قلت إن الفاصلة ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ تستدعى قرينتها التي هي ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ وهذه القرينة غير المنطوق بها والتي لها حضور في النفس عند سماع أختها التي معنا تفيد تكذيب قول فرعون ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لأنه لا يملك الهدى إلا الله سبحانه، وهكذا تجد تياراً مضمراً في الكلام يتجه إلى انتقاد كلام فرعون من غير أن تكون هناك مواجهة حادة، وقد أحرَّ هذا المؤمن المواجهة الحادة إلى موضعها من الموقف كما سنرى.

قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

انتقل الكلام هنا انتقالة غير الانتقالات التي سبقت والتي تسلسلت من قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ثم تحذيرهم من ذهاب ملكهم الظاهر في الأرض. ثم تخويفهم من عذاب الاستئصال، ثم تخويفهم يوم يولون مدبرين ما لهم من الله من عاصم، وكل هذا تدرج منطقي ومرتب ترتيباً رقيقاً، ثم هو هنا يدع هذه السلسلة المتواصلة الحلقات وينقل بهم إلى تحذير آخر وهو أن يفعلوا في مثل ما وقع فيه آباؤهم الأولون لما رفضوا الحق البين الذي جاءهم به يوسف عليه السلام.

وترى أساليب التوكيد تظالعك في كل مواطن النصيح التي يسوقها هذا الرجل لقومه، ترى هذا في اللام وقد في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ كما تراه في قطع تسلسل المعنى الذي مضى والعدول إلى عِبْرَةٍ من عبر التاريخ التي أضعوا فيها خيراً قديماً، ثم هو يتكرر الآن وهم يكررون الموقف نفسه،

وتلاحظ أنه ربط بين النَّبِيِّينَ الكَرِيمِينَ بوحدة الكلمة التي عبرت عن الذي جاء به كل منهما، فقد قال هناك في موسى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقال هنا في يوسف ﴿جَاءَكُمْ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ﴾ وكان موسى هو يوسف وكانكم أنتم هم الذين جاءهم يوسف وكان الزمان والحال لم يتغير، والزمان الذي بين يوسف وموسى حوالى ثلاثة قرون، هذه الثلاثة هي زمن بقاء بنى إسرائيل في مصر ولم يكن منهم أحد خارج مصر لأن يوسف قال لأخوته ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] يعنى أولاد يعقوب عليه السلام الذين هم بنو إسرائيل. ويوسف عليه السلام هو الذى أدخلهم مصر وموسى هو الذى أخرجهم من مصر.

والبيئات التى جاء بها موسى عليه السلام معروفة تسع آيات إلى فرعون وقومه، أما بيئات يوسف عليه السلام فلا تعرف عنها فى الكتاب العزيز إلا أن الله علّمه من تأويل الأحاديث، وهذا التأويل لازمه من يوم أن قال لآبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]، ثم فى تأويل رؤيا صاحبيه فى السجن، ثم فى تأويل رؤيا الملك، وهكذا إلى أن قال ﴿رَبِّ قَدْ أَتَيْتِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وهذا التأويل هو آية يوسف عليه السلام لأن التأويل على الوجه الذى كان من يوسف عليه السلام وما فيه من تحديد وتفصيل لا يكون إلا من الله، وقد قال له أبوه ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦] وهذه النعمة التى أتمها الله على إبراهيم وإسحاق هى النبوة وهى أيضاً اجتناب ربه له، وقد قالوا إن يوسف عليه السلام لم يؤمر ببلاغ رسالة إلى ملك مصر وإنما عايش الملك وسأله وطلب منه أن يجعله على خزائن الأرض فأجاباه الملك، وقد بين

يوسف عليه السلام فساد عقائد المصريين وهو يدعو صاحبيه فى السجن وذلك فى قوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وفى قوله: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾، ومعنى هذا أن المصريين الذين آمنوا بالحياة بعد الموت كانوا يعبدون آلهة متفرقة، يعنى كانوا وثنيين وإن لم تكن عندهم أصنام، وذكر الشيخ الطاهر أن يوسف عليه السلام لم يُذكر فى الرسل.

وهناك فرق كبير بين يوسف وموسى عليهما السلام، لأن موسى عليه السلام أمر بالبلاغ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنِي ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩] ويوسف لم يؤمر بمثل ذلك، ولذلك كان الحديث عن يوسف عليه السلام مختلفاً قال الرجل المؤمن ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ قال العلماء: إنهم لم يردوا دعوته لأنه لم يدعهم وإنما رأوا منه الآيات التى بيّناها، وكان هذا يوجب عليهم أن يقفوا وأن يراجعوا ما كان عليه يوسف عليه السلام فإن رأوه خيراً اتبعوه ولكنهم لم يفعلوا وهذا هو وجه المعاتبه، وقوله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ فيه معنى أنه طالعت صحبتهم له وقضى عمره بينهم وهو على الحال التى يكون عليها الأنبياء عليهم السلام فى التوحيد والعلم وتأويل الرؤيا، وهم على أربابهم المتفرقين لم يرجعوا عن الذى هم عليه مع ظهور باطله إلى الذى هو عليه مع ظهور حقه، والعاقل هو الذى إذا رأى الصواب انحاز إليه وإذا تبين له الخطأ انخلع عنه، وراجع جملة ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ ﴾ إلى قوله ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ ونقول: مازال فلان على حال كذا بمعنى ظل ثابتاً عليه لا يريم عنه، وهكذا كانوا مع الشك فى يوسف عليه السلام لم يقطعوا بثبوت فلم يتبعوه، نعم لم يقولوا اقتلوا يوسف ولم يقل الملك ذرونى أقتل يوسف، لأن يوسف

كما قلنا لم يؤمر بالبلاغ، وكان أصل الصراع ليس هو الآيات البيّنات لأن هذا مشترك بين يوسف وموسى ولم يحدث صراع مع يوسف، وإنما أصل الصراع المطالبة بالتغيير فى العقائد الذى سينال بالقطع تغييراً فى أصول السياسة والانقياد لفرعون وما يتصل بذلك من تقديسه وتأليهه وكهنته، وهذه هى الصخرة التى ارتطمت بالنبوة، ثم إنك تجد علاقة خفية ولطيفة بين ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ﴾ وقوله فى الفاصلة ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ لأن بقاءهم زمن يوسف وهو بينهم يسمعون منه ملة آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويرون تأويله الذى يكون كفلق الصبح ثم لا يزالون منه على شك هذا إسراف فى الارتياب، ثم إن هذا الإسراف فى الارتياب قادهم إلى شناعة هى الاجترار على الله والكذب عليه وذلك قولهم ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ولا يجوز لأحد أن يتكلم عن الله إلا بوحى منه، فكيف ساغ لهم أن يبتوا الأمر ويحكموا بانقطاع رحمة الله ومنه وفضله على خلقه بإرسال أنبيائه ورسله، لأنه ما من نعمة أفضل من نعمة إرسال الرسل التى يخرج الله بها عباده من الظلمات إلى النور، ثم إنهم سخروا من يوسف عليه السلام حين قالوا ﴿مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ مع أنهم لم يؤمنوا بأنه رسول ويوسف عليه السلام لم يقل إنه رسول وقد قال فرعون فى موسى مثل هذه المقالة القديمة التى قالها آباؤهم فى يوسف وذلك فى قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] فوصفه بأنه رسول من باب السخرية التى تطوى وراءها إحساساً غائراً بصدق هذا الرسول والعلم القاطع بأن آياته لا تكون إلا من رب السموات والأرض بصائر، ولذلك لم يفتأ بعدما قال هذه الكلمة الساخرة ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أن قال لقومه ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥] فاستشعر الوجع واستبطن الحقيقة وأنه سيخرجهم من أرضهم ثم تصاغر وقال ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ .

والذى أختتم به الكلام فى هذه الآية هو أن مقصود هذا الرجل المؤمن من كل هذا التخويف والتهديد هو أن ينكف قومه عن موجبات سخط الله، وأنعم بتخويف وتهديد يردع عن موجبات سخط الله.

وأمر آخر أريده وهو أن الكلام جرى فى الآية على خطاب الذين جاءهم يوسف بالبينات وأنهم مازالوا فى شك، وأنهم قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا، مع أن هؤلاء قد ذهبوا منذ ثلاثة قرون وجيل فرعون موسى غير جيل الملك زمن يوسف عليهما السلام، وقد تخطى هذا الرجل الصالح الزمن الذى هو فيه ورجع إلى الزمن الأسبق ولم يجعل فى كلامه كلمة واحدة تشعر بالمجاز، وإنما الكلام قائم على أن هؤلاء المخاطبين هم أصحاب يوسف عليه السلام.

وهذا وإن كان كثيراً فى كلام الله وكلام الناس ولا اعتراض عليه من جهة صحته فإن السر الذى وراءه عما يجب أن نبحث عنه، وليس فى كتب التفسير التى بين يدي ما يشير إلى أن أحداً نبه إلى ذلك. وربما كان المراد والله أعلم هو التنبيه إلى أن العقائد وما يتصل بها من أحوال الناس خليقة بأن تتجذر فى نفوس الأجيال، لأنها لازمتها فى نشأتها وربيت عليها وجُبلت، ومهما انطوت عليه من أخطاء تخالف فطرة النفس فإن الأجيال تظل تحتفظ بها موروثات غير قابلة للتعديل والمراجعة، وأن حالها عند أحفاد الأحفاد كحالها عند أجداد الأجداد، وأنك حين تخاطب بها الوارث الذى ورثها عن جد جده منذ ثلاثة قرون كأنك تخاطب بها الجد، لأنه لا يتغير منها شيء ولأنها تنتقل عبر الزمن الطويل والأجيال المتعددة والأحوال المختلفة وهى هى لا تزول ولا تحول وهذا من أوصاف البشر، ولهذا قالوا لموسى كما قال غيره لغيره ﴿أَجِئْنَا لِتَلْفِئْتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨] وبهذا يكون هذا الرجل الصالح قد وضع لسانه على داء الأمم الذى أصاب قومه ولكنهم لم يأخذهم الله زمن يوسف كما أخذ قوم نوح وعاد وثمود والذين بعدهم

لأن يوسف لم يؤمر بالبلاغ، وإنما كانت نبوة صامتة وعبادة على دين آباءه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والمصريون يعبدون أرباباً متفرقة ولم يدركوا الخيرية التي في قوله ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقد صوّرت سورة الزخرف هذا الداء الذي أصاب الأمم وكيف كانت تثبت بموروثها العقائدي وترفض التخلي عنه وتقول بصراحة: إنها ترفض أن تستبدل به ما هو خير منه ولو ظهرت لها هذه الخيرية ظهوراً لا يلتبس.

قال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٤].

راجع الآية وهي أطول آية عاجلت هذا الشأن الإنساني الخطير، وتأمل الإصرار الشديد على رفض ما عند الغير ولو كان أهدي مما وجدوا عليه آباءهم، ولهذا كان السابقون الذين استطاعوا أن يتزوعوا نفوسهم من العقائد المتشبهة بهذه النفوس وآمنوا بما جاء به رسل الله كان لهؤلاء السابقين عند الله مكان أى مكان وقد سُموا في الإسلام أهل السابقة، وهم الذين معه صلوات الله وسلامه عليه وهم الصادقون ومثلهم كمثل الحواريين الذين قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] هذا والله أعلم. قلت: إن خطاب أحفاد الأحفاد بما كان من أجداد الأجداد كثير في الكتاب ومنه قوله سبحانه في خطاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وكان الذين سألوا محمداً هم هم الذين الذين سألوا موسى ويا بعد ما بينهما،

وأقول: هذا مما يجب أن يجمع وأن يدرس وأن نستخرج أسرارها لأنها إضاءات في غاية الأهمية، وفاصلة هذه الآية فيها مزيد من الغضب ولو قورنت بالفاصلة قبلها لظهر فيها هذا المزيد لأن التي قبلها تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وهذه تقول ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ وفرق بين من لا يهديه الله ومن يضلله الله سبحانه؛ والمقصود من الفاصلة هناك أن موسى عليه السلام ليس كذاباً لأن الله هداه بالبينات وبالحق ولو كان كذاباً لم يهتد، والمقصود هنا التخويف من هذا الداء الويل الذي أهلك الأمم وهو التسليم المطلق من العدد الكثير في الأجيال المتعاقبة والأزمة المتتابعة بما أسسه الضلال الأولون في عقائدهم وواجهوا به الذين جاؤوهم بالبينات والهدى، لأن هذا التسليم المطلق يدمر كل محاولة تحاول أن تخرج الناس من الأسوأ إلى الأحسن، ويصير هذا التسليم المطلق جداراً غيبياً يقطع الطريق أمام من جاءوا من الله بسطان وبرهان، وراجع الفواصل الثلاثة في المصحف، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ... وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾. وكيف فتحت كل فاصلة باب معنى الآية بعدها وهذا شيء ظاهر، وأيضاً كيف كانت هذه الفواصل الثلاثة بمثابة حلقات متتابعة في نسق منطقي واحد، الأول: الله لا يهدي المسرف ثم يتدرج هذا المعنى ويرتقى من نفي هداية المسرف إلى حقيقة نظرية تقول من يضلله الله لا يهديه أحد، ثم ترتقى هذه الحقيقة وتدخل باب التطبيق وتقول ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، وهذا من البلاغة العجيبة التي لم تدرس. قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرُ مَقْنَا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾.

أول شيء ننظر فيه هو معرفة العلاقة بين المسرف المرتاب الذي يضلله الله في الآية السابقة وبين من يجادل في آيات الله بغير سلطان، والعلاقة واضحة جداً

لأن من يجادل فى آيات الله صورة لمن أضله الله، وكأنها بمشابهة ضرب مثل للفاصلة التى قبلها، ثم هى مع ذلك تصف مرتبة أعلى وأكثر شططاً من الصور التى قبلها، لأن الذى فى شك من النبوة أو الذى يرد الآيات البينات هو أقل فى العناد والإلحاد من الذى يجادل فى آيات الله، لأن الأول ينكر الحق ويرفضه فحسب ويرفع يده وهذا يدحض الحق نفسه ويبطله وبينهما فرق كبير، ثم إن هذه الآية لما صعدت وترقت فى وصف أهل الكفر رجعت إلى الآية الأم التى فى أول السورة وهى ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، وأمست بها وكأنها حين تتكرر فى السورة تكون بمثابة ركائز ومحاور تشد مكونات السورة نحو جذرها الأسمى وتحضر إلينا الرأس مرة ثانية حتى لا ننساه ثم تلاحظ أن الذى جاء بعد ذكر المجادلة فى آيات الله المذكورة فى أول السورة تهديد ووعيد ظاهر فى قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ والذى جاء مع تكراره هنا قوله سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الأول تهديد ووعيد بأخذ الله لهم فى الدنيا وهنا إخبار عن أشد البغض من الله لهم، والمقت أشد من البغض.

رفض الآيات سوء وأسوأ منه المجادلة فيها لأن المجادلة لا تعنى الانصراف عن الآيات ولا حث الناس عن الانصراف عن الآيات وإنما تعنى ما هو أسوأ من ذلك، تعنى دحض الحق وهدمه وكأنه لم يكن، وليس فى السوء أسوأ من هذا، وهذا هو سبب مقت الله لهم. المصيبة الأعظم هى اغتيال الحق. وبعد بيان موقع الآية وهذا مهم جداً وإن كان بغمض أحياناً أعود إلى تحليل الآية وأول شىء هو أن الطاهر وهو على حق يُرَجَّحُ أن الكلام من قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون، قال: فإن هذا من المعانى الإسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى تعريضاً بمشركى قريش. أى كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب

أمثالكم، ثم أيد الشيخ الطاهر هذا بقوله سبحانه ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنه لا يتصور أن يكون مؤمن آك فرعون قالها لأنه لم يكن معه مؤمن بموسى وهارون غيره حين قال هذا فكيف يقول وعند الذين آمنوا، ولو صح ما قاله الطاهر لكان هذا القول قد كان منه قبل إيمان السحرة ويكون المؤمن قد اسنوعب من نبوة موسى عليه السلام هذا القدر الهائل قبل إيمان السحرة، ويكون هذا المؤمن قد آمن بموسى قبل يوم الزينة وأن يحشر الناس للقاء السحرة مع موسى عليه السلام، وكل هذا ممكن وإن كان يكدره قولهم اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه لأنها تعنى ردّ قول الطاهر لم يكن معه مؤمن بموسى وهارون غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ سواء كان من كلام الله جاء معترضاً بين كلام المؤمن وفرعون كما هو الراجح أو كان من تمام كلام المؤمن كما هو المرجوح، فهو انتقال ظاهر وتغيير ظاهر في انسياب معاني كلام المؤمن من قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ إلى قوله ﴿جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لأن الكلام هنا ينتقل من الممارسات التي يحذر المؤمن منها إلى بيان قاعدة كلية هي بمثابة الجامعة لكل الذي مضى. وليس فيها ما يشير إلى أنها متوجهة إلى قوم الرجل كما هو الحال في كل الذي مضى، ثم إن إضافة الآيات إلى الله في قوله ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ وكان يمكن أن تأتي من غير إضافة كما سبق في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أقول هذه الإضافة مؤذنة بما سيأتي بعدها لأن إضافة الآيات إلى لفظ الجلالة الجامع لكل الكمالات لا يجادل فيها من له عقل يمارس به الاحتجاج والجدل، لأن الآيات المضافة إلى الله يجادل عنها ولا يجادل فيها ويحتج بها ولا يُحتج عليها، وكل هذا يشير إلى بطلان هذه المجادلة، لأنها تلبس وتشويش ولجاجة كالتى نراها حولنا من طوائف الملحدين وقوله سبحانه: ﴿بَغِيرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ السلطان معناه البرهان والدليل، وليس معنى هذه

الجملة أنه يمكن الجدال فى آيات الله بسلطان وبرهان، لأنها كما قلت يحتج بها ولا يحتج عليها، وإنما فيه إشارة إلى مزيد من البيان لفساد هذا الاحتجاج، لأنه لا احتجاج بغير سلطان وأى احتجاج بغير سلطان هو كلام وعجيج وضجيج لاغير، وهناك دلالة أخرى أرجو أن تكون صواباً، وهى أن هذه الجملة تشير إلى أن السلطان الذى هو البرهان عند الله بمكان، وأنه سبحانه يفسح للبرهان والدليل إفساحاً أى إفساح، حتى إن هذا الدليل لو وجد سيلاً إلى الدخول إلى آيات الله فذلك له، ولكن هيهات وأن الله سبحانه وتعالى إنما جعل آياته البينات قائمة على سلطان الدليل الذى هو سلطان العقل وأنه طريق الإيمان بالغيب وأن الله سبحانه يعلى من شأن النظر والاستدلال لأنه الطريق الذى يصل بالعبد إلى معرفة ربه، وقد ذكر السلطان فى مواقع كثيرة من القرآن وهذا من أكرم مواقعه وأدلهها على سطوعه قاعدة فى أصل الإيمان، وقد فسر الشيخ الطاهر كلمة ﴿أَتَاهُمْ﴾ التى هى وصف للسلطان بمعنى ظهر، وعليه يكون من المجاز المرسل لأن الظهور مسبب على الإتيان، وأراد بالظهور أنه لاح فى عقولهم كأنه يأتهم من داخلهم ويلوح فى عقولهم من النظر والمراجعة والتثبت، وبهذا يكون تأكيداً لنفى السلطان فى الاحتجاج على آيات الله نظراً لقوة البرهان القائم فى آيات الله، لأنه لا يأتها الباطل، أى لا يتطرق إليها باطل.

ولم تات جملة ﴿أَتَاهُمْ﴾ وصفاً للسلطان إلا فى هذه الآية وفى أختها فى السورة نفسها فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.

ومجىء المضارع فى قوله ﴿يُجَادِلُونَ﴾ إشارة إلى أن هذه المجادلة حدث يتجدد منهم وشاغل لهم يزاولونه الوقت بعد الوقت كما ترى من الكتاب المضادين للإيمان بالغيب والمحاديين لتحكيم شرع الله فى خلقه كما أمر، وخبر الذين يجادلون قوله سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾،

وكبر مقتاً المراد به الذم ومعنى كبر اشتد وعظم ومقتاً تمييز محول عن فاعل، والفاعل ضمير يعود على الجدال المفهوم من الكلام السابق، أى كبر الجدال مقتاً، وأصل الكلام كبر مقت الجدال كما تقول ساء الجبن خلقاً وساء النفاق سلوكاً، والأصل ساء خلق الجبن وساء سلوك النفاق، وهذا التحول فى الإسناد أكسب العبارة مذاقاً آخر لأنك نقلت إسناد السوء من خلق الجبن إلى الجبن ومن سلوك النفاق إلى النفاق فصار السوء فى الجبن نفسه وفى النفاق نفسه، وبمثل هذه الفروق يتميز كلام من كلام، فالذى كبر عند الله وعند الذين آمنوا هو الجدال بالباطل كبر الجدال وكبر مقته، وهذا أسخى وأبلغ، ثم إنه كبر عند الله، وفى ذكر هذه العنودية المضافة إلى لفظ الجلالة من الغضب والتهديد والوعيد ما فيه، والمقت أشد البغض وقوله سبحانه: ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه من التقريب لهم والتكريم ما فيه، وحسبهم أن عنديتهم مقترنة بعند الله، وأنهم من الله بمكان، ثم إنها تشير من قريب إلى الرجل المؤمن وأنه بجذاله عن آيات الله صار عند الله بمكان قريب كما قال سبحانه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، ثم إنها تشير أيضاً إلى أن الناس فريقان فريق يجادل فى آيات الله وقد كبر مقتاً عند الله وفريق يجادل عنها وهو عند الله فى المحل الأرفع، ثم إنها أيضاً تشير إلى فرعون الذى جادل فى آيات الله بغير سلطان وإنما باللجاجة الفارغة، ثم إن اسم الموصول وصلته ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ منبئ ببناء الخبر ولا تجد أحداً أبغض إلى الله وإلى أهل دينه من هؤلاء المجادلين فى آيات الله لأنهم لم يكتفوا بالكفر بها وإنما قاموا بالتشويش عليها وقصدوا إلى دحضها وإطفاء نورها، هم الفريق الذى جاء ذكره فى سورة المجادلة هم الذين يحادون الله ورسوله، ويقابلهم الفريق الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان، وناهيك عن قوم يكتب الله الإيمان فى قلوبهم بيمينه سبحانه، وهذا الفريق الذى هو عند الله بهذه المثابة لا يجوز له أن يتخلى عن الجدال عن آيات الله ودفع الباطل عنها مادام

فريق المقت باقياً يجادل فيها، والزمان الذى أكتب فيه هذا زمان شدة الفريق
المجادل فى آيات فريق المقت ويسانده من يسانده ولا تملك إلا أن تكتب .

قال الرازى: الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت
بعض عباده إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل فى حق الله كالغضب والحياء
والتعجب، والتأويل يعنى صرف هذه الكلمات عن معناها إلى معان تليق
بالذات الإلهية وتبتعد عن المشابهة بالحوادث، لأن الله ليس كمثله شئ .
ويقول السلف . إن لله غضباً ليس كغضبنا وحياء ليس كحياتنا ومقتاً ليس
كمقتنا، وكلام السلف وكلام الخلف متفق على نفى المعنى المعروف من هذه
الكلمات عن الذات الإلهية، وهذا النفى لا كلام فيه، ثم يمسك السلف عن
بيان المراد ويقولون الله أعلم بمراده، والخلف يقولون: إن الله أنزل كتابه
بلسان عربى مبين وحين لا يجوز حمل الكلام على الحقيقة فقواعد اللسان
المبين أن يحمل على المجاز، ولذلك يصرفون الكلام عن حقيقته إلى ما يليق
بذاته، ولا يجوز لأحد أن يشك أن السلف والخلف قاصدان إلى التنزيه وأن
ما اختلفوا فيه هو من باب الاجتهاد، ولذلك لا أجد مبرراً لهذه الحمية التى
أجدها فى علاج هذا الشأن لأننى لا أشك ولا يجوز لغيرى أن يشك فى أن
الخلف حين صرفوا هذه الكلمات إلى معان تليق بذات الله ولم يفوضوا
علمها إلى الله كما فعل السلف لم يكن يخامرهم شك فى أن هذا مما
يحتمله كلامه سبحانه، لأنه لو خامره شك فى أن هذا مما يحتمله كلامه
سبحانه وأصروا عليه لا يكون هذا تأويلاً وإنما يكون تحريقاً لكلام الله وتبديلاً
له، ومن فعل هذا فليس من أهل القبلة، هذا والله أعلم .

وكلمة المقت فى هذه الآية تتواصل مع أختها فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ومقت الله لهم قائم فى
الآيتين، ومقت الذين آمنوا فى هذه الآية يقابل مقتهم لأنفسهم لما رأوا النار

التي كانوا بها يكذبون وقالوا فهل لنا من خروج من سبيل، وكل هذا من ترابط الكلمات والصيغ وعقد التشابه بين مكونات السورة، وقد سبق أن قلنا إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ لم ترد في القرآن إلا في آيتين من هذه السورة، وهذا يؤكد ما استخرجه الرازي من أن آية ما يجادل في آيات الله هي جذر معاني السورة.

ثم إن كلمة كبر مقتاً عند الله لم ترد في القرآن إلا في آيتين، في هذه الآية التي تتحدث عن الجدل في آيات الله وفي آية سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وهذا كلام مخيف جداً لأن الله أنكر قول الناس بما لا يفعلون بالعبارة التي أنكر فيها المجادلة بالباطل في آياته، وهذا زجر للعلماء وغير العلماء من الذين يكون كلامهم في واد وفعلهم في واد آخر، والأصل أن يتطابق القول بالعمل وأن يتسق السلوك مع الفكرة وأن تتطهر حياة الناس من هذه الازدواجية الضارة التي تسمع فيها كلاماً يروك ثم ترى فعلاً يسوءك، والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

فاصلة ترجع إلى التي قبلها وتمسك بها وذلك بواسطة الكلمة التي هي أنف الفاصلتين وهي كلمة كذلك، والكاف داخله على اسم الإشارة والمراد به في الآية الأولى كذلك الضلال يضل الله من هو مسرف مرتاب، والمراد هنا كذلك الطبع بطبع الله على كل قلب متكبر جبار، فأفادت الكاف الداخلة على اسم الإشارة تعميم هذا الضلال أو هذا الطبع على كل مسرف مرتاب وعلى كل متكبر جبار، ثم تلاحظ الفرق الشاسع بين الفاصلتين مع ابتدائهما بكلام واحد، هذا الفرق هو أن المسرف المرتاب يضل الله، والمتكبر الجبار يطبع الله على قلبه، ويبعد ما بين من يضل ربنا

ومن يطبع على قلبه، الثانى أهول وأشنع والغضب منه أظهر، لأن الذى أضله الله لم يفتقد آلة الهدى والذى طبع الله على قلبه افتقد القلب الذى يهتدى به، لأن الطبع والختم يعنى عدم وصول الهدى إلى القلب وعدم أهلية القلب لمعرفة الحق، وللمعتزلة كلام كثير فى هذا وليراجع فى تفسير الزمخشري والرازي، والخلق خلقه والأمر أمره يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وراجع هذه الفواصل الواردة فى كلام المؤمن. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ... وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ... كَذَلِكَ يُطِيعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ الأولى: لا يهدى، والثانية: من يضلل الله فما له من هاد، والثالثة: يضل. والرابعة: يطبع، وتأمل المعنى المشترك بينها وكيف يرتفع درجة بعد درجة مع ارتفاع الأحداث التى تحيى الفواصل لها، وتأمل أيضاً كيف كانت كل فاصلة خاتمة لما قبلها ومؤذنة ومهيئة لمعنى ما بعدها.

ثم إن هذه الفاصلة التى هى أعلاها فى وصف غضب الله حتى إنه سبحانه ليطبع على القلوب حتى لو صرف عنها الضلال ما اهتدت، بخلاف القلوب التى أضلها سبحانه فلو صرف عنها الضلال ورامت الهدى لاهتدت، أقول إن هذه الفاصلة اقتربت جداً من فرعون وكأنها أحضرته لأنه مطبوع على قلبه ولأنه متكبر جبار ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩] وقد نازع الله رداءه بكبريائه وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ولهذا جاءت الآيات بعدها مجيئاً مانوساً جداً، وألف شريف النظم الكلام المختلف لأن كلام الله فى الذين يجادلون فى آياته بالباطل غير قول فرعون لهامان ﴿ابْنِ لِي صِرْحًا﴾ فجاءت الفاصلة تشبك الكلامين أحسن شبكة، ولم أقرأ دراسة للفواصل من هذه الجهة لأن دراستنا

للفواصل كانت خارجة من فكرة تشابه الأطراف، يعنى علاقة الفاصلة بما قبلها، والآن أقول يجب أن ندرس الفواصل دراسة ثانية من جهة علاقة الفاصلة بما بعدها، وكيف كانت باباً يُردُّ على المعنى السابق ثم يفتح للمعنى اللاحق. هذا والله أعلم.

وقد فسر الرازى كلمتى ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ تفسيراً جيداً يقوم على أصل يتردد كثيراً فى كتابه قال: كمال السعادة فى أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، ثم قال: والتكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله؛ والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله، انتهى كلامه رحمه الله.

ومن أجل التضاد لهذين الأمرين الجليلين قامت الفاصلة على معنى الطبع وليس على نفى الهداية أو الإضلال، ثم كان فى بنائها معنى يجب أن يلاحظ وهو وقوع الطبع على كل قلب، وتأمل هذه الكلمة وكان يمكن أن يقال كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار، وفرق بين أن يكون الطبع على قلب وأن يكون على كل قلب ويظهر هذا حين توازن المعنى بين طبع على قلبه وطبع على كل قلبه، لأن دخول كلمة كل على القلب يعنى أن القلب كله عليه طابع وخاتم فلا منفذ منه لحق أبداً كما قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ وهذا بخلاف طبع على قلبه فإن الكلام يصح، ولو كان الطابع على جزء من قلبه، والقلب فى الآية مضاف إلى متكبر فى القراءة المشهورة وقد قرئ بالتنوين ومتكبر صفة، وهذا معنى آخر لأن التكبر صفة للقلب وليس مضافاً إليه وكذلك جبار، وهذه الخفايا فى الفروق هى التى تكمن فيها أسرار البلاغة.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

قلت: إن فاصلة الآية السابقة ألفت بين هذه الآية والتي قبلها وأن هذا من شريف النظم الذى ذكره الباقلانى وقال إنه يجعل المختلف مؤتلفاً وذكر أنه وجه من وجوه الإعجاز فى الكتاب العزيز، وهو باب غامض جداً وأسعى نحوه سعيًا حثيثاً وأصيب وأخطئ لأن الاختلاف لا يعنى التباين وإنما يعنى درجات من الاختلاف، نجد هذه الدرجات تقل بين الكلامين فيكونان من المؤتلفين وتزيد فيكونان من المختلفين، والمهم الآن أن قول فرعون هذا مثال واضح جداً لمن طبع على كل قلبه، ومثال واضح جداً لنموذج المتكبر الجبار، لأن كل هذا الكلام قائم على السخرية لأنه يعلم أن بلوغ أسباب السموات من أكبر المستحيلات.

ثم إنه من تكبره وتجبره أغفل كل ما قاله الرجل المؤمن من أول ﴿أَنْتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾، إلى آخره، وكل هذا كلام فى مفاصل الموضوع وتهديد بزوال الملك وبالاستتصال وبالعذاب الآخرة ويأتى كلام فرعون بعيداً عن هذا كله ليقول بسخرية ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا﴾ وكأنه بلغة عصرنا يرفض الحوار مع المعارضين اسعلاء كما يسعلى الجهلة الاغبياء عن مواجهة الحقائق التى يواجههم بها عقلاء الشعوب. وجملة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ﴾ جملة مستأنفة والواو دالة على أنها ليست رداً على كلام المؤمن ولا كانت فى المجلس الذى كان فيه كلام المؤمن، وإنما هو كلام جاء فى أزمة وأحوال مختلفة، وإن كان فى النهاية يمثل بالنسبة لنا ما يمكن أن نلخصه فى حوار وأفكار دار فى هذا الشأن، المؤمن يقول كذا وفرعون يقول كذا وبين أيدينا أفكار المؤمن وأفكار فرعون.

والمراجعة تؤكد أن هذه الآيات أقرب الآيات إلى ما جاء فى سورة القصص من أول قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ

عِنْدَهُ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿﴾ [القصص: ٣٦ - ٣٨]. وضع هذا بإزاء آيات غافر تجد التشابه الظاهر إلا أن غافرًا خصت من بين السور كلها بقول مؤمن آل فرعون، ولاحظ قول موسى بإلهام من ربه ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وهى صريحة فى الدلالة على نهاية فرعون وأنها الهلاك وأن الله يورث أرضه ودياره قومًا آخرين، وراجع فاصلة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضعها بإزاء ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وكذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ إلى آخره.

والذى يفيدنى أكثر هنا هو قول فرعون فى القصص قبل أمر هامان ﴿أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، لأن هذه العبارة فى القصص تدل على أن أمر هامان ببناء الصرح إنما هو لتأكيد هذه الحقيقة وهى تفرد فرعون بالآلوهية لهم، والاستخدام اللغوى لكلمة ما علمت لكم من إله غيرى تفيد الإحساس بالآلوهية ليس لدلالة من الزائدة المؤكدة لطفى أى إله، وإنما لأنه جعل نفى علمه بالإله دليلاً قاطعاً على نفى الإله، وأنه لو كان هناك إله لعلمه، إذ المراد بقوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ ليس نفى علمه وإنما نفى وجود الإله. وأن الملأ يعلمون أن علمه محيط وأن ما لم ينفذ إليه علم فرعون فليس بوجود لأنه لو كان موجودا لعلمه.

وظنى أنه قال ما جاء فى القصص قبل أن يقول الذى جاء فى غافر وذلك لأنه قال فى غافر ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ وقال فى القصص ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ وكأنه فى هذه يعلمه صنعة الطوب الذى يبنى منه الصرح، وهذا أشبه بالكلام الأول، ثم استغنى عن ذكر الصنعة فى الكلام الثانى. وإذا كان بناء الصرح وبلوغ أسباب السماء والاطلاع على إله

موسى كل ذلك لإثبات نفي إله موسى، فإن هامان هو الذى يقوم ببناء الصرح وفرعون هو الذى يطلع، لأن شأن الألوهية ليس من شأن هامان وإنما شأنه مع الفعلة، وفرعون هو الذى يطلع على الملأ الأعلى ويكون القضاء فى هذا الشأن هو قضاؤه لأنه من سلالة الآلهة.

والصرح سُمى صرحًا لقوة ظهوره من صرح بالأمر أظهره، وأسباب السماء نواحيها وطرقها وأبوابها كما قال الزمخشري، واطلع عليه نظر إليه كاطلع إليه، ومع حرف الاستعلاء يفيد العلو، وكلمة ﴿لَعَلِّي﴾ معناها الترجى وقوله ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ بالرفع معطوف على ﴿أَبْلُغُ﴾ وتكون كلمة ﴿لَعَلِّي﴾ خالصة للترجى. وقراءة النصب تفيد أن الترجى أشرب معنى التمنى. والتمنى يكون فى المستحيل أو المستبعد، وفيه دلالة على أن فرعون لم يكن طامعًا فى الاطلاع على إله موسى إلا على وجه من التمنى وهو أضعف من الرجاء، وجملة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ تواردت عليها عناصر من التوكيد كلها تؤكد ظنه بموسى عليه السلام وأنه كاذب، والظن هنا بمعنى اليقين، ومهما جد فى توكيد يقينه بكذب موسى فإن هذا الجدل لا يخفى الحقيقة وهى أنه يعلم أن ما أنزل على موسى هذه الآيات إلا رب السموات والأرض بصائر، وأن فرعون كان يكذب على نفسه وهو يعلم أنه كاذب وكان يكذب على قومه، وكان قومه يعلمون أنه كاذب وكان يعلم هو أنهم يعلمون أنه كاذب.

وتأمل هذه الجملة التى بين أيدينا تؤكد هذا الذى أقوله ولنراجع الجملة لنجد أن قوله ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أسباب السموات!! إلى هنا ليس فيه المقصود وإنما هو مقدمة للمقصود، والمقصود هو جملة ﴿فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ وهذه الكلمة هى قطب الرحا فى هذه الجملة، ثم إن الكلمة التى تليها وهى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ نقضتها وعلى هذا الأساس تكون الجملة الأم فى قول فرعون قد نقضها فرعون، وبذلك يكون

بناء الصرح وبلوغ الأسباب كل ذلك بناء على رمال، وهذا كلام لا يخاطب به عاقل عقلاء ولا بد أن يكون فرعون عاقلاً كما قال الرازي، لأنه لو كان غير عاقل لما أرسل الله إليه رسولا، ولا بد أن يكون الملائع عقلاء لأن الله سبحانه أرسل موسى إلى فرعون وملئه، ولم يكونوا كما قال الزمخشري في آية القصص: (ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملته وغباوتهم من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح بينونه وليت شعري أكان يُلبس على أهل بلاده ويضحك على عقولهم حيث صادفهم أغبي الناس وأخلاقهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك، أم كان في نفسه بتلك الصفة؟) وهذه جملة شديدة من الزمخشري على الشعب والتاريخ ونحن ندين موقفهم من موسى عليه السلام: ثم لا نهمل أنهم كانوا بناء حضارة والحضارة لا يبنها الأغبياء، قلت: إن فرعون كان يكذب وهو يعلم أنه يكذب ويعلم أن قومه يعلمون أنه يكذب، وإنما أراد أن يوهم الناس أنه يجتهد في معرفة حقيقة ما دعا إليه موسى، وأنه مع يقينه أن موسى كذاب سيجتهد في الاطلاع على إلهه، وهذا التليس والتدليس والكذب والادعاء لا ينكره من عاش في ظل أنظمة القهر والبطش والاستبداد، وكيف أنكروه وأنا أرى المصنفين للكذاب وهم لا يشكون في أنه كذاب، وأرى من يتحدثون عن حكمة وعقل ونفاذ رأى من لا يختلف اثنان على غفلته، وخلو ذاكرته من كل ما كتبه المفكرون وأعلام الناس. وربما كان هذا الحكيم الأمين آمياً لا يقرأ ولا يكتب أو تعلم القراءة على الكبير، فإذا خطب ونظر في الورق تأتأ كما يتأني الطفل الذي نعلمه زرع وحصد، ونحن نكتب لكل هؤلاء الشعر الذي يتغنى بحكمتهم وأنهم يقودون البلاد نحو التنوير، ولهذا لا أستبعد مطلقاً أن يكون فرعون كذاباً وهو يعلم أنه كذاب وقومه يعلمون أنه كذاب ويعلمون أيضاً أنه يعلم أنهم كذابون حين يعلنون له الموافقة، لأنني أعيش في مجتمعات الكل فيها يكذب على الكل، وأدعو الله أن يكشف عن العرب هذا البلاء.

وقوله سبحانه ﴿أَبْلَغُ الْأَسْبَابِ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ جاء على طريقة الإبهام ثم البيان وفيه تفخيم وتعظيم لهذه الأسباب وهذا واضح، وإنما أراد فرعون بتفخيم الأسباب التي يطلع منها على إله موسى أن هذا شأن من شئون الآلهة، وأن هذه الأسباب العظيمة لا يبلغها إلا أنا، ولا يطلع عليها إلا أنا وهذا يتلاءم مع قوله في القصص قبل أمر هامان ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] ولا يبلغ هذه الأسباب ذات الشأن غيري، وإنني سأبلغها وسأطلع ولكنني لن أجد إله موسى.

وقوله ﴿فَأَطَّعَ إِلَهِي إِلَهَ مُوسَى﴾ أيضاً من أكاذيب فرعون وضلالاته لأن موسى عليه السلام حدث فرعون عن رب العالمين ورب المشرق والمغرب ورب آبائهم الأولين وذلك في حوار سورة الشعراء الذي كان أول لقاء بين موسى وفرعون، والذي قال له فيه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وقول فرعون هنا ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَهِي إِلَهَ مُوسَى﴾ هو صرف للأنظار عن إله العالمين ورب المشرق والمغرب، لأن كل هذا كلام مقترن بدليل لأن العاقل لا يرى العالمين من غير أن يكون لها إلهاً خالقاً بارئاً مصوراً حياً قادراً، ولا يرى هذه المشرق والمغرب من غير أن يكون لها إلهاً هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهكذا، وفرعون يدرك كل هذا ويعلم أن ما جاء به موسى إنما هو من رب السموات والأرض. ولكنه ضلال فرعون واستكباره والملا من حوله يقولون ﴿أَتَدْرُؤُا مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وانتهى كلام فرعون عند قوله وإني لأظنه كاذباً، وقبل أن ادع هذا ألخص كلاماً جيداً للرازي قال فيه: إن فرعون لا يجوز أن يكون مجنوناً لأن المجنون لا ترسل إليه الرسل، والله سبحانه وتعالى لا يذكر لنا كلام المجانين في كتابه، ولا بد أن يكون عاقلاً وكل عاقل يعلم أن أى بناء مهما ارتفع لن يبلغ أسباب السماء، ولكنه أراد صرف الناس حوله عن الأدلة

التي أشار إليها موسى في معرفة الله وهي قوله عليه السلام: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
 ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] ﴿رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾
 [الشعراء: ٢٦] وكلها أدلة تقوم على الاستدلال العقلي. أراد فرعون أن يُغيب
 هذا الطريق الهادى إلى الله وأن يضع مكانه طريق الرؤية الحسية، وطريق
 الإدراك الحسى غير ممكن لأن بلوغ أسباب السموات غير ممكن. انتهى كلام
 الرازى ملخصاً.

قلت: إن كلام فرعون في هذه الآية شديد التحديد وأنه مقدمة أعنى الأمر
 ببناء الصرح لبلوغ أسباب السموات، وأن المطلوب هو الاطلاع على إله
 موسى وأنه لا إله لموسى. وأن هذا الكلام كما قلت فيه تدافع وفيه مراوغة
 وملاوصة، وانتهى كلامه عند قوله ﴿وَإِنِّي لِأُظَنُّ كَاذِبًا﴾، ثم جاءت الآية التي
 بعد هذا تكشف حقيقة هذا القول وجاءت ثلاث جمل كلها معطوفة على
 ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ﴿مضمومة إليها: أولها ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ
 عَمَلِهِ﴾، وهذه جملة مهمة جداً في موقعها لأنها علقت على قول فرعون
 السابق ببيان أن هذا القول من سوء أو من سوء العمل. وأنه زين لفرعون
 بالبناء للمجهول لأنه ليس المراد معرفة من الذى زينه وإنما المراد معرفة أنه زين
 وأنه قبيح مزين وسوء مزين، وكذب جاء في صورة بحث عن الحقيقة وخداع
 مُموء، وإضافة العمل إليه في قوله ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ تعنى أن هذا سوء المزين
 من عمل فرعون وحده وأنه وحده هو مصدره وأنه يسوس الأمر في البلاد
 والعباد والعقائد برأسه وحده. وأنه إذا التبس عليه سوء باحسن لا يستشير
 ولا يجد ناصحاً ينبهه إلى أن هذا سوء مزين، ومن أسوأ ما يبتلى به الإنسان
 أن يُزَيَّنَ له القبيح فيراه حسناً، وقد حذر القرآن من هذا في آيات كثيرة من
 مثل قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] والآية هنا لم
 تقل فرآه حسناً وإنما قالت ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، والفاعل محذوف، والمعتزلة
 يقدرونه بلفظ الجلالة أو بالشیطان لأن التزيين جاء في الكتاب العزيز مسنداً

إلى الخالق سبحانه في قوله تعالى ﴿ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل . ٤١]
وجاء مسنداً إلى الشيطان في قوله جل شأنه ﴿ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾
[الأنفال : ٤٨]، ثم قال سبحانه ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو معطوف على
﴿ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾، والصد الدفع . والقول في البناء للمجهول كالقول في
زَيْن، والمطلوب أنه صُدَّ ودفع بعيداً عن السبيل من غير أن يتعلق الغرض
بالذي صده، والتعريف في السبيل يعنى السبيل الجدير بأن يسمى سبيلاً وهو
سبيل الهدى وسبيل معرفة الحق القاهر الغالب وسبيل المؤمنين وصراف الله
المستقيم . وضع كلمة ﴿ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بإزاء ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ لترى
العلاقة السببية الظاهرة لأن تزيين سوء العمل هو سبب الصد عن حسن
العمل الذى هو سبيل المؤمنين، وهذه الروابط بين معانى الكلمات ومعانى
الجمل من أهم عناصر البلاغة ترى بها الجملتين القصيرتين الممتلئتين بالمعانى
متماسكتين جداً، ﴿ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ اختصار شديد
ونفاذ بالغ، وكلمة ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ ﴾ ودخول كاف التشبيه على اسم
الإشارة كما هو الحال فى ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ و﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾
﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ ﴾ تكرير هذه الصيغة مما يقوى به شد أسر الكلام
وتتجلى وحدته ويشارك مشاركة جيدة فى تكوين شكله وسمته، والمراد مثل
ذلك التزيين زين لفرعون سوء عمله، وللظاهر ملاحظة جيدة فى هذا وهى
أنه من باب تشبيه التزيين بنفسه، ومن باب تشبيه الإضلال بنفسه وهكذا،
وهذا يدل على أنك لو بحثت عن مشبه به توضح به هذا التزيين فلن تجد
إلا هو، لأنه بلغ فى بابيه مبلغاً يجعله لا يلحق بغيره وإنما يلحق بنفسه، وتأتى
الجملة التالية وهى ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ وهى ليست امتداداً
للجملتين قبلها ﴿ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ لأن هاتين بيان
لسر سلوكه هذا وأنه ناشئ عن تزيين السوء المفضى إلى الصد، وهذه الثالثة

تعود إلى قول فرعون ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (٣٦) **أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ** ﴿ ، وتسمى هذا كيداً والكيد هو تدبير السوء، ومكر السوء، ومعنى هذا أن حكاية ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا ﴾ إلى آخره من المكر والخبث والحيلة وأنه لم يكن من التخاليف كما ذهب البعض، ولم يكن غفلة ولا غباوة وإنما كان صرفاً للناس عن أدلة موسى التي استيقن هو أنها مقنعة فهوَّش بمسألة أبلغ الأسباب وأطلع إلى آخره، والتَّباب معناه الهلاك، ومنه قوله سبحانه: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ . وهذا كلام المقتدر سبحانه الآخذ بأزمة الأمور كلها، وفرعون يكيد ما يكيد ثم لا يحيق كيده إلا به وكل هذا راجع إلى موضوعات كثيرة فى السورة منها ما تقدم كقوله ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ومنها ما سيأتى كقوله سبحانه ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ . اللهم اجعلنا من الذين تنصرهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

قوله جل شأنه: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٣٨) **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** (٣٩) **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿ .

وأول ما يلاحظ فى هذه الآية أن الرجل ذُكر باسم الموصول ﴿ الَّذِي آمَنَ ﴾ وهذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها بهذه الصلوة، وقد جاء ذكره فى المرتين بعد ذكر كلام لفرعون هناك قال فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وجاء عقب هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ وهنا قال فرعون ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا ﴾ إلى آخره، ثم جاءت هذه الآية ولا بد أن

يكون هناك سر في هذه الصلة يرشحها للتعقيب على كلام فرعون. وأول ما يظهر في هذا هو أن فرعون قال هناك ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا صريح الجهل لأن الإله لا يحس ولا يطلع عليه ولا ينظر إليه، وأن المؤمن هو الذي آمن بالغيب فناسب قوله سبحانه ﴿الَّذِي آمَنَ﴾ ما كان من فرعون من حيث كان دفعاً له، وإنكاراً بدليل لأن الإيمان لا يكون إلا بالنظر والاستدلال وليس بالاطلاع كما يقول فرعون، ثم إن قوله ﴿الَّذِي آمَنَ﴾ يشير إلى مصدر الكلام الذي سيأتيك وأنه كلام الذي آمن يعنى كان منه الإيمان منذ زمن ووعى حقائق الدين وتمثلها وصار يحدث بها ويبلغ عن مبلغها صلوات الله وسلامه عليه، كما تكون كلمة فرعون دالة على أن مصدر الكلام الذي سيأتيك هو هذا الأحق المطاع.

ثم إنك ترى الكلام في هذا القسم قد انتقل انتقالة واسعة تجدها في كلمة ﴿اتَّبِعُونِ﴾ وكأنه لما رأى كيد فرعون ومراوغته وملاوصته في مسألة بناء الصرح أدرك أن اللحظة الحاسمة قد فرضت نفسها، وأن خلاص قومه لن يكون إلا بأن يخلعوا فرعون، لأن معنى اتبعونى يتضمن الأمر بخلع فرعون، ولا بد أن نلاحظ أن فعل الأمر الحاسم في الموقف وهو قوله ﴿اتَّبِعُونِ﴾ هياً له المؤمن بالنداء ليهيئ الأذهان إلى تلقيه، ثم قاربههم بقوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ ثم أكد الأمر بذكر علته وهو ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ولهذا قلت إن الكلام هنا انتقل انتقالة شاسعة، ثم إن قوله ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يؤكد معنى خلع فرعون وخلع طاعته من جهة أن فرعون قال في الموقف السابق ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وقد أعاد المؤمن أهدكم سبيل الرشاد وكأنه بها يتقضى قول فرعون لأن سبيل فرعون ليس سبيل الرشاد؛ لأنه صُدَّ عن سبيل الرشاد، ولاحظ أن كلمة سبيل جاءت على لسان فرعون مرة وفى التعقيب على كلام فرعون، وأنه صُدَّ عن السبيل ثم جاءت على لسان المؤمن وأن

سبيل الرشاد يدعيه المبتطلون الكذّابون المدمرّون لشعوبهم مع أنهم صدّوا عنه
وزين لهم سبيل الغيّ فاتخذوه سبيلاً.

وكلمة سبيل الرشاد كلمة عامة شاملة يتغشاها إبهام شديد، وجاءت في
كلام فرعون من غير بيان ثم جاءت في كلام الذى آمن ببيان وهو ﴿إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ وقبل أن يبين الذى آمن سبيل
الرشاد الذى يدعوه قومه إليه كسر النداء والاقتراب وقال يا قوم، وهذا تودد
والحاح وبذل لكل ما يمكن بذله ليقرب النصح إلى قلوبهم، لأنه يعلم أنها في
قبضة فرعون الذى كان يتسلطُ عليهم وتسلطُ عليهم كهنته ويتسلطُ عليهم ملاءه
وكل ما فى يديه وأيديهم من سلطان وترغيب وترهيب، والرجل الذى آمن
لا يملك إلا قلبه وحكمته وصدقه وحرصه وحبّه، ولهذا كان يكرر دائماً
كلمة يا قوم، وهذه الكلمة قاطعة بأنه كان يتوجه بكلامه هذا إلى المصرين لأن
بنى إسرائيل ليسوا قومه وإنما هم قوم موسى عليه السلام وكان يناديهم بهذا.

وراجع لغته فى بيانه لسبيل الرشاد قال: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾
وهذا هو القسم الأول من سبيل الرشاد وكأنه مقدمة للذى يليه، وقد بدأه
بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على القصر وهذا يشعر من أول لحظة أن هذه الحياة
الدنيا محصورة فى شىء واحد، ثم إنه جاء بإنما التى يؤتى بها فى المعنى
الذى لا يشك فيه شك ولا ينكره منكر وإنما هو مسلّم عند ذوى العقول لأنه
حقيقة ملموسة، فكل حى يرى من قبله قد عاش زماناً متاعاً فى هذه الدنيا
ثم انتزع منها، ثم ترى عبارته عن الحياة بقوله ﴿هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، فجاء
باسم الإشارة الذى للقريب والدال بمعونة السياق على قرب محلها ودنو
منزلتها ثم سماها الدنيا من الدنو ثم حصرها فى كلمة متاع بالتكثير يعنى
ما هى إلا متاع، أى متاع والمتاع يعنى الأجل القصير، والتمتع بالحياة وبمباهجها
ولهوها وزينتها زماناً، وهذا كثير جداً فى الكتاب العزيز وأنها لعب ولهو وزينة

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ [الكهف: ٤٥]، وغير ذلك مما يدل على سرعة فئاتها، وتفضيها، ثم يأتي الشق الثاني المقابل لهذا والذي كان هذا كأنه مقدمة له وهو بيان الآخرة قال ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ وراجع عبارته في الإبانة عن الآخرة وأول ما يلقاك هذه الوار التي تعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها، والجملتان وجهان لحقيقة واحدة هذا وجه فئاتها وهذا وجه بقائها، ثم إنه أكد بحرف التوكيد وقد قابل به أداة الحصر هناك وكلمة الآخرة تقابل الحياة الدنيا، ثم الإخبار عنها بقوله هي دار القرار، وفي هذا من التوكيد بضمير الفصل وتعريف الطرفين ما يفيد أنها هي لا غيرها، وقد قابل المتاع الزائل القصير هناك بهذا القرار الذي لا ينتهي، وأنها هي دار هذا القرار الذي لا ينتهي. فليست دارك التي أنت فيها في الدنيا دار قرار وإنما أنت في هذه الحياة الدنيا طيف يمر أو مرتحل يمر وما في يدك عارية والعارية مؤداة، وهذا المعنى الشأن فيه أن يقع في نفوس قومه لأنهم كانوا مع تعدد الآلهة وعبادة فرعون ابن الآلهة كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت.

قلت إن الذي آمن بين سبيل الرشاد بقوله إنما الحياة الدنيا متاع وهذا لا ينكره منكر وأن الآخرة هي دار القرار وهذا أيضاً لا ينكره منكر، وإنما أكده لأن الغفلة عنه نزلت منزلة إنكاره، وهذا كله نصف الحقيقة أو هو أيضاً مقدمة للمقصود الأعلى وهو العمل في هذه الدنيا المتاع من أجل الآخرة التي هي دار القرار، ولا قيمة لأن أعتقد هذا ما لم أعمل بمقتضى هذا الاعتقاد، ولذلك جاءت الجملة الأخيرة شقين كهذه الجملة وجاءت مستأنفة استئنافاً بيانياً لتعود على هاتين الجملتين اللتين تناولتا الشكل الظاهر للحياتين، وأن الأولى متاع والثانية قرار وما زادت على ذلك، فجاء قوله سبحانه ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وعمل السيئة لا يكون إلا في الدنيا المتاع، وجزاؤه لا يكون إلا في الآخرة القرار، وهكذا بدأت الجملة المستأنفة تعود على الجملتين السابقتين وتبعث فيهما حيوية وعملاً وكسباً وعماراً، الأولى دار

عمل والثانية دار جزاء، وليس هذا فقط وإنما العمل عملان سيئة وحسنة والجزاء جزاءان سيئة بمثلها وحسنة بأضعاف أضعافها، وراجع لتدرك هذا التداخل وهذا التقارب وكيف يكون الكلام معدنًا واحدًا وجسدًا واحدًا يمتد.

قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والسيئة هي التي تسوء وتقابل الحسنة، والمثل يعنى مثلها في كل شيء فلا يزيد عنها شيئًا لأن الزيادة عليها ظلم، والله منزه عن الظلم، وهذه المثلية في السيئة تحتاج إلى فهم كل سيئة وقعت كالإيذاء في النفس والمال والجوارح إلى آخره، وكيف يكون المثل مساويًا لا يزيد ولا ينقص وراجع الحصر في قوله ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وهذا قاطع في ضرورة تحرى العدل، ثم إنه لو كانت السيئة تجازى بضعفها أو بعشرة أضعفها كما هو الحال في الحسنة، لاحتل نظام الناس لأن من أساء لو استشعر أنه سيعاقب بأضعاف إساءته سيوقعه ذلك في اليأس ويتحول إلى شر محض. وإنما كانت المجازاة بالمثل لكبح جماح النفوس ورددعها والرجوع بها إلى ربها، لأن هذه المجازاة ليست ضربة لازب، فقد تلغى هذه المجازاة بالتوبة وقد تلغى بدون توبة وقد مرَّ أن الملائكة وحملة العرش ومن حولهم يطلبون من الله المغفرة للذين آمنوا ولم يتوبوا، لأنه لا معنى لأن يستغفروا لمن تابوا لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقوله ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذه هي الجملة الشرطية الثانية المعطوفة على ما قبلها كما عطفت جملة ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ على ما قبلها لأن الجملتين يمثلان وجهين لحقيقة واحدة، ويلاحظ أن هذه الجملة الواصفة لعمل الصالحات وجزاء عمل الصالحات تختلف اختلافًا ظاهرًا عن الجملة قبلها، وذلك بكثرة قيودها وبخصوصيات في اختيار كلماتها واختيار أبنيتها، والأولى مختصرة جدًا ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لأن المعنى ليس

فيه إلا التأكيد على مثلية الجزاء، والأمر هنا مختلف لأن الثواب لما كان أضعافاً مضاعفة ولا حرج على فضل الله اقتضى هذا النص على أشياء أولها قوله سبحانه ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾ لأنه مادام هنا تفاوت في الثواب فقد يتوهم أنه يخص به الرجال لأنهم أهل الجهاد، أو تخصص به النساء لأنهن موضع وصية الله ورسوله، فجاء قوله سبحانه ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾ للمساواة بين ثواب العاملين عملاً صالحاً وأن الذي من على الجميع بالنعم من قبل أن تكون لهم ألسنة تنطق بذكره وشكره وحمده لا يخص بمن ذكر أو أنتى. ثم قال سبحانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان شرط في قبول العمل الصالح، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أو ﴿كَسْرَابٍ بَقِيعةً﴾ ﴿أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لحي﴾ ، ثم إن مجيء قوله سبحانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وموقعه في الجملة الحالية فيه معنى أن العمل الصالح الذي سيكون ثوابه ما يأتيك يكون ثوابه أجزل إذا استصحب صاحبه في عمله حال الإيمان يعني القرب من الله والاحتساب، لأن العمل الذي يصاحبه هذا الذكر وهذا الإيمان يكون عند الله بمكان، وفرق بين أن يكون الشخص مؤمناً بمعنى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يكون هذا مصاحباً له بشعور حى وهو يمارس العمل الصالح. ولاحظ أن الصالح كلمة تشمل كل عمل صالح صلاة أو زكاة أو درساً أو تعليماً أو تصنيعاً، المهم أن يكون صالحاً تصلح به حياة الأمة، والأمة في حاجة إليه، ولا شك أن في الصدر من ذلك الصلاة والزكاة والصوم إلى آخره، ووصف العمل بالصالح فقط يعني أنه غير محصور في ذلك. وقوله ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، في هذه الجملة مزيد حفاوة بجواب الشرط، لأن هذه الجملة جزاء أهل البر من صنّاع الصالحات بقلوب عامرة بالإيمان وخالية من الأثرة والآنانية والظلم. وأول شيء فيها هو اسم الإشارة (أولئك) والبعد فيه دال على بعد المنزلة وعلو القدر عند الله رب العالمين، ثم فيه دلالة أخرى وهي

أن ما يأتي بعده من ثواب جزيل هم أهله وحقيقون به بفضل الله عليهم، لأنه ليس في الخلق من له على الخالق حق إلا ما أوجبه الخالق على نفسه، ولهذا يقال يوم القيامة «من كان له حق على الله فليقم» قلت: هذا لأن قول البلاغيين في اسم الإشارة حين يقع هذا الموقع وأنه دليل على أنه جدير بما يأتي بعده يصح ويسقيم في كلام الناس. كشاهد البلاغيين من كلام حاتم الطائي «فذلك أن يهلك فحسنى ثاؤه» أما أن يكون فينا من هو حقيق بكرم الله، فذلك ما لا يكون إلا بفضل سبحانه ومته لأن أكثرنا عبادة لا يسد بعبادته شكر نعمة واحدة من نعم الله فضلاً عن النعم التي لا تحصى. فكيف يكون له حق عند الله وكيف يقال هو حقيق بما يأتي بعده؟ إنما أردت تحرير المعنى. وقوله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ هو الثواب العظيم الذي هم جديرون به بفضل الله لأنهم عملوا الصالحات، ثم إن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى يفيد الاختصاص. وأنهم هم وحدهم يدخلون الجنة مادام قد توفر فيهم أمران العمل الصالح مع الإيمان، وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ جملة حالية والمضارع فيها يفيد معنى تجدد الرزق وحدوثه وقتاً من بعد وقت، وكلمة بغير حساب حين تكون من الله فلا حدود لعطائها، وهذا الخبر ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سد مسد الإشارة إلى مضاعفة الأجر التي تأتي في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أو قوله جل شأنه ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقبل أن أدع الآية أشير إلى كلامين جليلين للرازي فيها، الأول صادر عن فرط حساسية بكراهة التقليد لأنه قتل للعقل وللروح الإنسانية، وقد لحظ أن قول المؤمن اتبعونى فيه شيء من معنى التقليد، قال الرازي. فأدرك المؤمن ذلك واسدركه بقوله ﴿أَهْدِكُمْ﴾ لأن الهداية لا تكون إلا بالنظر والاستدلال، وهذا لا يصح معه التقليد وإنما تنظر بعقلك لا بعقل غيرك، وتستدل بفكرك لا بفكر غيرك، وهذا راقني جداً

لأنى أرى التقليد حولى يدمر عقولاً كان يرجى منها الخير، وقد عم ذلك وتجاوز التقليد فى الفكر إلى التقليد فى السياسة وفى كل شىء، حتى إننا إن أردنا إصلاح التعليم أو الاقتصاد أو ما شئت جئنا ببرامج أمة متقدمة وطبقناه، وكثيراً ما تكون النتائج كارثية لأن المطلوب أن يكون علاجنا ناشئاً من النظر فى أوصابنا، وإذا افتقدنا القدرة على ذلك فعلى الدنيا السلام، هذه واحدة للراى .

والثانية: هو أنه لاحظ أن التكرير فى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا ﴾ يعنى أنه عمل صالحاً أى صالح وأن من يعمل صالحاً مرة واحدة يقال له عمل صالحاً وأن وعد الله بالجنة يصيب من عمل صالحاً مرة واحدة فى حياته وهو مؤمن، وهذا صادر عن فرط ثقة الشيخ فى رحمة ربه، وتفسيره مشحون بمثل هذا قال فى سده: قوله ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا ﴾ نكرة فى معرض الشرط فى جانب الإثبات فجرى مجرى أن يقال من ذكر كلمة أو خطأ خطوة فله كذا، فإنه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة، وكذلك هنا وجب أن يقال كل من عمل صالحاً واحداً من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب، انتهى كلامه رحمه الله . وكل هذا مناسب جداً لدعوة المؤمن قومه إلى الله وأن السيئة لا يزداد فى جزائها والحسنة لا حدود لجزائها ولو كانت حسنة واحدة يلقي الله بها وحدها، وهذا قريب جداً من قوله عليه السلام: « اتق النار ولو بشق تمرة » ولا يهلك على الله هالك .

قوله جل شأنه: ﴿ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّكَ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

أميل إلى أن تكون الواو الداخلة على هذه الآيات فى قوله ويا قوم واو استئناف لأن الذى بعدها معنى جديد وفيه مغايرة ظاهرة للذى قبلها، والذى قبلها بلغ فى الترغيب أعلى ما تبلغه المعانى فى إمالة النفوس نحو الجهة التى يريد المتكلم أن يميلها إليها، وحسب الراغب العاقل فى رضوان الله أن يعلم أن السيئة لا يجزى إلا بمثلها ومن عمل صالحاً يرزق فى الجنة بغير حساب .

والكلام هنا مختلف، وإذا كان الكلام الذى مضى قد جاء قوله ﴿ قَالَ ﴾ مقروناً بالواو فدل ذلك على أنه قيل فى أوقات مختلفة وفى مقامات مختلفة ثم ضُم بعضه إلى بعض . فإن هذا القول الذى معنا فيما يبدو أنه قد تراخى قليلاً لأن فيه شيئاً الشأن فيه ألا يعرف إلا بعد زمن من سماع النصح الأول وهو حديث الرجل عنهم وأنهم يدعونه إلى دعوتهم، وذلك بعدما نفى الرجل نفسه ونصحه وحرصه وخوفه عليهم وجاءهم من كل جهة، جاءهم من جهة الخوف على ملكهم الظاهر فى الأرض . ومن جهة الخوف على استئصالهم كاستئصال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وجاءهم من جهة خوفه عليهم يوم التناد يوم تولون مدبرين إلى آخر ما مضى . وكان آخره هذا الإغراء الذى لا يجوز لعاقل أن يضيعه وهو العدل المطلق فى المحاسبة على السيئة ثم الفضل الواسع جداً فى المكافأة على الحسنة، وبعد زمن فوجئ هذا المؤمن الصادق بأن القوم نكسوا على رؤوسهم ولم يرفضوا نصحه فحسب وإنما طالبوه بأن يكون كالحال التى هم عليها يعنى واحداً من أتباع ضلالات فرعون، واستيقن الرجل أن ضلال فرعون وكذبه وإسرافه وتكبره وتجبره كل ذلك أخذ قومه إليه وأداروا ظهورهم للحق والمنطق والنصح الصادر من قلب يخاف عليهم فى دنياهم وآخرتهم كما يخاف على عزهم وملكهم، ولذلك نجد هذا القسم مشوباً بكثير من الغضب لم يكن منه شئ فى الكلام الذى مضى .

وأول ما يلقانا من كلامه فى هذا القسم الأخير وإن كنت أظن أن الرجل كان قد أنهى كلامه عند قوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠٠﴾ ثم كان من قومه ما كان ففتح الكلام من جديد ليرد على هذا الذى كان، وأنهم لو لم يدعوه إلى ما هم عليه ما ذكر هذا القسم، وإذا قلنا إنه القسم الأخير فلإننا نعنى بذلك أنه قسم رد به على موقف مفاجئ منهم له .

وأعود وأقول أول ما يلقانا هو قوله يا قوم، وأنه لم يتخلل عن الإحساس الصادق بالقرب منهم وأنه منهم وهم منه فى الأحوال كلها، وأن الداعى الصادق الذى يدعو إلى ما هو مقتنع به لا يجوز له أن يتخلى عن دعوته لأهله وعشيرته وقومه مهما كان أو يكون منهم، وافقوه أو خالفوه، قاربوه أم باعدوه .

وقوله: ﴿ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ هذه هى المعانى التى لم نألفها فى كلام الرجل وهذه هى اللغة التى تقطر حسرة وندماً وأسفاً على ما كان من قومه، وما هذه هى ما الاستفهامية والمراد بالاستفهام التعجب والإنكار، وموطن التعجب والإنكار هو سذبة المقابلة الحادة بين الموقفين، ومن أجل أن يبرز هذه المقارقة الصارخة بين الموقفين لم يقل مالى أدعوكم إلى الإيمان وتدعوننى إلى الكفر، وإنما ذكر مآل دعوته وأنها النجاة ومآل دعوتهم وأنها النار .

ومجىء هذه الصيغة - مالى أدعوكم - كثير فى الكتاب العزيز، منها قوله سبحانه على لسان نوح ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح: ١٣، ١٤] الذى دخل عليه حرف الجر هو فاعل الجملة الحالية بعده والجملة الحالية أصل فى الإنكار والتعجب، ومنه قوله جل شأنه: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥٠] وقوله جل شأنه: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٣٨] وقوله: ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهَدَ ﴾ [النمل: ٢٠] كل هذا إنكار لأفعال ما كان ينبغي أن تكون، ثم تأمل قوله: ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾

وكان الظاهر أن يقول أدعوكم إلى الجنة وتدعونني إلى النار لتتم المقابلة وليكون أقرب إلى قوله قبلها ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وإنما عدل إلى ما قاله للتهويل من أمر النار التي يدعونه إليها وأن النجاة منها هي الفوز العظيم، وكل من نجا من النار وزحزح عنها فهو في الجنة بوعد الله، وكأنه أوقع قوله أدعوكم إلى النجاة موقع قوله أدعوكم إلى الجنة، وتأمل قوله سبحانه ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وكلمة زحزح هنا لها مقام أى مقام وكأنه يوشك أن يسقط فيها، وأن النجاة منها والزحزحة عنها تحتاج إلى المزيد من العمل والصبر والصدق.

وقوله: ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ موقعه مما قبله كموقع قوله ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ مما قبله وهو قوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ الكل بيان لما قبله وإنما أردت أن أشير إلى حذو بناء الكلام وأنه حذو واحد، ومن تمام الكلام فى الحذو أن تراجع قوله بعد ذلك «لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة» إلى آخره، وستجده بياناً لقوله تدعونني لأكفر بالله إلى آخره وأن البيان الأول صار مجملاً بالنسبة للبيان الثانى كما هو الحال فى الآية السابقة، وبهذا ترى المعانى يتوارد بعضها فى إثر بعض على وجه واحد فى زيادة الإيضاح، فيأتى المبهم ثم الواضح ثم الأوضح وكل هذا لمزيد العناية بالمعنى، ومزيد حرص الرجل الصادق على نجاة قومه من هلاك لا يطيق أن يراهم يسقطون فيه.

وشىء آخر فى بناء هذا القسم هو أن مقتضى الترتيب أن يكون قوله ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ قبل قوله ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ حتى يأتى الكلام على طريقة اللف والنشر المرتب، وإنما عدل إلى ما جاء عليه الكلام ليشير إشارة واضحة إلى شدة عناية هذا الرجل الصادق بما آل إليه حال نصحه

لقومه، وأن خطابه الذى نشر فيه كل ما فى نفسه لهم لم ينفع بشيء ولم يتركوه، وإنما دعوه إلى ما هم عليه مع أنهم سمعوا إلحاحه على بيان خوفه عليهم من الذى هم عليه، وأن رده فى هذا القسم موجه أكثره إلى دعوتهم له لأن يشرك بالله ما ليس له به علم ولهذا قدم قوله: ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ على قوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ ولأن الأول فى هذا السياق الجديد أهم وهو بشأنه أعمى.

وكان قومه المصريون منهم من يعبد فرعون ويرونه حكيماً ملهماً، وعليهم أن يأخذوا أنفُسهم بتوجيهاته وأن يحققوا مشروعه النهضوى كما يقول رعاة بقر فرعون ولا يزلون، ومنهم المشرك ومنهم سابد الصنم ومنهم الجاحد الدهري إلى آخره، وهذا الكم الهائل من العقائد المتناقضة لم يتغير منه شيء بدعوة موسى ولا بكلام هذا الرجل الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء، وخرج موسى مع قومه وكان ما كان من ظهور الآية الكبرى لما ضرب موسى البحر فانقلب وكان كل فرق كالطود العظيم، ونجا موسى وآمن فرعون برب موسى لما رأى الآية الملقنة وقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] وكل هذا وبقى المصريون على ما هم عليه، ولم أعرف أحداً آمن بموسى إلا هذا الرجل الصالح وامرأة فرعون التى قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ [التحریم: ١١] وقالوا: إنها كانت من بنى إسرائيل واسمها آسيا بنت مزاحم وكانت عمه موسى عليه السلام، وذكروا أن الرجل المؤمن لم يخرج مع موسى وإنما خرج موسى ومعه ذرية من قومه، وقوله ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ المراد أنه لا وجود له، ونفى العلم لنفى المعلوم ليس بعزیز فى الكتاب وهو نفى بطريق أبلغ لانه نفى بدليل. لأنه يلزم من نفى العلم نفى المعلوم، وقد جاء إثبات العلم فى القرآن وإسناده إلى الحق جل شأنه، والمراد إثبات المعلوم كما فى قوله تعالى

﴿وَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] يعنى يوجد الذين جاهدوا والله سبحانه يعلمهم قبل وجودهم وبعد وجودهم، وإنما المراد أن يوجد المعلوم حتى يعلمه وهو قائم، كما تقول: أرجو أن يعلم الله منك ومنى خيراً وأنت تريد أن يكون منك ومنى خيراً، وتأمل المقابلة الظاهرة ظهور الشمس بين ما يدعونه إليه مما لا علم له به وهو يدعوهم إلى العزيز الغفار، يعنى الغالب الذى لا يغلب والمتفرد الذى لا ينازع وهو الحقيق بأن يعبد، ومن اعترز بعزه أعزه عزه، ثم هو الغفار الذى يفتح باب مغفرته ليرجع إليه كل من أتاب ويغفر لكل من جحد وعصى، والإيمان يَجِبُ ما قبله ولا يأس من رحمته، وراجع المقابلة بين ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ و﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ثم راجع كيف تفتح هذه المقابلة الباب لمعنى ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وتأمل مرة ثانية ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ وضعها بإزاء ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ثم تأمل المرد إلى الله وضعه بإزاء العزيز الغفار لترى شيئاً عجيباً وبلاغة مسكوئاً عنها، وقد قال المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أن الله سبحانه لو جعله حياً فى الآخرة لأنكر عبادتكم وأنكر أنه دعاكم إليها، وقالوا: الدعوة يمكن أن يكون المراد بها جواب الدعوة يعنى لا يجيب دعاءكم فى الدنيا ولا فى الآخرة وأنكم تدعون من دون الله من لا يستجيب لكم.

وكلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال النحاة فى تحليلها كلاماً كثيراً منه ما قاله الكوفيون وأنها مكونة من كلمتين ﴿لَا﴾ النافية وهى رد لكلام سابق والمراد هنا «تدعونى لاكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم» و﴿جَرَمَ﴾ فعل معناه حق وثبت، وأنَّ وما فى حيزها فاعل جرم أى حق ووجب بطلانه كما قال الزمخشرى، وقالوا: إن ﴿جَرَمَ﴾ من الجرم بمعنى القطع و«لا» نافية، والمعنى أن هذه الحقيقة وهى أن ما تدعونى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة حقيقة لا تنقطع وإنما هى باقية دائمة ثابتة، وقالوا: لا جرم نظير لا بد.

وقوله ﴿لَا جْرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾ [النحل: ٦٢] أى لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم.

وقوله سبحانه ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تأكيد لدعوته لهم بالنجاة ومادام المراد إليه سبحانه فلا يجوز أن يُعبد غيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ معطوف على سردنا إلى الله والمسرفون الذين أسرفوا فى الباطل ومعصية الله وسفك الدماء، وفيها إشارة إلى فرعون وإشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وإلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وتكرار كلمة المسرف والمسرفين فى كلام المؤمن ليست بمعزل عن الذى يراه الرجل من إسراف فرعون فى كل أمره. إسرافه فى الكذب، إسرافه فى الكبرياء، إسرافه فى الضلال، إسرافه فى الجبروت إلى آخره.

وهذه الفاصلة بجملتيها ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ خلاصة ما أراه فى هذا الفصل، وفيها زيادة تجهيل لهم وخصوصاً وقوعها بعد قوله ﴿لَا جْرَمَ أَنْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ وكيف تستقيم دعوة ما لا دعوة له، مع أنه لا مرد لنا إلا إلى الله وأن المسرفين الذين يدعون الناس إلى ما لا دعوة له هم أصحاب النار، وكلمة أصحاب النار غير كلمة وأن المسرفين فى النار، لأن أصحابها هم الملازمون لها ملازمة الشئ لما هو فى صحبته وما هو فى حوزته وملكه، وكأنهم بإسرافهم صاروا أصحابها وأولى الناس بها وكأنهم بذلوا لها ما صاروا يستحقونها به، وهذا هو معنى الإسراف. وهذه الفاصلة بجملتيها هى نهاية ما يريد الرجل أن يبلغه لقومه.

ولا شك أن جملتى ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ليستا مستقلتين وإنما مع جملة ﴿لَا جْرَمَ أَنْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ

فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ ﴿﴾ تكونان وحدة معنوية ولغوية واحدة. وأن كلمة لا جرم ممسكة بهذه الثلاثة التي تراها مختلفة وقد صارت بشريف النظم مؤتلفة، أما أنها مختلفة فلأن كل جملة منها تعالج معنى مختلفاً عن أختها، الأولى: أن ما يدعونه إليه ليس بشيء، والثانية: أن المرء إلى الله وهذا معنى مغاير ومختلف، والثالثة: أن المسرف هم أصحاب النار يعنى من الذين لهم ملكية في جهنم وهي أرضه وداره التي أغلاها ثمنها من إجرامه وإسرافه، وهذا معنى ثالث وبعيد، ولكن كلمة لا جرم ذات قدرة عجيبة في أنها أمسكت بهذه الثلاث وألقت عليها معنى واحد، لأن المعنى لا جرم أن ما تدعونى إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا جرم أن مردنا إلى الله، ولا جرم أن المسرفين هم أصحاب النار، فصارت هذه الثلاثة المختلفة مكسوة بكساء لا جرم فأتلف المختلف بشريف النظم كما قال الباقلاني جمعنا الله معه في رحمته، وهذه الآيات الثلاثة المسكة بها كلمة لا جرم هي بالغة الغاية في البلاغة وهي وحدها برهان الإعجاز، ولم أقرأ كلمة لا جرم في شعر ولا نثر وهي ممسكة بأمثال هذه الكلمات الثلاث التي ترى في كل واحدة منها عين ماء تفيض ولا تغيض

قلت: إن هذا آخر ما نصح به الرجل قومه والآية التي ختم بها خطابه لهم لم يحدث فيها بمعان تشبه المعانى التي سبقت من أول قوله ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ ﴿ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ ﴾ ﴿ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مَثَلُ بَدْرٍ ﴾ إلى آخره، وإنما يؤكد لهم أن كل الذى سمعتموه منى حق لا ريب فيه وستواجهون بكل ما حذرتكم منه، وفي وقت هذه المواجهة التي ما كنت أرجوها لكم والتي ألححت عليكم لتبتعدوا عنها، ستذكرون ما أقوله لكم.

وهذه الآية مكونة أيضاً من جمل ثلاث كالأية قبلها وهي غاية في البلاغة، وهذه الفاء التي في قوله ستذكرون ما أقوله لكم. ترتب هذا التذکر على كل

ما قاله لهم ابتداء من قوله ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، وما استتبعه من التخويف من عذاب الله الذى يوقعه سبحانه على قتل واضطهاد أهل الحق الذين هم أهل الله والذين وعد سبحانه بنصرتهم ، ويستوى فى ذلك رسله عليهم السلام والذين آمنوا بهم ، لأن الله سبحانه وتعالى قارب بين الذى جاء بالصدق وهم الرسل عليهم السلام والذين صدق بهم وهم الصديقون والشهداء عند ربهم يعنى الذين يشهدون معه .

يقول المؤمن ستذكرون ما قلته لكم ، وبهذه الجملة يطوى صفحة خطابهم ويتجه إلى ربه مفوضاً أمره إليه ﴿ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وفى هذا دلالة واضحة على أنهم هددوه ، ولكنه تجاوز خطابهم بهذا المكر السيئ وتجاهله وظل يناديهم بقلب عامر بحبهم ، ويذكرهم بالرحم التى بينه وبينهم وأنهم قومه الذين يقوم لهم ويقومون له ، وكلمة ﴿ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ بالغة السخاء وبالغة الدلالة على صدق الرجوع عند الأمر الملم إلى الله وأنه هو الكافى سبحانه ، وأن الرجل لما فوض أمره إلى ربه تخلى عن كل جاه ، وكل حيلة ، واستعاذ بالله وحده ، وهو كافيه ، وهو فى ذلك متبع لنبي الله وكليمه الذى نصب نفسه للدفاع عنه وعن ما جاء به من الحق ، لما قال موسى عليه السلام بعد قول فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قال عليه السلام : ﴿ إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ وهذا الموقف هو الذى أثار حمية الرجل المؤمن فقال ما قال .

ثم إنك تجد مقابلة خفية بين جملتى ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ هذه المقابلة هى أنهم سيذكرون حين ينزل عليهم بأس ربهم وحينئذ سيكون هو فى نجوة من مكرهم لأنه فوض وهو صادق فاستسلم وهو صادق ، واستمسك بالعروة الوثقى . التى ليس لأهل الله غاية أعلى من أن يكونوا من أهلها ، ثم هناك مقابلة أخرى هى أن باطل المسرف الجبار غلب

عليكم وهممتم بمن جاءكم بالهدى من ربكم، وهممتم برجل منكم خاف عليكم وفوضتم أمركم إلى مسرف كذاب، ولا يجوز لأحد أن يفوض أمره إلا إلى الله ومن فوض أمره إليه فقد آوى إلى ركن شديد.

والجملة الثالثة التي هي فاصلة كل كلام المؤمن وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ نلاحظ فيها أنها بدأت بالتوكيد، ثم وضع لفظ الجلالة موضع المضمرة لتستغنى به عن ما قبلها، ثم جيء بكلمة ﴿بَصِيرٌ﴾ وما وراءها من سعة وإحاطة الخالق جل شأنه بخلقه ثم تخصيص هذه الصفة بأنها بالعباد وهو سبحانه بصير بكل ما خلق في السموات والأرض وما فيهن، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. أقول هذه الجملة الفاصلة بهذه الدلالات. أرى فيها أعجب ما أراه في الفواصل القرآنية وكلها عجيب، وذلك لأننى لو وضعتها على الجملة قبلها ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أجد أنها كأنها غطاء لها، وكذلك جملة ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ لو وضعت بإزائها ﴿اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ للثامت أشد ما يكون الالتئام وكأنها جاءت لها، وهكذا من أول كلام المؤمن ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، و﴿اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ إلى آخره، وهذه من البلاغة التي لم أعرفها في الشعر الجاهلي الذي هو أبلغ بيان بعد كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وقبل أن أترك كلام هذا الصادق الذي يخاف على قومه ويدعوهم إلى النجاة وهم يأمرون به أنبه إلى شيء فاتنى التنبيه إليه في موضعه وهو هذه الفجوة المتسعة بين جملتي ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وأن ثمة ترتيباً دقيقاً بين الآيتين وأن المراد لا يعقبه ملازمة المسرفين للنار وإنما هناك حساب وهناك وضع الكتاب والميزان وجيء بالنيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً وقالت لهم خزنتها

ألم يأتيكم رسل منكم . إلى آخره . وكل هذا طوى والمهم معرفة سر هذا الطي وهو أن المقصود الوصول بالترهيب إلى غايته ، فبادر الكلام إلى ذكر هذه الصورة البالغة التخويف وهي أن المسرفين هم أصحاب النار ، وليس هناك عبارة تردع وتكف وتزجر عن الإسراف كهذه .

قوله جل شأنه : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وأول ما يلفت في هذه الآية أنها تفيد معنى لم يدل عليه الكلام السابق دلالة واضحة ، وهو أن الرجل الصادق في دعاء قومه والذي يخاف عليهم ونفض لهم كل ما في نفسه من نصح كان مستغرقاً فيما كان فيه ، وهم يقابلون ذلك بمكر السوء له وتدبير الأذى ، وليس في الكلام السابق ما يدل على هذا إلا في تلك الإشارة التي في قوله سبحانه : ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وإن كان يمكن أن يصرف معناها إلى رجوعه إلى ربه لما بذل أقصى ما عنده ثم رآهم لم يستجيبوا له ، فانصرف عنهم وفوض أمره إلى الله لأنه سبحانه هو القادر على صرف القلوب عن الضلال إلى سبيل الرشاد .

وانتقال الكلام إلى قوله سبحانه : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا ﴾ دال على أن هناك طياً لكلام كثير هو تدبيرهم ومكرهم وأنواع الأذى التي انتهوا إليها ، كل ذلك مسكوت عنه ومدلول عليه بأن الله وقاه منه ، وهذا ضرب من الإيجاز قلما يسلك أحد سبيله من البلغاء لدقة مهيبه ، والفاء التي في قوله : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ ﴾ راجعة بالجملة إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وأنه لما فوض أمره إلى الله وقاه الله ، وحاله كحال موسى عليه السلام لما استعاذ بالله أعاده الله وأن الله سبحانه يعيد من استعاذ ويحفظ من فوض أمره إليه لأن هذا مقتضى كرمه وجلاله ، واستخدام كلمة ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا ﴾

ترجع بنا لا محالة إلى دعاء حملة العرش للذين آمنوا وقولهم ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ، وهذا معناه أن الرجل المؤمن داخل في دعاء حملة العرش وأن الله أجاب دعاءهم له رضوان الله عليه ، فهو مكرم من الله لما فوض أمره إليه فوفاه ، وهو مكرم مع جماعة المؤمنين الذين يستغفر لهم حملة العرش ومن حولهم .

و﴿مَا﴾ في قوله ﴿سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُؤًا﴾ مصدرية أى سيئات مكرهم ، والإضافة فى حكم إضافة الصفة إلى الموصوف وإنما قدمت السيئات لبيان أمر جيد وهو أن مكرهم بلغ من السوء مبلغاً تجاوز فيه الأمر المألوف ، ولهذا كانت السيئات هى الأهم والشأن بها أعنى ، وهذا لبيان المفارقة الشديدة بين الرجل المؤمن وبينهم ؛ هو من جهة تنظر نفسه خوفاً على قومه ، وهم من جهة يبالغون فى سوء المكربه ، والصادق المخلص يمضى على الصدق والإخلاص لقومه وإن قابلوه بالخسائس والمكر والسوء وهؤلاء هم الرجال الكرام ، وقد كان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إذا اشتد إيذاء قومه له قال : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» .

وجملة ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُؤًا﴾ معناها أن الله سبحانه جعل وقاية منه جل شأنه بين هذا الرجل الصادق وسوء مكرهم ، وكأنه صار محاطاً بهذه الوقاية ، وقابل ذلك قوله سبحانه : ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ والمعنى أحاط بآل فرعون سوء العذاب ، هناك سياج من الوقاية يقيه وهنا سياج من سوء العذاب وهذا يرجع بنا من وجه ليس بعيداً إلى قوله : ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعنى أنه أحيط بهم فلم ينفعهم الإدبار والتولى . وإذا كان قوله : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُؤًا﴾ راجعاً إلى قوله ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن قوله سبحانه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ راجع إلى قوله ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وقد قدم فوفاه الله الراجع إلى المتأخر وهو ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي﴾

على طريقة اللف والنشر غير المرتب لأن الأهم هو الإخبار بوقاية الله له من سيء مكرهم، وليتفرغ الكلام إلى الحديث عن تفاصيل ما أحاق بآل فرعون لأن كل ما سيأتى بعد ذلك هو تفصيل لهذه الجملة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ..﴾ وراجع حذو هذا وضعه بإزاء حذو ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿المقصود بيان شناعة موقفهم، فقدّم دعوتهم إليه ليكفر بالله على دعوته لهم إلى العزيز الغفار، على طريقة اللف والنشر غير المرتب.

ويلاحظ أنه قال هنا ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وجعل عذاب فرعون نفسه داخلاً ضمناً في عذاب آله مع أنه هو الأصل. وذلك لبيان العناية بخطر التبعية التي تعصبُ فيها العقول والقلوب والتي أصابت الجم الكثير من الناس الذين كانوا ولا يزالون يتبعون كبار أهل الضلالة. المطلوب تخويف وإيقاظ هؤلاء الذين أناموا عقولهم ولم يكن النظر والتفكير المستقل دأبهم وديندتهم، ولا يزال البلاء من هؤلاء والخطر من هؤلاء، وسنجد الآيات بعد ذلك تحدّث عن احتجاجهم في النار وتبهمهم إلى خطر التبعية وأنها هي التي رمت وترمى بهم في قاع الجحيم.

ومع هذا الواقع المفضى إلى الجحيم وذلك باتباعهم لفرعون وإعراضهم عن نداء الصادق المؤمن، فقد كان الضعفاء في التاريخ هم الذين يسارعون إلى الإيمان بالنبوات ويرون في هذه النبوات نداء الخلاص من ريقه الذل والعبودية، يرون فيها نداء التحرير والعودة بالحياة الإنسانية إلى فطرتها من الحرية والمساواة، والملا من قوم نوح يقولون له ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧] والملا من قوم صالح يقولون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿[الأعراف: ٧٦].

ولم أعرف أن الضعفاء فى زمن فرعون آمنوا بموسى عليه السلام ولم يروا فيه مخلصا لهم . ربما لأنه لم يخاطبهم بالدعوة وإنما خاطب فرعون، ولأن رسالته كانت أن يخلص بنى إسرائيل من فرعون الذى كان تعبدهم . والذى خاطب العامة والخاصة من أبناء مصر هو الرجل المؤمن وقال يا قومى كما كان الأنبياء يقولون .

وقوله جل شأنه: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

قوله ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ يجوز أن تكون بدلاً من سوء العذاب بدل اشتمال لأن سوء العذاب يشمل النار، أو بدل بعض لأن العرض على النار من سوء العذاب، أو بدل مطابق، ويجوز أن تكون مبتدأ والخبر يعرضون عليها، ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف وهى فى كل هذه الأحوال بيان لسوء العذاب، والملاحظ أن أول ما حاق بآل فرعون من سوء العذاب هو الإغراق، والآية سكنت عنه أو جعلته مضمناً فى سوء العذاب كما سكنت عن هلاك فرعون وجعلته مضمناً فى هلاك آل فرعون، ووجه ذلك هو الإشارة إلى أن ما وراء الإغراق أهول وأوجع وأشد حتى كأن الإغراق المعبر عن فظاعته بقوله تعالى ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه: ٧٨] ليس بشيء بالنسبة إلى ما بعده . ومعنى ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ تظهر لهم ويرون مقاعدهم فيها كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال عليه السلام: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» .

والذى فى الحديث أن المقعد يعرض على أحدنا إذا مات وهو من الترغيب والترهيب، والذى فى الآية أنهم يعرضون على النار، والمعروض عليه يجب

أن يكون حياً عاقلاً، وقد جاء مثل هذا في قولهم عرضت الناقة على الخوض، وسماء العلماء قلباً وخرجه بعضهم على المجاز بتشبيه المعروض عليه بالحي العاقل.

ووجه الآية ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يرجع بنا إلى قوله سبحانه في شأن جهنم أعادنا الله منها ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ وتغيظها وزفيرها من الغضب عليهم، وهى كذلك حين يعرضون عليها غدواً وعشيا، وقالوا ليس فى الجنة غدايا ولا عشايا والمراد يعرضون عليها فى هذين الوقتين فى الدنيا أو أنهم يعرضون عليها أبداً لأن الغدايا والعشايا يشملان الوقت كله، وقال الزمخشري: أن قوله سبحانه ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ من باب قولهم عرضهم على السيف أى قتلهم به، ومعنى يعرضون عليها يعذبون بها، وهذا قبل يوم القيامة بدليل قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ويستدل بذلك على عذاب القبر، ويذكر الرازى أن الآية مما احتج بها أصحابه على عذاب القبر، لأن هذا العرض ليس فى الدنيا وليس فى القيامة وإنما هو فى القبر وهو عذاب لا محالة، ثم بين الرازى أن النافين لعذاب القبر احتجوا بهذه الآية وذكر وجههم والآية تحتل هذا كله.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ يجوز أن تكون هذه الواو واو الاستئناف وأن تكون عاطفة على الجملة قبلها ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، والظاهر أن العذاب مؤجل ليوم تقوم الساعة إلا إذا قلنا إن المؤجل هو أشد العذاب وليس العذاب.

وأول ما يبدو فى الآية أن الآية ذكرت يوم القيامة بيوم تقوم الساعة، وللقيامة أسماء كثيرة منها الطامة، ومنها الصاخة، ويوم ترجف الراجفة، والحاقة، والقارعة، وكلها أسماء أشد تخويفاً من يوم تقوم الساعة، والواجب أن نبين وجه تسمية القيامة بيوم تقوم الساعة، وما معنى تقوم الساعة وعلينا

أن نجتهد لأننى لم أقف على كلام لعلمائنا فى هذا، والذى أراه والله أعلم أن كل الكائنات من النجوم والجبال والسماء والأرض والبحار كل ذلك له عمل يقوم به حين تأتى لحظة الساعة وينفخ فى الصور، ومن أراد أن يرى حال الأشياء عند النفخة فإنه يستطيع أن يرى ذلك فى أمثال هذه الآيات ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۙ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۙ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۙ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۙ﴾ وراجع هذه الصور ثم اقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۙ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۙ وَإِذَا الْجِبَالُ سَوِيَتْ ۙ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۙ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۙ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۙ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۙ وَإِذَا السَّمَاءُ انفطرت ۙ ۙ وَإِذَا الْكُورَابُ انشثرت ۙ ۙ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۙ ۙ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۙ ۙ﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وهذا معناه أن الله سبحانه وتعالى أودع فى كل شىء من هذه الأشياء أمرها وأنها تقوم بأمره سبحانه فيها إلى أن تسمى الساعة فتقوم بأمر آخر هو الذى تراه فى النجوم انكدرت والجبال سيرت فسمى مجيئها قياماً، وهذا معنى لا تراه فى القارعة والحاقة والطامة والصاخة، وإنما فى كل كلمة من هذه الكلمات معنى آخر، ومن الواجب أن نقول لماذا ذكرت القارعة هنا والحاقة هناك والطامة هنا والصاخة هناك وما الفرق بين الحاقة ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة والقارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ولماذا جاء بعد الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة، وجاء بعد القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وكل هذا تجده لمعاً فى كلام العلماء تشير إليه وإن كانت لم تقف عنده لزيادة البيان.

وإنما قال سبحانه هنا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ لأن المراد تحديد الوقت الذى ينقل فيه آل فرعون من حالة يعرضون فيها على النار إلى حالة دخولهم أشد العذاب، فناسب ذكر الساعة التى هى نصُّ فى تحديد الوقت هذا والله أعلم، ثم إنه سبحانه قال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وفى هذه الجملة أشياء أولها: أنه قال آل فرعون ولم يقل فرعون وآله مع أنه هو سبب ضلالهم،

ووجه ذلك هو زيادة تفسير من التبعية كما قلنا هناك ولييان أن من استجاب
 لدعوة الباطل يصير لا فرق بينه وبين من دعا إلى باطل، والعذاب جامع
 وشامل للجميع، ولا فرق بين فرعون ومن دخل في دين فرعون، وقد نبه
 القرآن إلى أنهم فقدوا ذواتهم التي بها يستقلون وجعلهم جميعاً آل فرعون
 ونسبهم إليه ولم ينسبهم إلى آبائهم كما يقال آك فلان الذي هو جدهم، وإنما
 نسبهم هنا إلى فرعون لأنهم اتبعوه فصاروا آله، وتحول نسبهم عن آبائهم
 وأصلابهم الذين ولدوهم إلى الحاكم المستبد بهم وهذا أشع ما تعيشه
 الشعوب، حين تفتقد هويتها الحقيقية وجنسياتها الأم ويمحى ذلك وينسى
 وتبقى هوية واحدة وجنسية واحدة وهى سوية الحاكم، وجنسية الحاكم، حتى
 جنسية الوطن تغيب مع جنسية الشعب ويبقى الحاكم الذى يصير هو الوطن
 وهو الشعب.

وفى كل هذا رجوع خفى إلى مثل قول فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى
 وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، وهذا هو السبيل الذى هداهم إليه، وليس
 أبغض إلى كل عاقل من التبعية وبُغْضِي للضال بغض شديد وبغضى للمتبع
 للضال بغض أشد لأنه جمع إلى ضلاله تبعية وعبودية وصغار، والأمر الآخر
 فى الآية الكريمة: أنه قال ﴿ أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ولم يقل ويوم تقوم الساعة
 يدخل آل فرعون كما قال ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وإنما عدل إلى
 فعل الأمر الصادر من الخالق المنعم الرحيم للدلالة على مزيد الغضب،
 ويقوى هذه الدلالة قوله سبحانه ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وكل عذاب جهنم شديد
 ومهين وأليم وعظيم، وهؤلاء الذين لم يواجهوا الباطل ولم يتبعوا الحق ولم
 يسمعوا إلى الرجل الذى كانت نفسه تنفطر خوفاً عليهم، ثم إنهم قابلوا
 صدقه وحبه وإخلاصه بمكر السيئ واتبعوا من لم ير لهم إلهاً غيره إلى آخر ما
 تراه من أحوالهم التى لا تختلف كثيراً عن عصابة المنافقين والموالين والمؤيدين
 لكل فراعين الناس فى كل أرض ابتليت بفرعون، أقول هؤلاء فى الأرض

بلاء وفى الأوطان بلاء وليس يكفيهم العذاب وإنما يستحقون أشد العذاب، وهناك قراءة بهمزة القطع المضمومة والأمر فيها متجه من الله إلى آل فرعون مباشرة، والمعنى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وتحت كلمة آل فرعون معنى آخر وهو تحقير كل من يقبل أن ينتسب إلى غير آبائه وإنما ينتسب إلى آباء من فرضوا عليه سلطانهم، لأن كلمة آل فرعون كما قلنا نسبة إلى صاحب السلطان وليست نسبة إلى عرق أو إلى أرض. وهذا الكلام من أول قوله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ بيان كاشف لقول المؤمن ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، والفعل الماضى فى قوله ﴿فَرَفَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا﴾ جاء على أصل معناه وفى قوله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ليس على أصل معناه، لأن من سوء العذاب ما حاق بهم كالإغراق وعرضهم على النار، ومنه ما لم يحق بهم بعد كدخولهم أشد العذاب المرجأ إلى يوم تقوم الساعة، وعلى هذا يكون بعض معناه على الحقيقة وبعض معناه على أساس أن ما هو للوقوع كالواقع كقوله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله جل شأنه ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

هذه الآيات انتقل فيها الكلام انتقالاتاً مؤسساً على الترتيب الدقيق جداً ولاحظ سلسلة ترتيب الأحداث ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ثم يأتى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ فيدخلون فى النار وهم الآن فى النار؛ ويتحاجون معنى يتلاومون، وكل منهم يذكر حجته التى يحتج بها على صاحبه، ودائماً الاحتجاج فى النار يكون بين فريقين فريق الضعفاء التابعين وفريق الذين استكبروا وقادوهم إلى هذا الهلاك الذى هم فيه.

«إذ» هذه ظرف ومعناها هنا الاستقبال والواو الداخلة عليها واو استئناف لأن الكلام دخل مدخلاً جديداً وهى واو عطف القصة على القصة، والقصة المعطوفة هنا هى احتجاجهم فى النار وهو معنى مضموم إلى ما قبله الذى هو ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ بكسر الخاء وبضمها، والسؤال هو لماذا ذكر من أحوالهم فى النار أحوال احتجاجهم مع أن لهم أحوالاً كثيرة أكثر ترهيباً وردعاً كما فى مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧] وقوله سبحانه ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠] وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّن حديدٍ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١] فلماذا جىء هنا بقوله ﴿يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ أى يتناظرون كما قال الرازى وترك كل هذه الصور؟ وهل نستطيع أن نحدد السر فى اختيار كل صورة من هذه الصور وإيرادها فى موقعها من السورة التى جاءت فيها؟ يعنى لماذا قال فى الحج ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، إلى آخره. وقال فى إبراهيم ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ﴾، وقال فى فاطر ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ وقال فى المؤمن ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ أقول: البحث فى هذا واجب ولا يستقيم فيه كلام إلا بعد المعرفة الدقيقة لسياق السورة، وكيف اقتضى هذا السياق ذكر هذا دون غيره، والذى نقوله فى غافر راجع إلى ما بنيت عليه السورة من ذكر الذين يجادلون فى آيات الله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا رأسها ولذلك لم يأت من قصة موسى عليه السلام إلا ما اقتضاه هذا السياق من مجادلة فرعون فى آيات الله ومجادلة الرجل المؤمن عن آيات الله، وأن الذى أفضى بهؤلاء إلى النار يتحاجون فيها هو رفضهم لسماع من كان يجادل عن آيات الله بهذا العرض الرفيع الذى كان يفيض بالعقل والحكمة والحرص على قومه والحب لهم،

وهذه مناسبة واضحة ولا يجوز مع هذا السياق أن نضع وهم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧] مكان ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ﴾ لأن السياق سياق المحاجة وليس سياق الموازنة بين نعيم أهل الجنة وشقاوة أهل النار.

وهذا الاحتجاج بين الضعفاء والذين استكبروا يكشف شيئاً في الذى مضى لم نتحدث عنه الآيات، وهو أن من أهم أسباب إخفاق الذى آمن فى أن يقنع قومه بما أراد موقف الذين استكبروا من الذين استضعفوا وأنهم حالوا بينهم وبين المؤمن، واقتادوهم فانقادوا واستبعوهم فتبعوهم، وكان الشأن فى المستضعفين أن يستجيبوا للأنبياء لأنهم يجدون معهم وفيهم الخلاص. وكان المستضعفون من أول نوح عليه السلام من السابقين إلى الأنبياء ﴿وَمَا تَرَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُكْفِرُوا وَلَئِن لَّمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ لَقَدْ ضَلُّوا سُبُلًا مَّيْمَنًا لَّيْسَ بِهَا شَأْنٌ وَالَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ بَرَاءً زَوَّجْنَاكَ بِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠]. وقد قلت إن المستضعفين من السابقين لأنهم وجدوا فى النبوات الخلاص ولأنهم لما عملوا عقولهم أدركوا الآيات البيّنات كما أدركها المستكبرون، ثم اختلفوا عن المستكبرين بعدم وجود الصوارف عندهم، وهذه الصوارف هى التى صرفت المستكبرين ورفضوا الإذعان للنبوات من أجل ما هم فيه وليس من أجل أنه ساحر أو يريد أن يلفتكم عما وجدتم عليه آباءكم كل هذا كلام يقولونه ويعلمون أنهم يكذبون على أنفسهم وعلى الناس لأن آيات الأنبياء كانت بينات جمع بيّنة يعنى ظاهرة تراها العيون.

وتتابع الحوار وسنجد فيه أشياء وأول ما فيه هو هذا الزمان الذى فى كلمة «إذ» والحدث الذى فى كلمة يتحاجون ومجىء الفعل المضارع وكان الحدث بزمانه وحدوثه وتجدده قد انتقل إلينا وكأننا نسمعهم وهم يتحاجون، وهذا ظاهر والذى لم يتكلم فيه أحد هو قولهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنَّا بِمُعْزِئِكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [سورة التوبة: ١٠٠]. ولو فهمنا دلالة كل جملة بمعزل عن أختها كان فهمنا قريباً جداً، لأن المعنى الذى يستخرج هو فى ترتيب الجملة الثانية على الأولى وبحرف الفاء الذى لا يخلو من معنى أن شيئاً رتب على شىء.

أو أن شيئاً كان بسبب من شيء، ومعنى هذا أنهم يقولون إن تبعيتنا لكم كانت سبباً فيما نحن فيه، وأنتم لن تغنوا عنا مما نحن فيه شيئاً، وهذا ظاهر أيضاً ووراءه شيء هو أننا لو تخلينا عن التبعية لكم لكننا اليوم من الناجين وليس لهذا معنى إلا معنى واحد وهو أنهم كانوا أقرب إلى الإيمان وأقرب إلى الاقتناع بالبينات، وأنهم حين كانوا بعيدين عن التبعية واعتمدوا على عقولهم ونظريهم واستدلّاهم كانوا على عتبة الإيمان، فجاءت التبعية وجاء التقليد فدمروا عقولهم ونظروا بعقول غيرهم فكان ما كان، وهذا معناه أن كلام المؤمن ومن قبله كلام موسى عليه السلام لم يكن نفخاً في الهواء، وإنما سلك طريقه إلى قلوب وِعَتَهُ واقتنعت به، ثم صرفتها التبعية التي هي شر محض في أى وجه من وجوه الحياة تراها في العلم والعقائد والفكر والأدب والشعر والسياسة إلى آخره، وكل ذلك لابد أن ينبع ويخرج من صميم حاجات الناس ومن صميم عقولهم وأنفسهم وأحوالهم وأوضاعهم، والذي أراه حولى تبعية مدمرة للعقل الصغير والكبير ولهذا لا نزداد إلا تخلفاً وتقليداً وانجراراً وراء الآخرين، ولا حياة لواحد ولا لجماعة ولا لأمة ما لم تكن تلك الحياة قائمة على فكرها ويقظتها ونظرها واستخراجاتها، وكان من الكلام الكريم الذى وعيناه هو أن خطأك وأنت معتمد على عقلك ومجتهد فى شأنك أفضل من صوابك وأنت مقلد لغيرك، ولذلك نجد جملة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيها توكيد وفيها حسرة وفيها ندم وفيها لوم شديد لهذه النفوس التي عاشت معيشة التبعية وتقاد بأزمة كما تقاد الحيوانات، وأرى رسن هذه الأزمة على أنوف مضيئة فى الثقافة والفكر والتحديث والتنوير والسياسة والمذاهب الفكرية والعقائد السياسية وأقول فى نفسى ويل لقومى ماداموا منقادين بهذا الرسن .

وجملة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ قلت إن الفاء دلت على أن هذه التبعية هى التى أفضت بهم إلى النار وهم الآن يصرخون فى وجوه من كانوا تبعاً لهم ويقولون فى استفهام يقطر حسرة وتجهيلاً وتوبيخاً وتخيلاً

هل ﴿أَنْتُمْ مُغْتَوْنَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] ومعروف أن كلمة هل لها مزيد اختصاص بالفعل لأنها في الأصل بمعنى قد وقد لا تدخل إلا على الأفعال، ولهذا قالوا: إنه من القبيح أن نقول هل زيد قام لأن الفعل مادام في حيز هل فالأفضل والأبلغ أن تدخل عليه وأن تعانقه، كما قال العلامة السعد، وإن كنت وجدت الكثير من هذا في كلام الفصحاء ولكنه بالقطع أقل من مثل هل قام زيد، فإذا لم تجد الفعل في حيزها تسلت عنه ذاهلة كما قال أيضاً العلامة السعد، وقد قالوا: إن قولنا هل زيد قائم أبلغ من قولنا هل يقوم زيد، وذلك لأننا لما عدلنا بهل عن الجملة الفعلية التي لها مزيد اختصاص بها دلّ هذا العدول على مزيد العناية بما تفيد الجملة الاسمية وهو الثبوت والدوام، وعليه قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] لأن العناية بدوام الشكر وثبوتها، وقوله جل شأنه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤] لأن العناية بدوام الإسلام وثبوتها، وقوله سبحانه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَوْنَ عَنَّا نَصِيًّا﴾ لأن العناية بدوام الإغناء وثبوتها لأن هذا البلاء الذي هم فيه كان بسبب أنهم أغروهم بتبعيتهم، ثم إن كلمة «نصيياً» بالتركيز تعنى نصيياً أى نصيب وإن قل. وهم يعلمون علم اليقين أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، ويوم تقوم الساعة ويراهم الناس لم يبق في الأرض أحد يشك فيما جاءت به الرسل. لأنه يكشف بها الغطاء ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وإنما سألوها توبيخاً وتحسراً وتندماً وتخجلاً كما قلت، وأجاب الذين استكبروا بقولهم ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ والتونين الذى فى قولهم ﴿كُلٌّ﴾ عوض عن المضاف والأصل إنا كلنا فيها، وهذه الجملة ليست جواباً عن سؤال الضعفاء لأن الواقع أنهم كلهم فيها وكأنها تحصيل حاصل، وفحوى هذا أن من كان فى النار لا يستطيع أن يغنى عن غيره نصيباً منها وأنتم معنا وتعرفون ذلك والذى يمكن أن يحمل نصيباً من النار هو الذى ليس فى النار إن أتيج له ذلك، ثم إن الضعفاء يعودون بهم إلى ما كانوا عليه فى الدنيا ويقولون لهم ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ والتبع جمع تابع

كالخدم جمع خادم، ويسخر هؤلاء الضعفاء من أنفسهم بهذه التبعية الموقفة والذين استكبروا يريدون أن يضربوا صفحا على الذى كان فى الدنيا وقولهم للرسول ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٤] ﴿ وَكُوِّشَاءَ اللَّهِ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقولهم للذين لهم صَغَوْ إِلَى الْحَقِّ ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ وغير ذلك مما قالوه، وهو متن متسع وحافل بالباطل والضلال والكذب، ومراجعة كلام الذين استكبروا فى القرآن تضع بين أيدينا ضلالا كثيرا جدا وهم الآن يضربون صفحا عنه، والآية وإن كانت فى سياق آل فرعون إلا أن اللفظ عام وشامل، لكل المستكبرين فى الأرض والمستضعفين فيها وقولهم بعد ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ كلام ظاهره أنه تحصيل حاصل. لأنهم ما داموا فى النار فقد حكم الله بين العباد ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٦٩] ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر: ٧١] إلى آخره وليس تحصيل هذا الحاصل هو المراد وإنما وراءه شئ آخر؛ منه أنه لا فائدة من ذكر ما كان بيننا وبينكم وأنا دعوناكم فأجبتم واقتدناكم فانقدتم، وطلبنا منكم أن تلغوا عقولكم وأن تسلمونا زمامكم وأن تكونوا لنا تبعاً فكتتم، كل هذا لا فائدة من ذكره ولن تستطيعوا أن تحصلوا منا على شئ، ولا أن نحاسبونا لأن الله قد حكم بيننا وبينكم كما حكم بين عباده جميعاً واقتص للكل من الكل.

ولاحظ أن الضعفاء قالوا جملتين واحدة لأموا فيها أنفسهم وقدموها لأن تبعيتهم لغيرهم فى الدنيا أوجع، والثانية لأموا فيها الذين استكبروا وكان استكبارهم فى الدنيا مغرباً لهؤلاء الضعفاء بالتبعية لهم فقبلوا أن يكونوا تبعاً، والزمخشري حين يقرن بين تابع وتبع وخدام وخدم إنما يشير بهذا الاقتران إلى ما فى التبعية من ذل وهوان، والذين استكبروا أجابوا بجملتين واحدة فيها معنى أنه الآن لا فرق بين من أضلَّ ومن ضلَّ ولا تابع ولا متبوع، وأنا كما أغربناكم بأن نكونوا أتباعاً فقد ساعدتمونا على هذا الضلال باتباعكم لنا، والجملتان الثانية إن الله قد حكم وانتهى الأمر وهذا كلام شديد الإيجاز وهو

مناسب جداً لما هم فيه، والتوكيد في كل هذه الجمل دليل على قوة إحساس كل بما قال ووراء ذلك ما وراءه.

قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ .

الربط بين هذه الآية والتي قبلها ظاهر جداً لأن أهل النار بعدما فرغوا من المحاجة التي بينهم، واحتج الضعفاء على الذين استكبروا وكانت حجبتهم واهنة جداً وذليلة جداً لأنهم احتجوا بأنهم كانوا لهم تبعاً وهذا لا يحتج به من يكرم نفسه، رد عليهم المستكبرون بما قلنا، صار الفريقان الضعفاء والذين استكبروا فريقاً واحداً، وأصحاب محنة واحدة، فجمعتهم المحنة التي أوماً إلى جمعها لهم قول كبرائهم ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ واتجهوا إلى خزنة جهنم وأول ما تبدأ به الآيات هذا العطف الذي يعطف الآية على التي قبلها ﴿ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ وتدخل هذه الآية في حيز كلمة «إذ» والمراد والله أعلم واذكر إذ يتحاجون في النار؛ واذكر إذ قال الذين في النار، ثم قوله سبحانه ﴿ لَخِزْنَةُ جَهَنَّمَ ﴾ ولم يقل لخزنة النار، وليستلاء مع قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ لبيان هول ما هم فيه لأن جهنم تعنى قعر النار وأسفلها، وهذا القعر هو أشدها عذاباً ويوجد فيه كبار أهل الجحيم وعتاة العصاة وشيوخ الكفر والفجور والضلال، وخزنة جهنم هم أكرم الخزنة وأكرم الملائكة وقولهم ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ كأنهم يجدون حرجاً لو قالوا ربنا مع أنهم مؤمنون به وقالوا منذ لحظة ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ والخرج لأنهم عاشوا يتكرون رسله وآياته ويحاربون الله ويحاربون رسله عليهم السلام، يعنى دعاهم سبحانه فرفضوا وأوقعوا الإيذاء بالداعى ومن تبعه فكيف يدعونه الآن؟

ادعوه أنتم يا ملائكته لأنكم عبدتموه وأحببتم من عبده واستغفرتهم لهم وأنتم ترون ما نحن فيه، وربما رقت قلوبكم للذى نعانيه، ثم إنهم لم يطلبوا الخروج من النار ولم يقولوا ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] ولم يقولوا ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]، ولا ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣]، وإنما كل طلبهم أن يخفف عنهم يوماً من العذاب، فهم لم يطلبوا تخفيف العذاب ولم يطلبوا أن يسريحوا منه يوماً وإنما أن يخفف عنهم يوماً أى يوم، وتأمل تنكير يوماً وتعريف العذاب ولو جمعت ما فى الكتاب العزيز مما يدور حول هذا المعنى لوجدت تنوعاً شديداً جداً حتى إنهم ينادون ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧] ودراسة صحاح أهل النار هذه وتنوعها وأسرار هذا التنوع ومواقيت هذا التنوع من الأهمية بمكان ولكن هذا لا يتعرض له المتدثون، ومن الأخطاء المحدقة بنا أننا نوجه المتدثين إلى كتابة أبواب فى العلم لا يجوز أن يكتبها إلا العلماء الذين أحكمهم النظر وأحكموا التدقيق، وإنك لتجد الكلام واحداً ثم يختلف اختلافاً يسيراً من ذلك مثلاً الآية السابقة ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ تجد هذه الآية فى سورة إبراهيم ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] لما تحاجوا فى النار قالوا: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ ولما كانوا فى يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء قالوا: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ويلاحظ أن الردود على هذه الصيحات تتضمن ما ذكره الخزنة هنا رضوان الله عليهم وهو رفض ما جاءت به الرسل، يقال لهم مرة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] ومرة

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] ومرة ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨] وكل هذا موصول بالسياق الذي جاء فيه، ولا يستخرج هذا السياق الذي اقتضى هذا القول دون غيره وبهذا البناء دون غيره إلا من حَفِيتْ أقلامهم العمر كله في البحث عن الصواب بعيداً عن التهويش والتلييس والمزایدات وتورم الذوات، وأعود إلى رد الخزنة رضوان الله عليهم، قالوا: ﴿ قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُتْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وفي هذا الجواب عدول عن السؤال الذي هو ادعوا ربكم، لأن جوابه أن يقولوا نفعنا أو لا نفعنا. ولكن الخزنة رجعوا بهم إلى الشيء الذي أوقعهم فيما هم فيه وذلك لزيادة التنبه للغافلين السادرين في هذه الدنيا، لأن كل هذا لما يكن بعد وسيكون قطعاً، والقرآن الكريم برحمة الرحمن الرحيم يعرضه علينا قبل أن يقع بكل تفاصيله وكل دقائقه وكل خطراته وآلامه وأهواله ليراجع كل نفسه، ولذلك رجع الخزنة الكرام إلى القاعدة الأم التي يراد الوقوف عندها وهي رد آيات الله البيّنات ورد رسله الكرام ورد كتبه القيمة. لأن رد البرهان القاطع، والدليل الساطع، يقطع الأمل في تخفيف يوم من العذاب، وليس في درء العذاب بل إنه ليقطع الأمل في أن يقضى الله عليهم في هذا العذاب فيموتوا، وإنما هم فيه ماكثون ﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٥].

ونراجع عبارة الخزنة رضوان الله عليهم وأولها همزة الاستفهام التي جاءت أول نطقهم، والمراد بها التقرير ليس بما دخلت عليه لأنها دخلت على النفي وإنما التقرير بما يعلمه المخاطب بما دخلت عليه، والمراد هنا الإثبات أي جاء تكلم رسلكم بالبيّنات وقالوا بلى يعني أقروا بمجىء الرسل بالبيّنات، وكلمة البيّنات صفة لموصوف محذوف أي بالآيات البيّنات، وإنما حذف الموصوف لمزيد العناية بالصفة وأنها بيّنة ظاهرة لا ينكرها منصف وهذا هو رأس البلاء الذي يخرج عبد الله من رحمة الله ويجعله من الملعونين المطرودين من ساحة الرحمة التي وسعت كل شيء، ولو تأملت لوجدت أن

الإنسان لم يرتكب أبشع من إنكار الدليل الساطع والبرهان القاطع فى أى باب من الأبواب، فإذا كان الباب باب الاعتقاد فى المبدأ والمعاد وكان الدليل القاطع من رب السموات والأرض وكان مصحوباً بأمره ونهيه، ثم تمرد العبد المخلوق والمتقلب فى نعم الله على ما جاءه من ربه مما لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر ولا يشك فيه شك، كان الغضب وكانت اللعنة وكان العذاب وكان هذا الذى يستحقونه مما ترى صورته، وكانت هذه الصيحات التى لا تجد أحدا يسمعها وإنما يقول لهم الرحمن الرحيم ﴿اٰخِسْتُوْا فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

ثم إن الخزنة قالوا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ فأدخلوا الهمزة على الواو وهذا من أعرق صور البيان كما قلت وأنها قليلة فى كلام الناس كثيرة فى كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأجد صعوبة شديدة فى تقدير المحذوف ولا وجه لإنكار أن هنا محذوفاً لأن الواو تقتضى العطف والعطف لا بد فيه من معطوف عليه وهو المحذوف لا محالة، وإن كان الشيخ الطاهر حاول أن يجد المعطوف عليه فى الكلام السابق، وهذا غير مشهور ولم أجد صعوبة فى تقدير محذوف كما أجدتها مع هذه الواو أو الفاء أو ثم التى دخلت عليها همزة الاستفهام، ثم إن الخزنة المكرمين لم يقولوا: أو لم تأتكم رسلكم بالبينات وإنما أضافوا كلمة «تك» وأصلها تكن مضارع كان، وفرق كبير بين ما جاءت عليه الآية وقولنا ألم تأتكم رسلكم بالبينات لأن كلمة تكن وإن كانت فعلاً مضارعاً فإن كلمة لم التى تجزم المضارع تحوله أيضاً إلى الماضى فيصير بمعنى كان، ويكون الخزنة الكرام أضافوها ليشيروا إلى أنكم كنتم فى فسحة من الوقت وقد جاءكم الرسل بالبينات وكان النظر متاحاً وكانت المراجعة متاحة والوقت ممدوداً، ومع كل هذا بقيتم على العناد والإصرار والإنكار، ولو قالوا أو لم تأتكم رسلكم لذهبت هذه الدلالة المستفادة من كان.

أما مجيء الواو، فإن إشارتها إلى معن مضمرة إشارة لا تنكر، وأن هناك مساحة بين الجملة التي هي فيها، والكلام قبلها وأنها مساحة فراغ في اللفظ فقط، وأن معنى خفياً مضمراً يسكن فيها، وهذا أيضاً لا شك فيه وربما كان إحساس النفس بهذا المعنى الخفى المستكن في مساحة الفراغ اللفظي هذه من أقوى أسباب الإحساس بقوة هذا الأسلوب، وكلما بعد منال التقدير اللفظي الذى يملأ مساحة الفراغ هذه كلما كان الكلام أوقع وأمكن، وأملك، وقد طالت مراودتى لهذا الأسلوب لأتبين الجهة التى آتية منها، وكأنى أطوف حول هذه الواو لأبحث فى قطرها عن مدخل لسد ما طوت، ومن ذلك أننى أرجع إلى الجملة من غير الواو وأقول إن قوله: أنتكم رسلكم بالبينات الذى هو المقصود النهائى من الجملة بعد تعريتها من كل ما جاءت فيه هل يقتضى هذا المعنى معنى قبله؟ كأن يقال مثلاً أنتم الذين أوبقتم أنفسكم لما رفضتم البيئات، وأن الله سبحانه وتعالى لم يعذب أحداً إلا بعد أن يرسل إليه رسولاً وهو رحمن رحيم بخلقه، المهم أننى أفكر فى المعانى التى يمكن أن تكون سابقة للفكرة التى دخلت عليها الهمزة وواو العطف، وإن كان يصعب وضع اليد على معنى معين وتبقى هذه المساحة تومض فيها المعانى إيماض رمز وإشارة وليست دلالة تصريح وبيان، وهذا حسبى. وقولهم فى جواب الخزنة ﴿بلى﴾ هم فى هذا الجواب يسلمون بالخطيئة الكبرى وهى رد رسل الله ورد آيات الله، وكأنهم بهذا التسليم يُعْفُونَ الملائكة من الدعاء لهم، لأن الملائكة لا يدعون لمن دعاه الله فأبى أن يجيب دعوة الله، وإنما يدعون لمن دعاه ربه فأجاب دعاء ربه، الملائكة يحبون الله ويحبون من أحب الله، ويستغفرون للذين آمنوا لفرط محبتهم لمن آمن، ولا يدعون لمن عاند، وكابر وكفر، ولذلك تجدد فى رد الخزنة على قولهم «بلى» نفثة غضب لأنهم قالوا لهم على الفور «ادعوا» يعنى ادعوا أنتم لأننا لا ندعوا وإن كنا نرى ما أنتم فيه من العذاب لأن الخطيئة التى ارتكبتها وهى رد البيئات التى حملتها ملائكة الرحمن إلى

رسله فحملوها إليكم وهي برُّ ليس فوقه برُّ، ورحمة ليس بعدها رحمة، ونعمة ليس بعدها نعمة. كل ذلك قابلتموه بالرفض والاستكبار والتعنت، فلن تجدوا أحداً يرق لكم ولا إنسا ولا ملكا ينعطف نحوكم، ادعوا أنتم ولن تجدوا غيركم يدعو لكم، وهذا شيء من معنى الغضب الذى قلته وبقي الأكثر وهو قوله سبحانه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وهذه جملة حالية وقد دلت دلالة ظاهرة على أن الأمر فى قولهم لهم ﴿فَادْعُوا﴾ أمر استخفاف واستهزاء لأنه أمر بفعل ليست له فائدة أى فائدة، ووراء ذلك مزيد من الشماتة وعدم الاكتراث بما هم فيه من ويلات. وإذا كان دعاء الكافرين فى ضلال يعنى فى ضياع فلا وجه لقولهم لهم «ادعوا» إلا أن يدخلوا أطماعهم وآمالهم وأوھامهم فى تيه الضلال، وأن يظلوا يصيحون بالدعاء فى هذا التيه، ثم إن كلمة الكافرين هنا تفيد التركيز والعناية بالسبب الحقيقى وهو مجيء الرسل بالبينات، ويلاحظ أنهم اختصروا الكلام اختصاراً شديداً لما قالوا لهم أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ لأن السؤال الحقيقى ليس على إتيان الرسل بالبينات وإنما على رفضهم هذه البينات وعنادهم واستكبارهم عن الإيمان بآيات الله التى لا يرحم أحدٌ من ينحداها، وكان أصل الكلام أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات فكفرتم، وكان هذه الجملة الرائعة ﴿أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قبلها محذوف دلت عليه الواو وبعدها محذوف لا يتم المعنى إلا بتقديره، لأن إتيان الرسل بالبينات لا يترتب عليه العذاب إنما يترتب على الرفض. وما أعظم هذه الجملة التى تراها معلقة بين محذوفين وإذا كان المسؤول يطيل الكلام أحيانا تحبباً فى إطالة الزمن مع السائل. كما قالوا فى قوله تعالى. ﴿وَمَا تَلَكَ بِيْمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨] فإن هذا الاختصار الشديد وذكر جملة يحيط بها حذف قبلها وحذف بعدها دليل على كراهية الإطالة مع السائل. الذين هم أصحاب النار.

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿﴾، انتقل
الكلام فى هذه الآية انتقالاً ظاهراً وبنى هذا الانتقال على القطع والاستئناف،
والقطع والاستئناف غالباً ما يشير إلى أن الكلام الذى بنى عليهما له خطر
وله شأن، وبلاغة هذه الآية فى موقعها بلاغة لا يدرك كنهها لأنها جاءت بعد
كلام أهل جهنم أعادنا الله منها، وهم يتحاجون فى النار ثم وهم يقولون
لخزنة جهنم ادعوا ربكم إلى آخر ما فيها من اليأس والإحباط والعذاب
الشديد، وفى هذه الآية يأتى كلام رب العزة مبشراً بنصر رسله والذين آمنوا
ليقابل بذلك طرد هؤلاء الذين كفروا من رحمة الله وإلقائهم فى قعر
الجحيم، ولاحظ أن القول والفعل هنا هو قول رب العزة والنصر نصر رب
العزة، وأن الكلام ابتدأ بالتوكيد بإن واللام واسم إن هو نون العظمة واللام
داخلة على النصر الذى هو من رب العزة والمفعول هو رسلنا، فهو سبحانه
ينصر رسله ويتنصر لحزبه الذين قال لهم المجادلون ساحر كذاب، وذرونى
أقتل موسى، وقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، كل هذا وغيره داخل تحت
هذه الجملة العالية ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا تبرد قلوب الذين آمنوا
فى جهادهم وجلادهم بشيء كما تبرد بهذه الجملة الشديدة الاختصار، لأن
هذا وعد قاطع وإذا كنت تشعر أنك تعمل لله فى أى موقع تواجه فيه خلا
أو باطلاً وتجتهد فى إصلاحه وتجد من العنت والتحدى ما يزعجك فهذا وعد
الله لك إن صدقت فى نصرته صدقك وعده، ثم إنك لو راجعت هذه الجملة
مرة ثانية وجدتها صادرة عن عز الربوبية لأنه لا ينصر الرسل منذ نوح إلى
محمد ﷺ إلا الحى الباقى جل شأنه، وقد تجدد فى إضافة الرسل إلى نون
العظمة هذا العز الذى هو عز الألوهية، لأن هؤلاء الرسل الكثير منهم من
قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ لَا تَسَاعِدْ نَفْسَ صَاحِبِهَا عَلَى أَنْ
يقول فيهم (رسلنا) لأن هذا من الكلام الإلهى الذى يستحيل صدوره عن

نفس بشرية، ثم إنك تجد عز الربوبية فى الآية يأتيك من أولها ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ﴾ ومن آخر ﴿رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنا أحوم حول نبع البلاغة الخاصة بالقرآن فى هذه الجملة ولا أستطيع الاقتراب منه بأكثر مما قلت، وقلِّبها أنت بلسانك وقلبك وعقلك لتدرك ما لم أدلك عليه، ثم لاحظ هذا التكريم الرائع لرسول الله الذين وجدوا من أقوامهم ما وجدوا والله سبحانه يُعلن للشقْلين أنه ناصرهم، ثم راجع تقريب وتكريم الذين آمنوا وكيف قرنهم صاحب الجلال والعز برسوله الذين تعهد بنصرهم، وكيف صار المؤمنون بالأنبياء على قدم واحدة مع الأنبياء، وكيف كان حجم العطاء لما ألحق سبحانه الذين صدقوا بالصدق بالذين جاؤوا بالصدق: والذي جاء بالصدق هم الرسل الكرام والذين صدقوا بالصدق هم الذين آمنوا.

ثم قوله سبحانه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو نصرهم على أعدائهم كالذى فى قوله سبحانه: ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ وأيضاً نصر الذين آمنوا على أنفسهم وعلى شياطينهم وأهوائهم، ورزقهم اليقين وبرد اليقين واطمئنان القلوب ومحبة الذكر ومحبة البر وفعل الخيرات وإقامة الصلوات وكل ذلك من النصر، لأن العبد إذا رزقه ربه حب الخير وأهل الخير وفعل الخير كان من أكرم المنصورين، وليس النصر معارك وقتل ودماء فحسب، وقوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يعنى يوم القيامة والأشهاد هم الله سبحانه وملائكته وأولو العلم، كما جاء فى الآية الكريمة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] والأشهاد أيضاً هم أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه لقوله سبحانه: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] والأشهاد هم رسول الله ﷺ لقوله سبحانه ﴿وَيَكُونِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

وراجع الجملة مرة ثانية ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ لترى أن النصر شامل للزمان كله والمكان كله فى الدنيا

والآخرة، ولن تجد كلاماً يجمع كل هذا فى كلمات معدودة كما تجد فى هذا الكلام، ثم تأمل كيف انتقل الكلام من هذا الوعد الذى يفيض بكل خير. ومن الحديث عن الرسل الذين هم خير خلقه وصفوة عباده والذين آمنوا الذين أحقهم كرمه بهم انتقل الكلام إلى النمط الآخر المعاكس لهذا وهم الظالمون، أقول كيف انتقل الكلام بهذه الحركة الإعرابية التى هى فى علم البلاغة ذات مكان وذلك فى قوله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ﴾ لأن يوم بدل من يوم يقوم الأشهاد، وهذا اليوم العظيم الذى يقوم فيه الأشهاد الكرام يتكرر فى صورة البدل ليضع أمامنا مشهداً آخرهم الظالمون ومعاذيرهم المردودة عليهم والمطروحة فى وجوههم، وهذا كما تراه ليس منه شىء فى كلام الناس، وقد عبرت الآية بكلمة الظالمين والمراد الكافرين للإشارة إلى أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وحرموها من أن تكون داخلة فىمن ينصرهم الله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم إنهم ظلموها أشنع الظلم حين ألقوا بهم فى قعر الجحيم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، وقد أشارت سورة الزخرف إلى أنهم ظلموا أنفسهم بالخلود فى عذاب جهنم ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

قلت: إن نصر الله لرسوله وللمؤمنين ليس نصراً على الأعداء فحسب وإنما هو النصر بمعناه المتسع وذكرت منه ما ذكرت، والنصر يوم يقوم الأشهاد ليس فيه شىء من معنى النصر على الأعداء، وإنما هو نصر بالمغفرة والرحمة وستر الله الذى يستر به عباده المؤمنين ويجعلهم سبحانه فى كنفه ويستترهم فى الآخرة كما سترهم فى الدنيا، ويغفر لهم ذنوبهم الكبائر والصغائر بتوبة وبلون توبة، وبعد هذا بدأت الآية تحدث عن الفريق الآخر وقد بينا دقة وسداد الانتقال من حالة إلى حالة لأن يوم الأشهاد يوم جامع للخلق البر منهم والفاجر، فانتقل الحديث إلى الظالمين بذكر الجانب الآخر الذى فى هذا اليوم وتكلم عن هؤلاء الظالمين بجمل ثلاثة مرتبة ترتيباً دقيقاً، ومختصرة

اختصاراً شديداً ووراءها من المعانى ما لا يحاط به، والجملة الاولى هي:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ والمعذرة اسم مصدر ومعناها العذر ومعنى أن هذه المعذرة لا تنفعهم أنها معاذير غير مقبولة وغير حق وغير معقولة كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الاعراف: ٢٨] وكقولهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] وكقولهم: ﴿أَخْرَجْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [فاطر: ٢٧] وكقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠] فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿[الملك: ١٠] كل هذا وغيره كثير يعتذرون به وهو مردود كله، وقد ذكر العلماء أن هذا لا يصادم قوله سبحانه في سورة المرسلات: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] لأن يوم القيامة طويل فيؤذن لهم في بعضه ولا يؤذن لهم في بعضه، والمهم أن هذه الجملة ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ ليس فيها إلا رفض العذر ولم تصرح بعذابهم وإن كان هذا العذاب متضمناً في نفي قبول العذر، ثم تأتي الجملة الثانية وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي معطوفة على ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ وهي جملة شديدة الاختصار، وتقديم الخبر فيها يفيد الاختصاص، واللعة الإبعاد والطرده من رحمة الله، وتدخل في التهديد خطوة زائدة عن التي قبلها، واللام في قوله سبحانه ﴿لَهُمْ﴾ وقعت في موقع كلمة «على» كما في عليهم لعنة الله، واللام تأتي في النافع كما في قوله جل شأنه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وكما في مثل قولنا لك هذا، ولك ما تريد، ولك العتبي، وعلى تأتي في الضار مثل ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ «وعليهم غضب»، «وعليها غبرة»، ومجىء اللام هنا مكان على فيه إشارة إلى دلالة الجملة السابقة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ وكانهم بهذه المعذرة كانوا يريدون أن ينالوا شيئاً نافعاً فليل لهم هذه اللعنة لكم، وقوله سبحانه في الجملة الثالثة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ هذه اللام كالتى قبلها فاللعنة صارت في

حوزتهم وسوء الدار صار لهم ملكا يملكونه، وسوء الدار هي النار، وفي هذا الكلام شوب من السخرية بهم وكان الجملتين قبل هذه تمهيدان لها، وقد رأينا الثانية تخطو في التهديد خطوة أوسع من الأولى وهذه بلغت غاية الشدة لأنه لا سوء أسوأ من سوء الدار الذي هو قعر جهنم، وقلت إن هذه الجمل الشديدة الاختصار وراءها معان لا تحمد وذلك لان الظالمين هنا هم كل من جاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا من نوح عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، هذا البحر الزاخر من الفجرة والكفرة وأهل الضلالة كل واحد منهم يقدم معذرتة فلم تنفعه، وكل هذا البحر الزاخر مطرود من الرحمة، وكل هذا البحر الزاخر له سوء الدار، وهذه الآيات من أول ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ جمعت كل من ولد آدم وجعلتهم في شقين شق هم الأنبياء ومعهم وفي صحبتهم المؤمنون وهؤلاء هم المنصورون وهم الغالبون وهم الصالحون وهم الصديقون وهم المكرمون في جنات النعيم، والقسم الثاني هم الظالمون يعتذرون فلا تنفعهم المعذرة ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وهذه الآيات بهذا الإيجاز وهذا التفصيل وهذا التحديد لم أجد شيئاً يشبهها في كلام من غلبوا على الكلام.

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۚ هُدًىٰ وَذِكْرًىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ﴾.

وأول ما يظهر في هذه الآية أنها أخت الآية السابقة في معناها ومعناها، أما معناها، فإسناد الأفعال فيها إلى ضمير ذي الجلال الذي أخبر بأنه ينصر رسله والذين آمنوا هو ذاته جل شأنه الذي أتى موسى الهدى وأورث بني إسرائيل الكتاب، والأفعال حينئذ تسند في كلام الله إلى الله يكون للكلام بها مذاق آخر راجع ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢] ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢] وكلها ناطقة بعز الربوبية وأنها لا تكون إلا من الحى القادر سبحانه، وكما أنه لا ينصر رسله إلا هو كذلك لا يؤتى كلمه عليه السلام الهدى إلا هو سبحانه ولا يورث بنى إسرائيل الكتاب إلا هو سبحانه، ولم يكن فى كلام العرب إسناد له هذه الدلالة المهيمنة على هذه الأحداث، فلم تألف الأذن العربية فى جاهليتها ذات البلاغة العالية مثل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ ولا مثل: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ لم يكن فى العرب ولا فى غير العرب لسان يقول مثل هذا، هذا فى مبنى الآية، أما معناها فإنها ظاهرة فى أنها مثال واحد من أمثلة لا حصر لها فى الآية السابقة، فهو سبحانه هناك ينصر رسله والذين آمنوا وهؤلاء هم أهل الله من يوم أن خلق الناس وبعث فيهم أنبياءه، والآية التى معنا مثال لأنها تذكر موسى عليه السلام وهو واحد من رسله والذين آمنوا معه وهم بنو إسرائيل، وهذا ربط واضح يجعل الكلام من قوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله ﴿هُدًى وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ كلاما واحدا، ولو رجعت بهذه الآية إلى ما قبل ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ وهو قوله جل شأنه: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ستجد ربطا شديدا بين ضلال الكافرين وهدى موسى عليه السلام ومن معه.

ولاحظ تكرار المصدر فى الآيتين ﴿دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وليس دعاء ضالاً، وإنما هو فى محض الضلال، وقابله ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ يعنى محض الهداية وكأنه عليه السلام أوتى الهدى نفسه، ولا يجوز أن نهمل أمثال هذه العلاقات وأقوى منها وأتم وهى المقصود أننا لو رجعنا بهذه الآية إلى مفتاح الحديث عن قصة سيدنا موسى عليه السلام وهى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والآية التى معنا هى آخر الكلام

في قصة موسى وتوابعها المذكورة في السورة، وهي ردُّ ظاهرٍ إلى صدر الحديث عن هذه القصة وكلمة ﴿سُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ المذكورة في أول القصة هي الهدى المذكور في آخرها، والقصة صدرها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وعجزها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ ونأمل تصاقب المباني والمعاني وبهذا التلاقي بين طرفيها طويت صفحاتها من السورة، ثم إن القصة كلها خارجة من قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى آخرها وهذا ظاهر وهو ربط يجب أن يُعنى به ولا نجد على هذا الوجه في بيان من نزل فيهم القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ المراد بالهدى النبوة والتوراة وفيها هدى ونور، وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ والكتاب يمكن أن يكون المراد به التوراة وتوريشه في بني إسرائيل تنقله فيهم من جيل إلى جيل. ويمكن أن يكون المراد بالكتاب التوراة وما بعدها من كتب بني إسرائيل التي أنزلها الله على أنبيائهم كالزبور والإنجيل. والكتاب أكثر من الكتب لأنه يشمل الواحد وما فوقه، والكتب تشمل الثلاثة وما فوقها، وليس في كلمة أورثنا ما يفيد أنهم اهتمدوا بالكتاب أو لم يهتمدوا وهذا جيد لأنهم غيروا وقالوا ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقالوا هو من الكتاب وما هو من الكتاب ﴿فَبَدَّوْهُ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧] إلى آخر ما جاء في الكتاب العزيز من هذا الباب.

وفي مقابل هذا ذكر الكتاب العزيز أن من بني إسرائيل أمة يقضون بالحق وبه يعدلون، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] ولذلك جاءت الآية في غاية الدقة، وقوله سبحانه ﴿هُدًى وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وكلمة (هدى) حال من (الكتاب) و(ذكرى) معطوف عليه، والهدى ما يهدي إلى الدليل ويهدي بالدليل فيسلك الإنسان طريقه

على هذا الهدى الذى هو نور كما سماه الكتاب العزيز، لأن الدليل للعقل كالنور للعين هذا يهدى البصيرة وذلك يهدى البصر، والذكرى ما تستحضره النفس من معلومات حاضرة أو منسية وكلمتا الهدى والذكرى تفيدان معنى البصيرة التى تفكر وتستخرج، والمادة العلمية التى يكون فيها التفكير والدرس. وقوله: ﴿لأُولَى الْأَبَابِ﴾ هو الشرط اللازم لإدراك الهدى والذكرى فى الكتاب وفى أى كتاب، وبهذا تفتح الآية باب الذين يهدون بالحق من بنى إسرائيل ومن يتشفعون بما أنزل الله من الأمم كلها، لأن الخير كله فى النبوات وفى الكتب التى أنزلها الله على النبيين ولا يتفجع بهذا الخير إلا أولو الأبواب كما فى الآية، بل ولا يتفجع بالخير الذى فى الكتب عامة مقدسة وغير مقدسة إلا أولو الأبواب، فهذه الأبواب هى صفو نعم الله ومفتاح الانتفاع بكل نعم الله، ولهذا كان هذا الجار والمجرور ﴿لأُولَى الْأَبَابِ﴾ بعد ذكر الهدى والكتاب من البلاغة والدقة وصواب الدلالة بمكان بعيد، قوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَمَسِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشْبِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

هذه الفاء يصح أن تكون موصولة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ و يترتب على هذا اليقين بنصر الله لرسله والذين آمنوا الأمر بصبره ﷺ وهو على يقين من أن الله ناصره ومن معه، ويجوز أن تكون موصولة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ فاصبر لأن الذى نصر موسى ومن معه من كيد فرعون وآتاه الهدى ناصرك ومن معك. وأوقع من هذا وذاك أن تكون هذه الفاء راجعة إلى قوله عز اسمه: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لأن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وما استتبعته من ذكر الرجل الذى آمن إلى نهايتها عند قوله سبحانه: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ثم

ما دعا إليه بيان سوء العذاب من بيان حالهم إذ يتحاجون في النار، ثم ما دعا إليه هذا من حال أهل النار وهم يقولون لحزنة جهنم، ثم ما انتهى إليه الأمر بتكريم موسى وإتيائه الهدى إلى آخره، كل ذلك يُؤسِّسُ عليه قوله سبحانه لنينا عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وكل هذا الذي كان إنما هو تسليية وذكر للأقوام الذين ناهضوا أنبياءهم، كما ناهض قومه عليه السلام نبوته، وذكر نصر الله لأنبيائه على مثل من قال: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ وذكر المستضعفين الذين آمنوا بالأنبياء ونصر الله هؤلاء وهؤلاء، وهذا من أذكى وأعظم ضروب التسليية ولكن الأمر محتاج إلى صبر، وستجد الكلام بعد هذه الآية يرتدُّ إلى المحور الذي بنيت عليه السورة وهو المجادلة في آيات الله بغير سلطان.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يجعل ربط هذه الآية بقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ أقرب لأن هذه الآية هي وعد الله بنصر رسله والذين آمنوا، ومن المفيد أن تقول إن الوعد الحق يعني لا محالة نصره عليه السلام والذين آمنوا وأن هذا وإن كان لا شك فيه فإن مجيئه لا يعني إلغاء الصعوبات التي تواجهها وستواجهها، وإنما هذه الصعوبات قائمة وستبقى وستكون في حاجة دائمة إلى الصبر والتحمل ومواجهة المشقَّات، وعلى الذين يعلمون أن الله ناصرهم ألا يركنوا إلى الدعة والهون وإنما عليهم دائماً أن يكونوا مستعدين لمواجهة المشاق التي تحتاج إلى الصبر العظيم، وهذا معنى جيد جداً لأنه يعني أن أصحاب القضايا في حالة مستمرة من المواجهة وتحمل المشاق والحاجة والملازمة للتحلى بالصبر، والنبوات مثل واضح لأهل الحق في الأرض ويلاحظ أن الصبر لم يتعلق به مفعول كما في قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠] ﴿وَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] وإنما جاء الصبر مطلقاً والمعنى ليكن منك صبر وليكن الصبر جزءاً من سليقتك وطبعك

لأن الصبر هو الزاد الضروري لأصحاب القضايا، وحسبك اليقين بأن الله ينصر رسله واليقين بأن وعده لا يتخلف، ولا شك أن الأمر بالصبر المقترن بوعد الله بالنصر فيه إشارة إلى أنك ستواجه صعوبات من قومك، ومن غير قومك، وجملة: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ جملة مستأنفة ومؤكدة بأن وهى وإن كانت شبيهة بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] إلا أن فيها معنى زائداً وهو أن الثقة فى سلامة القصد حين يقترن بالثقة فى وعد الله وأن الله ناصر من ينصره، كل هذا يزيد الصبر صبراً ويبسط حظ النفس منه ويصل حبال الصبر بالصبر، وحسب أهل الصبر أنهم يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً، وليس عند أهل الحق أعلى ولا أحسن ولا أبرد للقلب من الصبر فى مواقف نصره الحق، وأن يكون المرء مستشعراً أنه واحد من جند الله المرابطين الصابرين الواقفين على ثغر من ثغور الله فى أى باب كان.

وقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ من المعانى البليغة جداً وخصوصاً إذا نظرت إليها مقترناً بعضها ببعض ثم هى فى جملتها مقترنة بما قبلها ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

بيان ذلك أن الاستغفار والتسبيح بحمد الله فى الوقت كله أعظم وأنجع وسيلة تنتج الصبر، وكأنها المزرعة التى يتكاثر فيها الصبر: ﴿كَزَّرَعٍ أُخْرِجَ شَطَأُهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٣٩]، وذلك لأن الصبر فى هذه الآيات تسنده قاعدة أساسية هى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وأن الصابرين يوفون أجرهم بغير حساب، وأن الله معهم، وكل هذا لا يجعل النفس تتحمل الصبر وإنما يجعلها تُحِبُّه وتألفه وتآلف العيش فى كنفه، ثم وهو الذى لفتنى أكثر أن قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ رأيت فيه التخلية ثم التحلية، وكل صاحب قضية محتاج إلى خلوص نفسه من أدران الخطايا التى

تحيط به، وتهز سزمه وتضعف مناعته، والذنب قد يداخل النفس وهى لا تدرى ولذلك تقول فى الدعاء: اللهم اغفر لنا ما نعلم وما لا نعلم، وكلنا يحتقب ذنوباً ولا يمحوها إلا الاستغفار، وهذا هو معنى التخلية يعنى تخلى النفس وتخليصها من أثقال المعصية التى تؤودها وتثقل حركتها، وتقيدها خطاها وتعثر طريقها وتضعف مناعتها، ثم تحتاج نفوس أصحاب القضايا إلى طاقة تمد نفوسهم وليس أفضل ولا أنجح من التسييح بحمد ربك، لأن هذا يعنى القرب من المؤيد والناصر والمأنح القدرة على المواجهة والمأنح الهدى والتوفيق والسداد، وكل هذا يزرع فى النفس الصبر والطاقة التى لا حدود لها.

ولهذا أقول إن معنى الجملة هو جزء من بلاغتها وليس كل بلاغتها لأن موقعها مما قبلها وبعدها يستبد بجزء آخر ليس أقل، من الجزء الذى فى الجملة نفسها، وقد يقال: أى ذنب كان منه صلوات الله وسلامه عليه حتى يؤمر بالاستغفار منه فى الأوقات كلها لأن العشى والإبكار ليسا زمن التسييح وحده وإنما هما زمن الاستغفار والتسييح. أى ذنب كان منه وقد وصفه ربه بأنه على خلق عظيم، وأنه عليه السلام البشير والنذير والسراج المنير وأى ذنب له بعد صلاة الله عليه والملائكة.

وقد ذكر العلماء فى بيان ذلك وجوها منها: أن ذنبه عليه السلام إنما يكون فى ترك الأولى. ومنها أنه إغراء لأمته بالاستغفار لأنه عليه السلام أمر به وصار مستغفراً ومن التأسى به والأخذ بسنته أن نستغفر كما كان يستغفر، ومنها: وهو الابن عندى أن أمره عليه السلام بالاستغفار هو محض تعبد ولا شأن لهذا الأمر بأن هناك ذنباً أو ليس هناك ذنب، ونظيره أننا أمرنا بأن نقول ﴿رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] ووعد الله آت لا محالة ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١] وكما أمرنا بأن نقول ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الانبيا: ١١٢] وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق، ومعنى محض التعبد يعنى لا يسأل عن سره

وإنما تقول سمعنا وأطعنا وهذا من المذاقات الحلوة عند أهل الله الذين رزقهم حبه وحب ما يحب ومن يحب، وكل أهل الإيمان يجتهدون في ذلك ويبقى عطاء ربك. وقوله ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يعني بالأوقات كلها لأن العشى من نصف النهار إلى أوله، والإبكار من أوله إلى نصفه وهذا هو الطريق إلى إعداد النفس لمواجهة الأمور العظيمة، ولا أعظم منصبا من النبوة ﴿إِنَّا سَلَقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] والذي يلي منصب النبوة ويأتي بعده هو منصب إرث النبوة ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] واستعمال كلمة البلاغ التي هي عمل الأنبياء يجعلهم أشبه الناس بالأنبياء وكانهم أنبياء لم يوح إليهم وهذا أكرم منصب وأنت أيها القارئ مرشح له. وقد وقفت لأبحث السر في تقديم العشى على الإبكار مع أن الإبكار هو الذي يأتي أولاً ثم يعقبه العشى. ولم أكتف بما قاله شيوخنا رحمهم الله وأرضاهم من أن الإبكار من النهار والعشى من الليل والليل مقدم على النهار لأنه هو الأصل. وقلت لا شك أن هنا سرّاً آخر والذي لا يشك فيه أحد أن الأسرار في الكتاب تتراءى بمقدار صفاء نفس الناظر وطول مراجعته، وأنها أسرار كثيرة تمد كل نفس بما يناسبها، ومع كثرة الصوارف فإننا نحاول ونظن أن العشى هو وقت فترة نشاط النفس. وخلودها إلى الراحة، وأن حمل النفس في هذه الحالة على الاستغفار والتسبيح من القربات العظيمة، ثم إن آخر اليوم وآخر السعى فيه والدأب والتقلب في طلب الحاجات يحتاج من الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسب إلى المراجعة، فقد يكون قد احتقب في يومه ما لا يرضاه الله له، ولهذا تأتي الحاجة إلى الاستغفار أولاً في هذا الوقت، ثم إن الذي يعيش في كنف ربه ويحرص على ذلك يكون آخر يقظته الاشتغال بالاستغفار والتسبيح حتى إذا تغشاه النوم أصبح على ما أمسى عليه، يعني أصبح ولا يزال رنين الذكر في قلبه فيصل عشيّه بإيكاره في الاستغفار والتسبيح، وشيء آخر هو أن الصبر والثقة في

وعد الله والعيش الدائم في كنفه باستغفاره وتسيحه هذا وحده هو الذى به تخرج أمتك من العشى إلى الإبكار، يعنى من غبش الشك والريب والظلمة إلى نور الإيمان والهدى، وكذلك كل من أراد من بعدك أن يخرج نفسه أو قومه أو من حوله من العشى إلى الإبكار فليس له إلا هذه الأركان الصبر والثقة فى نصر الله ودوام اشتغال القلب بالله، هذا والله أعلم.

والذى فتح لى باب هذا المعنى الأخير أننى وضعت قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ عند رأس السورة وهو قوله سبحانه ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فوجدت الكلام يلتئم، ثم وضعت آية ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ مع آية ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾ فوجدت أن التمام الكلام مشروط بما جاء بعد التنزيل وهو ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والآيات بعدها، وحينئذ ظهر أن الصبر على المسئولية المترتبة على تنزيل الكتاب أمر ضرورى، وأن سناد هذا الصبر هو أن وعد الله حق وأن غذاء هذا الصبر هو الاستغفار والتسبيح، وأن ثمرة هذا كله هو أن يسلمك العشى إلى الإبكار كما أسلمك الليل إذا يغشى إلى النهار إذا تجلى، وكما أسلمت الظلمة أمتك إلى النور فى قوله سبحانه ﴿لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١) ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَنَّى

تَوْفُكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ هذه الآيات تدور حول معنى واحد تُعرض فيه المجادلة في آيات الله التي هي رأس السورة والتي سبق عرض وجه من وجوهها وهي هنا تُعرض بوجه آخر، وتعالج من جهة أخرى، وراجع كل الذى مضى من أول قوله سبحانه ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وأحكم فهم طبيعة المعانى التى تتابعت من هذا الأصل، ثم اقرأ هذه الآيات التى ابتدأت بما ابتدأت به الآيات السابقة، وأحكم فهم المعانى التى تتابعت لتدرك الوجه الآخر الذى تعالجه هذه الآيات ولتدرك الفروق، وإدراك الفروق مهم جداً لأن التشابه قوى وشديد والمعانى المشتركة بين الآية الأولى وما تسلسل منها وهذه الآية وما تسلسل منها كثيرة جداً، ومع ذلك هناك خيوط وخطوط تختلف ألوانها أو أطراف ألوانها كما تختلف مواقعها أو تتزحزح قليلاً أو كثيراً فتفيد اختلافاً وفروقاً ما، وهذا هو المطلوب استخراجاً، وأهم ما فى الدرس أن تستخرج المختلف من المشتبه.

وأول فارق بين الكلامين هو أن الكلام هناك قرن الذين يجادلون فى آيات الله من قومه عليه السلام بالذين جادلوا فى آيات الله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم وقد هيا ذلك لقوله ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم دخل الكلام فى صور التآمر على حياة الأنبياء وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ثم أخذهم الله فكيف كان عقاب، ثم صورهم فى النار وهم ينادون إلى آخر ما ترى مما يكون فيه التخويف والتهديد والإنذار هو الصوت الأعلى. فهناك إنذار يوم التلاق وإنذارهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ثم سنن الله فى الأمم من قبلهم، ثم قول الملائكة من قوم فرعون «اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه

واستحيوا نساءهم»، ثم قول فرعون ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، ثم قول المؤمن إنى أخاف عليكم يوم الأحزاب ويوم التناد ويوم تولون مدبرين إلى أن وصلنا إلى آل فرعون وهم يتحاجون فى النار، ثم المجادلين فى نبوات أنبياء الله ورسله وهم يقولون لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب، وإن كان يتخلل ذلك حديث عن الذين آمنوا واستغفار حملة العرش لهم وآية الله التى يُرِيهَا لَخَلْقِهِ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ إلى آخره.

والحال هنا مشتهبه جداً بالحال هناك ولكنه يختلف اختلافاً يجعل له مذاقا آخر ولونا آخر، وإدراك هذا الاختلاف فى زحام هذا الاتفاق أمر جليل جداً، لأن الآيات هنا أولاً لا تربط المجادلين عن قومه عليه السلام بالذين من قبلهم وإنما تعتمد أولاً إلى بيان سبب جدالهم وهو كبر فى صدورهم، ثم تعرض من الآيات ما ينزع هذا الكبر ويدحض هذا الجدل فتذكر خلق السموات والأرض وأنه أكبر من خلق الناس. فكيف يسكن الكبر صدور أصاغر خلق الله حتى يعارضوا آيات خالقهم وخالق ما هو أكبر من خلقهم، ثم تأخذ النفوس بشئ من النظر الهادى إلى الحق، ثم تذكر الساعة وأنها آتية لا ريب فيها، ثم دعوة الله لعباده ليدعوه أو يتوجهوا إليه بطلب الحاجات وهو سبحانه لا يرد دعاءهم، ثم ذكرهم بنعمه وهكذا ترى الفرق فى هذه الآيات وعرض الدليل والدعوة إلى الإيمان بالترغيب وذكر النعم وتكرار هذه النعم، كل هذا يجعل هذه الآيات تختلف اختلافاً ما عن الآيات السابقة، وأهم ما فى هذا الاختلاف أنها تحدث القوم الذين فيهم رسول الله ﷺ وتلفت إليهم بكل ما فيها ولا تلتفت إلى التاريخ ولا تذكر الأمم البائدة ولا عذاب الاستئصال، وإنما تأخذ بأيدى قومه عليه السلام على طريق المعرفة والنظر والاستدلال المفضى إلى أنه سبحانه ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.

خبر الذين يجادلون هو قوله ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ يتجه به الحديث إلى علة المجادلة في آيات الله، وأن هذه العلة هي الكبر الذى فى صدورهم وهذا بخلاف ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن الخبر هناك يبين وصف المجادلين وأنهم الذين كفروا، ففتح هذا الخبر هناك ذكر الكفار من يوم نوح والأحزاب من بعده، ثم جرى الكلام فى هذا السبيل والخبر فى الآية التى تخللت كلام مؤمن آل فرعون وهى قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أفادت شيئاً آخر تسلسل منه ما بعدها وهو أن الجدل فى آيات الله يصب على رؤوس أصحابه أشد بغض الله ومقته، ولذلك جاء بعد هذا صورة من أشنع صور الجدل لتؤكد أنه موجب لأبشع العذاب وهذه الصورة هى قول فرعون ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال هذا وقد أراه الله الآيه الكبرى، والآيه الكبرى قالوا هى قلب العصا حية لأنها هى الأصل والباقي تبع لها، أو هى آيات موسى عليه السلام التسع وجعلت آية واحدة ووصفت بالكبرى، والمهم أن جدال فرعون كان صورة عارية للجدال بالباطل وهذا يؤكد معنى أن هذا الجدل جالب لأبشع العذاب وأشد المقت، ولذلك جاء بعده صوت المؤمن يقول ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إلى آخره.

والمسلك هنا وإن بدأ برأس الكلام الذى بدأت به آيات الجدل فى الموضعين إلا أنه سلك مسلكاً آخر هو بيان علة هذه الخطيئة التى تجلب أشد الغضب، وهذه العلة هى الكبر وسترى كيف كان لهذه العلة أثر واضح فى بناء الآيات بعدها.

وأول ما يلاحظ فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ هو توكيد هذا المعنى مع أن آية ﴿كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم تأت بتوكيد لأن الإخبار بالمقت عن الجدل ليس فى حاجة

إلى توكيد بخلاف العود بالجدال المفضى إلى المقت، وأنه راجع إلى علة في النفوس تفضى بأصحابها إلى عذاب الجحيم، فإن هذا معنى يحتاج إلى توكيد لغرابته، ونحن نتلقى عن ربنا كل ما يقوله لنا سبحانه من غير حاجة إلى توكيد، وإنما المقصود الإشارة إلى غرابة هذه الخسيسة المستكنة في نفوس هؤلاء الذين ينادون ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ والذين يقولون لحزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ إلى آخر ما يقولونه وهم في عذاب الجحيم، كل هذا مرجعه إلى وهم الكبرياء التي في صدورهم. ووراء ذلك من تخويف عباد الله من تسلل شيء من معاني هذه الخسيسة التي هي الكبر إلى صدورهم، وتجد جملة الخبر الذي تأكد إسناده إلى المبتدأ بكلمة إن قد جاءت على وجه من القصر والتوكيد بالنفي والاستثناء الذي يقصر ما في الصدور على الكبر، وينفى عنها ما دون الكبر مما هو أصل في قبول الإيمان أو رفضه، فليس هناك برهان أقاموا عليه جدالهم، وليس هناك فكر ولا شيء مما يشبه الفكر، وإنما الصدور ليس فيها مما له صلة بهذا الباب إلا الكبر، وهذا معنى جيد جداً، والكبر يحتمل وجوها قال المفسرون، هو تعاضدهم وتعاليمهم في أنفسهم ورفضهم الانقياد لك، لأنهم لو سلموا بالنبوة فسوف يكونون تحت سلطانك وأمرك ونهيك، لأن النبوة لا يعلوها سلطان، وقالوا: الكبر هو رغبتهم في إبطال النبوة أو هو رغبتهم في أن تكون النبوة لهم كما جاء في قوله سبحانه ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقالوا: إن كلمة كبر شاملة لكل ما ذكره القرآن عنهم مما عدوه من موانعهم كقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقد جاء في سورة الإسراء من هذا الشيء الكثير منه قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر

الْأَنْهَارِ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ﴿٩٣﴾
[الإسراء: ٩٠-٩٣] إلى آخر ما قالوا.

وكل هذا الذي قالوه وإنما هو في صدورهم وأن في صدورهم إلا كبر
فكل هذا من الكبر وكلمة الكبر في هذه الآية متسعة جداً لأنها تعنى كل
موانعهم، وقوله سبحانه ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ فيها من التوكيد ما ترى وهى فى
صباغتها كقبوله سبحانه ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]
والتقديم فيها ليس للاختصاص لأن نفي بلوغهم ما فى صدورهم فى أمر
الدعوة إلى الله ليس خاصا بهم لأن الله حافظ دينه وظاهر دينه على
الناس وعلى الأرض وعلى الثقلين، وكل من يضرر حقدا فى صدره على
دين الله ما هو ببالغه كان ذلك من قريش أو من غير قريش كالذين فى
زماننا، وهذا باق إلى يوم يبطل التكليف، والضمير الذى فى قوله سبحانه
﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ ليس راجعاً إلى الكبر وإنما هو راجع إلى ما دعاهم إليه
هذا الكبر من إبطال النبوة ورفض الانصياع والإذعان، وهذا من دقيق
مباني العربية وهو أن يذكر الضمير فلا يعود على اللفظ الصريح المذكور
قبله وإنما يعود على المفهوم الضمنى له وهو موجب الكبر ومقتضيه كما
قال الزمخشري، وهذه الآية فيها إعجاز لأنها أخبرت عن غيب وهو أنهم
لن ينالوا من دين الله ما أرادوا وهو كالذى فى قوله سبحانه ﴿فَإِن لَّمْ
تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] والذى فى قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلًّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقد وقفت كثيراً عند قوله تعالى ﴿بَغِيرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ والجدال فى آيات
الله لا يكون بسلطان فما معنى هذا القيد؟ وأنا لا أسأل لماذا خصت هذا الآية
وآية ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ بهذا القيد لأن هذا سؤال أغمض وإنما أسأل عن

أصل هذا القيد، وقد أشار الألوسى إلى هذا إشاره موجزة وجيدة أخذها الطاهر وأضاف إليها مثالا ولم يزد، قال الألوسى: «وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة للإيدان بأن المتكلم فى أمر الدين لابد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين».

ويقول الشيخ الطاهر بعدما فسر جدالهم بغير سلطان بأنه مجادلة عناد وغضب قال: «وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وإلا فإن المجادلة فى آيات الله لا تكون إلا بغير سلطان لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقع، فهذا القيد نظير القيد فى قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وكذلك وصف سلطان بجملة آتاهم لزيادة تفتيح مجادلتهم بأنها عريّة عن حجة لديهم فهم يجادلون بما ليس لهم به علم» انتهى كلام الطاهر.

والزمخشرى لم يتكلم فى القيد وكذلك الرازى وملحظ الألوسى ملحظ جيد لأنه لم ينح منحنى التشنيع الذى نحا نحوه الشيخ الطاهر، مع أن الكلام يحتمل ما قاله الطاهر وهو جيد ولكن الأجود هو الإشارة إلى أن الكلام فى الدين لا يجوز أن يكون كلاماً مرسلأ من غير دليل، وإنما لابد أن يكون مضبوطاً ومقيداً ومحفوظاً بالمحاذير وخير زمام له هو البرهان الذى سماه الله سلطاناً، والسلطان كأنه هو الحاكم والمهيمن فى أمور الحوار والجدال والمناقشة وهو الدليل، وتعجب حين تجد القرآن العظيم يسمى البرهان سلطاناً والبرهان هو الذى يسنده العقل. وكان الأمر فى النهاية يعود إلى أن العقل هو السلطان وهو المهيمن وأن أى حوار لا يخضع لهذه القاعدة فهو ضرب من العبث ولا يصدر إلا عن الذين ليس فى صدورهم إلا كبر، يعنى ليس فيها أصول علم ولا أصول حوار.

وإذا كان العلامة الألوسى يرى ذلك ضرورة فى الجدال فى أمور الدين، فإنه من حقنا أن نضيف شيئاً آخر وهو أنه ضرورة للحوار فى أى باب كان

من أبواب العلم أو الأدب أو السياسة أو ما شئت مما يشتغل به الناس الذين يشتغلون بأمور المعرفة، ولو التزم الناس بهذا لسقطت كثير من الأفتنة الزائفة التي تبرقت بها أفكار فارغة وتبرقع بها أيضاً شخوص ليس لهم قيمة وإنما هي البراقع لا غير، وكلمة ﴿أَتَاهُمْ﴾ كلمة جليلة لأنها تشير إلى أن هذا السلطان الذى هو الدليل لا يجوز أن يكون متكلفاً ولا متمحلاً، وإنما انبثق من خلال النظر وكأنه وافى العقل وأتاه وقدم إليه، فهو البرهان الذى لا يجوز إغفاله والدليل الذى لا يتطرق إليه الاحتمال والسلطان الذى لا يدفع.

والآية تقول إن البرهان الذى هو بهذه المثابة لا يجوز أن يهمل ولا يجوز لكم أن تتغافلوا عنه، لأن الحياة التى تدفن فيها الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة هى الحياة التى دفنت هى نفسها، وأنكم حين تقصون سلطان العقل فقد أقصيتم أنفسكم وأقصيتم وجودكم وبقيتم أصواتنا تتعالى على سطح الأرض وليست عقولاً هى أوتاد الحياة الإنسانية على الأرض.

والآية تقول إن هذا السلطان ليس هناك أرض محرمة عليه وليس هناك مقدس يردعه ويدفعه، وإنما حيث يوجد فكل ما له عليه برهان يخضع له، ولو وجدتم له مدخلا فى المجادلة فى آيات الله فأدخلوه ولا تردوه، وهيهات أن يكون ذلك وهذا كلام من يقطع بأن الجدال بالسلطان فى الآيات لن يكون، وهو يشبه التعليق بالمحال من قبل ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] و«حتى يؤوب القارطان وينشر فى الموتى كليب بن وائل»، وهذا حسى. ويلاحظ أن الله سبحانه سَمى آياته لأنبيائه بالسلطان كما جاء فى أول قصة موسى فى السورة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وأن غضبه سبحانه من المعاندين واستتصاه للأمم المعاندة وأخذه العزيز المقتدر كل ذلك لأنهم ردوا السلطان المبين، أى الدليل القاطع، والذى هنا فيه شوب من ذلك وأعنى به أن يكون دليلاً لا يتطرق إليه احتمال، وأن الذى جعل الله له سلطاناً لا يرد هو البرهان الساطع وليست الوسوسات والهواجس وأهواء خباثت النفوس

وقوله جل شأنه ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذه الفاء ربت الأمر بالاستعاذة على ما قبلها وهو أن المجادلين بغير سلطان ليس في صدورهم إلا الكبير الذى لن يبلغوا طموحه، والاستعاذة بالله تكون عند توقع مكروه كما قال موسى عليه السلام لما سمع فرعون يقول ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، واللفظ الذى أمر به عليه السلام من معدن ومادة اللفظ الذى نطق به موسى عليه السلام، وقد قال موسى هذا بعد ما جادل فرعون فى آيات الله وليس فى صدره إلا كبر ما هو ببالغه، والسياق هنا هو السياق هناك، وهذا قاطع فى أن هذا الترتيب يستخرج من الكلام المرتب عليه معنى لم يدل الكلام عليه دلالة ظاهرة، وهو أنهم أى الذين يجادلون بغير سلطان وليس فى صدورهم إلا الكبير أضمرنا أيداءه عليه السلام، وكان الأمر بالاستعاذة مع تقارب سياقه بسياق قول موسى دالا على ذلك، وهذا يعنى أن المعطوف قد يشير فى المعطوف عليه معنى لولا العطف لأغضض هذا المعنى، وهذا باب نادر من أبواب أسرار البيان، وقوله سبحانه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فاصلة فيها التوكيد بأن وضمير الفصل. وتعريف الخبر بالألف واللام الدالة على الكمال ثم إنها متضمنة معنى ما قبلها لأن السميع يعنى أنه سبحانه يسمع تدابيرهم وحيلهم وكيدهم الذى يتآمرون به عليك وعلى ما أرسلت به، والبصير يفيد أنه سبحانه يرى ما يكون منهم من أفعال يتوجهون بها إلى إيدائك، وهذا كله جيد وفيه بعث الطمأنينة فى قلبه عليه السلام، وأن هذه الضغائن التى فى هذه الصدور لن يصيبك منها أذى لأنك بمراى من ربك وسمعم، وقد استعاذ موسى بربه فأعاده وفوض المؤمن أمره إلى الله فوقاه سيئات ما مكروا، وقد أعطيت أفضل منهما لأنك بمراى من ربك وسمعم والله عز وجل حارس لك وحافظ لك.

ثم إن هذه الفاصلة لم تبين على لفظ الجلالة وإنما بنيت على الضمير «إنه» ولو بنيت على لفظ الجلالة لآذن باستقلالها عما قبلها، وبنائها على الضمير

العائد مؤذن بدمجها وشدة ارتباطها بما قبلها وهو المطلوب، لأن هذا الدمج يعنى دمج حراسة الله لك وأنتك بمرأى منه ومسمع وهذا يشير إلى علم الله بتأمرهم عليه وهمهم به ليأخذوه وهذا مقام يحتاج إلى أن تكون الحراسة الإلهية جزءاً من هذا الخبر والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

بداية الحديث عن آيات الله البيّنات التى تتخلل الموضوعات التى تتناولها السور، وهذا شأن جار فى الكتاب كله وقد مضى مثله بعد ذكر ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما استتبعها من معان، قال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى أن قال ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وقال هنا بعد آية المجادلة فى آيات الله وأنها لا تكون إلا من قوم ليس فى صدورهم إلا كبر قال ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

والمطلوب الصعب هو لماذا ذكر من آياته هنا هذه الآية؟ ومعناها ظاهر ولكن الذى هو غير ظاهر سر موقعها هنا، وهذا لم يشبعه المفسرون، ولهم إشارات يمكن أن تضىء لنا الطريق. قال الرازى: إن قوله تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ مثال ذكره القرآن للاحتجاج الصحيح فى مقابلة جدالهم الباطل. أو هو مثال للمجادلة بالسلطان وذلك لأن الآية احتجت بالقدرة على خلق الأقوى الذى هو السموات والأرض على القدرة على خلق الأضعف وهم البشر، لأن آفة القوم فى إنكار البعث، والذى خلق هذه الأجرام الكبيرة أقدر على خلق الإنسان، والأقدر على خلق الإنسان أقدر على بعثه ونشره، وهذا كلام جيد وتفسير من الرازى متأثر بمنازع الرازى العقلية وهو رجل صاحب قياس. وإنكار البعث من كبر صدورهم لأن

العلماء فسروا الكبير بكل شىء حال بينهم وبين الإيمان، ولم يكن عندهم أشهر من القول بإنكار الحياة بعد الحياة الدنيا، وإنكار أن يعودوا بعد الموت وأن تكون هناك قدرة قادرة على إحياء العظام وهى رميم وهذا كثير جداً فى الكتاب العزيز

والتوكيد الذى فى الآية بلام الابتداء ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ فيه لفت إلى معنى وراء ظاهر الآية، لأن ظاهر الآية ليس محل إنكار: أولاً لأن القوم مقرون بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وهذا تكرر كثيراً، وأكثر من ذلك كانوا يعتقدون أن الله هو الذى ينزل الغيث من السماء وهذا فى شعرهم، وأن القدر لا يدفع وهذا أيضاً فى شعرهم، ومن يقر بأن الله خلق السموات والأرض يقر لا محالة بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. لأن خلق السموات والأرض يتضمن لا محالة خلق ما بينهما، والناس مفردة من مفردات كثيرة هى بينهما، وعلى هذا يكون خلق الإنسان متضمناً فى خلق السموات والأرض وتكون الآية إخباراً بأمر معلوم، وإذا صح هذا فقد وجب أن يكون المراد بها معنى وراء ظاهرها، ويعين على بيانه اقترانها بما قبلها وهو كبر صدورهم، وأن هذا الوهم الذى فى صدورهم أغراهم برد آيات الخالق الذى خلق هذا الكون الأعظم، وأن من يفكر فى قدرة الذى خلق السموات والأرض وخلق الناس فى اللحظة التى يواجه فيها آياته البينات لا يبقى فى صدره مثقال ذرة من كبر، وإنما يلقي بيديه ويسلم وجهه لله رب العالمين، ولهذا كانت هذه الآية العظيمة من آيات الله والتى هى خلق السموات والأرض عظيمة فى اقترانها وذكرها عقب الحديث عن الذين ليس لهم مانع من قبول آيات الله إلا كبر فى صدورهم، وعلى هذا يكون جزء عظيم من بلاغة الآية ليس فى دلالة لفظها ونظمها فحسب وإنما أيضاً فى موقعها من التى قبلها، وكذلك فى موقعها من التى بعدها لأن قوله جل شأنه ﴿وَلَكِنْ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ فيه دلالة على أن كبر صدورهم الذي كفهم عن الإيمان بالله له مرجع واحد هو الجهل وافتقاد الأهلية للعلم، لأن فعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل متعد نزل هنا منزلة اللازم، إذ ليس المراد لا يعلمون كذا وإنما المراد أنهم لا يكون منهم العلم، كما تقول فلان يعطى ويمنع وأنت تريد يكون منه العطاء والمنع من غير أن تريد يعطى كذا أو يمنع كذا، ولذلك تجدد الربط الشديد بين ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وبين ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وبين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكأن هذه المكونات كونت حقيقة واحدة وليست حقائق متواصلة وبينها مناسبات، فرق بين أن تكون الآية متناسبة مع ما قبلها وما بعدها وأن تكون جزءاً مما قبلها وما بعدها جزء منها، وحين نصل في فقه البيان القرآني إلى هذه الحقائق نكون قد أدركنا من بلاغته ما يضاف إلى ما استخرجه علماؤنا رحمهم الله وألحقنا بهم كرامة نفس وقررة عين.

ومما لا يجوز أن أهمله هو الربط العضوي الظاهر بين آية ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وما بعدها من قول سبحانه ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

وهذه الآية امسداد لقوله سبحانه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والذين لا يعلمون هم الأعمى. ونجد مناسبة جليلة بين تنزيل الفعل منزلة اللازم وكلمة الأعمى، لأن تنزيل الفعل منزلة اللازم يعني أنه افتقد الأهلية أو الآلة التي بها يعلم كما أن الأعمى افتقد الأداة التي بها يرى، وإنما قدم الأعمى على البصير كما يقدم العدم على الملكة على حد تعبير علمائنا لأن العمى عدم والبصر وجود وبه يقدم الليل على النهار، أو كما يقدم الكثير على القليل لأن الأعمى مثل للذين لا يعلمون وهم أكثر الناس. وأدق من هذا وذلك أن الآية في شأن المجادلين في آيات الله بغير سلطان، والذين ليس في صدورهم إلا الكبر وهؤلاء هم الذين لا يعلمون وهم الأعمى. فقدم

ما انْعَقَدَ غرضَ الكلامِ عليهم، ثم قدم الذين آمنوا وعملوا الصالحات على المسيء لشرف الإيمان والعمل الصالح، وتجد طباقاً ظاهراً بين الأعمى والبصير وطباقاً خفياً بين الذين آمنوا والمسيء وكان يكون ظاهراً لو قال بين الذين آمنوا والذين كفروا، أو بين المحسن والمسيء، ولكنه عدل إلى ما ترى.

ووجه ذلك والله أعلم بمراه أنه عدل إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات لتعلق غرض الكلام بالإيمان والعمل الصالح، لأنه المقابل للذين يجادلون، وللأعمى وللمسيء، وقال ولا المسيء وهي موضوعة موضع الذى كفر أو الكافر لزيادة صفة وهي الإساءة، لأن الكفر مفهوم من المجادلة فى آيات الله لأن أول السورة قصر الجدل على الذين كفروا ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكلما تكرر الجدل فى آيات الله تكرر معه الذين كفروا لهذا القصر الأول، ثم إن الإيمان قاد إلى عمل الصالحات والكفر المقابل له قاد إلى عمل السيئات، وقد جاءت السيئة بمعنى الكفر فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] فهنا مطابقة بين المسيء أى العامل للسيئات والذين عملوا الصالحات، وإذا كان الإيمان قاد إلى عمل الصالحات وهنا من عمل السيئات فلا بد أن يكون هناك كفر محذوف قاده إلى عمل السيئات بمعونة السياق الذى نحن فيه، وكل هذا فى الآية وهى تحتمله، وأهم من كل هذا هو لماذا جمع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأفرد المسيء؟ ولم أقرأ فى ذلك شيئاً ولا أعرف له وجهاً إلا وجهاً أرجو أن يكون صحيحاً وهو أن الذين آمنوا نظروا فى الأدلة المنصوبة كخلق السموات والأرض. وخلق الإنسان وتذكروا واستنبطوا واستخرجوا وعلموا واهتدوا، وكل هذا من الأعمال الفردية المفضية إلى الإقناع والإيمان، ثم انقادوا وأذعنوا ودعوا فأجابوا ومارسوا الأعمال الصالحة كل واحداً قام بنفسه وعمل وذكر وسبح ونظر واعتبر، فهم وإن كانوا جماعة الإيمان والعمل الصالح إلا أنهم متفردون

في إيمانهم كل له درجة من الإيمان على حسب اجتهاده، ومتفردون في أعمالهم كل له درجة من القبول على حسب اجتهاده، وهذا بخلاف المسء يعني الكافر لانهم جميعاً كفروا بسبب واحد وهو الكبر الذي في صدورهم وكلهم قالوا ﴿ هَذَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [المائدة: ١٠٤] وكلهم قالوا: ﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا ﴾ [النمل: ٦٨] وكلهم قالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢] وكلهم ﴿ تَشَابَهتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] والمقلدون وإن كانوا أمة فهم أمة في واحد، هذا والله أعلم.

وترى في الآية وجهًا من وجوه القياس الذي أراه في الكتاب العزيز ولا أذكر منه شيئاً في الشعر، وهو أنه يبدأ بأصل هذا الأصل في حكم المعلوم علم ضرورة وهو هنا قوله ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرَ ﴾ وهذا لا جدال فيه، والأعمى والبصير مستعملان استعمالاً حقيقياً ودلالتهما على المجادل الذي يرى خلق السموات والأرض ويظل على جداله لأنه يسكن في صدره الكبر والجهل معاً، أقول كلمة الأعمى لا يراد بها هذا المجادل وإنما المجاز في التركيب كله الذي هو لا يستوى الأعمى والبصير، ثم يأتي الأمر الذي فيه لبس ويراد إزالة هذا اللبس وهو ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءِ ﴾، وهذا القياس يعني قياس ما فيه شك ولبس على المعلوم علم ضرورة تراه في قوله سبحانه: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الاحزاب: ٤]. قوله ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ هو بمثابة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرَ ﴾ لأنه معلوم علم ضرورة ثم قاس عليه جعل الزوجة أما وجعل المبتنى ولذا، فالحق ما فيه لبس بما لا لبس فيه، وجعل الفاصلة هناك وهو ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ لأن المقام مقام تشريع وإلغاء باطل لا أصل له إلا ما تقوله الأفواه وإحقاق حق من الله

الذى يهدى السبيل وهذا من الكلام العلوى، وقال هنا فى الفاصلة ﴿فَلِيلاً
 مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال فى الفاصلة قبلها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد وقفت
 كثيراً لأتبيين سر هاتين الفاصلتين، ولم أجد فى الكتب التى بين يدي ما يعين
 على ذلك ولم أستطع أن أستكشف سرّاً أطمئن إليه وقصارى الذى عندي، أن
 الصدور التى ليس فيها إلا الكبر والجهل هذا الكبر وهذا الجهل أعماها عن
 رؤية ما وراء خلق السموات والأرض وخلق الناس، واكتفت بأن ترى عيونها
 الأشياء من ظواهرها، ولو علمت بعض العلم أو لو تأهلت لأن تعلم
 لأدرت أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن الأصغر الذى
 هو الناس لا يجوز له أن يردَّ أو يجادل فى آيات الذى خلقه وخلق له
 السموات تظله والأرض تقله وجعل له فيها رواسى وأنهازاً ومن كل الثمرات،
 وإدراك هذا يحتاج إلى أولى درجات العلم، ولكن الكبر الذى فى الصدور
 أزاح من هذه الصدور أولى درجات العلم، وذلك بخلاف القياس الذى جاء
 من تمام هذا المعنى وهو عدم المساواة بين الذين آمنوا والمسيء وقد ذكرت أن
 معجم القرآن يفسر السيئة بالكفر فى بعض مواضعه، كما جاء فى آخر النمل
 ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا القياس
 مؤسس على التذكر والتدبير وهو مناطه، وليس معنى هذا أنه يخلو من العلم
 ولا أن الذى قبله يخلو من التذكر، وإنما المهم هو الذى عليه المعول والذى
 عليه المعول هنا هو التذكر وهو الدرجة التى تكون قبل العلم لأن العلم يكون
 بالتذكر، وهذا الذى عندي فى بيان سر هاتين الفاصلتين.

ومن البحوث التى يجب أن تكون وأن يقوم بها العلماء الذى أحكمهم
 النظر فى الكتب وليس المبتدئين أو الذين لم يعيشوا مشاكل العلوم. أقول:
 يجب أن تجمع الفواصل التى تتحد مثل فاصلة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 أو ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] ومثل ﴿فَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وينظر
 فى الآيات التى قبل هذه وتلك ونستعين بفهم ما يظهر على فهم ما يخفى.

ومثال ذلك ما جاء في سورة النمل ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خَلْقَهَا
 أَنْهَارًا وَجَعَلْنَا لَهَا رِوَاسِيًا وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] ولا شك أن معرفة جعل الأرض قراراً وجعل
 خلالها الأنهار إلى آخر الآية مما سبيله العلم والدرس. فناسب قوله ﴿وَلَكِنْ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذه أخت التي معنا.

وقال سبحانه ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
 الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] والآية مختلفة في معناها
 لأن إجابة المضطر يدرك بطريق أخرى غير الذى يدرك به جعل الأرض قراراً،
 وكذلك قوله ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ غير جعل الرواسى. وهكذا تجرد المعانى
 الجارية فى الآية الثانية معان تدرك بالتفكر والتدبير والتذكر، وهو من جنس
 المعانى التى فى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨] كما أن جعل
 الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً من جنس خلق السموات والأرض وخلق
 الناس. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 قبل أن ننظر فى مبنى هذه الجملة يجب أن نتعرف على موقعها من التى قبلها
 والتى بعدها ونراها من تمام معنى ما قبلها، لأن نفي التسوية بين الذين آمنوا
 والمسيء يظهر أيما ظهور يوم الساعة، فهى من تمام التخويف والتحذير الذى
 أفصحت عنه الآية قبلها وبذلك تكون جزءاً منها لا تتم التى قبلها إلا به،
 وهذا هو ربطها بجارتها، فإذا رجعنا إلى الآية الأسبق وهى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ والتى كانت آية ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾
 من تمامها وجدنا ربطاً من نوع آخر يهدى إليه طرائق الكتاب العزيز وهو أن
 الله سبحانه وتعالى كثيراً ما يذكر خلق السموات والأرض فى سياق تأكيد
 البعث، لأن خلق السموات والأرض من غير بعث وحساب وجزاء وعقاب

يُعدُّه الكتاب العزيز من الباطل . لأن الله سخر هذا للإنسان فإذا تركه هملًا من غير جزاء ولا عقاب كان ذلك فسادًا، لأنه ليس هناك رادع يردع من يقتدر ويبطش بمن دونه، والحكمة الإلهية تقتضى القصاص فى يوم الساعة حتى يُقْتَصَّ للعجماء من القرناء، وحتى تدخل امرأة النار بسبب هرة حبستها، وهذا هو سياق هذا الوجود الحامى له، ولذلك تجدد الكتاب العزيز يصف الخلق بدون حساب فى الآخرة بأنه عبث كما فى قوله سبحانه ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقريب منه قوله جل شأنه ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ص: ٢٧]. ومثله كثير جدًّا، ولهذا نرى أن الساعة من تمام معنى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى آخره، ثم إن إنكار الساعة من الكبر الذى ليس فى صدور المجادلين إلا هو . وهكذا كلما تأملت وجدت الروابط تتكاثر، ثم إنَّها بالنسبة إلى ما بعدها تراها تفتح بابها وتُمسك بها لأن التى بعدها دعوة من الله لبيان سبيل النجاة يوم الساعة الذى لا ريب فيه، وسنوضح ذلك .

والآن نراجع مبانى هذه الآية الكريمة وأول شىء هو التوكيد الذى تأسست عليه، تراه فى إن واللام واسمية الجملة ثم التأكيد بجملة ﴿ لَأَرْيَبَ فِيهَا ﴾ ولذلك فصلت عنها لكمال اتصالها بها كآية ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢]، وتجد سرًّا عاليًّا فى الربط بين هاتين الجملتين لأن التوكيد فى الأولى يشعر بأن المعنى موضع إنكار، وهو كذلك بمعونة سياق الذين فى صدورهم كبر ينكرون به ما أنزله الله عليهم، ومنه البعث، ثم تأتى الجملة الثانية وتخبر بأنه لا ريب فيه وهذا يتنافى مع موجبات هذا التوكيد، ولهذا نجد تدافعًا خفيًّا بين ظاهر الجملتين، والذى وراء هذا من الأسرار العالية هو أن هؤلاء المنكرين للساعة لا وجه لإنكارهم لأنهم ينكرون أمرًا يوشك أن يكون معلومًا علم ضرورة وعلم الضرورة لا ريب فيه، وإنما كان بمشابهة المعلوم علم ضرورة لأن القادر

الذى خلقكم وخلق السموات والأرض يجب أن يكون فعله منزها عن العبث، وإنكار الساعة والبعث والحساب يعنى أن هذا الخلق عبث وهذا ظاهر ولا يحتاج إلى فلسفة وإنما هو من الذى لا ريب فيه .

وجملة لا ريب فيه كأنها جذر للفاصلة التى هى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لأن فعل لا يؤمنون نزل منزلة اللازم ومعناه لا يكون منهم الإيمان بهذا الإطلاق، فليس المراد لا يؤمنون بالساعة ولا بالله ولا بالحساب، وإنما المراد لا يكون منهم الإيمان، وهذا هو شأن المنكر الأمر الذى لا ريب فيه .

لأن من ينكر ما لا ريب فيه لا يكون إنكاره إلا لافتقاده الأهلية لإدراك ما لا ريب فيه، وهذا ظاهر وجيد جداً وبه تصير الفاصلة امتداداً لجملة لا ريب فيها التى هى امتداد لجملة إن الساعة لآتية .

وأهم من كل ما ذكرته هو أن توكيد كلام الله عند المؤمن الذى يتلقى عن الله ويقول سمعنا وأطعنا يعنى مزيد عناية بهذا المعنى وأن تجعله بين عينيك، وإذا كان الحق يقول لى ولك اجعل الساعة بين عينيك فيجب أن يكون أمره الأمر ويجب أن أجيب داعيه، لأنه سبحانه بعد ذلك مباشرة قال ﴿ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وهو يدعونى فى آية الساعة فإذا أجبته سبحانه أجبني وهذا من محض الفضل ومحض المنّ .

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادتى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر 60] .

قلت: إن الساعة لها أسماء كثيرة منها الحاقة والطامة والصاخة والقارعة، وآية الرحمة التى نحن فيها تقتضى ألا تذكر الساعة باسم من هذه الأسماء، لأن هذه الآية ﴿ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فيها إمالة لقلوب عباده ودعوة إلى التوجه

إليه، فكانت الملائكة بذكر الساعة بدو الخافة والصاخة وأخواتها، ومع هذا فإن السياق يطوى تحت كلمة الساعة ترهيباً شديداً هو مطلوب لتفزع القلوب إلى ربها وتدعوه. هذا الطي تراه في قوله سبحانه في الآيات السابقة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وآل فرعون ليسوا المتسيبين بنسبهم إلى فرعون وإنما هم المتسيبون بمذهبهم إلى مذهب فرعون، وهذا يعنى أنها شاملة لكل من عارضوا وعاندوا وحادوا الله ورسوله، وهذا هو أبشع ما كان منهم يعنى ليس لآل فرعون ذنب أبشع من أنهم كانوا من الذين حدثت عنهم الفاصلة السابقة بهذه الآية وهى قوله سبحانه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وإذا كانت الساعة التى يدخل الناس فيها أشد العذاب آتية لا ريب فيها فهذا باب الأوبة إلى الله والرجوع إليه لا يغلغ في وجه مؤمن ولا كافر فادعوه لأن دعوتكم له سبحانه تحب كل شىء وتضع عنكم كل وزر، فاليهود، النصرى والصائبون والمجوس والذين أشركوا كل هؤلاء من آمن منهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الآية تتجه إلى كل من أفرغتهم صور العذاب فى السورة كصورة ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ وقولهم لخزنة جهنم، كل هؤلاء وغير هؤلاء تمد الآية يد الله لهم ويدعوهم ربنا ليدعوه ويقول لهم ادعوني استجب لكم وعودوا إلى رحمتى التى وسعت كل شىء، وهذا من أرجى الكلام وأوسع النعم وبه تبرد قلوب الخائفين الوجليلين: الآية تقول يا أصحاب المعصية لا تخجلوا من أن تمدوا أيديكم التى اقترفت بها الذنوب إلى الله. وإنما اخجلوا من أن لا تمدوها إلى الله وهذه معان لا يوجد منها شىء البتة فى كلام الناس.

وقد ذكر علماؤنا أن الدعاء فى قوله سبحانه ﴿ادْعُونِي﴾ بمعنى العبادة لقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وقد جاء الدعاء بمعنى العبادة

في الكتاب العزيز في مواضع شتى . والدعاء بمعنى طلب الحاجة يداخل كل أصناف العبادة وهو مخ العبادة وهو الأصل الذي بنيت عليه أم الكتاب، لأنها معقودة على آية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وما بعدها مُفْرَعٌ عنها وما قبلها مَهْمِيٌّ لها، والدعاء كما قالوا فزع وانقطاع إلى الله، والاستجابة لها صور منها ما يتبينه العبد ومنها ما يخفى عليه زماناً ثم يتبينه، وقد ذكر الإمام الرازي أن العبد إذا دعا ربه وفي قلبه مشقال ذرة من الاعتماد على غير الله فإنه لم يدع ربه إلا بلسانه، وإذا دعا في وقت ليس في القلب التفات إلى غير الله فالظاهر أنه تحصل الاستجابة.

والدعاء فيه تضرع وتذلل وإقرار بكامل العبودية لله والبراءة من كل حول وطول إلا من حول الله وطوله، وقد روى رسول الله ﷺ عن رب العزة أنه قال: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»، قال الرازي: فهذا الخير يقتضى أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد فيكف يكون الجمع بينهما؟ والجواب: أن العقل إذا كان مستغرقاً في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء: والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى لأن الدعاء يشتمل على معرفة عز الربوبية وذل العبودية. انتهى كلام الرازي.

قلت: إنه قلما تخلو عبادة من الدعاء لأن كل عبادة من ورائها ضراعة ورجاء وتوجه إلى الله سبحانه أن يقبلها، وأكرم الحاجات التي يطلبها العبد من ربه وأوفر الحظوظ التي يتمناها أن يتقبل ربه منه عمله، وإذا كان عمل المؤمن الواعي لدينه عبادة فوراء كل عبادة دعاء، حتى إنك لو قلت لا تنفك عبادة عن دعاء تكون قد أصبت، ولو قلت لا ينفك دعاء عن عبادة تكون قد أصبت لأنى لا أدعو إلا المعبود بحق سبحانه الذي لا تُقضى الحاجات إلا بيده، جل شأنه وهذا عبادة. والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
هذه جملة مستأنفة مؤكدة بأن لأنها تعليل للأمر بالدعاء وبقيّة من معنى
ما قبلها، وهذا التعليل ليس كالتعليل الذى فى قوله سبحانه ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لأن جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ تغرى بالاستغفار
وكقوله جل شأنه ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، والعلّة
التي فى آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تخويف من ترك الأمر كما
تقول: افعّل كذا إنك إن لم تفعله سعاقب، وهذا وإن كان يفضى فى النهاية
إلى الحث على فعل الأمر قبله فإن له وجهًا آخر، وهذا ظاهر. وقوله سبحانه
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تجعل الوعيد على ترك الدعاء مقصوراً على
الذين يستكبرون، ولا يدخل فيه المؤمن الغافل عن الدعاء، وصلة الموصول
مؤذنة ببناء الخبر وأنه من جنس العذاب وناهيك عن قول القادر القاهر
﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وما وراءها من غضب وما وراء الغضب من نكال،
وبذلك ترى أول هذه الآية ترغيب ليس فوقه ترغيب، وآخرها تهريب ليس
بعده تهريب، ثم إن قوله سبحانه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ترد عجز الكلام
على صدره الذى هو ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ لأن هذا كله كلام
واحد ليس بين بعضه وبعض مناسبة فحسب وإنما بعضه من البعض وكأنه
جسد واحد، ثم إن إيثار كلمة يستكبرون على أى بدليل لها، ربما كان أقرب
إلى لفظها كأن تقول مثلاً: ادعونى أستجب لكم إن الذين لا يدعونى أقول
إيثار كلمة يستكبرون على غيرها فيه شيء آخر، زائد عن رد العجز على
الصدر وهو أنها هيأت للكلمة «داخريين» يعنى صاغرين أذلاء مهانين، فوقعت
كلمة داخريين بعد مستكبرين موقعاً أمكن وأعلى وأرفع، وهذا شيء من معنى
قول الكملة رضوان الله عليهم ولكل كلمة مع صاحبها مقام وليس لكل مقام
مقال فقط، لأن الكلمات بينها تواصل وتقارب وأرحام هناك علاقة الكلمة

بالمقام وعلاقة الكلمة بالكلمة، والكشف عن هذا من أدق أنواع البلاغة التي لم تُشبعها بعد. . واعلم أن قولنا رد العجر على الصدر لا يعنى به الناحية اللفظية كما يفهم الكثير من كلام متأخرى البلاغيين، وإنما يعنى به أن هذا الرد يعود بك إلى أول الكلام لترقب حركته من أوله وكيف سار بدقة وبراعة وتفوق حتى انتهى آخره عند النقطة التي بدأ منها أوله وكيف التقى طرفا الحلقة، وهذا من البلاغة بمكان عجيب وهو أعلى من أن يكون محسناً بديعياً مغمض القيمة.

قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يُجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦١ - ٦٣].

الحديث عن آيات الله في الكون مبثوث في الكتاب العزيز ومحيط بكل ما تكلم فيه القرآن من أحكام أو قصص أو أقوال وأحداث وعبر، ترى ذلك كله غارقاً من يمينه وشماله وسابحاً في الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وتفردته وألوهيته، ثم ترى هذه الآيات تختلف اختلافاً يميز بعضها عن بعض على وفق سياق المعنى أو الحالة أو الحكم أو الحدث أو القصص. تجرد ذكر الذين يجادلون في آيات الله بسبب كبر صدورهم يأتي بعده آية من أعظم الآيات وأقدرها على الدلالة على أن الكبرياء لله، وأنت أنت أيها الإنسان المخلوق إذا توهمت أنك على شيء من الكبر فانت غارق في الوهم، وهذه الآية هي ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ والذي هنا هو دعوة الله خلقه ليدعوهم فيجيبهم فاختلف المقام لأن المقام هنا مقام ذكر النعم، لأن دعوته سبحانه خلقه إليه من أعظم النعم، فناسب ذكر ما في الآية ليُقربهم بنعمة إلى نعمة وهذا من أكرم الفضل. وهذا باب جليل من أبواب بلاغة القرآن لم يكتب فيه الناس ما يجب أن يكتب وبعضه واضح كالذي نحن فيه وبعضه يغمض ولا يتضح إلا بمزيد من المراجعة.

ولو وضعت ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مع ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ لوجدت كلامًا واحدًا وليس كلامين بينهما مناسبة، وربما كان علم المناسبة مرحلة من مراحل الدرس القرآني لأن الذي أراه أقوى من المناسبة، وإنما هو معانٍ يمتد بعضها من بعض كما تمتد راحة اليد من الذراع ثم تمتد الأصابع من هذه الراحة، وتأمل قوله ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يعني اطلبوا حاجاتكم أعطها لكم، ثم تأتي الآية التي معنا لتقول فقد أعطيتكم من غير طلب فجعلت لكم ليلاً لتسكنوا فيه، ولن تطلبوا مني شيئاً أكبر من خلق الليل والنهار لكم لتسكنوا فيه، ولتبنفخوا من فضله. ثم إنني جعلت هذا لكم جميعاً لمن آمن ومن كفر، لأن الخلق خلقى والكون كونى ولا حرج على عطائي وفضلى. فهل يمكن بعد هذا أن تترددوا فى أن تمدوا أيديكم إلى بطلب حاجاتكم يستوى فى ذلك البر والفاجر، ومن يده مبتلة بماء الوضوء للوقوف بين يدي ومن يده ملوثة باقتراف محارمى. واضح من هذا أن الكلام بعضه من بعض. ولفظ الجلالة فى قوله ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يمكن أن يكون مبتدأ وخبره اسم الموصول ويكون الكلام مستأنفاً للإغراء بالدعاء الذى فى قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ ويمكن أن يكون بدلاً من ربكم فى قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾ وبذلك يتداخل الكلام فى اللفظ كما يتداخل فى المعنى. ويكون الكلام وقال ربكم الذى ربكم ادعونى وهذا الذى ربكم هو الله الذى جعل لكم هذه النعم قبل أن تعرفوه وقبل أن تذكروه وقبل أن يؤمن من آمن وأن يكفر من كفر، ولفظ الجلالة يستصحب كل صفات الجلال والكمال وهو حرى بأن يدعى، وحرى بأن تطلبوا منه كل شىء لأنه قادر على كل شىء، ومانح كل شىء والمانح لأعظم النعم لخلقته قبل أن يعرفوه هو وحده الجدير بأن تُرفع إليه الحاجات.

وتلاحظ معنى فى التركيب وهو أنك لو أعربت لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبراً يكون الكلام كأنه بُنى على التعريف بلفظ الجلالة، وأنه هو الذى جعل الليل سكناً، يعنى هو الجدير بأن يعبد لأن الله لا يكون إلاها إلا إذا كان قادراً على ما لا يقدر عليه غيره، ومن جعل الليل سكناً هو وحده الجدير بأن يعبد، وهذا فى القرآن كثير جداً حين تجد لفظ الجلالة مخبراً عنه بأنه الخالق البارئ عالم الغيب كل هذا كأن الجملة تعرف لفظ الجلالة ويقول الله فيها لخلقها اتخذوا الخالق البارئ الذى خلقكم وسواكم وجعل لكم الأرض بساطاً اتخذوه إلهاً ولا تتخذوا إلهاً لا يصنع ذلك لأن صنع ذلك هو وحده دليل الألوهية، وهذا جيد جداً.

وجملة ﴿جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَسْكُونًا فِيهِ﴾ جملة عجيبة جداً لأنك ترى فيها الله المهيمن القادر القاهر يقترب من عباده ويقدم لهم ميررات دعائه، وأنه سبحانه من أجلهم جعل الليل ليسكنوا فيه يعنى من إكرامى لكم جعلت الليل لكم لتسكنوا فيه، هذا تودد عجيب من الله لخلقهم ولا يهلك على الله إلا هالك.

والليل والنهار يأتيان فى مواقع كثيرة من الآيات كما فى قوله سبحانه ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] وكما فى قوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهو هنا آية ونعمة أو قل نعمة فى آية لأن الجار والمجرور فى قوله سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ نص فى أنه سبحانه جعل هذا الأمر العظيم الذى هو الليل والنهار الذى لا يكون جعلهما إلا من حى قادر معبود جعل ذلك لكم ومن أجلكم. ولهذا قدم الجار والمجرور على المفعول لأن المهم أنه من أجلكم ولولاكم لما جعل ليلاً ولا نهارة، وكان هذه الكوائن العظيمة هى منى لكم وأنا ربكم فاعبدون، ليس هذا تقرباً من الحى القادر الغنى عن العالمين إلى عباده ليدخلهم فى رحمته؟ وهل يجوز لذى عقل أن يصرف وجهه إلى غير ربه الذى هذا

شأنه؟ ولك أن تسأل وتقول لماذا قال سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ولم يقل خلق لكم الليل. كما قال في الآية الأسبق ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ولم أذكر في هذا جواباً لعلمائنا، ولا أجد شيئاً أقوله إلا دلالات اللغة وهي أن الجعل يقع على الشيء الذى سبق وجوده، كقولهم جعلت الطين إبريقاً فالجعل تصيير لشيء من حالة إلى حالة، وإذا تدبرنا فى جعل الليل لتسكنوا فيه وجدنا هذا ناتجاً عن حركة الأفلاك ودوران الأرض وموقعها من الشمس فيأتى النهار والليل من ذلك. وبذلك يكون الجعل ليس منصباً على ذات النهار والليل وإنما هو مُتَّجِه إلى هذه المنظومة الكونية التى أنتجت الليل والنهار التى أشارت إليها آية ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسن: ٣٧ - ٤٠]. وهذه من أعظم الآيات الكونية، والجعل المذكور معنا هو هذا التقدير وهناك إيماءات كثيرة فى الكتاب إلى مثل هذا المعنى ومنه ما جاء فى سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابِ﴾ [الإسراء: ١٢] المطلوب قوله ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ وربط هذا بجعل الليل والنهار آيتين لأن هذا يوشك أن يكون صريحاً فى أن الأيام والشهور والسنين كل ذلك مرتبط بهذا الجعل. هذا وأن الجعل غير الخلق وإنما هو توظيف الشيء بعد خلقه لتحقيق غايات خلقه. وعليك أن تعود بعد هذا إلى لفظ الجلالة الذى ابتدأت به الآية، وجاء الموصول بعد لفظ الجلالة كأنه تعريف به وأن الله هو الذى من شأنه أن يفعل كذا وكذا فلا تعبدوا إلا الذى هذا شأنه، وإذا دعاكم من هذا شأنه فأجيبوا داعيه، أقول عليك أن تعود لأنك ستجد للكلام مذاقاً آخر.

وقد وقف الزمخشري عند الفرق في التعبير في قوله سبحانه ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وقوله ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ولماذا لم يأت الكلامان على طريقة واحدة فيقول مثلاً جعل لكم الليل ساكنًا والنهار مبصرًا، أو أن يقول لتسكنوا فيه وجعل النهار لتبصروا فيه، وأجاب عن ذلك بأنه سبحانه لو قال جعل لكم الليل ساكنًا لالتبس بالحقيقة لأن الليل يوصف بأنه ساكن على وجه الحقيقة، وحينئذ لا يظهر المراد وهو وصف الناس بالسكون في الليل فيذهب بذلك المعنى الأصلي في الآية، لأنها تذكرهم بنعمة الله عليهم ولم يقل في النهار لتبصروا فيه لأن قوله ﴿مُبْصِرًا﴾ يفيد معناه بطريق أبلغ، وذلك لأن النهار لا يوصف بأنه مبصر إلا على سبيل المجاز الذي هو من إسناد الفعل الواقع من الناس إلى زمان الفعل كقولنا فلان يومه صائم وليله قائم فيفيد سموم الفعل في الزمان كله، وقد وصف عبد القاهر هذا الباب بأنه من كنوز البلاغة.

ونعمة السكون والنوم والراحة في الليل من النعم التي لا يقادر قدرها، وحسبها أن الله سبحانه وتعالى ذكّر عباده بها، وقد تكرر التذكير بها في الكتاب العزيز، وقد ذكر العلماء كلامًا كثيرًا في سر تقديم قوله سبحانه ﴿اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ على النهار المبصر وأكثره يدور حول أن الظلمة عدم النور وجود، والعدم مقدم على الوجود وهذا أكثر في كلام العلماء وهو صحيح، ويمكن أن يضاف إليه أن السكون والنوم والراحة بالليل مقدمات للعمل في النهار لأن المراد بالإبصار في النهار هو التقلب وابتغاء الفضل في الدين والدنيا وليس مجرد الرؤية، ومن لم يتح له السكون في الليل فلن يتاح له حسن السعي في النهار، ولشدة ارتباط الضلال بالظلمة والهدى بالنور أغرى هذا الارتباط الشديد بالانتقال الدائم إلى مراقى الهدى كلما ذكرنا النهار بعد الليل والإبكار بعد العشى، ويرى الشيخ الطاهر أن في الآية احتباكاً وأنه حذف من الأول لدلالة الثاني وحذف من الثاني لدلالة الأول، وأصل الكلام جعل لكم الليل ساكنًا لتسكنوا فيه وجعل لكم النهار مبصرًا لتبصروا فيه،

فحذف ساكنا من الأول لدلالة مبصرا عليه، وحذف لتبصروا فيه من الثانى لدلالة لتسكنوا فيه عليه، ويرجع هذا التقدير ما جاء فى سورة الإسراء فى قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الإسراء: ١٢] ووجه الترجيح أنه جمع فى آية النهار بين قوله سبحانه ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ وقوله ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقد اقتضت آية غافر على قوله ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ وهذا يسوغ ملاحظة ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وجاء فى غافر ﴿ لِّتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ فساغ أيضاً تقدير «ساكننا» لأن السكن فيه يوجب أن يكون ساكناً وكل هذا جيد، وإنما اقتصر فى غافر على مبصراً لأن آية غافر جاءت فى سياق يؤكد أمرين الأول التذكير بالنعم للحث على إنفاذ أمره سبحانه فى قوله: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والثانى إظهار الآية الدالة على أنه سبحانه حقيق بأن يعبد وأن الذين يجادلون فى آياته بغير سلطان إنما يزاولون باطلاً من محض الباطل. وكلمة ﴿ مُبْصِرًا ﴾ التى هى وصف للناس تعنى التقلب فى طلب الرزق وسعى الناس وراء حاجاتهم، وتعنى أيضاً رؤية الآيات الينيات المطروحة تحت مطارح الأبصار والتى تراها العيون، ومنها ما حث القرآن على الاعتبار بها كثيراً كالأرض الميتة التى تراها عيوننا وقد أحيها ربنا وأخرج لنا منها حباً فمنه نأكل وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب ومن الثمرات وتسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، ومن يرى ذلك وغيره كثير جداً ثم يجادل بالباطل فقد ظلم نفسه وطبع على قلبه، ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

والذى يرى ولا يعتبر هو الأعمى المذكور فى الآية قبلها وهو المسىء والذى يرى ويعتبر هو البصير وهو الذى آمن وعمل الصالحات وهو الذى دعاه ربه فأجاب، والأول دعاه ربه فاستكبر، وهكذا ترى آية الليل لتسكنوا فيه

والنهار مبصراً تفتح معانيها وتضىء لتتصل بكثير من الكلام قبلها وكأنها نسج جديد من خيوطه .

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ جملة بنيت على التوكيد ووضع لفظ الجلالة مكان الضمير لتستقل في اللفظ عن الكلام قبلها ولتصير وحدها حقيقة رفيعة تتناقلها الألسنة وتطرق بها القلوب والأسماع لتذكر الغافلين بمضمونها العظيم وليبرد قلب المؤمن حين يسمع أنه تحت سحائب فضل الله التي لا تنقطع، ثم هي من وجه آخر تؤكد بمضمونها مضمون الجملة قبلها وتتصل بها أكمل اتصال، ولهذا جاءت بدون عاطف يصلها بها لأنها موصولة من ذات نفسها، وبهذا التواصل الداخلى يصير الكلامان كلاماً واحداً، والزمخشري صاحب بصر باللغة ووعى شديد بالدلالات وله تحليلات نافذة كالذى قاله فى بيان لماذا لم يقل جعل لكم الليل ساكناً؟ وملحظه هناك ملحظ رجل خبير بدلالات الألفاظ، يقول هنا كلاماً يشبه ما قاله هناك يقول: إن كلمة لذو فضل وإيثارها على كلمة متفضل مثلاً إنما كان ليتاح ذكر الفضل بالتنكير، ليفيد هذا التنكير أن فضله سبحانه على عباده فضل أى فضل. ثم المجيء بكلمة «ذو» يقول فيها الشيخ الطاهر إن الإضافة للتشريف وهذا صحيح، ثم إن هذه الإضافة أيضاً تفيد الملازمة وأن فضله سبحانه على الناس فضل ثابت دائم يستوى فيه عباده الذاكرون وعباده الغافلون وهذا هو جلال الألوهية .

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

هذه الجملة ليست امتداداً للمعنى الذى قبلها لأن المعنى الذى قبلها يتج عكس هذا المعنى لأن النعم العظيمة المذكورة قبلها والمثلة والمؤكد فى قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يفضى إلى أن كل الناس يشكرون لأن الواجب على كل نفس مبرأة من الآفات أن تشكر ذا الفضل الذى تتواتر

أفضاله، ولكن مجيء هذه الجملة على عكس المتوقع وكأنها صدمة تصدم القارئ المتأمل تفيد تجلية هذا الجانب الكريه في طبع الناس، لأن العرفان بالجميل خلق الكريم وكفران النعم لا يصدر إلا عن خائس نفسية مبيغضة للإنسان القويم، وليس أسوأ من امرئ تشحب عنده بيض الأيادي كما قال أبو تمام، وقالوا إن عاراً وتقيضه على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف، وهذه الجملة التي جاءت عقب نعمة من أجل وأرفع وأمتع النعم وهي جعل الليل سكناً والنهار مبصراً تدل على استحكام هذا الخلق العجيب في أكثر الناس. وقد أشار القرآن إلى هذا الطبع الكريه في آيات كثيرة والآية تسجل هذا على الإنسان في إعادة لفظ الناس. وكان يمكن أن يقال إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون، فوضع الظاهر موضع المضمّر لبيان أن كونهم ناساً هو الذي أفضى بهم إلى هذا الخلق الكريه خلق نفي الشكر الذي هو كفران النعمة وجحودها، وكما وضع المظهر موضع المضمّر في الجملة قبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ليسير هذا المعنى في الناس مسير المثل وليمنح الفضل من الجلال والكمال ما يضيفه عليه لفظ الجلالة، كذلك وضع المظهر هنا موضع المضمّر ليسير في الناس مسير المثل الأول هذا تنبيه إلى فضل الله ومنة، وهذا تنبيه إلى كفر الإنسان وجحده. ونلاحظ أن كلمة الناس ذكرت أولاً في بيان الإنعام والإفضال في الجملة قبلها ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ثم جاءت بلا مهلة في بيان الجحود والكفران ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وكل هذا مفيد جداً لأننا نتالم كثيراً حين نكافأ عن صنائع المعروف بصنائع السوء، وما منا إلا أصابه من هذا السوء ما أصابه والآية تقول أين صنائعكم من صنائع الهه؟ وأين الجحود الذي أصاب صنائعكم من الجحود الذي قوبلت به نعم ربكم؟ وإذا كان جحد الجاحدين لنعم الله لا يوقفها وإنما تأتي تشرى في كل لحظة لمن جحدها فلا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن تصل فواصلهم إلى من جحدوا نعمهم ولكم في الله

الأسوة الحسنة، وتعجب حين ترى نعم الله لا تنقطع عن الذين لهم مكر في آياته، ولا يذهب بعجبك إلا أن تذكر أنه الله الخالق ويا بعد ما بين صفات المخلوق وصفات الخالق، ويلفتك أن ترى هذه الجمل الثلاثة جاءت على حذو واحد، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولا يمكن أن تقول إن المشاركة أو المقاربة في حذو بناء الكلام يأتي من غير دلالة أو من غير سرٍّ وراءه، وهو من شريف النظم الذي يؤلف المختلف، وهذه الأفعال الثلاثة: يعلمون.. يؤمنون.. يشكرون معانيها موصولة وصللاً ظاهراً لأن العلم هو أصل الإيمان ولا يتصور وجود إيمان غير مؤسس على علم، فليس في الأرض مؤمن بشيء إلا بعد علمه بهذا الشيء والمؤمن بالله لا يتصور منه الإيمان إلا بعد العلم بالله، يعنى بآثار قدرته الممثلة في مثل خلق السموات والأرض وخلق الناس، ثم إن الشكر لله رب العالمين لا يتصور وجوده إلا بعد الإيمان بالله رب العالمين، هذه هي روابط هذه الأفعال في الآيات، فإذا كانت الآية الأولى تنفي أهلية العلم، فلا يجوز أن نتوقع إلا نفي الإيمان، ومادام انتفى الإيمان فلا يجوز أن نتوقع إلا نفي الشكر، وهذا كله لا تكلف فيه والإشارة إليه واجبة، ثم إنك تجد الآية الأولى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاءت بعدها فاصلة أخرى ثم تكرر الحذو في الثالثة ثم جاءت فاصلة أخرى ثم تكرر الحذو في الرابعة، وهذا توزيع لهذا الحذو لا يجعله يتكرر ويتتابع فتملأ الأذن وإنما يأتي فاصل ثم يعود الحذو ولا يزال له رنين قريب وهكذا، وهذا باب آخر من أبواب تنظيم الأحوال الأسلوبية التي أجدها كثيراً في الكتاب العزيز ولم يلج أحد بابها بعد.

قوله جل شأنه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ.

اسم الإشارة الذى للبعيد فى قوله سبحانه ﴿ذَلِكُمْ﴾ عائذ على كل ما مضى مما لا يكون البتة من غير الحى القادر المعبود بحق من مثل خلق السموات والأرض وخلق الناس والإخبار عن الساعة وجعل الليل لتسكنوا فيه إلى آخره، وهذا من أعظم مواقع اسم الإشارة؛ ومن الآيات التى يظهر فيها الإعجاز كفلق الصبح، ويستحيل وجود هذا الأسلوب بهذا الزخم وهذا الثراء فى قفا نبك وتوابعها لأن هذا لا يكون إلا من الله، وقصارى ما يكون هذا فى كلام الناس كالذى عند حاتم «فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه» والطريقة واحدة لأن اسم الإشارة راجع إلى أشياء يصير بها مستحقاً لما يأتى بعده، والفرق هو أنه هناك صعلوك يساور همه ويمضى على الأحداث والدهر وأنه لا يرى شبيعةً إن نالها مغنماً وأنه بكفيه سرجه ولجامه وسيفه إلى آخره، وهذا راجع إلى خلق السموات والأرض وخلق الناس وجعل الليل سكناً وهذا هو الفرق بين الله والناس كما قال عليه السلام «الفرق بين كلام الله وكلام الناس هو الفرق بين الله والناس» وهذا الأسلوب لو جمعت آياته فى القرآن ووضعتها بإزاء ما قاله الناس لبان الإعجاز وبهر وقهر، لأن نظم الكلام وطرائق اللسان واحدة فى كلام الله وكلام الناس. وإنما الفرق فى هذه الفيوضات المعنوية، وأن ترى عدداً محدوداً من الكلمات قد نُسقت نسقاً معيناً كما يقول عبد القاهر فأفادت ما يفوت قوى البشر أو ما لا يدخل فى هذه المنزلة أعنى الطاقات وهذا مهم جداً فى فقه النظم، وكلمة الله فى قوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ تعنى أن من كان هذا شأنه فهو الله لأن الله لا يكون الله إلا إذا كان منه ما لا يكون من الناس جميعاً ولو اجتمعوا له، ولهذا تجد الآيات كثيرة كأنها تضع المعالم التى يجب أن تكون للمعبود بالحق حتى لا يتجه القلب ولا العقل لغير الجهة المستحقة للعبادة، وأنا لن أعود إلى شرح مفهوم اسم الإشارة لأنه يكتب فيه رسالة، وحسبك أن تعلم أن فواضله لا تنقطع عن الذين يجحدون آياته ويجحدون نعمه، وأضع بين يديك آية أخرى شبيهة

بهذه الآية لتعود أنت إلى مرجع اسم الإشارة قال سبحانه فى سورة يونس:
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٦].

راجع مرجع اسم الإشارة: خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأحكم
فهم هذا ثم الاستواء على العرش، ثم تدبير الأمر، ثم بيان أن من كان هذا
شأنه فهو الحقيق بأن يقال له الله وهو الحقيق بأن يعبد، وقرأ كل شعر الجليل
الذى نزل فيه هذا الكلام لتبيين إلى أى حد بلغ هذا الكلام فيهم وإلى أى
مدى كان لا يتشوف أحدهم ليقول مثله.

وأعود إلى آية غافر وأجد لفظ ﴿رَبُّكُمْ﴾ يأتى بعد لفظ الجلالة الجامع لكل
كمال والداد على الجلال، والذى يتكرر كثيراً فى الكتاب ليزرع الجلال
والكمال لله وحده فى قلوب عباده المؤمنين وليزيد الضربات والطرقات على
قلوب الغافلين، أقول جاء بكلمة ﴿رَبُّكُمْ﴾ بعد لفظ الجلالة الدال على كل
كمال وكل عطاء ومنه التربية، وأول ما تجده أن الهيبة التى تعروك من لفظ
الجلالة ما تلبث أن تسكن من كلمة ربكم لأنها تشعرنا بقربه سبحانه وتعالى
منا ورعايته لنا وحفظه لنا وتربيته لنا، وتعود بنا إلى قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ
رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وهذا من مزيد القرب لأن الذى ربانى وفواضله
على لا تقطع يدعونى لأطلب المزيد منه ويرضى عنى ويرضى عني كلما أكثر
من طلب الحاجة، ويكون قربه منى بمقدار إفراطى فى طلب المزيد من نعمه،
وكلما اقتربت بدعائى منه ذراعاً اقترب هو سبحانه منى باعاً ولا يهلك على
الله إلا هالك. ثم إنه سبحانه علمنا أن نطلب لمن ربانا فى قوله سبحانه
﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] هذا شأننا مع أبونا ثم
علمنا أن نطلب ممن ربانا الذى هو ربنا سبحانه، فإذا كنا نكافى من أنعم علينا
من البشر بالطلب له فنحن نكافى المنعم بحق بالطلب منه وهذا فى القياس

عجيب، وإذا كان من ربّانا من الناس له حق علينا فإن الله الذى ربّانا أوجب على نفسه حقاً لنا، وأنه لما ربّانا أخبرنا بأنه لا يمد واحد منا يديه له إلا وضع فيهما خيراً، وهذا من الفواضل التى لا تنقطع.

وقوله سبحانه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر ثالث ولفظ الجلالة الخبر الأول وربكم الخبر الثانى. وهذا الخبر الثالث يتسع به المعنى ويتخطى خلق السموات والأرض وخلق الناس وجعل الليل لتسكنوا فيه إلى آخره إلى خلق كل شىء، وكان الذى قبل اسم الإشارة مقدمات برهانية تصل بنا إلى خلق كل شىء لأنه مادام سبحانه خلق هذه الكوائن العظام من السموات والأرض والإنسان والليل والنهار لم يبق شىء فى الكون لخالق غير الله، لأن هذا الوجود لا يتسع لخالقين قادرين لا تدفع قدرتهما، وتأمل الترتيب وقد تقول إن قوله ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كان المناسب له أن يأتى بعد لفظ الجلالة لدلالته على الكمال المطلق الشامل للقدرة المطلقة والإرادة المطلقة والتصرف المطلق فلماذا جاءت كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ مُقَحَّمَةً بينهما؟ والجواب هو أن الآية سيقنت لذكر النعم لأن الليل آية وجعله ليسكنوا فيه آية والنهار آية وجعله مبصراً آية والثانية نعمة، وكلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ قبل قوله ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تفيد أن كل هذا الخلق لكم وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه، وأيضاً انظر فى الترتيب وكيف انتقل الكلام من خالق كل شىء إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهى كلمة التقوى وأفضل ما قالها ﷺ والنبيون من قبله، وانظر كيف تسلسلت الأدلة فى يسر وكيف تابعت فى سهولة وانتهت إلى خلق كل شىء ثم انتهت إلى لا إله إلا هو التى هى ذخىر من يُعَدُّ راحلته للقاء ربه والتى تعصم دم من قالها، ثم تأتى الفاصلة ﴿فَأَنى تُوَفَّكُونَ﴾ وهذه الفاء تفيد أن ما بعدها مرتب على ما قبلها وكان هذه الآيات وهذه الدلائل المنطقية التى لا يتعسر العقل فى انتقاله من انتقالاتها، والتى أفضت إلى التوحيد، كل ذلك موجه إلى الإنسان لا ليقول له افعَلْ أو لا تفعل وإنما فقط ليلفته إلى ضرورة

أن يحسن النظر والتدبر فى الجهة التى يصرف وجهه إليها، وأن يراجع كل ذلك ليتأكد أنه ليس له إلا جهة واحدة وهى أن يولى وجهه شطر لا إله إلا الله، وكلمة «أنى» استفهام عن المكان وهى مستعملة هنا فى معنى الجهة، وهى مشربة معنى التعجب ممن يعاكس كل هذه الأدلة الساطعة ويرى هذه الحقائق الناصعة ثم ينصرف إلى عكس ما توجه إليه، وتأتى بعدها الآية الثانية وفيها قدر من التهديد والترهيب وهى قوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والكاف الداخلة على اسم الإشارة كثيرة فى الكتاب العزيز، والمعنى كهذا الإفك الذى تأفكون كان يؤفك الذين من قبلكم، وهذا المعنى راجع إلى نظائر له فى السورة، لأنه يخاطب أهل مكة ويقرن مسلكتهم المعاند لآيات الله بمسالك الأمم التى أخذها سبحانه، وجاء ذلك فى أول ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، وجاء على لسان مؤمن آل فرعون ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، وفيه من التهديد ما فيه، ثم هذا راجع إلى إفك الذين فى صدورهم كبر الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، والصلة فى قوله: ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ تشير إلى جماعة معلومة بهذه الصفة وهى فوق ما دلت عليه الذين لا يعلمون والذين لا يؤمنون والذين لا يتذكرون والذين لا يشكرون، وهكذا ترى التداخل الشديد والتماسك الشديد والارتباط الذى يتجاوز المناسبة إلى الوحدة التى تشمل أعضاء حية تجرى فيها روح واحدة ونفس واحدة، والاستفهام فى قوله ﴿فَأَنى تُوَفِّكُونَ﴾ وترتيبه على ما قبله مما يفيد توجهها إلى غير التوجه الذى سلكه المخاطب، هذا الاستفهام يشبه إلى حد كبير الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنْصِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْصِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقى

المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون ﴿ [التكوير: ١٥ - ٢٦] راجع من قوله: ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ إلى قوله: ﴿ فأين تذهبون ﴾ ثم راجع آيات غافر من قوله: ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ إلى قوله: ﴿ فأنتى تؤفكون ﴾ تجد حذو الكلام حذوا واحداً وآية التكوير شاهد البلاغيين فى الاستفهام الدال على التنبيه على ضلال وهذا استخراج جيد لمعنى الاستفهام وهو كذلك فى سورة غافر، وكان من الواجب أن نجمع ما جاء على حذو واحد لأن هذه طرق فى بناء المعانى وهى جزء أصيل فى دراسة البيان وهى كثيرة فى الكتاب العزيز وطرائق الحذو فيه متنوعة، وهى كذلك أيضاً فى الشعر وخصوصاً الشعر الجاهلى الذى هو كنزنا الأدبى النفس وقد أهملناه وتركناه لمن يطبقون عليه مناهج الآخرين ويفكرون فيه بعقول أصحاب هذه المناهج ويزاولون ذلك بجهل وغرور، والجهل قبيح والتقليد قبيح فإذا أضيف إلى هذا القبح قبح الغرور كان الأمر بشعاً جداً.

وجملة ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ فيها معنى جليل وهو ربط الإفك الذى أصله الكذب بالجحد وهو المسارعة إلى الإنكار والعناد واللجاجة فى الإنكار، ولم يكن مؤسساً على العلم والنظر والمراجعة وربما جحدوا بها وهم مستيقنون لها والإفك يقال فى فعله أفك يأفك كضرب يضرب ويقال أفك يأفك كعلم يعلم، ويؤفك مبنى للمجهول ومعناه يصرف فالمسارعة فى الإنكار صرف عن طريق الصواب، وهذا خلق ردىء يفضى إلى الهلاك فى الدين وهو ضار أيضاً فى مجالات النظر والمراجعة، والآية تحذر من المبادرة بالإنكار فى أى باب من أبواب النظر وتطالبنا بالأنانة والريث والمراجعة.

قوله سبحانه ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم ﴾

فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾
هو الحيُّ لا إلهَ إلاَّ هو فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ هذه الآية من تمام معنى الكلام قبلها وقد جاء على حذوها؛ ضع قوله ﴿ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مع قوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ تجد حذواً واحداً وكلاماً واحداً لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبر والجملة موصولة بالتي قبلها من داخلها لأن مضمونها يؤكد لمضمون السابقة عليها، وقوله: ﴿ فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ كذلك يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿﴾ هو من توابع ما قبله والشيخ الطاهر يعتبره كلاماً معترضاً وعلى كل حال هي تعقيب على موقف فاسد من نعم الله وآياته والذي هنا ليس منه وسنين ذلك، والمهم الآن أن تقول إن لفظ الجلالة الذى قلنا إنه مبتدأ يمكن أيضاً أن يكون بدلاً من ربكم فى قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ كما قيل فى لفظ الجلالة فى الآية السابقة ويلاحظ أيضاً أن الصلة خاصة بالموصول الواقع خبراً عن لفظ الجلالة يعنى أنه لا يجعل الأرض قراراً إلا هو سبحانه فالخبر من آيات الألوهية ودلائلها، والكلام يعود ليقول إن الله هو الذى يجعل الأرض بساطاً ويقدر على ما لا يقدر عليه غيره، لأن الألوهية لا تكون إلا للقادر على ما لا يقدر عليه أحد وهذه أماراتها وهذا برهانها وعليكم أن تنظروا إلى ما تعبدون من دونه وأن تقيسوا حالهم بما يكون منه سبحانه، وحينما ترى الذى يجعل الأرض قراراً فاعبده وقل إنه الله، واعلم أنه واحد أحد، لأنه غير قابل لأن يتعدد، وهذا ما يقتضيه العقل والنقل وقد أشارت آيات كثيرة إلى ذلك منها قوله سبحانه فى سورة النمل ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٦١] وقد اقتضت سورة غافر على قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ والاقصص فى

بعض الآيات على ما جاء مفصلاً في غيرها من شأنه أن يطوى هذا التفصيل بمعنى أن كلمة جعل الأرض قراراً في غافر تطوى وراءها ما جاء مفصلاً في النمل وما جاء في غيرها وهو كثير، ونلاحظ الفروق الدقيقة التي يختلف بها سياق عن سياق، ونجد هذا في الجار والمجرور في قوله سبحانه ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، لأن المقصود ذكر النعم بهذه الآيات والذي في النمل ليس فيه كلمة لكم لأن المقصود ذكر الآيات لأنها جاءت في سياق ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ومعنى أن الأرض قرار لنا أننا قارون على ظهرها ونحن أحياء نأكل من أقاتها وقارون في باطنها ونحن أموات، والذي نقوله في الأرض نقوله في السماء في قوله سبحانه ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ونجد تدقيقاً شديداً في الكلمتين المذكورتين. ﴿الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، كما تجد معنى متسعاً جداً وراء كلمتي «قراراً» و«بناءً» لأن كلمة «قراراً» شاملة للأرض من جميع أقطارها كما أن كلمة «بناءً» شاملة للسماء من جميع آفاقها ثم هي تطوى وراءها ما جاء في بابها في الكتاب العزيز من مثل ﴿وَالسَّمَاءَ بِنْيَانًا بِأَيْدِي وَإِنَّا لُلَّوْسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ قَرَارًا فَنَعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] ومن مثل ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ [النبا: ١٢، ١٣] ومثل ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وغير ذلك كثير مما يدخل في عالم السماء، ويلاحظ هنا أنه قدم الأرض على السماء والأجري في الكتاب العزيز أن تقدم السماء على الأرض كما في الآية السابق ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وذلك لأن الكلام مسوق للتذكير بنعم الله الموجبة لعبادته وشكره سبحانه، والأرض أدخل في الغرض وأدخل في النعمة، كما يلاحظ أن ثمة ترتيباً بينها وبين آية ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وهو والله أعلم،

أن الآية الأولى ذكرت بنعمة تهيئة الزمان لكم لتسكنوا في الليل ولتبتغوا الرزق في النهار، وهذه الآية ذكرت بنعمة تهيئة المكان وأوله وأهمه الأرض القرار التي قدر فيها أقواتها وفجر فيها من العيون وأخرج فيها من كل الثمرات متاعاً لكم، ولهذا جاء ذكر خلق الإنسان بعد إعداد الزمان له والمكان فقال سبحانه هنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ ولم يذكر هذا مع جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، لأن هذا ليس كافياً وليست في الليل والنهار وسائل العيش. وإنما هي في الأرض التي جعلها قراراً وجعل خلالها أنهاراً، ولهذا قلت: إن الكلمات القرآنية في الآيات المختصرة تستدعي الكلمات الأخرى التي جاءت في الآيات المطولة لأن ذكر ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ بعد ذكر الأرض القرار يستدعي ذكر أقوات الأرض وأنهارها وعيونها وزرعها ونخيلها وأنعامها وألبانها وكل ما هو لازم لقدم هذا الإنسان الذي صورّه فأحسن صورّه.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ انتقال من حديث النعم التي أوجدها الله سبحانه من أجل الإنسان إلى حديث خلق الإنسان نفسه، وهذا ألصق بالنعمة وليس مذكوراً في الآية السابقة التي هي أختها، ويلاحظ أن الإشارة إلى التذكير بالنعمة ظاهرة في التعبير بقوله ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ بدل جعلكم الذي كان يمكن أن يجارى ما قبله من جعل الأرض قراراً، لأن التصوير فيه لفت إلى التحسين والتجميل ومزيد العناية بما به يكون هذا الإنسان أفضل وأكرم وقد منّ الله بهذه النعمة في آيات كثيرة من مثل قوله سبحانه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ولبيان مزيد العناية بهذه النعمة أردف كلمة صوركم بكلمة ﴿فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ وخالف النسق الذي مضى والذي اكتفى فيه بكلمة ﴿قَرَاراً﴾ ﴿بِنَاءً﴾ وبهذا يكون قد مدّ الكلام في شأن النعمة ومطله، والفاء في قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ ليست لترتيب حدث على حدث لأن

﴿صُورَكُمْ﴾ ليس حدثاً مستقلاً وإنما هي للإشارة إلى الترتيب في الرتبة وأن تحسين صوركم نعمة عالية تصلح أن تكون وحدها موضعاً للمِنَّ والفضل . وحسن صورة الإنسان وفضله على خلق الله من الأحياء في هذه الأرض لا بد أن يكون شاملاً كما هو مقتضى إطلاق الدلالة، أعنى ليس أنه يمشى على قدمين وغيره يمشى على أربع، وأنه مرفوع الرأس والقامة وغيره ليس كذلك، وأنه كذا وكذا مما هو متصل بخلقه فحسب، وإنما يدخل فيه أعظم نعمة كانت في خلقه وتصويره وهى العقل والفكر والنظر والاستنباط والاستدلال والاختيار، لأن هذه النعم التى إذا أهملها هذا الإنسان صار كالأنعام بل أضل . وصار له أعين لا ينظر بها وأذن لا يسمع بها، وإنما لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب، فكل سدا داخل فى تحسين الصورة، والسياق هنا يوجب هذا لأن السياق يطالبه بالنظر والمراجعة والإقرار بأنه لا يصوره فيحسن صورته إلا الذى يجب أن يعبد ولا يجوز أن يعبد سواه، وإنما تجد استدلالاً عقلياً يماشى هذه الآيات الحسية، فالأمر بعبادة الله والأمر بدعائه سبحانه حين يأتى عقب هذه النعم وهذه الآيات لا وجه له إلا الاعتماد على العقل والنظر والاستنباط، لأن الإنسان إذا افتقد النظر والاستنباط فلا يصح خطابه بهذا الخطاب، واضح جداً أنك تجد منطقاً عقلياً رفيعاً وراء هذه الآيات التى تنتهى بوجود العلم والإيمان وشكر المنعم المعبود بحق سبحانه وتعالى: وقوله جل شأنه: ﴿وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ جملة معطوفة على صوركم وما اتصل بها من قوله سبحانه: ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ وصوركم وما عطف عليها معطوف على ﴿جَعَلْنَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قَرَارًا وَالسَّمَاءِ بِنَاءً﴾ وهناك ترتيب دقيق بين صوركم ورزقكم لأن الرزق من تمام التصوير، وكل هذا من تذكير للإنسان بالنعمة المباشرة الخاصة به، فإذا كان جعل الأرض قراراً نعمة لكل حى على الأرض من دابة فى الأرض وطائر يطير بجناحيه فإن تصوير الإنسان وتحسين صورته

وكذلك رزقه من الطيبات مما هو خاص بالإنسان، وكما أكرمه بتحسين صورته كذلك أكرمه بالطيب من الرزق والرزق عام لكل حي في الأرض، لأن الذى خلق الأحياء أوجب على نفسه رزقها جل جلاله سبحانه، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، وقد خص رزق الإنسان بالطيب وأحل الله له الطيبات وحرّم عليه الخبائث، وما حرّمه الله على الإنسان من الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة إلى آخره كل ذلك لم يحرمه على غير الإنسان، وهذا من إعلاء الله لقيمة الإنسان وتكريمه.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ اسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز كما قال الكملة رضوان الله عليهم، وهذا تمييز غير تمييز الشاهد البلاغى. «هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه» ويابعد ما بين التمييزين وهذا هو فرق الفن البلاغى فى الشعر والفن البلاغى فى القرآن لأن ﴿ذَلِكُمْ﴾ هنا راجع إلى أفعال وأحداث وأقوال لا تكون إلا من الحى القادر هو وحده الذى يجعل الأرض قراراً ويصوركم ويرزقكم، ولا يتسع الوجود إلا لمصور واحد ورازق واحد وهذا هو موطن الاستدلال العقلى والمنطقى، والإخبار عن اسم الإشارة بأنه الله كالإخبار عن الله باسم الموصول فى أول الآية، لأن المعنى أنك إذا أردت أن تعرف الله فهو الذى يفعل ما يعود عليه اسم الإشارة، من أول جعل الأرض قراراً وهذه آثاره الدالة عليه ولا يخطئ الاستدلال بها إلا الذين يؤفكون، والذين يؤفكون هم الذين كانوا بآياتنا يجحدون يعنى ينكرونها وهم يعلمونها، وهذه بلاغة عجيبة وبيان عجيب، وكما أن الأحداث التى تتكلم عنها الآيات هى برهان لا يؤفك عنه إلا منكر جاحد له عقل لا يتدبر به، كذلك البيان عن هذه الأحداث والأفعال وبلاغة هذا البيان لا ينكر الأمر الإلهى فيها إلا من ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿ [المطففين: ١٣، ١٤].

وموقع كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ بعد لفظ الجلالة اقتراب من الله ذى الجلال إلى عباده الذين يخاطبهم وأنه رباهم ورعاهم وحفظهم وصورهم فأحسن صورهم ورزقهم من الطيبات، وهكذا تجرد الكلمات تُعبرُ بالمعنى من قِمةٍ من قمم المعانى إلى قِمةٍ أخرى، فإذا كان لفظ الجلالة من شأنه أنه يربى المهابة والروع فى القلوب فإن كلمة ربكم تقربكم وتهدى روعكم، وهكذا يتهاى السياق كله إلى تلك الجملة الرائعة وهى قوله سبحانه: ﴿فَبَارِكْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقبل الكلام فيها أكرر القول بضرورة الالتفات إلى تكرار الحذو وتابعه فى هذا السياق، وأنه يشير إلى ضرب من ضروب التصاقب الذى ذكره أبو الفتح، وإن كان هنا تصاقب فى بناء المعانى وليس تصاقباً فى الألفاظ وتصاقب الحذو إنما هو أيضاً لتصاقب المعانى وهذا جليل وجيد ويمنح السورة حياةً وسمتا ولو أشبعنا كل ذلك لاتسع الكلام جداً لأننا نرى فى القرآن من أسرار البيان الكثير مما لم يكتب فيه وربما كان بمقدار ما كتب واستخرجه الكلمة رضوان الله عليهم، وتبارك الله معناها تعالى وتقدس والتقديس والتعظيم والتعالى والتنزيه كل ذلك لا يكون إلا لله سبحانه، والفاء التى فى قوله ﴿فَبَارِكْ﴾ تعنى ترتيب التنزيه والتعظيم والتقديس على ما مضى، وأن المفهوم من اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ موجب لهذا التعظيم وهذا التنزيه وأنه منزّه عن الشريك، ويلاحظ أن هذه الفاء رتبت ما بعدها على ما قبلها لأن ما قبلها يفضى إلى ما بعدها، وهى عكس الفاء التى فى الآية السابقة والتى هى أخست هذه الآية وهى قوله سبحانه ﴿فَأَنى تُوَفَّكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] لأن الصرف إلى غير الله عكس ما يقتضيه: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ووجه هذا التغاير أن الآية الأولى جاءت بعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فكانت حديثه عهد بالذين يؤفكون بعد ما رأوا الآيات وجادلوا فيها لكبر فى صدورهم، ولما فرغت الآية الأولى من هذه توجهت هذه الآية إلى الذين قال

الله لهم ادعوني استجب لكم فاستجابوا وهم فريق الذين آمنوا أو عملوا
 الصالحات، ولهذا ذكروا بخصوصية النعم عليهم وهي: ﴿صُورَكُمْ فَأَحْسَنَ
 صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وخطاب الود هذا لم يكن منه شيء هناك،
 ومن شأن هؤلاء الصالحين إذا ذكروا جعل الأرض قرارا والسماء بناءً
 وصورهم ورزقهم أن يبادروا ويقولوا تبارك الله رب العالمين، وتلاحظ تكرار
 كلمة «رب» بعد لفظ الجلالة في هذه الآية وبَدَلًا مَا قِيلَ هُنَا: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ
 رَبُّكُمْ﴾ قالوا هم هنا ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وأضافوا رب إلى العالمين بدل
 إضافتها إلى ضمير المخاطبين وهذا تعميم واجب لأن ربنا هو رب العالمين:
 ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] هو رب المؤمن
 والكافر والبر والفاجر وهذه هي الرحم التي بين المؤمن وبين كل العالمين،
 الروح الإنسانية والأخوة في الخلق السارية في بنى البشر جميعاً، ليتعايشوا
 ويتسالموا ويتراحموا بينهم وإن اختلفت عقائدهم وأصولهم وأعرافهم
 وطوائفهم، وهذه الإضافة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التي أدخلت بنى آدم جميعاً تحت
 سقف واحد فتحت الباب للجملة بعدها وهي قوله سبحانه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾
 وليس معناه الإخبار بأنه سبحانه حيٌّ. لأن هذا معلوم علم ضرورة وإنما
 معناها أنه هو وحده لا غيره الحي. يعنى المقصود معنى القصر المدلول عليه
 بتعريف الطرفين كقولنا هو الجواد، وبناء الكلامين بناء واحد والمطلوب أن
 تراجع الفرق بين دلالة تعريف الطرفين في قوله جل شأنه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾
 ودلالة تعريف الطرفين في قولنا هو الجواد، وفي كل ما جاء في شأن الناس
 من مثل هو الواهب المائة المصطفاة، وهو الذى يعطيك نائلة إلى ما شئت
 لتبين الفرق بين الخصوصية البلاغية التى كانت بالنظم، وكيف تكون هذه
 الخصوصية واحدة ثم يكون ما يكون من فروق تراها، وهذا مهم جداً فى فهم
 أسرار البيان، والمهم أن قوله سبحانه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ بدلالته على القصر رجع

إلى العالمين ودل على أنهم قضى عليهم بالفناء لأن الحياة الحقيقية مقصورة على ربها، وكل ما عداه ملحق به الفناء وبذلك اكتست واتشحت كل الموجودات السابقة بوشاح الفناء، رجوعا إلى الذين صورهم فأحسن صورهم، والأرض التي جعلها لهم قرارا والسماء التي جعلها لهم بناء والليل الذي يسكنون فيه إلى آخره، كل هذا حكم عليه بالفناء من جهة القصر في جملة ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ ولهذا قلت إن قوله ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فتحت الباب لهذه الجملة بعدها، ثم إن جملة ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ التي هي آخذة بكلمة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هيأت للجملة بعدها وهي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي كلمة التوحيد وكلمة التقوى وأفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله صلوات الله وسلامه عليهم، وأفضل ما تنطق به ألسنة العارفين، وإذا فتحت في تحليل معناها اتسع الكلام، والذي أريده هو بيان أن القصر في هو الحى والذي أفضى إلى القصر في جملة الوجدانية لأنه حين لا يكون في الوجود حى إلا حى واحد، يعنى لا يكون في الوجود إلا إله واحد، فالحى الواحد هو الله الواحد الذى لا يُشَارِكُ فى ملكه والذين يجعلون له سبحانه شركاء واهمون لأنهم حين يتخذون له شركاء هم فى الحقيقة لم يتخذوا شيئا لأنه لا شريك له: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادْنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٢٣٨] المعبود بالحق لا يكون فى الكون ما يدفع إرادته ولا يكون فى الكون ما يمك رحمته، ولهذا كانت كلمة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مفضية لا محالة إلى جملة ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المفضية لا محالة إلى جملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ولا يزعجك ما أكرره من أن الكلام يمتد بعضه من بعض ويتولد بعضه من بعض. وهذا شئ فوق المناسبة والتناسب الذى تكلم فيه علماؤنا لأننى مضطر إلى أن أقول هذا مرة ثانية وذلك لوجود هذه الفاء التى فى قوله سبحانه:

﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكان الكلام لما انتهى إلى قوله: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ وما كان يحمل من براهين قاطعة ودلائل ساطعة أفضت إلى التقديس والتعظيم والتنزيه في قوله سبحانه: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم تحرك الكلام في آفاق الأدلة القاطعة والتي لا يستطيع منطق مستقيم أن يحميد عنها فانقل الكلام من ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ إلى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وصل إلى الحالة التي يتوجه فيها البيان من الله سبحانه إلى خلقه قائلاً لهم: ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لأنه لم يعد هناك حاجز بين العبد وبين الاندماج في دعاء ربه مخلصاً له دينه، وهذه الفاء أخت الفاء التي في قوله ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، ولاحظ أن الذي قبل الفاء التي في «تبارك» أفضى إلى التنزيه والتعظيم والذي قبل الفاء التي في ﴿ فَادْعُوهُ ﴾ أفضى إلى ملابسة التنزيه والتقديس وهذا تدرج عجيب نقلنا إليه كلمتان هو الحي ولا إله إلا هو، لأن هذين يوجبان ملابسة التنزيه والتعظيم، وكل هذا من خفايا أسرار البيان، ثم إن هنا شيئاً آخر وهو أن الآيات السابقة تتابع وتترادفت وتدرجت وترقت في ذكر النعم ابتداء من الليل الذي تسكنون فيه وانتهاء بصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات، ثم تقفز النعم هنا إلى قمة العطاء وهي دعوة المنعم عباده الذين جعل لهم الأرض قراراً وصورهم إلى آخره إلى حضرته سبحانه ليمدوا أيديهم بحاجاتهم فلا يردُّ يداً امتدت إليه سبحانه إلا وضع فيها خيراً ولا يردها صفراً، وإذا كانت النعم الماضية عامة مشتركة للجميع فالذي بعد الفاء باب لطلب الحاجات الخاصة التي تختلف القلوب في التعلق بها ولكل حاجة ولكل مسألة وهو سبحانه هو وحده الذي يعطى كلاً مسألته، وسواء قلنا إن الدعاء بمعنى طلب الحاجة أو بمعنى العبادة فالمعنيان لا ينفكان كما قلت، وقد ذكرت أن ما بعد الفاء هنا هو قمة العطاء وصفو النعم. فإذا كان بمعنى طلب الحاجة فقد بيناه، وإذا كان

بمعنى العبادة كان أعلى من كل هذا، لأن وضع احير في يد العبد فضل وأفضل منه ألف مرة أن يدعو ربه إلى دار السلام وأن يدعو إلى عبادته مخلصاً له دينه، فإذا أكرمهُ ربه وكان من الذين أجابوا داعى الله وكان من الذين أحسنوا فإن الله جعل لهم الحسنى وزيادة، وبذلك يكون قد دخل باب النعيم المقيم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٤﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وراجع الآيات من أولها وكيف تنتزع الإنسان من محيط الذين ليس فى صدرهم إلا الكبر، وكيف تضع قدمه على طريق البرهان الذى هو طريق الآيات البينات، وكيف تحفه بنعم الله وكيف تسلك به طريق البرهان الساطع والنعم الظاهرة حتى تصل به إلى تبارك الله رب العالمين، ثم تخطو به خطوة أخرى فتضع قدمه على ربوة ذات قرار ومعين، ثم تقول له ألق هنا عصاك فقد وردت الماء زرقا جمامه، وليس عليك من مسألة إلا أن تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولا أريد أن أشرح ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لأن من يتدبر الآيات التى جاءت هذه الجملة فى أعقابها يستحى أن يشرك الله فى عبادته أحدا. كيف أنافق فى صلاتى أو زكاتى وأنا أقف بين يدى الذى جعل الليل والنهار والأرض والسماء وصور فأحسن ورزق من الطيب؟ أى مكانة لأى إنسان مهما كانت مكانته يمكن أن أشركه مع الله فى طاعتى لله؟ وأى خاطر دنيوى يخطر فى قلبى وأنا أسعى كادحاً فى كبد حتى أصل إلى الطريق الذى لا أرى فيه إلا العارفين الربانيين الذين أنزلهم الله منزلة من لو سألوه لأعطاهم ولو أقسموا عليه لأبرههم؟ لا يفسد على نفسه هذه الغاية إلا مخذول.

وجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مستأنفة لإنشاء الثناء على الله سبحانه قاله الشيخ الطاهر وذكر أن هذا هو الشأن في كثير من استعمالاتها في القرآن الكريم، وقالوا إنها معمول لقول محذوف أى قائلين الحمد لله أر قولوا الحمد لله، وهذا كله سديد والكلام يحتمله والمهم أن هذه الجملة تكون غالباً في مقام ذكر النعمة ولهذا تقال في خواتيم الأفعال والأقوال، وهذا يجعلها هنا تومئ إلى معنى آخر وهو أن العبد الذى قال له ربه فادعوه مخلصين أجاب ودعا وأخلص ورفع حاجته إلى ربه، سواء كانت هذه الحاجة دنيوية أو أخروية وأن الله سبحانه سمع دعاءه وأجابه فقال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وما دمنا قد أمرنا بهذا التيسر فإن هذا الأمر وعد بالقبول والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

وقبل أن أنتقل إلى الآيات التى تلى هذه أنبئه إلى شىء هو أن جملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لها مواقع متنوعة فى الكتاب العزيز تارة تأتى أول السورة كما فى فاتحة الكتاب وتارة تأتى فى آخرها كما فى سورة الصافات وآخرها: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨١ - ١٨٣]. وكما فى سورة الزمر: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] وتارة تأتى فى وسط السورة كما فى غافر ويونس والأنعام، ولها فى كل موقع سياق ومذاق، ومن المفيد أن نستخرج ذلك ونحلله وفاء بحق نعمة نزول القرآن علينا وبلساننا وأقول هذا أيضاً فى كلمة تبارك ولها وقع شديد والذى يأتى بعدها كلام له شأن من سئل قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، تأمل الموصول والصلة وتأمل الاقتدار والهيمنة والسلطان وكيف كان الملك بكل معانيه فى يده وقل مثل ذلك فى سئل قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿ [الفرقان : ١] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿ [الفرقان : ٦١] و تراها هي الاخرى تقع في اول السورة كالفرقان والملك وفي آخره كالرحمن وفي وسطهما كما هنا وكما في الاعراف والمؤمنون، والمعاني المتعلقة بما قبلها وبما بعدها اعنى المهیة لها والتابعة لها معان جلیلة فيها هیة وفيها عز الربوبية وكل هذا عما يجب أن یجمع ویدرس ویحلل ویذاق، والله أعلم.

وأعود إلى الآيات وأقول إن قوله سبحانه: ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كما أذن بانتهاء معنى سبق أذن بابتداء معنى جديد وذلك قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوَّى مِنْ قَبْلٍ وَلَتَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾.

راجع ﴿ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وضعها بإزاء ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ﴾، وراجع ﴿ جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ وضعها بإزاء ما مضى من قوله سبحانه ﴿ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا ﴾ فيه إلى قوله ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وراجع ﴿ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وضعه بإزاء ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾. وراجع قوله ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وما بعده وضعه بإزاء ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾، ولست في حاجة إلى أن أعود لأشرح كيف كانت الفاصلة السابقة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ليست فقط عائدة على الكلام السابق وهي تحمل مضمونه وإنما هي أيضاً فاتحة لمعنى الكلام اللاحق ومحددة له خطه الظاهر وطريقه البين.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ .

لم تكثر مادة لغوية في الكتاب العزيز كما تكثر مادة قال وكلمة قل التي ابتدأت بها هذه الآيات وهي خاصة بالكلام الذي يتلقاه مبلغه عليه السلام، لأن الذي يحدث بما في نفسه لا يقول قل ولهذا لم أذكر أني قرأتها في شعر يحدث فيه الشاعر عن ذات نفسه، وربما وقعت في مقامات محدودة اقتضت بلاغ رسالة، والاحظ أن الذي يأتي بعد كلمة قل في الكتاب العزيز من المعاني ذات الشأن وكل ما فيه ذو شأن، وإنما تكون لزيادة التنبيه وزيادة العناية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ﴿الأنعام: ١٥١﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ ﴿سبأ: ٢٤﴾ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ﴿النمل: ٥٩﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ ﴿الإسراء: ٥٦﴾ وقد تتواتر في آيات متلاحقة كما في سورة سبأ. . ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ ﴿سبأ: ٢٤﴾. . ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا﴾ ﴿سبأ: ٢٥﴾. . ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ ﴿سبأ: ٢٦﴾. . ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ ﴿سبأ: ٢٧﴾. . ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ ﴿سبأ: ٣٠﴾ وكل هذا محتاج إلى أن يجمع ويصنف ويحلل ويوضح في سياقه ومقامه الذي اقتضاه، وهو باب من أبواب الأسرار البيانية التي لا تزال مطوية على الكثير، وهي هنا تحدث القوم بالنبوة وأن هذا الذي يبلغكم إنما يبلغكم عن ربه وأن التكاليف التي يبلغها لكم لا يبلغها لكم إلا بعد أن يقوم بها وهو أول من يمارس كل أمر ونهى تلقاه من ربه ليبلغه إلى خلقه، فهو أول قائم بتكاليف الشريعة كلها ولا ينهاكم إلا عن شيء نهى نفسه عنه ولا يأمركم إلا بشيء انقاد هو له، وهذا جيد جداً في فقه الدعوة الذي يجب أن يرعاه الذين يبلغون رسالات الله .

ثم إن الابتداء بهذا القول فيه إشارة إلى الانتقار من أدلة العقل المتمثلة في النظر والاستدلال في الآيات الكونية المذكورة ابتداء من ﴿ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ إلى ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ ﴾ إلى دليل النقل المتمثل في قوله ﴿ نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا جيد لأنه إلزام لهم بالدليلين الغراوين دليل العقل ودليل النقل . وإنما قدم دليل العقل لأنه هو الذي يخاطب به من ينكر النقل فلما جلى هذا الدليل وجعله أبين من النهار وأسطع من الشمس جاء بدليل النقل لأنه لا عبرة بإنكاره بعد تجلية برهانه، ثم إنك تجد في الجملة توكيداً بكلمة إنَّ التي تؤكد هذا النهى وتشير إلى أهميته وإلى مزيد العناية به سواء من الذى كان منه النهى سبحانه أو كان ممن تلقى هذا النهى صلوات الله وسلامه عليه، ثم تجد البناء للمجهول الذى فيه إشارة إلى أن من كان ذا عقل وفكر فى الآيات العقلية السابقة لا يجوز أن يلتبس عنده أنه لا يكون هذا النهى إلا من الحى القادر المعبود بحق، وأنه سبحانه يبلغ عباده ألا يتخذوا من دونه أولياء، ثم قوله سبحانه: ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ جاء بالمصدر المؤول فى قوله ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ ولم يقل: إنى نهيت عن عبادة الذين تدعون من دون الله . أولاً لما فى دلالة الفعل من معنى الاستقبال والتجدد والحدوث، يعنى نهى عن أن يكون ذلك منه فى يوم ما أو فى وقت ما وأن يحدث ذلك أو يتجدد ولو مرة واحدة وليس فيه إيهام أن ذلك كان منه فى الذى مضى وقبل أن تأتية البيّنات من ربه لأنه عليه السلام هو وجميع أنبياء الله ورسله لم يعبدوا غير الله ولم ينغمسوا مرة واحدة فيما كان فيه أقوامهم قبل أن يعثوا صلوات الله وسلامه عليهم، ولو قال إنى نهيتُ عن عبادة الذين تدعون لأوهم أن ذلك كان منه قبل النهى . لأن المصدر مضاف إلى المفعول

والفاعل هو عليه السلام وبذلك يكون ضميره صلوات الله وسلامه عليه فاعل مصدر هو (عبادة الذين تدعون) وكأنه قال عن عبادتى الذين تدعون، ولم يكن منه عبادة لهم.

وليس شئ من هذا الإيهام فى ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ لخلوص دلالاته على الحال والاستقبال وهو محل النهى، والمصدر الصريح دال على الحدث من غير زمن وهو صالح لأن يقع فى الأزمنة الثلاثة، وكلمة ﴿نُهَيْتُ﴾ ليس فيها معنى أنه كان يكون منه ذلك كما قلنا وإنما كان قبل النهى ممسكا عن ذلك بعصمة الله له، وبعد النهى كان ممسكا عن ذلك بنهى الله له، وكلمة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الكلمات الجامعة وموطن هذا الجمع الشامل المتسع هو الموصول وصلته، ومتعلق الصلة الذى هو من دون الله لأنه شمل براءته عليه السلام من كل هذه الأديان سواء كانت الأصنام أم كانت عبادة الجن أم الملائكة أم الكواكب أم ما شئت مما كان عليه قومه وغير قومه، هو برئ من كل معبود إلا أن يكون هذا المعبود هو الله الواحد الأحد، ثم يلاحظ أنه قال ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ولو قال الذين تعبدون لكان أوزن لمناسبة قوله: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ وكان يمكن أن يكون الكلام إني نهيت أن أعبد الذين تعبدون من دون الله، أو إني نهيت أن أدعو الذين تدعون من دون الله فلماذا جاء الكلام على الذى جاء عليه؟ والجواب: أننا رأينا أن العبادة والدعاء لا ينفكان وأن الدعاء قد يراد به العبادة كما فى قوله ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، وقد يراد به طلب الحاجة، وإنما قال سبحانه: ﴿نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ولم يقل نهيت أن أدعو لإبعاده صلوات الله وسلامه عليه هو ومن تبعه عن شبهة رفع الحاجات إلى المعبود بالباطل. وقال ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ولم يقل الذين تعبدون للتبنيه إلى الجهالة التى هم فيها حين يرفعون حاجاتهم إلى من لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يضر ولا ينفع.

وكلمة ﴿لَمَّا﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ هي الخينية والتي فيها معنى الشرط لأن الجملتين بعدها يترتبان ترتب الجواب على الشرط، وكلمة ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ فيها حذف الموصوف الذي هو الآيات والاكتفاء بالصفة التي هي البيّنات لأنها هي التي عليها المعول، والمراد أن يتوفر الكلام على هذه الصفة فيها وهي أنها بيّنة ووقوعها فاعلا لجاء لمزيد إظهارها وتجليتها، وكلمة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ قيد يفيد التوكيد ومزيد العناية بأنها من ربه، لأن الآيات البيّنات ليست لها جهة أخرى يمكن أن تحبب منها لأنها من الله لا غير، ثم إن هذه البيّنات يمكن أن تكون الكتاب وأن يكون هذا رجوعاً إلى قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ويكون النهي باللفظ الصريح، ويمكن أن تكون هي أدلة النظر والاستنباط المعروضة في الآيات السابقة ويكون النهي نهياً مجازياً لأنها كأنها نطقت بلسان الحال ونهت عن عبادة غير الله جل شأنه.

وقوله جل شأنه: ﴿وَأْمُرْتَ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تمام معنى جملة نهيت أن أعبد ومعطوفة عليها وداخله في حيز التوكيد، وهي خبر ثان عن إني. وأصل الكلام إني نهيت وأمرت، وبقية الجملة فيها مقابلة ظاهرة فقد قابل نهيت بأمرت وقابل عبادة الذين تدعون من دون الله بالاستسلام لرب العالمين، وجاء حذف الكلامين على حذف واحد فقابل المصدر المؤول في قوله ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ بالمصدر المؤول في قوله ﴿أَنْ أُسَلِّمَ﴾، وقابل ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهو المعبود بالباطل بالمعبود بالحق وهو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وآثر ﴿أَنْ أُسَلِّمَ﴾ على أن أعبد أو أدعو لأن الإسلام والاستسلام والانقياد والإذعان كل ذلك مفهوم من كلمة أسلم وهي درجة من درجات العبادة والدعاء أعلى وأرفع، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، ثم إن فعل أسلم من الأفعال المتعدية

بدليل الآية: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢] وقد جاء من غير
مفعول للدلالة على أنه صار من شأنه أن يسلم لرب العالمين فى كل شىء،
وهذا أمره وهذا شأنه؛ كل شىء يُسَلِّمُهُ لرب العالمين لأن كل شىء من رب
العالمين ومرد كل شىء لرب العالمين ومن الحماسة ألا يُسَلِّمَ له كل ما هو له
ومرده إليه، وقد جاء قوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بعد قوله ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْيَتِيمَاتُ
مِنْ رَبِّي﴾ كما جاء قوله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، بعد قوله ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ﴾، وكان كلمة رب حين تضاف إلى الجماعة أو إلى الواحد ما تلبث
أن تتقلل إضاقتها إلى العالمين لأن رب الواحد هو رب العالمين ورب
الجماعة مخاطبين أو غير مخاطبين هو رب العالمين، وكلمة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
فتحت الباب للآية بعدها ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ
وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هذه الآية من معدن ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وما بعدها
ومن معدن ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ وما بعدها لأن كل هذه الآيات
فيها برهان الألوهية والوحدانية وفيها ذكر النعمة، وتختلف هذه الآية عن
الآية قبلها لأن الآية هنا ليست فى أنه سبحانه جعل لنا ليلاً نسكن فيه
ولا أرضاً قراراً وإنما فى أنه جعلنا نحن وخلقنا نحن بعدما منَّ علينا بما
خلقه، وكان ما سبق ذكره مما خلقه لنا كان مقدمة لخلقنا. ثم إن هذه الآية
بتفاصيل قصة خلق كل فرد من أفراد بنى آدم هى تفصيل لما أجمله سبحانه
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ ثم إن هذه الآية تبرير وتعليل وتوكيد لجملة
﴿وَأَمْرٌ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى أن أسلم للذى خلقتنى من تراب ثم من
نطفة، ومن لم يسلم للذى خلقه من تراب ثم من نطفة فقد سلك سلوكاً
شاذاً فى القياس والعقل، ولهذا ختمت الآية بقوله ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم إن

الآية بدأت بالضمير «هو» وهو عائد على رب العالمين، وعليه بنى الاستئناف المؤكد للإسلام والاستسلام وإلقاء كل شيء بين يدي رب العالمين، وهذا بخلاف ما بنيت عليه آية ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وأختها، فقد وضع الظاهر هناك مكان المضمرة لتكون كل آية مستغنية عما قبلها مستقلة بنفسها، وهذا ليس مراداً هنا لأن المراد توثيق هذا البرهان الذي هو مراحل خلق الناس المخاطبين في قوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والمخاطبين في قوله ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهم المعاندون من قومه عليه السلام توثيق ربط هذا البرهان بالآية قبله التي توجب الإسلام لله رب العالمين، والآن من عقل هذا لا يتردد لحظة في هذا الاستسلام، وهكذا تجد روابط الكلام تأتيه من هنا وهناك وهذا عجيب لأنني لا أرى مناسبة فحسب وإنما أرى كلاماً يمتد من كلام وأرى معاني تنمو ولغة تنمو.

ولو قلت إنك ترى رحماً بين هذه الآية وقوله سبحانه ﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وأن هذا الرحم ليس من جهة ﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ كما سبق أن أشرنا وإنما هو من جهة قوله سبحانه في الفاصلة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك لأن جملة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ جاءت فاصلة لأختها في سورة «المؤمنون» وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٤] وجمع هذه الآيات وتحديد الفروق بينها وتفسير هذه الفروق وتحليلها في ضوء سياقها باب من أعظم أبواب البيان القرآني.

وواضح جداً أن ذكر التراب الذى هو بداية خلقنا فيه أعظم المنة وأعظم
 الدلالة على القدرة، وأعظم عامل، أيضاً يجعلنا نستحى من ربنا إذا وجدنا
 كبرا فى صدورنا يغيرنا بالمجادلة فى آياته، وأى آية أعظم من أن يكون أصلنا
 ترابا ثم إذا بنا بشر يتشرون، وأى ردع أعظم من أن تسمع الخالق يقول
 ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أعظم
 مناسبة لذكر هذه الآية الراجعة بنا إلى التراب والنطفة هى قوله سبحانه فى
 الآية الأسبق ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ
 الْإِكْبَرُ﴾ وموقع آية ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ هنا يؤكد موقع آية ﴿إِنَّ
 فِي صُدُورِهِمْ الْإِكْبَرُ﴾ كما أن موقع هذه الآية هنا يؤكد موقع ﴿إِنَّ فِي
 صُدُورِهِمْ الْإِكْبَرُ﴾، يعنى هناك تبادل ظاهر من التظاهر والتساند والتشارب
 والتطاعم بين الآيتين. وأكثر المفسرين على أن المخلوق من تراب هو أبونا آدم
 عليه السلام وكل أبنائه من بعده خلقوا من نطفة، وللراى لفته أخرى لأنه
 يرى أننا جميعاً خلقنا من تراب لأن النطفة من الغذاء، والغذاء من النبات
 والحيوان وغذاء الحيوان من النبات الذى هو من تراب وبهذه المراجعة نكون
 جميعاً خلقنا من تراب، ثم من نطفة التى هى من تراب وآيات كثيرة تكلمت
 فى مراحل النشأة وبدأتها بالتراب وبعضها بدأها بالطين كما فى آية قد أفلح
 المؤمنون فقد بدأ بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ
 جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
 الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٤] وسلالة الطين خلاصته المعفاة من الكدر كما
 يقول الزمخشري، وتلاحظ فروقا جليلة بين الآيتين أول هذه الفروق أن آية
 المؤمنين أضافت قدراً زائداً عند كل مرحلة، وأول ذلك أنها لم تذكر الطين
 وإنما ذكرت سلالة من طين، ثم قالت جعلناه نطفة ثم أضافت فى قرار مكين

ثم قالت خلقنا النطفة علقة وراجع لتسبين، وغافر لم تقف هذه الوقفات وإنما قالت من تراب ثم من نطفة ثم من علقة وليس فيها خلقنا النطفة علقه وليس فيها قرار مكين إلى آخره، ثم إن آية المؤمنين ذكرت المضغة ثم العظام ثم كسونا العظام لحما، واستقصت هذه المراحل، والذي في غافر طى للمضغة وما بعدها والانتقال إلى ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ وكل هذا مطوى في سورة المؤمنون في قوله سبحانه ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

وفرق كبير بين سياق الآيات في السورتين فسورة «المؤمنون» تخاطب المؤمنين ابتداءً من أولها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى آخر الآيات، وليس في القرآن بيان متابع لأحوال المؤمنين كما في أول هذه السورة وليس فيها ذكر للضالين إلى قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [المؤمنون: ٢٣] وكلها نعم وآيات وحديث عن الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين يرثون الفردوس. وهذا بخلاف ما جاء في غافر فإنه خطاب الذين يعبدون آلهة من دون الله سبحانه، ولهذا لم تختصر غافر المراحل التي بعد الولادة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ وذكرت زمن الأشد والشيخوخة والأجل. لأن كل ذلك مما يتعلق به الغرض الذي هو دعوتهم لیسلموا لرب العالمين، ونهيهم عن عبادة الذين يعبدون من دون الله، وقد اختصرت الكلام لأن الغرض هو التنبيه إلى جمع هذه الآيات التي اختلفت فيها صور البيان عن معان واحدة ثم تحليل هذه الصور والله أعلم. والطفل يقال للمفرد والمثنى والجمع وللمذكر والمؤنث، والشيخ من بلغ الخمسين، والأشد بلوغ الأربعين.

وقوله جل شأنه ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلُ وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ قال ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ بعد قوله ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ للإشارة إلى أن مرحلة الشيخوخة ليس بعدها إلا الموت، وأن الموت

عندها ومعها بدليل قوله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقبل مبنى على الضم بنقدير مضاف
يعنى من قبل ذلك، وهذا يعنى أن الشيخوخة نهاية المرحلة التى عندها
الموت، والموت قبلها راجع إلى كل المراحل من يوم أن تدخل الروح فى
الجنين إلى الطفل إلى الأشد، أما الشيخوخة فليس هناك حاجة لذكر الموت
بعدها لأنها نهاية المطاف، وهى مقترنة بالموت وهى زمن مصارع الأمة، واللام
فى قوله ﴿ تَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ لام التعليل وهى بمعنى إلى كما قال الطاهر لأن
الانتهاء الذى هو مدلول إلى علة لهذه الأحوال، وكذلك اللام التى فى قوله
﴿ وَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى ﴾ والتعليل فيها له ملحظ آخر وكاننا خلقنا لنبلغ الأجل
المسمى الذى هو نهاية العمر، يعنى خلقنا للموت ولنعود تراباً كما بدأنا تراباً،
ولهذا يرد العجز على الصدر ويلتقى طرفا الحلقة وطرفها الأول تراب والأخير
تراب وما بينهما تراب، يمشى على تراب ومن كان كذلك لا يكن فى صدره
كبر إلا من باب الوهم الذى يفتقد معه العقل.

وفاصلة هذه الآية فاصلة عظيمة جداً وهى قوله سبحانه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
ومن وجوه العظمة فيها اختيار كلمة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ لأن المطلوب من الإنسان الذى
هذا معدنه وهذا أوله وهذا آخره أن يفكر وأن يتعقل وأن ينظر وأن يستدل؛ لأن
آية الله ليست فى الليل الذى جعله له ليسكن فيه ولا فى الأرض التى جعلها له
قراراً فحسب، وإنما أيضاً فيه نفسه والعجب فيه نفسه وأن أوله وآخره تراب،
وأن يد الله هى التى جعلت من هذا التراب إنساناً فإذا هو خصيم مبین، كل
هذا محتاج إلى التعقل والتفكير، وقد تابعت الآيات التى جاءت فواصلها كهذه
الفاصلة فوجدت ما قبلها لا يدرك إلا بإعمال العقل، وفكرت فى جمعها
وتحليلها وتحليل الفواصل التى تشبهها مثل يتفكرون ويستذكرون، وتلاحظ أمراً
آخر هو أن فعل يعقلون متعد نزل منزلة اللازم لأن المطلوب أن نكون ممن يعقل
يعنى تتوفّر فينا أهلية التعقل. وتلاحظ أيضاً أن الواو فى قوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿ أَدْخَلَتْ هَذِهِ الْفَاصِلَةَ فِي حَيْزِ لَامَاتِ التَّعْلِيلِ السَّابِقَةِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ خَلَقَنَا مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ وَأَخْبَرَنَا سَبَّحَانَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَعْقِلَ، وَكَأَنَّ مَسْأَلَةَ أَنْ نَعْقِلَ هِيَ مِنْ عِلَلٍ وَغَايَاتٍ الْخَلْقِ وَأَنَّ مِنْ أَهْمَلِ عَقْلِهِ كَأَنَّهُ أَهْمَلُ خَلْقِهِ. اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يَقُولُ لَنَا خَلَقْتَكُمْ لَتَعْقِلُوا أَوْلَتْبَحْثُوا عَنِ الْحَقِيقَةِ فِي خَلْقِكُمْ وَفِي أَنْفُسِكُمْ وَفِيمَا حَوْلِكُمْ وَفِيمَا فَوْقَكُمْ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بِنَاءُ هَذِهِ الْآيَةِ كِبَاءُ الْآيَةِ قَبْلُهَا. الْإِبْتِدَاءُ بِالضَّمِيرِ ثُمَّ الْأِسْمِ الْمَوْصُولِ وَكُلِّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْأِسْمِ الْمَوْصُولِ دَاخِلٌ فِي الصَّلَةِ وَمَكْمَلٌ لَهَا وَبَقِيَّةُ الْآيَةِ صَلَةُ الْمَوْصُولِ وَالْمَوْصُولِ خَبَرٌ وَالْجُمْلَةُ مَعْرِفَةُ الطَّرْفَيْنِ وَتَفِيدُ الْقَصْرَ، يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ وَالْأَفْعَالَ وَالْأَحْوَالَ الدَّاخِلَةَ فِي حَيْزِ الصَّلَةِ لَا تَكُونُ الْبَيْتَةَ إِلَّا مِنْهُ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ صَدُورُهَا إِلَّا مِنَ الْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ، هَذَا شَيْءٌ ثُمَّ إِنَّكَ تَرَى قَوْلَهُ ﴿يُحْيِي﴾ رَاجِعًا إِلَى مَا بَنِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ وَهِيَ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ إِلَى آخِرِهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ، وَقَوْلُهُ ﴿وَيُمِيتُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ، ثُمَّ إِنَّكَ تَجِدُ هَذِهِ الْآيَةَ بَنِيَتْ عَلَى فَعْلَيْنِ هُمَا ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وَمَا بَعْدَهُمَا مَفْرَعٌ عَنْهُمَا وَبَيَانٌ لِكَيْفِيَّةِ صَدُورِ الْأَفْعَالِ مِنَ الْحَقِّ جَلِّ سُلْطَانِهِ سِوَاءَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ إِحْيَاءً وَإِمَاتَةً أَوْ خَلْقًا أَوْ فَنَاءً أَوْ مَا تَرَى مِنْ عَظِيمِ صَنْعِهِ سَبَّحَانَهُ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَثَابَةِ تَوْكِيدِ اللَّيَّةِ قَبْلُهَا وَيَكُونُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ كِمَالِ اتِّصَالٍ، وَلِهَذَا اتَّصَلَتِ الثَّانِيَّةُ بِالْأُولَى مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا وَاسْتَغْنَتْ عَنِ الْوَاصِلِ وَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ، ثُمَّ إِنَّ الْإِحْيَاءَ وَالْإِمَاتَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَامَانِ وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الَّتِي قَبْلُهَا لِأَنَّ الَّتِي قَبْلُهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَجْلِ. وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنِ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَفْعُولٌ لِلْفِعْلِ، وَالْمَعْنَى

يكون منه الإحياء وتكون منه الإمامة لكل من يوصف بهما من إنسان وحيوان وطيور ونبات والأرض الميتة التي جعل الله إحياءها آية، وبناء على هذا يكون التوكيد هنا بالفعل الأعم لأن المؤكد بكسر الكاف يتضمن المؤكد بفتحها، وزيادة كالذي يقول ومن يفعل المعروف لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس. وقدم فعل يحيى لأن الموت لا يقع إلا على حي. وفي هذه الآية كالتى قبلها دليل البعث لأنهم ينكرون الرجوع والنشر والبعث بعد موتهم وصوروتهم تراباً، ووجه الدليل هنا هو أن القادر على الإحياء الأول والإمامة الأولى قادر على الإحياء الثانى. ولذلك جاء الفعلان من غير مفعول لأن المعنى يكون منه هذا وذاك كما قلنا، ويكون منه هذا وذاك فى أى وقت يشاء وعلى أى مخلوق يشاء فهو يحيى من العدم كالنشأة التى من التراب ويحيى بعد الموت وهو أهون عليه سبحانه.

أما وجه الدليل على البعث والنشر والخروج فى الآية الأولى فيكاد يكون دليلاً مضمناً؛ لأن المشكلة التى عندهم هى أن يعودوا أحياء بعد أن يصيروا تراباً، ﴿أَنْذَا كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧] ﴿أَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [المؤمنون: ٨٢]، وقد تكرر هذا كثيراً جداً ولهذا كانت آيات النشأة تبدأ غالباً بقوله سبحانه ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وما دام خلقكم من تراب فهو قادر لا محالة أن يعثكم من هذا التراب وأن ينشركم منه، وإذا كان الخلق الأول لم يعيه سبحانه فالخلق الثانى أولى، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ سُلْبٌ أَوْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَطَرٍ مَاءٍ كَالْهَبْلِ أَلَمَبُ يَوْمَ يَخْرُجُ الْبَاطِنُ وَالظَّالِمُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٣] والأدلة كثيرة والمراد الآن هو بيان سر ذكر التراب فى آيات خلق الإنسان والذى خلق من التراب هو أبونا وحده وأما خلقت منه ثم خلقنا نحن من نطفة وهذا السر هو جسم هذه الشبهة التى ركبت عقول منكري البعث، فأنكروا الحياة بعد أن يصيروا تراباً، والله أعلم.

وقوله جل شأنه ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ما بعد هذه الفاء بيان لكيفية إيجاد ما قبلها، يعنى أنه سبحانه يحى بقوله كن ويميت بقوله كن، وفعل الإحياء والإماتة من أعظم الأحداث الكونية وكل حى من حيوان أو إنسان أو نبات أو ما شئت على هذه الأرض يموت ويخلفه حى آخر فى الزمن بعد الزمن، وكل ما على هذه الأرض هو خلائف يخلف بعضها بعضاً، وقد أومات إلى ذلك اللام التى فى قوله ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلَٰ مُسَمًّى﴾ يعنى خلقتكم للفناء بعد بلوغ الأجل، ويخلفكم على الأرض غيركم، وهذا من قوله سبحانه ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾ [الأنعام: ١٦٥] يعنى أجيالاً تخلف أجيالاً ليس من الإنسان فقط وإنما من الحيوان والطيور بل ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] بل والنبات أيضاً خلائف يخلف بعضها بعضاً، وكل مخلوق على الأرض له أجل يبلغه ثم يلحقه الفناء ثم يأتى غيره، وهذا هو معنى الإطلاق فى يحى ويميت وإنما يكون كل ذلك بقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذه الجملة الفاصلة ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فاصلة للآية التى هى منها وفاصلة للآية التى قبلها وفاصلة لقوله سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وفاصلة لقوله سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وفاصلة لقوله جل شأنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وفاصلة لكل ما جاء فى السورة من أمر الله الذى قضاءه فى خلقه من يوم التلاق ويوم هم بارزون ويرىهم آياته إلى آخره، وهذا ظاهر، ولهذا كانت من أكبر فواصل السورة وتوشك أن تكون مؤذنة بالفراغ من أكبر أغراض السورة والانتهاه منها وقد ذكر علماؤنا فيها وجهين .

الأول: أن يكون الكلام على الحقيقة وأنه سبحانه إذا جرى قضاؤه وأمره بشئ قال له كن فيكون، وليس هذا بعيداً لأن خطاب الله لكل ما فى كونه

يغير خطابنا، فإذا كنا نخاطب غير العقلاء على سبيل المجاز فإن هذا لا يعنى أنه سبحانه حين يخاطب السماء أو الأرض إنما يخاطبها على سبيل المحاز كخطابنا، وكذلك حين يقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد وهكذا، والأمر مختلف جداً وإذا كنا موقنين أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وأن الجاحدين يقرون بهذا فلماذا نستبعد أن يكون سبحانه قال للسماء والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] وخلقهما أكبر من خطابهما وأغرب، فإذا كنا قد أقررنا بالأغرب فلا مانع مطلقاً من أن نقر بما هو أقل منه غرابة، ثم إنه سبحانه أخبر على سبيل الحقيقة أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسيحهم، ولو كان نسيحاً مجازياً لعرفناه، ثم إنه سبحانه نادى الجبال وقال لها أوبى مع داود فأوبت مع داود فلماذا نقبل تأويبها يعنى ترجيعها لساييحه صلوات الله وسلامه عليه ونصرف نداءه سبحانه لها إلى المجاز. كل هذا يقرب حمل قوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ على الحقيقة. ويمكن أن يكون هذا من باب المجاز ولا غضاضة فيه وأن يشبه إنفاذ أمره سبحانه فى خلقه بحال المأمور المسارع لإنفاذ أمر أمره، أو كما قال الطاهر تمثيل لتعلق القدرة بالمقدور بلا تأخير ولا معاناة، ولا معالجة بحال من يريد إذن غيره بعمل فلا يزيد عن أن يوجه إليه أمراً، انتهى كلامه، ولم أقرأ فى إنفاذ شيء أخصر من كلمتى كن فيكون، وقد قلت إنها فاصلة لكل أمر الله فى السورة وكأنها نسجت من خيوط امتدت إليها من أول قوله سبحانه ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ وقوله ﴿ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ إلى قوله ﴿ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ

أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا
كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

هذه الآيات تدور حول معنى واحد هو وصف أحوالهم في الآخرة، وقد رأينا أن السورة بدأت بالحديث عنهم وستنتهي بالحديث عنهم وأنهم هم أصل معنى السورة، وقد أشرت إلى الفروق التي تأسس عليها تكرار ذكرهم في السورة فكان أول الحديث عنهم لبيان أنه ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا، ثم ذكروا مرة ثانية لبيان أن جدالهم في الآيات يورثهم المقت الذي هو أشد الغضب من الله ومن عباده المستقيمين الذين آمنوا، ثم ذكروا لبيان أن جدالهم ليس له علة إلا كبر في صدورهم، ولما أقامت السورة الآيات البينات الداحضة لهذا الجدل الباطل في كل تعقيب على ذكر جدالهم انتقلت هنا إلى بيان المصير الذي انتهى بهم الجدل إليه وخلاصته في الفاصلة التي ختمت بها الآية وهو قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وسيقتل الكلام بعد هذا إلى خطاب رسول الله ﷺ وذلك في قوله جل شأنه ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ وهذا بيان عام لسباق الآيات، وأعود إلى التحليل وأول ما يلاحظ هو الربط الوثيق بين هذه الآيات وفاصلة الآية قبلها وهى قوله جل شأنه ﴿ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وذلك لأن هذه الفاصلة من أعظم وأعلى الآيات الداحضة للجدال؛ لأن الله الذى هذا شأنه سبحانه والذى خلق السموات والأرض بكن وجعل لكم الليل لتسكنوا فيه بكن وجعل النهار مبصراً بكن وجعل لكم الأرض بساطاً بكن وخلقكم من تراب بكن ويحييكم ويميتكم بكن لا ترد آياته ولا يجادل فيها. وآيات الله فى خلقه لا ترد ولا يمارى فيها وأعظمها أنها تكون بالكاف والنون، وهذا رابط شديد التماسك بين هذه الآيات وما قبلها.

والحديث هنا مختلف جداً لأنه لم يبدأ عن المجادلين بالباطل بما بدأ به في الآيات السابقة، وإنما بدأ بالاستفهام الداخِل على النفى، والمراد بهذا الاستفهام التقرير بما يعلمه المخاطب من مضمون ما دخلت عليه الهمزة، ويجوز أن يراد به الإنكار الداخِل على النفى فيؤول الكلام إلى الإثبات لأن نفى النفى إثبات وهذا ظاهر، وكلمة «ترى» التي دخلت عليها لم النافية الخطاب فيها لكل من يصح منه الخطاب، يعنى لكل من له عقل يدرك به ويعقل به وهذا معنى جليل جداً لأن الكلام السابق لما سد عليهم المنافذ وأبطل جدالهم من كل وجه جاءت هذه الآية بعموم هذا الخطاب للتشهير بهم، وأن جدالهم في آيات الله لا يستقيم عند كل من له فهم والرؤيا هنا قلبية وفيها إشارة إلى أنها ظاهرة للعقل ظهور الشيء للعين ليس بينها وبينه حجاب، وإضافة الآيات إلى لفظ الجلالة الدال على الكمالات المطلقة والذي يبعث في النفوس الروح والجلال والتنزيه والتقديس فيه ما فيه من فساد هذا الجدل وضلاله وأنه صرف واضح عن الحق المبين، وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من الجمل القرآنية العظيمة الشأن وقد تكررت في الكتاب العزيز ويأتى بعدها أمر عجيب غريب مخالف للمنطق وما يقتضيه العقل كما في قوله تعالى . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] وقوله جل شأنه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] وقد يأتى بعدها أمر عجيب من أمر الله في خلقه كقوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] وقوله جل شأنه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] وغير ذلك كثير جداً وهو باب من أبواب البيان العالى لأن الحقائق فيه ظاهرة للبصائر ظهور المحسوسات للأبصار .

قلت: إن الخطاب هنا لكل من هو أهل لأن يخاطب كما فى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ أَرْؤُسِهِمْ ﴾ [السجدة: ١٢] وقوله جل شأنه ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠] وهذا التعميم فى الخطاب وراءه التعميم بإشاعة شناعتهم، وهو مقدمة جليلة لبيان ما سيؤول إليه حالهم وهم فى الأغلال يسحبون وفى الحميم يسجرون وهذا من التهيئة الخفية ذات الشأن فى أسرار البيان.

والمعنى الأم فى هذه الآية قوله سبحانه ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ لأن هذه الجملة هى موضع التعجب، والاستفهام استفهام إنكار وتعجب ولوم وتوبيخ وهى بمثابة البديل من الذين يجادلون فى آيات الله لأنها هى المقصودة «وأنى» بمعنى كيف، والمراد كيف يصرفون عن آيات الله مع هذه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وهذه الجملة من معدن قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ والكلام فى هذه الآية السابقة لا يزال يَنْصَبُ الأدلة الداحضة لباطلهم وجدالهم ولهذا جاء فيه ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولم يأت شىء من هذا فى الآية التى معنا لأنها ليست بصدد إقامة الأدلة وإنما هى بصدد بيان استمرار الباطل واستمرار الصرف عن الحق بعد كل هذه الأدلة، ولذلك جاء خطابه عاماً لكل من يكون منه الخطاب، والفرق بين يؤفكون ويصرفون من الفروق التى تمس الحاجة إليها فى دراسة البيان ومثل هذا كثير جداً، ونحن نفسر تؤفكون بتصرفون وتصرفون بتأفكون دون الالتفات إلى الفروق التى لاحظها السياق، والإفك فيه كذب ومخادعة وكأنهم كَذَبُوا والمأفوك العاجز المخدوع الذى ليست له حيلة، وإنما قال فى هذه الآية أنى يصرفون لأنها ليست خطاباً للمجادلين وإنما هى حديث عنهم وهى خطاب للمنيبين الذين رأوا آيات الله والشأن فيهم أن يعجبوا وأن يتعجبوا من المنصرفين عنها بخلاف آية ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فإنها خطاب لهم وتأمل موقعا آخر للفعل يؤفكون قال تعالى

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥] والإفك هنا فيه شوب من الخداع والكذب، والساعة علم على القيامة وإنما سميت ساعة لأنها آخر ساعة من ساعات الدنيا، وليس بين يدي كلام دقيق لأهل العلم أعول عليه في بيان الفروق بين معاني الكلمات المتشابهة والمتقاربة، وإنما هو اجتهاد يخطئ فيه المرء ويصيب ومن الواجب أن تستقصى معاني هذه الكلمات في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام القوم الذين نزل فيهم وأن تحدده تحديداً دقيقاً لأن هذا لازم لفهم كلام الله وكلام الناس.

وقوله سبحانه ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الاسم الموصول وصلته زيادة تعريف بالذين يجادلون في آياتنا، وقد حذى الكلام على حذو سابقة وبنى على اسم الموصول، وفي هذه الصلة شيء زائد وهو النص على أنهم كذبوا بالكتاب وبما أرسلت به الرسل عليهم السلام، والمراد بالكتاب الكتب بدليل ما بعده لأن الحديث عن المجادلين في آيات الله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وقد جاء الكتاب بمعنى الكتب كثيراً في الكتاب العزيز ومنه قوله تعالى في سورة النساء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦] والمراد الكتب التي أنزلت من قبل. وقوله ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ أعاد الباء التي في المعطوف عليه ولم يقل كذبوا بالكتاب وما أرسلنا به رسلنا لزيادة العناية بهذا التكذيب الثاني حتى لا يفهم أن التكذيب بالكتاب هو كل ما اقترفوه، وأن التكذيب بغيره ليس في شناعة التكذيب به ومن أنبياء الله من ليس له كتاب كيوسف عليه السلام، والذي مع الكتاب مما أرسل به المرسلون عليهم السلام آيات كثيرة كعصا موسى عليه السلام التي هي آية الكبرى والتي ألقاها فإذا هي ثعبان وضرب بها البحر فانفلق وضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا، ومن أهم ما أرسل به الرسل مع الكتاب

ستهم والتي هي أقوالهم وأفعالهم وإقراراتهم، ولكل رسول سنة وكتاب، والذين يحاربون السنة الآن يصدق عليهم أنهم صدقوا بالكتاب وكذبوا بما أرسل به عليه السلام، وقد ذكر بعض أهل العلم أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن وأن المراد بالرسول سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه لأن تكذيبه صلوات الله وسلامه عليه تكذيب بالرسول قبله؛ لأنهم بشروا به صلوات الله وسلامه عليه ولأن كتابه مهيمن على الكتب كلها ومصداق لها.

وقوله سبحانه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الفاء واقعة في الخبر لشبهه الموصول بالشرط وهو كثير، وكلمة سوف مؤذنة بما يعلمونه في الآخرة وليس المراد العلم الذى هو الإدراك وإنما المراد يعلمون العذاب واقعاً بدليل تحديد زمن العلم وحالتهم التى تصاحب العلم بقوله سبحانه ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ [غافر: ٧١]. ومجىء يعلمون من غير مفعول لقوة دلالة السياق عليه أى يعلمون جزاء ذلك وعاقبته، وقوله سبحانه ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ وتعلقها بـ يعلمون وأنها زمان علمهم فيه إشارة إلى أنهم لا يدركون الحقائق بعقولهم وإنما سيعلمون الأشياء واقعة وأعناقهم فى الأغلال، وهذا هو الذى يعلمونه يعنى المحسوس لأنهم أجفئ من أن يعلموا المعقول، وهذا تشهير وإهانة، وإطلاق العلم على المعلوم ليس بعزيز فى الكتاب ومنه قوله سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦] يعنى ولم يجاهدوا فيعلم جهادهم واقعاً، ومثل ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ [العنكبوت: ٣] والمجادلون سوف يعلمون العذاب والأغلال فى أعناقهم.

وراجع صورة العذاب: الأغلال فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم لترى الإهانة والإذلال يقتربان بالعذاب كما نقول ستعلم هذا حين يوضع القيد فى يدك، وقد لحظ الزمخشري أن تركيب الآية فيه كلمتان تدلان على زمانين متدافعين كلمة (سوف) تدل على الاستقبال وكلمة (إذ) تدل على الماضى وأن هذه بمنزلة قولك سوف أصوم بالأمس.

وهذا التدافع الظاهر فيه لفنة بالغة التأثير وبالغة التوكيد لأن سوف تؤكد أن ذلك في الآخرة وإذ تؤذن بأن ما هو للوقوع كالواقع كما فى قوله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، تأمل أتى ثم تأمل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لترى كيف تتجلى أسمى المعانى وراء أمثال هذه الصيغ التى تبدو كأنها تدافع، وأصل الكلام إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم لأن السلاسل معطوفة على الأغلال فى قراءة الرفع، وإنما قدمت الأعناق على السلاسل للمبادرة بذكر الأعناق ولاقترانها بالأغلال، ولما وراء ذلك من تفضيح وتخويف وإهانة وجملة ﴿يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ﴾ جملة حالية وكلمة «ثم» بعدها للإشارة إلى بعد الرتبة بين أحوال العذاب.

وصورة التعذيب هنا ليست تعذيباً فحسب كما فى مثل قوله تعالى ﴿قَطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩] وكما فى قوله جل شأنه ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [فاطر: ٣٧]. وإنما هو تعذيب وإهانة معاً وبيان لشدة جهلهم وأنهم لن يعلموا إلا والأغلال فى أعناقهم والحال أنهم يسبحون فى الحميم، وتأمل الصورة لترى العذاب مقترناً بالإهانة والسخرية والإذلال وهذا هو المناسب لأصل الخطيئة وأصل الجرم الذى يعذبون له وهو المجادلة التى أساسها الكبير الذى فى صدورهم، فناسب ذكر الأغلال فى الأعناق والسحب فى الحميم، وصور العذاب تتكرر كثيراً فى القرآن وفى كل صورة لون يميزها، وقد يدق هذا اللون ويخفى حتى يكون خيطاً من طيف يميزها، وهذا التمييز مرتبط بالسياق وناتج عنه، واستخراج ذلك أمر دقيق جداً ولم أجد أحداً عنى به، وقد رأيت ذلك أيضاً فى صور النعيم وما يذكر من أحوال أهل الجنة فى السياقات المختلفة، كما رأيت أيضاً فى المقابلات بين صور العذاب وصور الثواب حين يقترن الأمران فى سياق واحد، وهذا كله منطوق على أسرار من

البيان لا تزال مستورة ولن يكشف أسرارها إلا المنقطعون للعلم فى زمان لم بعد فيه أحد ينقطع للعلم ونسأل الله السلامة، ومن المفيد جداً أنك أحياناً تجد إشارات قرآنية إلى هذا التلاؤم بين صور القرآن وسباق السورة كما فى قوله تعالى فى ختام هذه الآيات ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦].

ومعنى ﴿يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ﴾ يجرون فى الماء الحار وقرئ ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾، بجر السلاسل. وخرج الزمخشري هذه القراءة على وجه من التأويل ينسج له النحو ويتسع به النحو وذلك لأنه لحظ تنوع صور علاقة الأغلال والأعناق، يقال مرة الأغلال فى أعناقهم كما هنا فتأتى السلاسل معطوفة على الأغلال، ويقال مرة أعناقهم فى الأغلال بجر الأغلال فتأتى السلاسل مجرورة، وهذا وإن لم يجر الكلام عليه فى الآية فإن جر السلاسل كان على افتراض وقوعه، لأنه مادامت تمييزه اللغة ويجرى به الاستعمال فلا بأس من تصوره، وعلى هذا تكون كلمة السلاسل معطوفة ليس على الأغلال المذكورة وإنما على الأغلال التى كان يمكن أن تكون، وقولنا الأغلال فى أعناقهم وأعناقهم فى الأغلال عبارتان تتعاقبان، وكأن قراءة الجر تحضر صيغة أعناقهم فى الأغلال مع اللفظ المنطوق والذى هو الأغلال فى أعناقهم، ويؤول الكلام إلى تأكيد معنى الأغلال فى أعناقهم، كما تقول عنقه فى الغل والغل فى عنقه وهذا تفكير جيد جداً واللغة لا تعافه ولا تتبشعه، وهو قريب من العطف على التوهم الذى فى مثل قول الشاعر: «لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً» بجر سابق وهو معطوف على مدرك المنصوب لأنه كان يمكن أن يقول لست بمدرك ما مضى. ولأبى الفتح ابن جنى كلام كثير وتخريجات كثيرة من هذا النوع وقد ذكرت طرفاً منها فى كتاب «مراجعات فى أصول الدرس البلاغى» وقوله سبحانه ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ السجر إيقاد النار وهم يسجرون فى النار يعنى توقد بهم النار كما قال سبحانه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

ثم هم أيضاً يسجرون أى تتوقد النار فى داخلهم كما يسجر التنور، وتأمل الصورة وأعطها حقها لتدرك كنهها، توقد بهم النار وتتوقد فيهم النار وأسأل الله اللطف. ثم راجع كلمة «ثم» التى قبلها لتدرك الفرق بين التعذيب والإهانة المتمثل فى سحبهم بالأغلال التى فى أعناقهم فى الحميم وبين حالة أنهم توقد بهم النار وتتوقد فيهم النار، وكيف يتأتى فى كل هذا بهذه الألفاظ القليلة وضع بين يديك أكرم بيان قاله الذين نزل فيهم وابتحث فيه عن شىء يقارب هذا لتدرك الذى عليه آمن القوم، وقوله جل شأنه ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾.

بعدها بلغت الآية السابقة ذروة التصوير للعذاب الذى هم فيه تجاوزت هذه الآية صورة العذاب وانتقلت إلى خطابهم وسؤالهم عن الخطيئة التى أوبقتهم فيما هم فيه، وذلك لتجسيد هذه الخطيئة وتأكيدها لأن المطلوب هو صرفهم عنها، وهم أحياء، وعندهم الفسحة والوقت الذى يرجعون فيه إلى الله ولذلك تجدد لكلمة «ثم» الواقعة فى أول هذه الآية ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ دلالة أخرى لأنها لا تعنى تصعيد أحوال العذاب مثل كلمة «ثم» التى فى قوله ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ لأن هذا السؤال مهما يكن فيه من حسرة وندامة ليس بأشعب من ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ لأنها بلغت الغاية فى التعذيب وإنما «ثم» هنا تفيد التنبه إلى الجذر الذى ما كان أغناهم عنه والذى لم يكن إلا وهماً فى الدنيا وهو اتخاذ الشركاء من دون الله الذى تواترت نعمه فى الآيات السابقة، وعلى هذا يكون ما بعدها أهم وليس أوجع ومن المهم جداً وأنت فى ذروة صورة العذاب أن تراجع الذى أفضى بك إليه، وكل هذا كلام لهم وهم فى فسحة كما قلت وهذا من أوسع الرحمة، لأنه تخويف بالغ لتجنب الطريق الذى يصل بك إليه فتبلغ الأمن، ولئن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف.

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بنى الفعل «قيل» للمجهول ليتوفر الكلام على القول دون النظر إلى القائل ومعلوم أنه لا يكون إلا بأمر الله، ثم جرى بالماضى مكان المضارع لأن الأصل ثم يقال لهم وهم على أبواب جهنم ولما يدخلوها بعد لأن الدخول بعد الأمر الذى فى قوله جل شأنه ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ وإنما وضع الماضى موضع المضارع لأن ما هو للوقوع كالواقع، ومثله يقال فى قولهم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ والسؤال عن المكان لأن أين يسأل بها عن المكان وفيه معنى الإنكار، وإنكار مكانهم يعنى إنكار وجودهم لأنهم لو كانوا موجودين لكان لهم مكان يوجدون فيه لا محالة، ومثله إنكار الزمان يفيد إنكار الوجود لأن كل موجود لا بد له من زمان يوجد فيه وهذا من الكنايات الخفية لأنها إنكار الوجود بدليل. كما تقول أين كان ذلك ومتى؟ وأنت تريد أن ذلك لم يكن. وكان من الممكن أن يكون السؤال عن شفاعتهم التى كانوا يزعمونها وأنهم يعبدونها لتقريبهم إلى الله زلفى. أو أن يكون لماذا جعلتم لله شركاء؟ ولكنه عدل عن كل ذلك لأن الحقيقة هى نفى وجود هؤلاء المعبودين بالباطل لأن الشئ إذا انتفت الفائدة من وجوده فقد انتفى وجوده، وهذا أبلغ وأوقع وأشد وجعاً لهم وتنديماً ولوماً، ولهذا اضطرب جوابهم وقالوا ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ ثم أضربوا عن ذلك وقالوا ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ وكأنهم نظروا إلى وجودهم فقالوا ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ ثم نظروا إلى انتفاء الفائدة من هذا الوجود فقالوا ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾.

وقوله سبحانه ﴿تُشْرِكُونَ (٧٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أثر على قولنا مثلاً أين شركاؤكم لأن تشركون فيه إسناد الشرك لهم إسناداً صريحاً، لأنهم هم المقصودون بواو الجماعة، والإضافة فى مثل شركاؤكم تكون لأدنى ملابسة وإن كان المراد بها الإضافة إلى الفاعل فإن هذا غير إسناد الفعل المضارع

بدلالته على التجدد والحدوث، وكلمة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ذكر لفظ الجلالة بدلالته على الكمال المطلق والجلال العظيم والتقديس وهم يعترفون بأنه خلق السموات والأرض كل ذلك فيه معنى التجهيل والتنبيه الواضح على الخطأ والخلل. وبهذه الدلالات فى جملة السؤال يتضح أن السؤال ليس للإنكار فحسب وإنما فيه غضب، وفيه تنبيه إلى أن ما أنتم فيه من عذاب وإهانة وأغلال وقيود فى الأعناق وسلاسل فى الأعناق وسحب فى الحميم كل هذا وأكثر منه مما ستواجهون ليس كفاء لإشراككم ما ليس بشيء مع خالق كل شيء وهو الحى القيوم الذى دلت آياته على قيوميته ووحدانيته.

وقولهم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ لم يقولوا ضللنا عنهم لأنهم أيقنوا بالحقيقة لما انتقلوا من الفانية إلى الباقية وكشف عنهم الغطاء فلم يبحثوا عنهم. ثم إنهم أيضاً لم يقولوا أضلونا أو ضلونا وإنما قالوا ضلوا عنها فأشربوا فعل ضلَّ معنى انصرف لأنهم فى الحقيقة برثوا من عبادتهم لهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۗ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وقولهم ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ إضراب عن قولهم الأول الذى هو ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ إلى بيان الحقيقة وهى أنهم لم يكونوا يدعون شيئاً وأن وهم الكبر فى صدورهم خلق وهما آخر هو معبوداتهم، ثم إن فى هذا الإضراب والانتقال من جواب إلى جواب فيه دلالة على الحيرة والاضطراب من هول ما هم فيه، وناهيك عن الأغلال والسلاسل فى الأعناق ثم الجر والسحب من هذه السلاسل فى الحميم، أحكم الصورة لتدرك سر الحوار.

وقولهم ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ يتصادم مع آيات كثيرة تفيد جمعهم مع آلهتهم فى يوم القيامة ومن ذلك آية الفرقان السابقة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ومثلها كثير، وقد

ذكر العلماء أن الوقت طويل وأنهم يجتمعون معهم فى بعض ويضلون عنهم فى بعض. وقوله جل شأنه ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ قال الرازى قال صاحب الكشاف: مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم الله عن آلهتهم حتى إنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر، انتهى كلام صاحب الكشاف ولم يعقب عليه الرازى، وهذا من تأويلات المعتزلة وكذلك يتأولون مثل قوله سبحانه ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١] ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وأمثاله كثيرة فى الكتاب العزيز ويذهبون فى هذا مذاهب تختلف فى القرب والبعد، ومن ذلك قول القاضى المعتزلى فى الآية التى معنا: كذلك يضل الله الكافرين إنه سبحانه يضلهم عن طريق الجنة إذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجة إذ قد هداهم فى الدنيا إليها، وهذا بعيد لأنهم مستيقنون أنهم ليسوا من أهل الجنة من لحظة أن كشف الغطاء وكيف يبحثون عن الجنة والأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم؟ وتفسير الزمخشرى مع قدرته البارعة فى تحليل الكلام يفرغ الجملة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ من معناها لأن قوله يضلهم الله عن آلهتهم ويضل آلهتهم عنهم حتى لو طلب أحدهما الآخر لم يجده كلام مفهوم من قولهم «ضلوا عنا، بل لم تكن ندعو من قبل شيئاً» لأن الذى ليس بشىء لن يطلب ولن يُطلب وبذلك تكون الجملة موقوفة من غير دلالة.

والذى عليه علماء الأمة من غير المعتزلة هو أن الإضلال فى الآية الكريمة هو المقابل للهدى وأن الله سبحانه يضل من يشاء عن الهدى وعن الحجة ويهدى من يشاء، والإضلال فى الآية الكريمة هو الإضلال الذى فى مثل قوله سبحانه ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل ٩٣] وقوله جل شأنه ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. والخلق خلقه والأمر أمره لا يسأل عما يفعل

وهذا من تمام الألوهية ومن تمام القيومية وهو المهيمن العزيز الجبار المتكبر نؤمن بما أنزله علينا وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء وأنه لا يظلم أحداً وما يفعل بعذابكم إن شكرتم، وفي المسألة كلام كثير جداً والكل يسعى لمعرفة مراده سبحانه وفي كل خير وإنما الأعمال بالنيات.

واسم الإشارة في قوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ راجع إلى ضلالهم المفهوم من قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]. والمفهوم من قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رَسُولَنَا﴾ [غافر: ٧٠]. وجملة ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ نص في الضلال الذي صرفهم عن الهدى وكلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ في الآية عامة وشاملة لكل من كفر، والمقصود أن ضلالهم الموصوف في الآية هو الضلال الكبير الذي يلحق به كل ضلال وأن إضلال الله لكل الكافرين مُشَبَّهٌ وضلالهم مُشَبَّهٌ به لأنه لا ضلال أبلغ من ضلالهم الذي أفضى بهم إلى العذاب والإهانة والإذلال المذكور في الآية، ويقول الشيخ الطاهر: إن هذا التشبيه من باب إلحاق الناقص بالكامل للإشارة إلى أن ضلالهم صار مثلاً في الضلال يبين به ضلال كل الكافرين. ثم إن كلمة الكافرين ترجع إلى قوله سبحانه في أول السورة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ونظائرها من مثل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، وكأنها تستدعي نظائرها وتتواصل معها وتكون امتداداً لخيط دقيقة تجرى في نسيج السورة.

وقوله جل شأنه ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

وأسماء الإشارة ترجع بنا دائماً إلى الكلام الذي سبق وتستجمعه وتسترجعه وتحتاج إلى يقظة شديدة حتى لا نعود به إلى غير المقصود منه، لأن بعضها

يخفى والمراد به هنا العذاب المتمثل فى الأغلال والسلاسل والسحب فى الحميم والسجر فى النار، وأن كل هذا يجمع ويخبر عنه بما بعده، والباء فى قوله ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ هى أخت الباء التى فى مثل قوله سبحانه ﴿تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] والأمر المثير فى الآية أن هذا العذاب المهين إنما كان بالفرح فى الأرض والمرح فيها، والفرح والمرح ليس من المعصية وقد من الله سبحانه على المؤمنين بالفرح فى قوله فى سورة الروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤﴾ [بنصر الله] [الروم: ٥] والمراد بالأرض الدنيا وقوله بغير الحق فيه معنى أن الفرح بغير الحق يورث هذا النكال وهذا العذاب المهين فما هو هذا الفرح، أو قل بصيغة أخرى إن الفرح بغير الحق وقع هنا موقع الجدال فى آيات الله بالباطل وتكذيب الكتاب وبما أرسل الله من رسل فما هو هذا الفرح الذى نزلته الآية هذه المنزلة؟

لم يكن أمامى للإجابة عن هذا السؤال إلا مراجعة هذه المادة ودلالاتها فى الاستعمال القرآنى. ولا أقطع بأن هذا طريق حاسم فى البيان وإنما أرجح أنه يعين على البيان، وقد لاحظت أولاً أنها لم تستعمل بهذه الصياغة ولم تقع هذا الموقع إلا فى هذه الآية وأقرب ما جاء فى الكتاب العزيز قريباً من هذا الموقع قوله سبحانه فى سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

والمراد الأمم من قبلك الذين أخذهم الله بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا وفت قلبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، ومعنى ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤] يعنى فرحوا بالحياة الدنيا فرحاً جعلهم يضربون صفحا عن الآخرة ويضربون صفحا عن الكتاب وما جاء به الرسل. وهذا قاطع فى أن المراد بفرحهم بما أُوتوا جحد النبوات ورد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقريب من هذا المعنى ما جاء فى هذه السورة التى هى غافر فى آخرها وذلك قوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. والمراد فرحوا ولم يجيبوا البيّنات فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا ولم يك ينفعهم إيمانهم، وقريب من ذلك ما جاء فى سورة الرعد ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]. والمراد أنه فرح أفضى إلى رفض ما وراء هذه الحياة الدنيا التى هى متاع، ولم يلتفتوا إلى التى ليست متاعاً والمتاع يعنى قليلة الأجل، وكل هذا قاطع فى أن قوله سبحانه ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ يعنى فرحاً جعل الدنيا كل همكم وفرحاً أدّى إلى مروح يعنى نشاطاً وزيادة حب وزيادة إقبال، ولم تستعمل كلمة المرح مع الفرح فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية، والخلاصة أن الفرح بغير الحق هو الفرح الذى يطمس الحق ويجحده ويجعل الجهد والكد والوكد والنشاط وكل ذلك لهذه الدنيا، وهو أشبه بالمذهب العلمانى الذى يشيع عندنا بغيرية حب التقليد التى أصابت الكبار والصغار وصارت الأغلال فى أعناقهم، والمرح المقترن بالفرح فى هذه الآية لم يستعمل وحده فى القرآن فى غير هذه الآية إلا فى جملة واحدة تكررت فى الإسراء وفى لقمان وهى قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] وفيها معنى الاستكبار بدليل قوله بعدها فى الإسراء ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾.

كل هذا تأكيد لبيان أن المراد بالفرح والمرح هنا الضلال والكفر والمجادلة فى آيات الله مع شوب من الاستكبار يعنى هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وهذا تحقيق معنى وليس بيان سر لأن السؤال الأهم بعد ذلك هو لماذا لم يقل سبحانه ذلك بما جادلتم فى آيات الله أو ذلك بما كذبتم رسلنا؟ ولماذا عبر عن هذا المعنى بالفرح والمرح بغير حق؟ ولا أعرف لذلك وجهاً إلا

وجهاً واحداً وهو تحذير أهل الإيمان من مغبة حب الدنيا لأن الله سبحانه لم يؤثم حب الدنيا بالحق، فليس حبك لولدك إثماً ولا حبك لملك إثماً ولا حبك لمتاع الدنيا بالمال والولد والأهل والنجاح والعافية ليس حب شيء من هذا إثماً، بل أنت مطالب بهذا الحب وبالمزيد من النجاح والمزيد من العمل والسعي والكدح الذى تحبه والذى يحقق لك النجاح مادمت ترعى حق الله فى كل شأن، أقول إن هذا كله ليس مؤثماً وإنما جاء الفرح بغير الحق تعبيراً عن الضلال والكفر للثبته إلى أن هذا الحب غير المؤثم قد يغويك ويفريك ويصرفك إلى الدنيا بكل همك، وشيئاً فشيئاً يصرفك عن الآخرة وهذا خطر فى الطريق يجب أن تحذره وموضع زلل لا تغفل عنه. هذا والله أعلم.

ولا تنس كلمة أبى الفتح التى تذكرك بالرحم الذى بين الفرح والمرح وأنهما كلمتان تصاقب فيها اللفظ لتصاقب المعنى، أما تصاقب اللفظ فهو ظاهر لأن بينهما جناس مضارع وأما تصاقب المعنى فإنه لا يتبين إلا إذا حللت أنت فكرة الفرح وفكرة المرح واستكشفت ما يتفقان فيه وما يختلفان.

وقوله سبحانه ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] من تمام معنى ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ثم هو مرحلة من مراحل نمو هذا المعنى لأن اسم الإشارة فى قوله سبحانه ﴿ذَلِكُمْ﴾ والمعلل بقوله ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخره راجع إلى وضع الاعتناق فى الأغلال والسلاسل والسحب فى الحميم والسجر فى النار، وهذا كله قبل دخول جهنم لأن جهنم شيء آخر لأنها قعر النار ولا يدخلها إلا عتاة الكفرة الفجرة الذين حادوا الله وحاربوا رسله وهموا بهم ليقتلوهم. والبشر الجهنام هو البشر البعيد الغور والأمر فى قوله ﴿ادْخُلُوا﴾ فيه مزيد من الغضب وخصوصاً بعد ذكر السحب فى الحميم والسجر فى النار، وأنهم لا يرق لهم قلوب من يعلمون فظاعة الجدال واللجاجة والصخب والفرح والمرح بالباطل

ومواجهة الحق بهذا الصخب الذى يخفيه ويطمسه ويصرف الناس عنه، ثم إن أمرهم بأن يدخلوا بأنفسهم أبواب قعر النار فيه أيضاً شوب من السخرية والإهانة والتسخير لهم وانقيادهم لأن يدخلوا قعر النار بأنفسهم، وقد دعوا إلى دار السلام فلم ينقادوا والآن ينقادون ولكن ليس إلى دار السلام، وذكر الأبواب بصيغة الجمع للإشارة إلى كثرتهم وهو رجوع خفى إلى مثل قوله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وأكثر الناس لا يشكرون، ومن الدلالة على مزيد الغضب فى الجملة قوله سبحانه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وهى حال يعنى ادخلوا قعر النار حالة كونكم خالدين فيها، ولا تنس أن هذا يقال لهم وهم يُسْجَرُونَ فى النار، وهذا مزيد من الغضب ومزيد من تفضيع الجرم الذى ارتكبهوه وهو معاندة الحق البين الذى له من الله سلطان.

وقوله سبحانه ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الفاء تفيد الترتيب فى رتبة الخطاب وليس فى رتبة الزمن ولا فى رتبة الحدث، هى ليس كالفاء التى فى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ لأن ما بعد الفاء التى معنا زيادة ذم وتشنيع وتفضيع للذى قبلها وهى الأمر بدخول جهنم وأنهم بأنفسهم يدخلون ما يقال فيه بشس مثنوى المتكبرين. وبئس هى أم ألفاظ الذم وأوثر لفظ المثنوى على لفظ المدخل الذى كان يمكن أن يكون متلائماً مع العقل ﴿ادْخُلُوا﴾ لأن المثنوى معناه الإقامة وأنهم لم يدخلوا مدخلاً وإنما يدخلون دار إقامة يقال لها بس الإقامة، وكلمة المتكبرين كلمة واقعة موقعاً لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه لأنها أحاطت بالموقف من قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ومن قبله قوله جل شأنه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ ومن المتلائم جداً أن يكون قوله ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قبل قوله ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾.

والكلام كلام واحد مع تحويل الفعل المضارع إلى فعل أمر، وقوله ﴿دَاخِرِينَ﴾ متضمن في الأمر بقوله ﴿ادْخُلُوا﴾ فلم يذكر سبحانه أنهم يُلْقُونَ في النار أو يحشرون إليها والمتكبرون هم الذين استكبروا، وهذه الآية وما ارتبط بها من السورة ترجع بما ارتبط بها إلى آخر الزمر لأنها هي بلفظها ونظمها من غير تعديل أو تغيير جاءت في خطاب الذين كفروا في آية ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢] وكان قوله سبحانه ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وما جاء بعده مما هو منه أو من سببه من مثل ﴿الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل ذلك تفصيل لما أجمل في آخر الزمر مع ملاحظة أن الزمر ذكرت شيئاً لم يذكر هنا ولا في القرآن كله وهو قوله سبحانه ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] إلى آخره وهذا من الروابط الجليلة بين السورتين، ومن هذه الروابط أيضاً قوله سبحانه في آخر الزمر ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] مقابلة ذلك بما جاء في رأس غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٦] إلى آخره، ولم يقل في الزمر ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن الأمر قد قضى ودخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة، بخلاف الأمر في غافر التي استأنفت حواراً مع الذين كفروا وكأنها أخرجتهم من جهنم التي سيقوا إليها لتبين لهم الآيات حتى يرجعوا وهم

فى فسحة من الأمل . ولا تنس أن قوله ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئس مثوى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الواردة فى السورتين والواصلة بينهما يصحبها ما دار بين الضعفاء والذين استكبروا وما دار بين الذين فى النار وخزنة جهنم ؛ لأن كل هذه أحداث مرتبط بعضها ببعض وإن جاءت تفاريق فى السورة على وفق مقتضيات المعانى .

وقوله جل شأنه ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَأَلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ [غافر : ٧٧] .

وأول ما يجب أن نلتفت إليه هو هذه الفاء التى بدأت بها هذه الجملة لأن فهمها له أثر واضح فى توجيه المعنى . لأن هذه الفاءات والواوات من أدق معاهد المعانى ولها فى كلام الله وكلام رسوله شأن أى شأن ، والذى قبلها هو ذكر الذين يجادلون وأنى يصرفون وأنهم كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا إلى قوله ادخلوا أبواب جهنم ، فما وجه ترتيب أمره صلوات الله وسلامه بالصبر على هذا وهى أحوال أمم الأنبياء قبله عليه السلام وليس حال أمته؟ والجواب أن هذا إيذان بأنك ستجد من قومك مثل هذا وأنهم سيجادلون فى آياتنا وسيكذبون كتابك ويكذبون ما أرسلت به ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ وجاءت كلمة ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ مجردة من كل متعلق فلم يقل مثلاً : اصبر على ما يقولون لأن المقصود تحصيل الصبر لأنه هو وحده الأداة اللازمة لهذه المواجهات ، وأنت تحتاج إلى الصبر على قولهم وفعلهم وسخرتهم وإيذائهم وكل ما سيكون منهم ، ويجب أن تذكر أن السورة مكية وكان رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه يعانون من جهالات القوم وسخافاتهم الشئ الكثير ، ولما كانت كلمة ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ دالة دلالة ظاهرة على أنك ستواجه صعوبات ساندتها الجملة بعدها وحاءت فى إثرها مؤكدة بأن وإسمية الجملة ﴿ إِنَّ وَعْدَ

اللَّهُ حَقٌّ ﴿١﴾ ووعد الله هو ما سبق في السورة من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ
 رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وهذا وعد يفتح آفاق
 الأمل أمام كل أهل الخير ودعاة الخير إذا أخلصوا وكانوا من الذين آمنوا
 وارتقت بهم أعمالهم وارتقى بهم صدقهم وإخلاصهم إلى من كانوا في معية
 الرسل عليهم السلام، هؤلاء الصادقون في كل جيل مُلْحَقُونَ بالذين كانوا
 في معية رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الصادقون حولك
 هم من حوارى عيسى وأصحاب محمد، وإذا كان اقتران الذين آمنوا بالرسل
 في وعد الله بالنصر بابا من أبواب إكرامهم ورفع أقدارهم فإنه من وجه آخر
 باب من أبواب التكليف والقيام على دعوة الرسل وحفظها وفقها وعرضها
 ودفع لجانحة المجادلين بالباطل عنها، وهذه الكوكبة تتعاقب في الأجيال إلى
 يوم ينفخ في الصور، واقترانها بالرسل في الوعد بالنصر يعنى أن في الجانب
 الآخر جماعات تتعاقب فيها أجيال المجادلين بالباطل فهم في كل جيل وكل
 زمان إلى أن ينفخ في الصور، وإذا كان الرسل أمروا بالصبر على من كانوا
 في زمانهم فإن الذين آمنوا مأمورون بالصبر على من سيكونون في أزمتهم
 وهؤلاء العارفون بأسرار الرسالات والمتخلقون بأخلاق رسل الله باقون في
 الناس وهم فيهم كالأنبياء ولكنهم لم يوح إليهم، وهذا هو معنى إرث النبوة
 ومعنى أيضاً أن علماء أمتهم ﷺ كأنبياء بنى إسرائيل، وإذا كان يسرك أن ترى
 أنبياء لم يوح إليهم فما هم حولك من العلماء الصادقين العارفين المتخلقين
 بأخلاق النبوة والذين تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً،
 كما تراهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله،
 وراجع الجملة الأخيرة ولا يخشون أحداً إلا الله لأنها تنبئك عن
 ما سيواجهونه من مشقات. ثم هي تنبئك عن أسمائهم وعناوينهم لتبحث
 عنهم ثم تلزمهم.

وجملة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سيقت بلفظها وتماها بعد ذكر الذين يتحاجون في النار والذين يقولون لخزنة جهنم وبعد الوعد بنصر رسل الله والذين آمنوا وأعقب بقوله سبحانه ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وهذا الاستغفار وهذا التسييح بحمد الله هو الزاد الأعظم المعين للنفس على الصبر والمعين للنفس على مزيد الثقة في وعد الله وهو متاع الذين آمنوا ويقومون بالنبوات بعد أنبياء الله، والرسل لهم أجل موقوت ولا بد لهم من خلفاء وورثة، وإذا كان زاد الرسل ومتاعهم هو الصبر والاستغفار والتسييح بحمد الله فهذا هو نفسه متاع الورثة رضوان الله عليهم، وقد جاء الأمر بالصبر هنا مَسْتَوْدًا بجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وبعده ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ ولم يذكر ﴿فَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لأنه ذكر سنالك وتعلم من الآية السابقة كيف يصبر وكيف يحفظ صبره وكيف يشد من أزر هذا الصبر بالاستغفار والتسييح، ووعى عليه السلام ما أمر به وأنفذه أحسن ما يكون الإنفاذ وهو هنا يشر بالنصر، وأنه سيكون في إحدى صورتين الأولى: ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ وإما هي إن الشرطية ألحقت بها ما الزائدة للتوكيد وزاد التوكيد بنون التوكيد الثقيلة الملحقة بالفعل المضارع الذي هو فعل الشرط وكذلك ملحقة بالمعطوف عليه وهو قوله سبحانه: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولفعل الشرط جزاء، وللمعطوف عليه جزاء لأنهما يجمعهما جزاء واحد، والجزءان محذوفان، وتقدير الكلام فيما نرينك بعض الذي نعددهم فترى نصر الله لك وأنت حى وإما تتوفيك فترى نصر الله لك يوم الأشهاد، وهذان الشرطان أو هذان الحالان راجعان ومنطبقان على قوله سبحانه في آية الوعد: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ولو وضعت قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ على قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لوجدت الكلام واحداً ولو وضعت قوله سبحانه:

﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ على قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ لوجدت الكلام واحداً، وهذه ملاءمات خفية وهى من أسرار البيان وقوله سبحانه: ﴿فَالْيَا يَرْجِعُونَ﴾ ليس جواب شرط كما عده الشيخ الطاهر لأنه ليس مترتباً على فعل الشرط: ﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ لأن رجوعهم إلى الله ليس معلقاً على شىء كما يتعلق الجزاء على الجواب، وإنما هذه الجملة قائمة مقام الجزاء، ودالة عليه، والتقدير أو توفينك ونصرك منهم يوم يرجعون إلينا.

وإن الشرطية تأتى فى الشرط غير المتوقع، وقد جاءت فى أمرين متوقعين ولا يتصور أن تكون هناك حالة نالتة لأنه عليه السلام إما أن ينصره ربه على أعداء دينه وهو حى ويرى ذلك، أو ينصره عليهم يوم يقوم الأشهاد، والمهم أن النصر واقع لا محالة ومجىء الكلام على هذه الصورة له دلالة جيدة وهى أنه يجب أن يستوى عندك الأمران: أن ترى نصر الله لدينه بنفسك أو تعمل ما يجب عليك تاركاً لحظة النصر لله لأنه إن لم ينصرك عليهم وأنت حى فسوف ينتصف لك منهم يوم ترجعون إليه، وقد قلت إن هذا معنى جيد وذلك لأن الذين آمنوا والذين انتقلت إليهم تبعات البلاغ والمواجهة مع المجادلين بالباطل مطالبون بما طولب به عليه السلام، والحق يقول لهم عليكم الاستمساك بما أمرتم به من دعوة الحق ولا يهولنكم قوة الباطل وبطشه ولا يُيسكنكم ذلك، واحذروا أن تستبعدوا النصر وأن تقولوا إن الأمل فى إصلاح الحال ضعيف، وأنه قد تكالب علينا الناس. احذروا هذا كل الحذر لأن الذى هو عليكم أن تقوموا بما أمرتم به تاركين وقت النصر لله وحده وهو ينصركم سبحانه مادمتم نصرتموه، وإن لم ينصركم وأنتم أحياء وينتصف لكم من عدوكم وأنتم أحياء فهو ناصركم لا محالة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا نصر لا يجوز أن تعدوه أقل من نصركم الذى ترونه فى الدنيا، وهذا هو منهج المؤمنين فى أى باب من أبواب الخير لا يفزعهم ولا يشبههم أنهم قلة وأن للباطل من حولهم صولة، مجىء إن الشرطية فى الجملتين «إما نرينك

أو نتوفيك» معناه أنه يجب أن يستوى الأمران عندك وعند الآخذين بستك من بعدك لا تستعجلوا النصر ولا تستعجلوا النتائج لأن هذا له مواقيته عند الله وهو في يده وليس في أيديكم والذي هو عليكم أن تكونوا قوامين لله وقائمين بأمره .

قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

الواو التي في أول هذه الآية واو استئناف ومضمون الآيات بعدها يؤكد مضمون الآية السابقة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ لأن مجمل معنى آية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ ملخص في قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وهو وعد الله الحق بنصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ووعد الله الحق فيما نرينك بعض الذي نعدهم إلى آخره، ورؤوس الآيات تأتي مرة بالفاء ومرة بالواو ومرة بدونهما وكل ذلك مما يجب الوقوف عنده لأنه معاهد المعاني وروابطها، وقد تكررت هذه الآية كثيرا في الكتاب العزيز ولها في كل مرة دلالة ومغزى لم يتكرر، فقد تأتي للإشارة إلى توثيق الرابطة بين رسالته صلوات الله وسلامه عليه ورسالات الأنبياء من قبله كما في سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿ [النساء: ١٦٣، ١٦٤] وهذه الآية تشير إلى أمر جامع للرسل جميعاً وهو حاجتهم إلى الصبر وتحمل الإيذاء ولحاجة أهل الباطل وجدالهم في الحق، وأن هناك نصر الله وعليهم أن يصبروا وأن يصبر الذين آمنوا معهم والذين

آمنوا من بعدهم حين يرثون رسالاتهم حتى يأتي وعد الله، وتوكيد الكلام باللام وقد ليس المقصود به توكيد ظاهر الآية وهي أن الله سبحانه أرسل رسلا من قبله لأن هذا لا يحتاج إلى توكيد، وإنما المقصود به توكيد المغزى الذي سبقت له الآية وأن كل الأنبياء والرسل واجهوا صعوبات، وأن كل أهل الحق في الأرض الذين هم أنبياء لم يوح إليهم سيواجهون ما واجه هؤلاء الآباء الأولون، وأن على هذا الخلف أن يصبر كما صبر أولو العزم من السلف، ولا يهولنك أنى أقول إن المصلحين في الأرض هم أبناء الأنبياء وأن عليهم أن يتحملوا أعباء رسالاتهم التي ورثوها لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأن آبانا أبو الأنبياء: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

والتكثير في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني رسلاً كثيرين ولهم آيات عظام، وتأمل سلاسة العبارة وعذوبتها في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ وفيه جناس اشتقاق، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فتح الباب لذكر أنبياء كثيرين وذكر عددهم وقبائلهم وأسمائهم واجناسهم وألوانهم إلى آخره، والذي يعينى في هذا أن من ذكرهم الكتاب العزيز وجب الإيمان بهم ووجب الإيمان بأن منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص من غير تفصيل، ثم وهو الأهم فيه إشارة إلى ضرب من التكريم له ﷺ لأن الله جلّت حكمته جعل له ولرسالته فضلاً على كل هذه الرسالات التي قص الله منها ما قص وهو أنها كلها كانت موقوتة بأوقات وأقوام، ورسالته وحدها هي التي لكل الناس وفي كل الأقطار وفي كل الأزمان، وهذا يعنى أن الإشارة إلى كثرتهم تعنى الإشارة إلى فضل رسالتك وهؤلاء جميعاً واجهوا من أقوامهم أذى وعنادا ومن كانت رسالته في محل رسالتك وفي عمومها للأجيال والأزمان كان نصيبه من العناء والإيذاء أشد وأوسع، وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] كان في قوله

﴿وما كان لرَسُولٍ﴾ بمعنى كان التي في قوله سبحانه: ﴿وما كان هذا القرآنُ أن يفترى﴾ [يونس: ٣٧] والمعنى أنه لا يمكن أن يأتي رسول بآية إلا بإذن الله لأن الآيات معجزات وخوارق عادات وهذا لا يكون إلا من الله سبحانه، وهذا رد على جدال أهل الباطل ولجاجتهم مع الأنبياء وأنهم كانوا يطلبون من الرسل آيات معينة، فمنهم من كان يقول ﴿أرنا الله جهرة﴾ [النساء: ١٥٣] ومنهم من كان يقول ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء﴾ [الشعراء: ١٨٧] ومنهم من يقول ﴿لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾ [الأنعام: ١٢٤] إلى آخر ما حكى القرآن عنهم، وكان قومه عليه السلام يقولون له: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ (٩٥) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا﴾ (٩٦) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ (٩٧) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾ [الإسراء: ٩٠] ولو عقلوا لأدركوا أن الآية لا تكون من نبي والنبي الذي يصنع الآيات نبي كذاب لأنه لم تاته الآيات من ربه ولم يجئ بها، يعني لم يأت لقومه وهو يحمل الآية والعلامة من ربه. وقد أومأت الآية إلى هذا المعنى بكلمة ﴿أن يأتي بآية﴾ والذي يأتي بالآية لا يقاله له ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء: ٩٠] لأنه لا يصنع الآيات وإنما يأتي بها، وقد ذكر بعض المفسرين أنها هي الجملة الام في الآية وأن ما قبلها مقدمة لها وما بعدها مفرع عنها. والكلام يحتمل هذا ويحتمل ما قلناه ويحتمل معنى آخر وهو الإشارة إلى أنه لن يكون من الآيات إلا ما أتى به الرسول بإذن الله، وأن قضاء الله بالحق - إذا جاء أمره - مؤسس على هذا وهذا ما تدل عليه الفاء التي في قوله سبحانه: ﴿فإذا جاء أمر الله قضي بالحق﴾ وأمر الله فسره الزمخشري بالقيامة وهو تفسير جيد وناظر إلى قوله سبحانه: ﴿أنى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: ١] وترتيب

القول بالقضاء يوم القيامة على جملة: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمعنى أنهم لن يؤتوا إلا الآيات التي أرسلناها وجاءهم بها رسول الله، وليس لهم بعد ذلك إلا الحساب وليس لهم حجة على الله، وبهذه الآيات التي جاءت بها الرسل وقضت بها حكمة الله ينتهي أمر الرسالات وتختتم برسالتك ويبقى الأمر حتى إذا جاء يوم القيامة قام فيهم القضاء على وفق حكمتنا وأمرنا، وليس على وفق ما يطلبون لأنهم يطلبون آيات ملجئة ولا قيمة لإيمان بعد الآيات الملجئة، ويلاحظ أن عطف ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وهو أمر القيامة والجزاء ويوم التلاق ويوم الأزفة على قوله ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ وهم في الدنيا والآية شاملة للرسل من نوح عليه السلام إلى الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، أقول هذا العطف يطوى بين طرفيه الحياة الدنيا من أول زمن نوح عليه السلام إلى زمن الساعة، ويؤكد حقيقة مهمة وهي أن كل رسل الله أتوا الآيات التي أذن الله بها وليس التي طلبها أقوامهم لأن الأمر أمره وحده وهو أعلم بأحوال عباده، وكلمة إذا للشرط في المستقبل والماضي بعدها واقع موقع المضارع لأنه لما يأت بعد وسيأتي لا محالة، وجوابها: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وهو أيضاً ماضٍ وقع موقع المضارع وإنما جاء مبنياً للمجهول لأن المهم القضاء بالحق فتوفر الكلام على بيانه، وجملة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ معطوفة على جواب الشرط، ومرتببة على الجواب وليست سادة مسده لأن خسران المبطلين نتيجة للقضاء بالحق وأثر من آثاره كما تقول إذا جاء زيد سلمت عليه وخرجت فالخروج مرتب على التسليم، ولو قلت إذا جاء زيد خرجت ووضع المعطوف مكان المعطوف عليه اختلف المعنى. وكذلك لو قلنا «فإذا جاء أمر الله خسر هنالك المبطلون»، وهذا من دقائق روابط الجمل. وكلمة هنالك كلمة جلييلة في هذا الموقع وهي صالحة لأن تكون إشارة إلى الزمان الذي هو يوم الجزاء وإلى المكان الذي هو يوم التلاق يوم هم بارزون. وجلال موقعها؛ لأنها تعنى أن

الخسران هنا وفي هذا الوقت هو الخسران المبين، وكلمة ﴿الْمُبْطُلُونَ﴾ كلمة عامة جامعة شاملة تشمل الكافرين والجاحدين والمجادلين والظالمين والذين لا يؤمنون والذين لا يعلمون إلى آخر الفواصل التي مضت، وموقعها هنا موقع حميد جداً لأنها كأنها ممسكة بكل هذه المعاني والكلمات والفواصل الداخلة في معناها ومؤكدة خسرانها في الوقت والمكان الذي يكون فيه الخسران أشبع الخسران، وكلمة ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ﴾ هي أحد فرعى جملة قضى بالحق والفرع الثانى مسكوت عنه ومدلول عليه بها وهو وريح هنا لك المؤمنون، وإنما ذكرت الآية خسران المبطلين وسكتت عن فوز الذين آمنوا لأن الرحمة عظيمة ومتسعة وكلام الله الرحمن الرحيم متوجه إلى بيان التخويف من عقابه وهو سبحانه رؤوف رحيم يخوفنا من عذابه ويخوفنا من غضبه، ولذلك تجرد الأفعال الماضية في مسألة ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ﴾ كأن الأمر قد كان ومررت هذه الأحداث بالمجادلين الجاحدين الذين يجحدون آيات الله بعدما استيقنتها أنفسهم، وكل هذا تخويف وتحذير ووراءها معنى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، ولذلك تجرد صور القيامة في القرآن جاءت بصيغة الماضى فى أكثر الآيات كالذى تراه فى آخر الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوَقِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴿[الزمر: ٦٧، ٦٩] إلى آخر الآيات، وهكذا تجرد الآيات لا تنقلك إلى هذه الأحداث حتى كأنك تعيشها وإنما تنقلها إليك وتجعلها تحيط بك وتتزعك إليها وتدخلك فى معمعانها وتمر بك وتمثل لك وتعيشها كما يتمثل الإنسان التجربة التى سيمر بها فى التصوير والتمثيل قبل أن يعيشها فى الحقيقة والواقع.

ثم إننا نلاحظ أيضاً أن كلمة: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ﴾ الخسران والربح الذى هو مقابله ومتضمن فيه يشير إلى معنى جليل وقد تكرر فى الكتاب فى مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦] وكل هذا يفيد معنى آخر هو من الأهمية بمكان وهو أنهم لم ينظروا إلى آيات الأنبياء والرسل نظراً عقلياً مستقيماً ينفذ إلى الحق ويتبعه ولم يزنوا هذه الآيات بالميزان الواجب أن توزن به، وإنما نظروا إلى منافعهم وأرباحهم الدنيوية وما يترتب على أمور دنياهم لو اتبعوا الأنبياء، يعنى نظروا نظر المتاجرين وقد جاءتهم آيات من ربهم لينظروا نظر العقلاء وأهل البصيرة والباحثين عن الهدى، وهذا جيد جداً وهو الكبر الذى فى صدورهم.

وهذه الآية من أول قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ﴾ تلخيص جامع لأعضل مشاكل الرسالات من نوح إلى رسول الله ﷺ إلى يوم أن يجىء أمر الله ويقضى بالحق ويخسر المبطلون.

وأعضل مشكلة فى هذا التاريخ كله هى مطالبة أهل الجدل للرسول بآيات يقترحونها هم، والقرآن ملى - بذلك والآية تعرض هذه المشكلة من زمن نوح ومن الرسل الذين قصصنا عليك والرسل الذين لم نقصص عليك، وتقرر أنه ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله، وليس استجابة لمطالب من أرسل إليهم، فإن من الأقوام من قالوا لأنبيائهم ﴿أرنا الله جهرة﴾ [النساء: ١٥٣] ومنهم من قالوا ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وتاريخ الرسالات ملى بمثل هذه الأباطيل وملئ بأساليب العناد والجدال التى ووجه بها رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، هذا والله أعلم.

قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ .

تنجيه هذه الآية إلى التذكير بالنعم ليتدارك الناس قبل أن يجيء أمر الله ويقضى بالحق ويخسر المبطلون .

وتبدأ الآيات بلفظ الجلالة الذي يدخل المهابة في قلوب الناس البر منهم والفاجر، لأنك لو سألت مؤمنهم وكافرهم عن الذي خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن الله، ولأننى وجدت لفظ الجلالة بمهافته وجلاله وعزه وسلطانه في شعر أوغل الجاهليين في الجاهلية وفي شعر المهتكين في الخمر واللهو .

تبدأ الآيات بلفظ الجلالة الذي هذا شأنه وتستدير وتفتل إلى ذكر النعم والآيات لتتخذ المبطلين من الخسران المبين الذي صوّرت صورته لهم قبل أن يكون . وكأنها تقول فكروا في هذه النعم وهذه الآيات لتستنقدوا أنفسكم أيها المبطلون من الخسران المبين، وبهذا تكون هذه الآية امتدادا للآية قبلها ويكون لفظ الجلالة الذي بنيت عليه لإحداث هذا اللفت الواجب وإدخال الروع والمهابة في قلوب هؤلاء المستهترين في الخسران والضلال .

وهذا التشابه بين الآيات في المباني والمعاني مؤذن بشيء جليل في بيان السورة وسمتها وهيأتها، وأعنى بذلك الذي تراه في قوله سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ . . ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ . . ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ . . ومثله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ . . ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تكرار أساليب وصيغ يمنح السورة سمًا متميزًا، وحين يقع لفظ الجلالة مبتدأ أو ضميره أو كلمة ريبكم ثم يكون الخبر اسم موصول تكون الصلة فعلاً لا يكون من البشر ولا يكون إلا من الحى القادر القاهر الحقيق بأن يعبد، وقد سبق منه الكثير، وكان هذه الجملة تردع أنوف

المتفطرسين والذين فى صدورهم كبر وتتزعهم من عنادهم وجدالهم
ولجاتهم إلى الحق الذى هو طريق النجاة من الخسران المين، وأرى هذا من
أعظم آيات الله وما من آية من آياته سبحانه إلا وهى أكبر من أختها وما
يتذكر إلا من ينب.

وقد سألت نفسى لماذا جاءت آية التذكير بنعمة الأنعام أخيراً وفى خاتمة
السورة. ولماذا تقدمت عليها نعمة جعل الليل لسكنوا فيه والنهار مبصراً،
وكذلك جعل الأرض قرارا والسماء بناء. وترتيب ذكر النعم فى السورة وبيان
وجهه وربطه بسياق السورة صعب جداً عند من يرى أنه لا يجوز له الكلام
فى كلام الله، إلا إذا رأى المعنى يبيّن كفلق الصبح، ولذلك لم أتعرض له وإن
كان فى خاطرى لأنى لم أحكم استخراج السر، وذلك بخلاف هذه الآية فإن
أمرها ظهر لى بيسر، وهو أن الأنعام التى قالوا هى الإبل وحدها أو الإبل
والغنم والماعز والبقر حيوانات حية تشترك مع الإنسان فى أشياء كثيرة وهى
مُتَّفَعَةٌ بما انتفع به الإنسان من نعمة جعل الليل لسكنوا فيه والنهار مبصراً
والأرض قرارا والسماء بناء ونزول الرزق من السماء وغير ذلك، فإذا صارت
هى ذاتها نعمة ينتفع الإنسان بها كنعمة الليل والنهار والأرض القرار كانت
مُتَّصِحَةً معها فى حال الانتفاع بها النعم السابقة، وكأنها تقدم خلاصة النعم
السابقة مع زيادة أنها هى نفسها نعمة ولذا جاءت بعدها.

ثم إن نعمة الأنعام ذكرت فى الكتاب العزيز فى مواضع مختلفة ومقامات
مختلفة وهى بحث مستقل والذى أريده أنها تذكر مرة للاعتبار فيتجه الكلام
إلى أدق ما فيها من صور الاعتبار كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾
[النحل: ٦٦] تأمل كيف ساق سياق العبرة إلى ذكر الفرث والدم واللبن الذى
هو من أجل النعم وأطهرها، وكيف يخرج من بينهما وهما من أخبث

الخبث، هذا عجيب فى البيان، ثم هو تغلغل عجيب لاستخراج تجليات العبرة. والمقام هنا مقام آخر لأن المقصود هنا هو المنافع التى يجب أن يلتفت إليها الذين ينظرون فى آيات الله بعيون باحثة عن الربح فيخطئون حساب التجارة ويشترون الضلالة بالهدى، فإذا جاء أمر الله قسى بالحق وخسروا، وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ هو المعنى الشامل لكل ما فى الآية، وهذه الجملة هى الجملة الأم وهى الرأس الجامع لأنها تفيد أنه جعل لكم الأنعام بكل ما فيها من منافع من ركوبها وأكل لحومها وشرب ألبانها وأصوافها وأوبارها إلى آخر ما فى هذه الأنعام، والذى جاء بعد ذلك هو تحديد ضروب من المنافع هى الأكثر والأظهر، وسبق القول بأن الأنعام تفسر بالإبل وحدها بدلالة ذكر المنافع المتصلة فى الآية وكلها تنطبق على الإبل أو هى عامة وشاملة، والمنافع المذكورة هنا هى ﴿لَتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ . . . ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ . . . ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحمَلُونَ﴾، وراجع ترتيبها فى الآية تجد أن الآية قدمت لتركبوا منها لأنه هو الاصل. ولما لم تكن كلها معدة للركوب قيد الفعل بقوله ﴿مِنْهَا﴾ أى من بعضها أو لتركبوا بعضها إذا قلنا إن من بمعنى بعض. وهذا ناظر لعموم لفظ الأنعام، وقوله ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعنى أيضاً من بعضها ويلاحظ أن الصياغة اختلفت اختلافاً دقيقاً وقدم الجار والمجرور على الفعل فى قوله ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ للإشارة إلى أن الأكل ليس كالركوب وإنما هو مضبوط بضوابط الحل والذبح وإبعاد ما لا يحل أكله منها إلى آخره، وقوله ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ انتقال من التخصيص والتفصيل فى عدّ المنافع وأنها الركوب والأكل إلى التعميم الذى بدأت به الجملة الأم، ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ لأن الجعل معناها التصيير وتقديم الجار والمجرور للعناية بالذى له كان الجعل ثم ترك الكلام بهذا العموم، وبدأت التفاصيل ثم رجع إلى العموم فى قوله: ﴿وَلَكُمْ

فِيهَا مَنَافِعُ ﴿ وتقدم الخبر فيها الدال على المخاطبين كما تقدم الجار والمجرور في الجملة الأم على المفعول، ومن عجيب التأليف والنظم أنك تجد فرقا بين الجملتين الدالتين على العموم: الأولى الأم ﴿ جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ ﴾ والثانية التي توسطت بين الجمل الأربع المفصلات لهذا الجعل وأنها في موقعها هذا المتوسط بين جملتي ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ تؤكد أولا معنى الجملتين السابقتين وتُجمل ثانيًا معنى الجملتين الأخيرتين، لأن بلوغ الحاجة والحمل من المنافع وكذلك الركوب والاكل. ثم هي مع هذا الموقع المسك بما قبلها وبما بعدها تختلف عن الجملة الأم مع اشتمالها على كثير من معناها، لأن ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ وإن كانت شاملة لكل المنافع التي في الأنعام فإنه ينقصها شيء دلت عليه الأولى ولم تدل هي عليه وهو بيان أنه جعلها لنا، وفرق كبير بين أن تقول لنا منافع في هذا الشيء وأن تقول هذا الشيء جعل لنا، لأن الجعل لنا يعني أننا صرنا نمتلكها، ولنا فيها منافع أننا ننتفع بها وليس فيه معنى أنها لنا، وفرق بين من يملك ومن يتتفع، ثم إنك تسأل وتقول لماذا تقدم الركوب والاكل وتأخر بلوغ الحاجة والحمل، وماذا يكون المعنى لو قدم ما أحر وأخر ما قدم وهذا سؤال مشروع بل واجب، والجواب عنه ليس أكيدا وكل الذي عندي فيه أن الركوب أظهر وأكثر وأشهر ما يتوارد على الذهن عند ذكر الأنعام، يليه الاكل منها، وجملة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ تؤكد هذين وتضيف منافع أخرى لم تذكر كالشرب من ألبانها والانتفاع بأصوافها وأوبارها واتخاذ جلودها بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، أما بلوغ الحاجة التي في الصدور فقد فسرها العلماء بالمقاصد التي هي أقل وقوعا من الركوب والاكل ومثلوا لها بالحج والغزو، وبلوغ هذه الحاجات من الحج والغزو ليست من المعاش وإنما هي حاجات للبعض وليست للكافة، فقد يموت المرء ولم يخرج

لغزو وليس بآثم، وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وقفتُ عند هذه الجملة لأتبين خصوصيتها وتفرداها عن الركوب وبلوغ الحاجات التي في الصدور، وكل ذلك يمكن أن يدخل في الحمل عليها؟ ثم لماذا ذكر الفلك والكلام في نعمة الأنعام تلك النعمة التي قلما تغيب عنا يوماً واحداً؟ ولم أجد إلا وجهها ربما يفتح المعنى لغيري وهو أولاً أن المقصود الأظهر بقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ هو حَمَلُ الأثقال الذي جاء مفرداً في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقَّ الْأَنْفُسَ﴾ [النحل: 7] ولاحظ الفرق بين لتركبوا وتبلغوا من جهة وتحملون من جهة أخرى، وأول الفرق وهو ظاهر أن المخاطبين هم الفاعلون في الركوب والبلوغ، وهم نائبون عن الفاعل في ﴿تُحْمَلُونَ﴾ يعني هم مفعول به صار نائب فاعل بعد بناء الفعل للمجهول ومعناه أن حاملاً يحملكم عليها وعلى الفلك ولا يكون ذلك إلا إذا كانوا في صحبة متاع وأثقال تحمل. كما أن كلمة تحملون بمادتها اللغوية ترجع إلى الحمل والشقل. وذكر الفلك واقتحامة آية الأنعام وقد ذكر وحده كثيراً في الكتاب العزيز وذكر جريانه في البحر بنعمة الله ليرينا من آياته أقول: إن ذكر الفلك هنا مع الأنعام أو الإبل يفيد نعمة أخرى جلية تختصرها كلمة الفلك وهي أنه سبحانه يحملنا في البر والبحر، وإذا كان من تمام النعمة في الأنعام التي تركبون وتأكلون وتبلغون عليها حاجات في صدوركم أنها تحمل أثقالكم في البر فإن لله عليكم منناً ونعماً أخرى وآيات بينات في البحر وهي الفلك، ثم إن كلمة الفلك لها جذر قديم في النعم التي تفضل الله بها على كل حي في هذا الوجود، لأن الفلك هي التي عليها نجانا الله يوم الطوفان ولولاها لما بقى في الأرض ديار، والقرآن ذكر ذلك كثيراً وذكرنا به وذكر سبحانه أنه سخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره كما جعل لنا الأنعام والتسخير والجعل أخوان.

وقرن بين تسخير ما فى الأرض لنا والفلك وذلك فى قوله سبحانه فى سورة الحج ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج: ٦٥] كما قرن بين ركوب الأنعام وركوب الفلك فى قوله سبحانه فى سورة الزخرف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢] وقريب جداً من آية غافر قوله سبحانه فى سورة المؤمنون: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِىهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢] وهذا باب جليل من أبواب فقه البيان وفقه القرآن وليعمل فيه من هم أهل له، وأعود إلى الآية الكريمة لأقول إن أفعالها الأربعة التى هى تركبون وتأكلون، وتبلغون، وتحملون، جاءت كلها بصيغة الفعل المضارع لأنها أحداث تتجدد، فهى نعم تحدث الوقت بعد الوقت، ثم إن أقربها وأعلقها بالحيوان بحيث يكون أولى بأن يكون العلة لجعله هو الركوب فى التنقلات القريبة والبعيدة التى فيها حاجات الصدور، وإذا كان المراد بالأنعام هنا الإبل كما يقول البعض ويرجحه أن كل المنافع المذكورة منافع إبل فالإبقار والأغنام والماعز كل ذلك لا يركب ولا يبلغ الناس عليه حاجات فى صدورهم ولا يحملون عليه، أقول: إذا كان المراد بالأنعام هنا الإبل فلإن الغاية المتبادرة عند الناس من الإبل هو الركوب والأسفار وأن هذا ليسبق الأكل منها ولهذا دخلت لام التعليل التى هى علة الجعل على لتركبوا وتبلغوا لأنها جعلت لذلك، أما الأكل منها فهو تابع لهذه الفوائد وكذلك حمل الأثقال وإن كان من سائلة الركوب فإنه الأقل فى الاستعمال، ثم إن لام التعليل دخلت على هذين الفعلين الأساسيين فى علة الجعل ولم يتقدم متعلق من متعلقات الفعلين على أحدهما فدخلت لام التعليل على الفعل الذى لم يتقدم عليه متعلقه بخلاف الفعلين الآخرين فقد تقدم عليها متعلقهما «ومنها تأكلون..» وعليها تحملون» فحال ذلك دون دخول لام التعليل على الفعل. وقد ذهب الزمخشري مذهباً آخر

فى تعليل دخول لام التعليل على ما دخلت عليه وهو أن لام التعليل دخلت
 على ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ والركوب قد يكون للحج والغزو، ودخلت على ﴿وَلِتَبْلُغُوا
 عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ وهذه الحاجة قد تكون رحلة أو هجرة لطلب
 العلم، وهذان أمران يحث عليهما الشرع فدخلت لام التعليل للتمييز والتوكيد
 والإشارة إلى ذلك، وهذا بخلاف الأكل فإنه مباح وهذا كلام جيد ولا أراه
 يتدافع مع الذى قلناه، والشيخ الطاهر بن عاشور يرى أن قوله ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
 (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ﴾ كله على اعتبار التعليل وإنما حذفت اللام فيما حذفت
 فيه للتفنن فى الكلام وتنشيط السامع «لثلا يتكرر حرف التعليل تكرارات
 كثيرة»، والتفنن فى الكلام من الأساليب العالية ولكن لا بد من سر وراء
 التفنن يعنى مع قبول علة التفنن يبقى سؤال يقول ولماذا قام التفنن على الذكر
 هنا والحذف هناك؟ وراجع التوازن الدقيق والتقسيم السهل فى الآية ﴿لِتَرْكَبُوا
 مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وراجع منها ومنها،
 وعليها وعليها، ثم تأكلون وتحملون، ورحم الله الطاهر فإن حبه للتفنن هو
 الذى لفتنا إلى هذا، وبقي فى الآية مما نريد بيانه كلمة «على» التى للاستعلاء
 ووضعها موضع فى التى للظرفية فى قوله سبحانه ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ والأجرى
 أن يقال وفى الفلك كما جاء مصرحاً به فى آيات كثيرة كقوله جل شأنه
 ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] والذى أثار هذا الزمخشري
 رحمه الله قال (هلا قيل وفى الفلك كما قال أحمل فيها من كل زوجين
 اثنين؟) قلت: معنى الإيعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم لأن الفلك وعاء
 لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صح المعنيان صحت العبارتان، وأيضاً
 فليطابق قوله وعليها وليزواجه. انتهى كلامه، وهو كلام عالم له بصيرة لأنه
 أولاً بين صحة واستقامة ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ ثم بين العلة الأسلوبية التى رجحت
 ورشحت وضع على موضع الظرف وأنه للمطابقة والمزاوجة مع الكلام الذى

قبله، لأن قوله ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أسلس وأعذب وأجرى من لو قال وعليها وفي الفلك تحملون، ولك أن تضيف شيئاً آخر لما قاله وهو أن سياق سورة غافر غير سياق سورة هود إذ المقصود في غافر بيان تسخير الأنعام والفلك للإنسان آية ونعمة بدليل قوله ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ في أولها وقوله ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ...﴾ وهذا يناسبه الاستعلاء أكثر مما تناسبه الظرفية، وسياق هود حفظ من ركبوا في السفينة وحمايتهم من الطوفان وهذا الحفظ يناسبه الوعاء أكثر مما يناسبه الاستعلاء، والله أعلم.

قال سبحانه ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾. هذه الآية معطوفة على قوله سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ وداخلة في صلة الموصول والمعنى الله الذى جعل لكم الأنعام والله الذى يريكم آياته، ومعنى يريكم آياته يجعلها تحت أعينكم ترونها بعيونكم، وهذه الآيات هي كل ما ذكر في السورة من تنزيل الكتاب من الله لأن هذه أعظم آياته وأخبار الأمم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم وحملة العرش والذين من حولهم إلى آخر ما في السورة من آيات، ولهذا ترى هذه الآية كأنها فاصلة تعود على كل ما في السورة ومشعرة بأنها هي الخاتمة مع صلتها القوية بآية ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ لأنها أقرب الآيات إليها وأقرب الآيات إلى الإنسان، وصلتها القوية بجعل الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركهم ورزقكم كل هذا من الآيات، وهكذا ترد إلى الوراثة فترى الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً وكل ذلك من الآيات التي أرانا الله سبحانه فكلمة ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ تفيد معنى أنها في مطارح أبصاركم، وتفيد معنى أنها مع أنها في هذه المطارح فإننا لا نراها رؤية اعتبار واستدلال إلا إذا أرانا الله ذلك، وإلا فقد تكون تحت الأبصار وتعمى عنها البصائر، ثم إن هذه الآية رادة إلى أختها بل إلى نفسها لأنها مكررة مع قوله سبحانه في أول السورة ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١﴾ وهذا ضرب من ضروب رد العجز على الصدر، وقوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ يكاد يكون قوله ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ لانهم هم الذين لا ينكرون أى آية من آيات الله، ثم إن قوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ يكاد يكون ممسكاً بقوله فى رأس السورة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن الجدال إنكار لآيات الله، ويمكن أن تعود بقوله سبحانه قبل هذه الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله فى آختر هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ لان الاكل من الأنعام هو الرزق، وهكذا نجد خيوطاً تتواصل بين مكونات السورة وتقدم لك هذه الخيوط رقعة من نسج ولكنه من الخيوط ذاتها.

وإذا كان الكريم المنان قد من علينا بجعل الأرض قراراً والليل لنسكن فيه والأنعام لناكل منها إلى آخره فإن قوله ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ هى النعمة التى فوق كل نعمة لأنها نعمة الهدى والمعرفة بالله وليس فوق ذلك فوق، لأن قيمة الآيات أن نراها ولن نراها إلا إذا أَرانا الله إياها وقوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والاستفهام بكلمة أى التى يؤتى بها للتمييز بين الأشياء المتشابهة كما تقول أى هذه تختار، وأى الأقوال تقول، وأى الآراء ترى، وقد أضيفت كلمة أى إلى الآيات والآيات مؤنثة وهى مذكرة واللغة المستفيضة هى التذكير، ومن القليل أن تقول فأية آيات الله لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء نحو حمار وحمارة غريب وهو فى آية أغرب وهذا كلام الزمخشري، وإضافة الآيات إلى لفظ الجلالة فى قوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ فيه مزيد الغضب ومزيد من بيان الاجتراء على الله والمجادلة فى آياته التى يريكم، وجزء كبير من فصاحة هذه الجملة معقود بالفاء التى فى قوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ لأن الجملة تفيد أنه ليس فى آية من آيات الله آية واحدة يجوز أن تنكر لأنها جميعها ظاهرة باهرة ساطعة، ثم إن الفاء

رتبت هذا المعنى الجليل على قوله ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى أراكم آياته على وجه لا يجوز لأحد يعقل أو ينبى أن يتردد فى واحدة منها فضلاً عن أن ينكرها، ولهذا كانت هذه الآية فاصلة خاتمة لكل ما فى السورة من آيات الله، والذي بعدها هو بيان ما أنزله الله بالذين أنكروا آياته سبحانه ولهذا كانت هذه الجملة فاصلة خاتمة جامعة لما قبلها وفتحة الطريق إلى ما بعدها وكل الذى بعدها هو بمثابة مثال لما حدث للذين أنكروا آيات الله منذ الأمم القديمة، بل الأقدم، وقرأ الآيات بعدها تجدها أربع آيات مرتباً بعضها على بعض وانتهت السورة بجملة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ وهى مفسحة عن أختها السابقة وباعثة سياقها وهى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ وأبدأ فى هذه الآيات الأربع.

قال سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَآتَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذه الآية تكررت كثيراً جداً فى الكتاب العزيز مع اختلاف قليل فى الصياغة كالمجىء مرة بالواو ومرة بالفاء، وكإضافة كلمة «كان» فى بعضها، وكتقديم كلمة على كلمة إلى آخر هذه الفروق الدقيقة، والكشف عن سرها وربط هذا بسياقه صعب جداً والمفروض ألا يجد الكاتب حرجاً فى أن يقول لا أعلم مع القطع بأن هنا سرا، لأن لكل كلمة ولكل حرف فى الكتاب العزيز حكمة يعلمها بعضنا ويجهلها بعضنا ويأتى من بعدنا وهم يفتشون فى هذه الأسرار ويصيب منهم من يصيب.

وأكثر الآيات فيها أمران أمر بالسير فى الأرض وأمر بالنظر فى عاقبة الذين كانوا قبلنا والذين جادلوا فى آيات الله وكيف آل أمرهم، أحياناً يكون الأمر بالسير هو رأس الآية وهو ليس أمراً صريحاً وإنما هو استفهام إنكار دخل على نفى فأفاد الإثبات، لأن قوله يسيروا يؤول إلى قولنا سيروا، وأحياناً يتقدم

هذه الجملة جملة أخرى كقوله سبحانه في آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧] وأحياناً يقول ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ كما في الأنعام ١١، وأحياناً يقول ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] فيتحول المقصود من النظر إلى جهة أخرى غير عاقبة المكذبين أو عاقبة المجرمين ويصير كيف بدأ الخلق، والمهم أنك تجد منوعات كثيرة جداً تغرى بجمعها ودرسها واستخراج الحكمة البيانية منها والحكمة الشرعية، والسير في الأرض ومعرفة عاقبة الأمم الذين كذبوا يعنى دراسة التاريخ القديم الذى يبدأ بقوم نوح وعاد وشمود والذين من بعدهم، يعنى دراسة تاريخ ما قبل التاريخ ويدهشك أن يكون السير في الأرض والترحل فيها من أرض إلى أرض هو سبيل التعرف على هذا التاريخ القديم، ثم تدهشك كلمة ﴿فَانظُرُوا﴾ التى تأتى كثيراً فى هذه الآيات وأن المراد هو سير أهل النظر وأهل الاستدلال وأهل الاستنباط يعنى قوافل العلماء، وأن النظر فى جملة فانظروا يعنى نظر بالعين يفضى إلى نظر بالعقل. لأن التاريخ لا يسخلص من الآثار إلا بمزيد من اليقظة والجد والوعى. ثم يدهشك أيضاً أن يكون السير فى الأرض والنظر فى آثارها ليس سبيلاً إلى معرفة الأمم القديمة فحسب، وإنما هو سبيل إلى معرفة أمر صعب جداً وهو كيف بدأ الخلق، وبعد كل هذا تجد أمراً عجباً جداً وهو أننا لا نعرف آثارنا إلا إذا جاءتنا بعثات لاستكشاف آثارنا من خارج أرضنا.

وأعود إلى الآية الكريمة ولا أريد أن أعود إلى الذى شرحته فى أختها فى آخر القسم الأول من السورة، وإنما أحاول أن أحدد الفروق اللغوية التى اختلفت بها هذه الآية عن أختها. وأقول ابتداءً: إن تحليل هذه الفروق تحليلاً يربطها بسياقها وكيف اقتضى السياق هذه الفروق أمر صعب جداً عند الذى لا يتحدث إلا بعلم، ولا يجوز لنا أن نتكلم بغير علم لا فى القرآن ولا فى

غيره، وأول شيء هو أن هذه الآية هي خاتمة السورة كما قلت لأن ما بعدها من توابعها، ولذلك كانت مظنة أن يقع فيها ما يقع في الخواتيم التي يغلّق بها باب المعاني. وذلك بخلاف أختها فقد وقعت في مفصل من مفاصل السورة وكانت فاتحة باب حديث جدال فرعون وقومه واستتبع حديث موسى عليه السلام وجداله عن الحق وحديث مؤمن آل فرعون وهذا يشبه أن يكون متن السورة.

وأول ما ألاحظه أن هذه الآية جاءت بالفاء في قوله سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وأختها جاءت بالواو ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والفرق الذي تمدنا به اللغة هو أن الفاء تقتضى ترتيباً وتعقيماً والواو تفيد مجرد الجمع وهذا سهل. والصعب هو معرفة وجه الترتيب هنا ووجه الضم هناك، ومن أجل أن تبيين وجه الترتيب هنا لا بد أن نعود إلى الآيات التي ترتبت عليها وقد تلخصت وتجمعت في قوله سبحانه ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ ولو أردت كشف ما تنطوى عليه هذه الجملة الاستفهامية المترتبة بالفاء على ما قبلها لوجدت أن كل آيات الله في السورة التي أنكرها المبطلون داخله فيها، ولهذا كانت هذه الجملة ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ فاصلة صالحة لأن تشمل السورة كلها ابتداءً من قوله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا هياً لترتيب الحث على السير في الأرض لمعرفة عاقبة كل الذي جادلوا بالباطل وكل الذين أنكروا آيات الله التي لا يجوز في العقل أن تنكر منها آية واحدة، وتلاحظ أن الكلام بنى على الالتفات من المخاطب في قوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ إلى الغائب في قوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والمخاطبون في الآيتين هم المعاندون، وهذا الالتفات يعنى الانصراف عنهم لأن من ينكر ما لا يجوز إنكاره لا يستحق أن يتوجه إليه الخطاب، ثم إن الفاء في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ توأخى الفاء في قوله ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ والواو في ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا﴾

يسيروا ﴿ في الآية السابقة تؤاخي الواو في الآية قبلها ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ وإذا قلت إن كلام العلماء على أن حرف العطف بعد الاستفهام يعطف على محذوف يقدر قبل الهمزة أو بعدها على خلاف في ذلك . وكلامك متجه إلى أنه مترتب على المذكور والجواب على هذا هو أننا نقدر المحذوف من خلال التدقيق في فهم المذكور، ونجد صعوبة شديدة في تقدير المحذوف المعطوف عليه ولم أقرأ تقديرا لواحد من المفسرين مع علمهم وفضلهم فيه كفاية وفيه شفاء ووفاء، ولهذا قلت وأكرر أنه من مواطن البيان الشديدة الغموض وأنا لا أعنى أنه مترتب على المذكور وإنما أعنى أنه مترتب على ما يدل عليه المذكور، والمقصود تقريب الفرق بين العطف بالفاء والعطف بالواو وهذا باب لا يستقيم الكلام فيه إلا على ضرب من المسامحة كما قال الشيوخ الكبار رحمهم الله، وربما يتضح هذا في بيان وجه الضم في الآية الأولى، ومن الملاحظ أن الأصل الذي تسلسلت منه الآيات وتتابعت تتابعا لا تستطيع فصله في الآية الأولى هو قوله سبحانه هو ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ والكلام فيها متجه إلى المؤمنين بدليل قوله بعدها ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ثم تسلسل الكلام إلى بيان جلال وسلطان وألوهية من أمرنا بدعائه فقال ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ إلى آخر ما انتهى إليه الكلام عند قوله ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ثم انعطف الكلام إلى الحديث عن أهل الجدال والباطل وحثهم على السير في الأرض لينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وليس هذا مترتبا على ما قبله وإنما هو مضموم إليه لأنه تخويف كالتخويف في إنذار يوم التلاق والتخويف من ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ والآيات السابقة كلها إنذار يضم إلى إنذار وراجع حتى تصل إلى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ فتجد إنذارا أخيرا وينتهي عندها .

ومن الفروق بين الآيتين أن الآية الأولى جاء فيها ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ وهذا قريب مما جاء قبله في قوله تعالى ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ وهذا بخلاف آية المقطع فإنها لم تصرح بالعقوبة وإنما قالت ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وهو مناسب جداً لقوله سبحانه قبلها ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ إلى آخر الآيات وهذا مما كانوا يكسبون، وأخفى من هذا كله مجيء كلمة كان قبل الصلة في قوله سبحانه ﴿ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في الآية الأولى وعدم مجيئها في الآية الثانية وإنما قال سبحانه ﴿ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ولا شك في أن قوله ﴿ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أدخل في الأمم الأقدم من قوله ﴿ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وكان كلمة كان ترد بنا إلى قوم نوح الذين ذكرهم في رأس السورة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم إن الآية الأولى جاء فيها ضمير الفصل في قوله جل شأنه ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وليس هذا في الآية الثانية وإنما قال سبحانه ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ ولا شك أن ضمير الفصل يضاف على الكلام مزيداً من العناية والتوكيد، ولذلك استتبع الجار والمجرور في قوله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وزيادة توكيد شدتهم يتناسب مع قوله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الذي جاء مكانه هنا ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وليس هذا في حاجة إلى توكيد شدتهم. ثم إن آية المقطع جاء فيها ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ ولم يأت هذا في الآية قبلها وهو مناسب جداً لقوله سبحانه قبلها ﴿ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ولا يجوز أن نقول هناك كانوا أكثر منهم ولا أن نقول هنا كانوا هم أشد منهم قوة وكل هذا عجيب جداً ومن العجيب أيضاً أنك تجد كلمة ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ التي هي

المقصود الأصلي وما قبلها مقدمة لها وما بعدها من توابعها، أقول: نجد هذه الكلمة الأم توشك أن تكون هي كلمة ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ التي سبقت الآيتين وكان الكلام يريكم فتظنوا، والمطلوب النظر إليه ليس هو العاقبة وإنما كيف كانت العاقبة والفرق كبير جداً، فإذا كانت عاد أهلكت بريح صرصر عاتبة وثمود أهلكوا بالصيحة وقوم نوح أغرقناهم وقوم فرعون غشيهم من اليم ما غشيهم، فليس هذا هو متهى الفهم والنظر المراد وإنما المراد كيف كانت القوة التي أرسلت الريح والتي وراء الصيحة والتي وراء الطوفان ووراء فلق البحر، يعنى النظر الذى يدخلك فى صميم رؤية آيات الله الذى يريكم آياته ومن يأبى منكم أن ينظر فيها وأن يراها بعدما نصبها الله له فى طريقه فلا يلومن إلا نفسه.

ومن أبواب العلم بالكتاب العزيز أن تدبر معانيه بقلبك وعقلك وفى قلبك وعقلك كما تتدبر مبادئه بلسانك حتى تجد طعمها بهذا اللسان، وأنا أعنى أن تنظر إلى هاتين المائتين المتجاورتين فى قوله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ولا تكتفى بأن الأولى نافية والثانية اسم موصول، وإنما تدبرهما مرة ومرة حتى تكتشف أن الأولى يمكن أن تكون استفهامية والاستفهام للإنكار، وكان الكلام أى شىء أغنى عنهم ما كانوا يكسبون؟ لا شىء ثم تلاحظ أن ما الثانية لما وردت على لسانك أوهمتك أنها الأولى وأنها لم تزدد معنى جديداً، ثم تنتبه إلى معناها فتجد أنها كانت تخدعك عن الفائدة وقد فتنها وتخدعك عن الزيادة وقد زادتها وهذا هو قيمة الجناس الذى بين هاتين المائتين وكل هذا من كلام الزمخشري وعبد القاهر، والفاء التى فى قوله سبحانه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لم تسبق بشىء صالح لأن يكون ما بعدها مترتباً عليه لأن الذى قبلها هى أن يسيروا فى الأرض وينظروا إلى أقوام كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثراً، والكثرة والشدة فى القوة والآثار

لا يترتب عليها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وأن هناك فجوة في المعنى واللفظ بين ما بعد الفاء وما قبلها، وأن هذه الفجوة مدلول عليها بما قبل الفاء وما بعدها وأن الكثرة والشدة تغريان بالممانعة والعناد، وأنه لا بد أن يكون قد طلب منهم حق فرفضوا وعاندوا وقوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ يدل على أنه نزل بهم أمر عظيم لم يستطع كسبهم ولا جاههم ولا عددهم ولا قوتهم ولا شدتهم دفعه، فلا بد إذن من تقدير أمور: الأول أنه طلب منهم إقرار بحق بين، والثاني أنهم عاندوا وجحدوا، والثالث أنهم أهلكوا فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وهذا باب من الحذف والإيجاز لم أجد له نظيراً في كلام العرب على هذا المستوى من الدقة والشفافية، والمهم أن هذه الفجوة المتسعة بين الفاء وما قبلها لا يكاد القارئ يشعر بها وإنما يجد ما بعد إفاء قد أحضرها في نفسه وفي عقله وكأنها مذكورة في اللفظ.

قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

أقول دائماً إن الفاءات لها شأن أى شأن فى ربط المعانى وتواصلها لأنها كأنها رأس ذكية تنزع بما بعدها ليس إلى ما قبلها مباشرة وإنما لما يصلح أن يرتبط بما بعدها، وقد يكون هذا الذى ترجع إليه متخللاً كلاماً وقد يكون مذكوراً وقد يكون محذوفاً ولا يستقيم المعنى إلا بالرجوع والتأمل والتأويل والتقدير، وهذه الفاء التى فى أول هذه الجملة لا يجوز أن ترتبط بقوله سبحانه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن ما بعدها معنى سابق للهلاك الذى دلت عليه جملة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وإنما ترجع هذه الجملة إلى الذى بين ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وبين ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ وغريب أن يكون هو المحذوف الذى قدرناه وأن يأتى بعد موجب تقديره الذى هو ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وأن تكون الفاء التى فى قوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾

موجبة لهذا التقدير، والفاء التى فى قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ هى المتجهة إلى موطن هذا المقدر، وهذا من أعجب الأساليب، وقد كتبت فى الشعر الجاهلى ما كتبت وقرأت منه ما قرأت ولم أجد هذا الطريق وكل كتاباتى فى تحليل تراكيب هذا اللسان المبين فى الشعر وغير الشعر ولم أجد شيئاً من هذا فى أى كلام، وكلمة «لما» التى دخلت عليها الفاء هى لما الحينية التى فيها معنى الشرط يعنى أن الفاء تشد هذا الحين وهذا الزمن إلى ما قبل الهلاك المدلول عليه بلازمه وهو قوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعنى تشده بأحداثه برسله بآياتهم بالناس المرسلين إليهم عليهم السلام، وتلاحظ علامات وإشارات خفية وجليلة فى مثل قول سبحانه ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ وفى إضافة الرسل إليهم ما يفيد أنهم يعرفونهم ويعرفون صدقهم وأمانتهم، ثم كلمة جاءتهم تفيد أن هؤلاء الرسل لم يقولوا لهم شيئاً من عند أنفسهم وإنما جاؤوا بما جاءوا به كما يجىء حامل رسالة، وحامل أمانة، ثم كلمة بالبينات وهى صفة قامت مقام الموصوف لبيان مزيد المعنى الذى فيها وهى البينة الظاهرة التى سماها الله نوراً وبرهاناً فى آيات كثيرة، وجواب لما الحينية قوله سبحانه ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهو راجع من حيث المعنى إلى قوله سبحانه قبل هذه الآية ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وليس الفرح ذنباً ولا معصية وإنما الفرح بغير الحق المفضى إلى رفض ما جاء به الرسل. والعجيب أن موقع فرحوا بما عندهم من العلم من حيث هو جواب شرط والشرط هو مجىء الرسل بالبينات، أقول هذا الموقع هو المفسر والموضح لمعنى الفرح وأن اقتران الفرح بمجىء الرسل وجعل هذا الفرح جواب مجىء الرسل، يعنى أنه فرح له خصوصية برد ما جاء به الرسل، وأنه فرح بالذى عندهم من الباطل والجدال واللجاجة، وإذا كان موقع الفرح بما قبله يفضى عليه خصوصية تخرجه من المعنى العام للفرح الذى منه المقبول ومنه ما هو

من نعم الله كما فى قوله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٤] فإن الجملة الثانية التى هى شطر الجواب تفيد معنى يضىفى على هذا الفرح بيانا أوسع وأدخل فى غضب الله، وأعنى قوله سبحانه ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذه توجب تقدير كلام محذوف قبلها لأنها مؤسسة على أنهم كانوا يستهزئون وأن الذى أحاط بهم وأحاق بهم واستأصلهم هو استهزاؤهم الذى كان منهم، وهذا يوجب أن يكون الكلام فرحوا بما عندهم من العلم واستهزؤوا بما جاءت به الرسل، فأهلكم الله بهذا الاستهزاء، ولاحظ فاعل حاق وأن الذى كانوا به يستهزئون هو الذى أهلكهم وفيها مجاز عقلى لأن الله أهلكهم بسبب ما كانوا به يستهزئون، والذى كانوا به يستهزئون هو وعيد الرسل لهم بعذاب الله واستئصالهم بهذا العذاب إذا كذبوا وعاندوا وهموا برسولهم، ولهذا نجد هذه الجملة هى المقصود الأهم بقوله ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وأن هذه العاقبة هى أنه حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وهذه الجملة التى هى ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ واقعة فى المعنى قبل جملة ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لأن نفى أن يغنى عنهم ما كانوا يكسبون يأتى بعد الإحاقه بهم وهلاكهم، وهذا من التداخل العجيب جداً، ترى الجملة تقدمت عن تأخير لأنها أهم مثل جملة ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ولتقترن بما هو أشبه بها مثل. ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ لأن هذه هى عناصر الإغراء والإغواء التى لم تُغن عنهم شيئاً، وهى التى كانوا يكسبون، ثم تأتى الجمل المتأخرة لتتخلل الجمل المتقدمة وتسكن بينها وتجد انتزاعها من أماكنها الأصلية وإفرادها بالبيان بعد تقديم ما كان حقه أن يؤخر عنها نجد كل ذلك يُفردها ويميزها ويهيئ لها.

ووضع جملة ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ موضع كذبوا الرسل واستهزؤوا بهم لها دلالة لاتزال قائمة من أهل الباطل والإلحاد والمجادلين فى آيات الله،

لأن الذين نراهم حولنا من عبيد العبيد والمُحَادِّين لدين الله لا نرى فيهم فقط فرحاً بأفكارهم ونظرياتهم وثقافتهم وأصول فكرهم الإلحادى وإنما نرى فيهم نفاجة وغطرسة واعتداداً وإزراءً بكل من يخالفهم، ويُسمون الذى هم فيه تنويراً ويسمون الحق وأهله دعاة الظلام أو الظلاميين، فالفرح بالباطل وثقافة الباطل وأدبيات الباطل جبلة عند أهله وهذا يعطى للجملة الثانية التى هى شطر الشرط وهى ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ معنى جديداً وهو المفاجأة التى قلبت الموازين فهلكوا بما كانوا به يفرحون، وهذا يمنح أهل الحق دائماً طاقة وأملاً وأن أهل الباطل وإن علت أصواتهم وملؤوا الدنيا بصخبهم وأكاذيبهم فإن ذلك سيتهى لا محالة وسيهلكون به، ومن العجيب أن الذى يتغلغل فى واقعا الفكرى والثقافى والمجهود الذى تبذله الجهات الرسمية وغير الرسمية فى تغيير ثقافة الناس ومعتقداتهم وتوجهاتهم لإبعادهم عن الدين أقول الذى يتغلغل فى هذا ويتدبر القرآن الكريم يجد آيات كثيرة كأنها نزلت لهذا الواقع لأنها كأنها تعالجه هو. والأعجب أن وهن الشيخوخة لحق بأهل الباطل وهم على باطلهم وصارت حالهم كحال شيخوخة كهنة الأوثان ويرتلون نفس الزبور بكل متونه وشروحه الذى حفظوه أول أمرهم لأنهم فى الحقيقة أقل الناس قدرة على تجديد أفكارهم والتقليد دائماً يطفىء القدرة على التجديد.

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

حذو هذه الآية هو حذو الآية السابقة ومكوناتها التركيبية هى لما الحينية وشرطها وجوابها المكون من جملتين. وهذا الحذو الواحد أو التصاقب يفيد أن هذا المعنى لا يزال من معدن المعنى السابق وداخلاً فيه، ولما كانت جملة ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ تأخرت عن تقديم وقدمت عليها جملة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ كذلك هذه الجملة الأصل أن تكون قبل قوله سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن هذه الإحاقة والإحاطة هى

هلاك الاستئصال، ولا تتأتى رؤية البأس بعد هلاك الاستئصال فلا بد أن تكون بعد فرحوا بما عندهم من العلم وقيل وحق بهم يعنى تدخل بين شطرى جملة الجواب، وأصل الكلام فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم يعنى ردوا مقالة الرسل وعاندوا وجحدوا وكفروا، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وكفرنا بما كنا به مشركين وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، وهذا هو ترتيب الأحداث وإنما يادر الكلام بقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن المقام مقام ردع وتخويف وكلمة ﴿رَأَوْا بِأَسْنَا﴾ تعنى الآية الملقحة وأنهم رأوها بعيونهم ولا تنس مراجعة الفاء التى فى رأس الجملة والتى تقود الجملة إلى موقعها من الكلام السابق وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ هى جملة جواب الشرط وقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ هى تمام جواب الشرط وهى الوجه الثانى للجملة الأولى لأن جملة آمنا بالله وحده تعنى الكفر بكل ما عداه سبحانه، ولهذا جاءت الجملة الثانية مضمومة إليها بالواو التى تفيد فى هذا المقام أنها كأنها معنى آخر وهى فى الحقيقة المعنى الأول، وهذه الواو أخت الواو التى فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وكان انهيار ثقتهم فيما كانوا به مشركين وهو الذى عندهم من العلم وهو الذى فرحوا به وهو قائم مقام الفلسفات والوسوسات والثقافات التى يهوش بها الفارغون المهوشون المخادعون، والذين يستخدمهم نظام سياسى قائم هو على الخداع والكذب والتهويش والمستند على القمع الأمنى الذى يحطم أنفة الشعوب وكأنه وكانهم من زرع اليهود فى أرضنا، أقول لما انهارت ثقتهم فى هؤلاء بعد رؤية بأس الله الذى لا يُردُّ عن القوم المجرمين لم يكتفوا بنفسه بالدلالة الضمنية المستفادة من قولهم ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ لأنها تتضمن كما قلنا معنى وكفرنا بما كنا به مشركين، وذكروا ذلك صريحاً ليعلنوا براءتهم من هذا التاريخ القائم على التزوير والتزييف والقائم

على الفكر الباطل الذى زين لهم ففرحوا به لأنهم رأوه حسناً وهو سوء مُزِين.

ومن تمام الكلام أن أقول إن بعض المفسرين رجعوا بالضمير الذى فى قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ إلى الرسل وأنهم لما سمعوا كلام المشركين المبطلين المجادلين فرحوا بالذى عندهم من الحق والصدق وهذا بعيد.

وقوله جل شأنه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الفاء التى فى أولها عاطفة لها على جواب الشرط ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وداخل فى حيز الشرط والمعنى فلما رأوا بأسنا لم يك ينفعهم إيمانهم، وهذه من أوضح الفاءات وكلمة ﴿بَأْسَنَا﴾ جامعة لكل ما فى هذا القسم من تهديد وتخويف وهو عاقبة الذين كفروا، وهو الذى لم يدفعه دافع ولم يُغن عنهم شئ لما نزل بهم، وهو الذى حاق بهم، وإذا رجعت بهذه الكلمة إلى السورة من أولها وجدتها ملاءمة لها من قوله سبحانه: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلِبُهُمْ﴾ إلى آخره، ولهذا وضعت كلمة بأسنا موضع المضمرة فى قوله سبحانه ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، لأنها من العناصر الجامعة لخيوط كثيرة فى السورة وتتجمع كلها فى خاتمتها. وهنا شئ من المهم جداً أن يقال وهو أن الآية دالة دلالة قاطعة على أنه ليس فرعون وحده هو الذى قال لما رأى بأس الله ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] وإنما قال هذا قوم نوح لما رأوا بأسنا وقوم هود وصالح وكل الأمم التى نزل بها هلاك الاستئصال وحدث زلزال فى نفوسهم فى لحظة الهلاك وكفروا بما عاشوا يهوشون به وانكشف الغطاء، وهذا إيمان مردود لأنه إيمان الملجأ الذى ألبأته الآيات الملقنة وإنما يقبل الله إيمان الذى اختار الإيمان.

وصياغة جملة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ فيها خصوصيات ذات دلالة وأولها أن النفى دخل على «يكن» بحذف النون وبنى كونه الفعل أكد من

نفي الفعل . فقولنا لم يكن مجاهدًا أكدين قولنا لم يجاهد لأن نفي زمنٍ جَاهِدَ فِيهِ يلزم منه نفي أنه جاهد وهذا من دقائق الدلالات والصيغ ، وقد ذهب الزمخشري إلى أن الفعل «يكن» بحذف النون . مضارع كان التي في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ ﴾ [مريم : ٣٥] ومعناها أن هذا لم يصح في العقول أن يتخذ من ولد لأنه مالك الكل وغنى عن العالمين وغنى عن صاحبة والولد ، والمعنى هنا أنه لا يصح في العقول أن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا وهذا معنى زائد على نفي النفع ، وقد رد ابن المنير هذا بدليل لغوي هو أن مضارع كان الذي تحذف نونه هو كان الكثيرة الاستعمال لأن النون حذفت لكثرة الاستعمال وكان التي في قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ ﴾ قليلة الاستعمال وبه استدل على أن المضارع في الآية ليس من الباب الذي ذكره الزمخشري ، وفائدة كان في الآية عند أحمد أنها أكدت نفي الفعل لأن نفي الكون يعني نفي الفعل مرتين ، قال أحمد بعد ما روى كلام الزمخشري . «كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي كان الكثير استعمالها ، المكرر دورانها في الكلام وأما كان هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف بل هي مثل صان وحنان في القلة فالأولى بقاؤها على بابها المعروف وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها المبالغة في نفي الفعل الداخلة عليه بتعدد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون وخصوصاً باعتباره في هذه الآية مثلاً فكأنه نفي مرتين» انتهى كلام أحمد .

والخصوصية الثانية في بناء هذه الجملة هي أن المنفى هو ينفعهم والأصل أن ينفي القبول لأن النفع مرتب على القبول ولازم له ، ونفي اللازم الذي هو النفع يوجب نفي الملزوم الذي هو القبول ، وهذا طريق من طرق الكناية وهو أبلغ وأكد وكأنه نفي القبول بدليل وهو نفي النفع ومنه قول علي كرم الله وجهه في وصف مجلس رسول الله ﷺ «لا تنني فلتاته» أي لا تذاع فلتاته ،

والمراد نفى الفلتات وليس نفى إذاعتها وهذا أكد، ومنه قولهم: لا يهتدى بمنارة، أراد لا منار فيه فيهتدى به، ولهذا تجد توكيد نفى القبول والفائدة من جهات مختلفة، ثم إن نفى النفع فيه إشارة إلى أنهم قالوا آمنا بالسه ليتفعوا بهذا الإيمان وأن المسألة دفع ضرر وليست انقيادا واسسلاماً. هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ جملة مستأنفة وسنة اسم مصدر منصوب بفعل محذوف أى سن سنة، وهذه الجملة مؤكدة للجملة قبلها ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لأنها حقيقة عظيمة من حقائق الدين إذ لا يقبل الله الأوبة إليه من الذين جاءتهم الساعة أو رأوا الآيات الملحثة، وإنما يقبل الإيمان من الذين آمنوا قبل أن تأتي الآية: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقد تأكد هذا المعنى كثيراً فى الكتاب العزيز وهذا موطن من مواطن توكيده ويلاحظ أن جملة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أوسع فى المعنى من جملة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لأن السنة يدخل فيها هذا وغيره، وهو من باب تأكيد المعنى بما هو أشمل منه وله نظائر كثيرة فى كلام الله وفى كلام الناس، وقد عدل الكلام عن طريق التكلم فى قوله ﴿بَأْسَنَا﴾ إلى طريق الغيبة فى قوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ وذلك لأن إضافة البأس إلى ضمير صاحب العظمة جل جلاله فيه نفع زائد من الغضب وليتعادل مع قوله جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ وذلك بخلاف السنة فإن المقصود تقرير هذه السنة وإضافتها إلى لفظ الجلالة الشامل لكل ما فى أسماء الله الحسنى من الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن إلى آخره. هذه الإضافة إلى لفظ الجلالة تكسب السنة شوباً من كل هذه المعانى. ثم إن لفظ الجلالة بهيينه وجلاله وعزه، هو المناسب هنا لقوله ﴿قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ لأن العبودية لله وهذه السنة خلت فى عباد الله من يوم

أن من الله على عباده بإرسال رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،
 والجدال بالباطل وفرح الناس بما عندهم من العلم وانصرافهم عما جاء به
 الرسل داءً قديماً جداً، وأول أنبيائه نوح عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا
 خمسين عاماً وكلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ثم ضاق بهم وقال:
 ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فاستجاب ربه دعاه
 وكان حصيلة المؤمنين عدداً قليلاً ركب في جزء من السفينة وركب في الباقي
 ما حملة نوح معه من خلق الله ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾
 [هود: ٤٠] وهذه حصيلة دعوته إلى ربه ألف سنة إلا خمسين عاماً. ثم إن
 رؤية هذه السنة بالعين هو المقصود من قوله: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهذه العاقبة هي السنة، وهي ﴿قَلَّمَ يَكُ
 يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وهي مضمون قوله جل شأنه ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ
 آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ وهكذا نجد الجمل مسكاً بعضها ببعض على وجه لم
 أجد له شبيهاً في كلام الناس. وراجع جملة ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
 عِبَادِهِ﴾ تجد الكلمات كلها تؤكد وتبين هذه السنة فهي سنة الله المضافة إلى
 لفظ الجلالة وهذه قيمتها وهذا مقامها، وقوله ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ تأكيد لمعنى
 في هذه السنة وهو أنها توأم إرسال الرسالات وقرينة للنبوات، وكلمة
 ﴿خَلَتْ﴾ هي التي في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]
 يعنى خلى مكانها وذهبت وهذا من الكنايات الملحقة بالحقائق أقول فلان
 خلى مكانه وأريد ذهب أو هلك وأجعل خلاء مكانه منه قرينة ذلك ودليلاً
 عليه، كما قال الأول. «أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا» والزمان
 الذى خلى هو الزمان الذى ذهب وخلت منه الأرض. والمعنى هنا غير ذلك
 وذلك لأن خلت مسندة إلى السنة ومقيدة بقوله ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ فالسنة خلت
 فى عباده بمعنى أنها خلت مع كل جيل من الأجيال التى مضت وباقية

مع كل جيل من الأجيال المقبلة من عباده، فالسنة من حيث هي سنة باقية بقاء العباد وإنما يخلو الجيل ويخلو الزمان الذي جرت فيه، وهذا من الصيغ البالغة الدقة، وقد ألفنا معناها وأنه يتبادر إلى الأذهان من غير أن تراجع كيف دلت عليه الكلمات، ثم إن هذه الجمل هي الفاصلة التي انتهت عندها السورة وهي راجعة إلى كل ما في السورة وأن بعد في الظاهر عنها، وقد بينت أنها توكيد للآية قبلها، وبيان لما في آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ولما في آية ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ التي هي جامعة لما في آية ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ ثم تكاد تكون مطابقة مطابقه ظاهرة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ الذي هو فاصلة ذكر الرسل من قبلك والذي هو بيان لقوله ﴿فَاصْبِرْ﴾ وهكذا تجد الجملة الواحدة الواقعة هذا الموقع من فواصل السورة أو خاتمتها موصولة بالكل.

وجملة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ هي و﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ التي في آية ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وأمر الله هذا هو من سسه التي قد خلعت في عباده، وحين تضع سنة الله مع هذه الجملة الحالية ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ تجد وخسر هنالك الكافرون نتاج وثمره تطبيق هذه السنة وليس لها مقابل محذوف كما قلنا في ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ لأن الذي قبل وخسر هنالك المبطلون هو القضاء بالحق، وهو شامل للمؤمن والكافر، فإذا تم هذا القضاء كان به فريق ربح وفريق خسر، والذي قبل هذه التي نحن فيها ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ فليس هناك فريق آخر في الكلام وإنما الكلام منصب كله على الذين فرحوا بما عندهم، وأنهم لما رأوا بأسنا قالوا آمنا إلى آخره، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ متمحصاً لأهل الباطل الذين جاؤوا في أول السورة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والكافرون في هذه الآية هم الذين كفروا والخاسرون هو الذين جادلوا، وبهذا يرد العجز

على الصدر رداً يكاد يكون مباشراً، وكلمة هنالك إشارة إلى المكان وهي هنا مستعارة للإشارة إلى الزمان يعنى زمان رؤية البأس وقولهم آمناً، والعجيب فى رد العجز على الصدر أنه ليس معناه أن الكلام الأخير من معدن الكلام الأول وعائد إليه، إنما معناه أن هذا العجز لا يُردّ من موقعه إلى الصدر إلا عن طريق المرور السريع بكل ما بينهما وأنه موصول بكل هذه الآيات الفاصلة بين الطرفين الأول والآخر. وأن كل آية لها قلب؛ يهيبه لهذا القلب ما قبله ويتفرع منه ما بعده، وإذا وضعت ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ بإزاء هذا القلب وجدته يلتئم جداً حتى كأنه هو، وسواء انتقلت به من نهاية السورة إلى أولها حتى تصل إلى الصدر أو انتقلت بالصدر من أول السورة إلى آخرها حتى تصل إلى العجز أنت فى كل هذا واجد لا محالة التلاؤم الشديد والتقارب الشديد، وكأن الكلام يتكرر فإذا نزعته عقلك من هذه الحالة ونظرت إلى الجمل التى كأنها تتكرر وتغلغلت فى المعنى الجديد الذى جاء به رأيت نفسك تدخل حالة أخرى لأنك ستجد كل جملة كأنها عالم جديد من المعنى وعالم متسع جداً ومفيد جداً، وهذا شئ من بيان القرآن، وإذا تركت الآية الرأس التى هى ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ورجعت بجملة ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ إلى ما قبلها مما هياً لها وجدتها تكاد تكون من بنات جملة ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وتكاد تكون نتيجة لقوله ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ لأن هذا التنزيل كان من نتائجه المجادلون الكافرون الذين خسروا هنالك، ولو كان فى كلامى تكلف لكففت عنه لأن كلام الله غنى عن التكلف.

ثم أقول أيضاً وهذا عجيب أن هذه الفاصلة التى ختمت غافر أو رجعت إلى كل ما قبلها فتحت باب فصلت، لأن فصلت بدأت بتفاصيل أقوال المجادلين فى آيات الله الذين هم الكافرون وهم الذين خسروا هناك، وأنهم

هناك وصفوا بأنهم جادلوا وأنهم كذبوا وأنهم كفروا، وفي فصلت روت لنا ما نطقوا به في تكذيبهم وجدالهم وكفرهم، وخلاصته قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ ولم تحدث غافر عن شيء كهذا، وكل الذى فيها قول الملأ من قوم فرعون ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وقول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ إلى آخره وهذا من الروابط الظاهرة بين غافر وفصلت، لأن بداية فصلت بقولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ كأنه يبين بصورة عامة ومجملة اتجاه المعانى فى السورة.

ونتقل الآن إلى فصلت والله هو الهادى وهو المستعان.



سورة فصلت وتسمى السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

وأول ما يلاحظ في هذه السورة أنها بدأت بتنزيل من الرحمن الرحيم، فغايرت بداية غافر في شيء، ووافقتها في شيء، أما الذي وافقتها فيه فهو كلمة ﴿تَنْزِيلٌ﴾ وهي مشيرة إلى مصدر هذا الوحي ثم جاء وصفه في غافر بهذه الكلمات ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ﴾ وتتعلق كلمة تنزيل في فواتح السورة بأحوال مما تعلق به غافر، وجاء الحديث عن الذي أنزل سبحانه في سورة فصلت بهذه الكلمات ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فذكر سبحانه الرحمة وكررها، ولم يذكر ما هو من جنس شديد العقاب فأذن ذلك بأن جذر السورة يغير مغايرة ما جذر سورة غافر، وإذا كنا نستطيع أن نرجع بكل ما في غافر إلى غور هاتين الكلمتين ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فإننا نستطيع أن نرجع بكل ما في سورة فصلت إلى غور هاتين الكلمتين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نرى العزيز العليم في غافر كامناً وراء ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ ووراء ﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ووراء ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وإنذار يوم التلاق، ويوم الأزفة وذكر الأسم التي كانت أكثر منهم وأشد قوة، وأن الله أخذهم إلى آخر ما تراه من تنقل الصور الصادرة عن العزة الغالبة والعلم المحيط، إلى أن ذكر في آخر السورة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وبه ختمت السورة.

وترى فى فصلت أول مظاهر الرحمة فى قوله سبحانه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾
وتقديم البشارة على الإنذار، ثم تجدد الرحمة تتجلى فى أعظم صورها فى
الكتاب العزيز فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ إلى آخر هذه الآيات التى لا ترى نفوس
أهل الإيمان تطمح إلى شىء بعدها.

ولك أن تقول إن آية البشرى هذه أومأت إلى صلتها بمطلع السورة
وارتباطها بها بهاتين الكلمتين الجليلتين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وذلك بتكرار
كلمة الرحيم فى فاصلتها ﴿نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

ومما يتلاءم مع ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التى هى جذر السورة قوله سبحانه
بعدها ﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ووجه الملاءمة أن الآية
ذكرت القرآن وأنه فصلت آياته يعنى بيّنت وأظهرت، وأنه عربى وأنه لقوم
يعلمون الذين هم العرب الذين نزل فيهم، ووصفهم بأنهم يعلمون يشير إلى
قوة علمهم ودقة إدراكهم لخفايا هذا اللسان وأنه لا يخفى عليهم ما فيه من
تفاصيل دقيقة وبلاغة عالية، وأنه ليس من جنس كلامهم، وإذا كان هذا حاله
وكان هذا حالهم ولم تصفهم الآية بالعناد ولا بالجحود وإنما اختارت كلمة
يعلمون كان ذلك كله دالاً دلالة خفية على هدايتهم وإيمانهم ودخولهم فى
دين الله أفواجاً، وهذه بشارة خفية لمحمد صلوات الله وسلامه عليه، ثم
جاءت البشارة ظاهرة مفصحة فى قوله بعدها ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا جيد
وقد نبّه إليه البقاعى رحمه الله.

وكانت هذه البشارة الخفية والافتتاح بالرحمن الرحيم وأنه كتاب ظاهر
الآيات وأن قومك أهل علم وما وراء ذلك كله من فتح باب إيمانهم وتقوية

الأمل فى دخولهم فى الدين أفواجًا، أقول: كان هذا مقابلاً مقابلة ظاهرة لآخر سورة غافر الذى جاء فيه ذكر الأمم التى جاءتها رسلها بالبينات وفرحت بما عندها من العلم وكانوا أكثر من هؤلاء وأشد قوة وأثارة فى الأرض فأخذهم الله وما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وهذا المقطع يثير فزعه صلوات الله وسلامه عليه لأنه تهديد ظاهر لقومه ومطالبة لهم بأن يسيروا فى الأرض ليروا هذا وليعلموا أن بأس الله لا يرد عن القوم المبطلين، فجاءت فاتحة سورة فصلت مبتدئة بالرحمن الرحيم وبالبشير وبأن قومك لهم علم منع باللسان العربى لا يخفى عليهم جيده وأجوده وأن هذا العلم سيهديهم لا محالة إلى الأمر الخارق فى هذا الكتاب الذى فصلت آياته، وهذا أيضاً من إشارات البقاعى رحمه الله، ثم إن للرازى إشارة استندنا عليها فى كثير مما كتبناه وهى قوله: «إن الفعل المقرون بالصفة لا بد أن يكون مناسباً لتلك الصفة» وهو يعنى أن تنزىل هذه السورة مقروناً بصفة الرحمة يعنى أن تكون السورة مناسبة لصفة الرحمة، وكلمة الرازى هذه من الكليات التى يجب أن تلاحظ فى دراسة البيان كله وقد وجدتها فى الشعر الجاهلى وكانت ظاهرة جداً، ورأيت فرقاً بين قصيدة امرئ القيس التى افتتحها بقوله قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل، وقصيدته التى افتتحها بقوله: قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان، وأن ذكر المنزل فى أنف القصيدة غير ذكر العرفان فى أنف الأخرى وهكذا، وهذا باب جليل جداً وخفى جداً وكشفه مما يمتع أهل العلم والنظر فى أسرار البيان.

وسنرى أن وحدة هذه السورة وترباطها وتماسكها أمر أبين من أن ندل عليه كالتقاء آخرها بأولها، فإذا كان أولها فى بيان أحوال من أنزل عليهم الكتاب هو قوله سبحانه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴿ إلى آخره فقد جاء آخرها فى مخاطبتهم وهم على هذه الصفة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ

أَضْلُ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿﴾ ونرى هذه الخاتمة تأخذ بأيديهم برفق شديد وتبعدهم عن طريق الكفر به وتخريهم بطريق الإيمان به، كما ترى السورة فى مواقف الإنذار الشديد فى مثل قوله سبحانه ﴿﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿﴾ لا تعدو أن تكون إنذاراً وتخويفاً، ويقول المفسرون إن هذه الأمة من إكرام الله لها ولنبينا أنها لا يقع عليها عذاب الاستئصال، وأنهم وإن أعرضوا وأنذروا بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فإن ذلك لم يقع بهم، لأن دخولهم فى الدين لم ينقطع من يوم أن نزل فيهم الكتاب حتى جاء الوقت الذى دخلوا فيه فى دين الله أفواجاً، وكل هذا مما تجرى فيه أسرار الرحمن الرحيم الذى كان أول ما يقرع الأذن بعد حم .

وآيات السورة ممسك بعضها ببعض إمساكاً هو أقوى مما نسميه المناسبة التى عنى بها سلفنا من العلماء، والتى كانت تمثل وتصف الفهم القريب للآيات، وأرى أن كلمة ممسك بعضها ببعض أضعف فى وصف ما بين الآيات من ترابط، لأن الذى تراه هو أن كل آية خارجة من الآية قبلها وكأنها من تمام معناها، وكان الجاحظ أقرب إلى وصف العلاقة بين المعانى حين قال كلمته المشهورة فى وصف المعانى وأنها أخذ بعضها بحجزة بعض. وقد وقع هذا الوصف فى نفس عبد القاهر فكرره وجعله باباً من أبواب الصياغة والتأليف وسماه النمط العالى والباب الأعظم، والذى أراه فى الآيات أقوى من هذا الذى ذكره الجاحظ وهو أعلم بفقہ البيان من الذين تكلموا فى علم المناسبة ورضى الله عنهم جميعاً.

وتستطيع أن تتبين الذى أردته بمراجعة السورة من أول قوله سبحانه ﴿﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴿﴾ إلى قوله جل شأنه: ﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ وستجد هذا القسم أو هذا الفصل كله حقيقة واحدة،

ثم تجد من أول قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الوجه الثاني لهذه الحقيقة وهذا كما قلت أبين من أن يدل عليه، ثم إنك واجد سرّاً بياناً جليلاً وراء تسمية هذه السورة (فصلت) من هذا السر، أنك تجد تفصيلاً لقوله في غافر ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد ذكرت غافر أنهم يجادلون وكررت هذا في مواضع من السورة، ثم تأتي فصلت وتفصل هذه المجادلة وهي قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾.

ثم إنك تجد في غافر أخذ الله للذين كذبوا من قبلهم قوم نوح وعاد وتكرار كلمة الأخذ أو كلمة البأس. من غير أن يكون هناك بيان لهذا الأخذ ولهذا البأس. وتأتي فصلت وتفصل هذا وتبينه. مع تفصيلها لجدال قوم عاد ثمود لما جاءتهم رسلهم بالبينات وقالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة واستكبرت عاد وقالوا من أشد منا قوة، وهذا تفصيل للمجادلة يضاف إلى قول قومه عليه السلام ﴿فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا﴾ إلى آخره جاء تفصيل الأخذ في قوله سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] وهذا أخذ عاد أما أخذ ثمود فقد قال الله في تفصيله وبيانه ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] وهكذا تجد التفاصيل في السورة من مثل ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢٠]. إلى آخره، وكذلك إذا نظرت إلى الوجه الآخر لهذه الحقيقة ستجد تفاصيل في قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتأمل بقية الآية وضعها بإزاء نظائرها من مثل قوله سبحانه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وإذا راجعت تسمية السورة بالسجدة وجدت سر ذلك وقوع السجدة فيها، وليس هذا كافيًا لأن السجدة وقعت في سور كثيرة ولم تسم هذه السور بالسجدة، فلابد أن تكون لهذه السجدة خصوصية أهلتها لتسمية السورة بها وهذا فيما نعلم والله أعلم راجع إلى أن موقع السجدة في السورة بمسك بخيوط الحقيقة التي دارت عليها السورة بوجهيها وهي الذين سجدوا للمعبود بالباطل والذين سجدوا للمعبود بالحق سبحانه ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

وبعد هذا الحديث العام عن السورة أبدأ بتحليل الجمل والآيات وأقول:
 إن ﴿حَم﴾ كما قلت في أول غافر فيه كلام كثير، وأضيف هنا اختصارًا جيدًا لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ذكره في كتابه الصحابي وهو كتاب جيد وجامع ونافذ، ذكر في هذه الحروف تلخيصًا جامعًا لما قيل فيها من القول بأنها مأخوذة من أسماء الله فالألف من الله واللام من اللطيف والميم من المجيد وهكذا، فهذه الحروف دالة على آلائه ولطفه ومجده، أو أنها حروف أقسم الله بها تعظيمًا لها كما أقسم بالفجر والليل ومواقع النجوم إلى آخره، ووجه تعظيمها أنها أصول اللغات التي يتكلم بها الناس والتي أنزل الله بها كتبه والتي يعبد سبحانه بها خلقه، قال ابن فارس وهذا وجه لطيف ثم ذكر القول بأنها حروف دارت بها الألسنة وعبرت عن المعاني والأحوال والنوازل والآجال، وكأنها في مفتتح السور تشير إلى معانيها التي دارت بها في ألسنة الأقبام، وتجمع كل هذه المعاني وتختصرها للإشارة إلى أن الذي أنزله الله على نبيه لم يترك شيئًا نافعًا إلا أشار إليه ولا نظمًا بدعيًا إلى كان فيه، ولا شيئًا ضارًا إلا دل عليه وهذا كلام عجيب جدًّا، وكان هذه الحروف اختصار لكل المعاني التي دارت فيها وبها، وكما نقول نحن: إن كل كلمة لها تاريخ طويل تقلبت فيه بمعان كثيرة وتشربت فيه أطيافًا لا حدود لها من المعاني

والخواطر، وعلمناؤنا لم يقولوا هذا في الكلمات فحسب وإنما قالوه في الحروف: وهذا أعمض مما نقوله نحن في الكلمات فإذا تبعت لفظة من ألفاظ اللغة ورصدت تقلبها في ألسنة العلماء والشعراء والعامّة والخاصة، ورصدت المعاني التي أفرغت فيها من خلال هذا التاريخ الطويل وجدت من ذلك ما لا يستطيع حصره وإدراكه فضلاً عن ضبطه، كذلك يومئ هذا القول إلى أن كل حرف من هذه الحروف دارت به ألسنة أهل البيان فامتص من المعاني ما لا يحصر، ثم دُكر في مفتتح السور ليجسد هذه الحصيلة من التاريخ الطويل، ثم يشير إلى أن موقعه ودلالاته في الكتاب العزيز يُغنيك بثراته عن هذا كله، وأرجو أن أكون قد أصبت في فهم كلام أبي الحسن والذي أغراني بهذا قوله في تعليقه على هذا الوجه «وهو قول حسن لطيف لأن الله جل ثناؤه أنزل على نبيه محمد ﷺ وآله وسلم الفرقان، فلم يدع نظماً عجيّباً ولا علماً نافعاً إلا أودعه إياه. علم ذلك من علمه وجهله من جهله، فليس منكراً أن ينزل الله جل ثناؤه هذه الحروف مشتملة مع إيجازها على ما قاله هؤلاء» انتهى كلام أبي الحسن. والمقصود قوله فليس منكراً أن ينزل الله جل ثناؤه هذه الحروف إلى آخره، يعني إذا كان القرآن لم يدع نظماً عجيّباً ولا علماً نافعاً إلا ذكره فليس بمنكر أن تذكر هذه الحروف التي دارت بها ألسنة الناس وهي مشتملة على ما قالوه ملخصة له أو مشيرة إليه. ثم تخطى القرآن كل هذه المعارف المرموز إليها بهذه الحوامل الدوال عليها تخطاها القرآن إلى كل ما هو فوقها وكل ما لا يدخل في طوق الذين أفرغوا فيها ما أفرغوا، هذا والله أعلم، وإذا لم يكن كلام أبي الحسن دالاً على ما فهمته فحسبي وحسبه أنه آثار عندي ما قلته.

ثم ذكر أبو الحسن تفسيراً مروياً عن ابن عباس لها يقول فيه إن قوله سبحانه ﴿الْم﴾ معناها أنا الله أعلم، وقوله سبحانه ﴿المص﴾، معناها أنا الله أعلم وأفضل. ثم قال وهو قريب من القول بأنها مشيرة إلى أسماء الله ثم ذكر القول بأنها أسماء للسور، ولا يعترض على ذلك بأن منها ما تفتتح به

سور كثيرة، وذلك لأن الرجلين قد يسمى كل منهما زيداً ثم يميز بينهما بما يأتي بعد الأسماء فيقال زيد الفقيه وزيد الكاتب مثلاً.

ثم قال: وقال آخرون لكل كتاب سر وسر القرآن فواتح السور وهذا يعنى تفويض علمها إلى الله والراسخين من أهل العلم وأنها من المتشابه.

وذكر بعضهم أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا وقال بعضهم لبعض لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فأنزل الله سبحانه هذه الحروف بهذا النظم العجيب القريب ليلفتهم إلى التفكير فى هذا الذى لا يعرفون، ويكون ذلك سبيلاً إلى استماعهم لما بعده ويكون الاستماع لما بعده سبيلاً إلى هدايتهم، وكأنها عوامل جذب وتبيه ليس إلى معنى فيها وإنما إلى معنى ما بعدها وهذا اسدراج بيانى لطيف، ثم ذكر أبو الحسن القول المشهور وأنها إشارة إلى التحدى وأن هذا الذى لا طاقة لكم به من الحروف التى تكونون منها كلماتكم وخطبكم وأشعاركم وبلاغتكم.

ثم قال: وهذا مهم - وأقرب القول فى ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا إن أولى الأمور أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً، فيقال إن الله عز وجل افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً للسور وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من أسماء الله جل ثناؤه، وأن يكون الله جل ثناؤه قد وضعها هذا الموضع قسماً بها وأن كل حرف منها فى آجال قوم وأرزاق آخرين وهى مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز فى إنعامه وإفضاله ومسجده إلى آخر ما لخص من هذه الوجوه، ثم قال: وإنما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلاً من حيث يزول به العذر، ولأن المرجع إلى أقاويل العلماء ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالظن وهم من العلم بالمكان الذى هم به، ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق، والله

أعلم، وهذا كلام مفيد لأن العالم الذى ذاق العلم لا يطرح أقوال العلماء ولا يحدث عنهم باللغة التى يتحدث بها أهل زماننا من المتسبين إلى العلم، وإنما يحدث عنهم بلغة أبى الحسن صاحب الصحابى ومقاييس اللغة.

قوله سبحانه ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، التنزيل مصدر نَزَلَ ووصف السورة بأنها تنزيل أو وصف الكتاب بأنه تنزيل يعنى المبالغة فى هذا المعنى كما تقول فلان عدل وصوم، تريد عادلاً وصائماً، والمصدر هنا المراد به اسم المفعول، وقد كثر وصف الكتاب العزيز بأنه تنزيل، ولهذا الوصف معان منها أنه كلام الله القديم، وأنه نُزِّلَ من الكتاب المكنون واللوح المحفوظ وأن جبريل عليه السلام كان يحفظ الآيات من الكتاب المكنون، ثم ينزل بها على رسول الله ﷺ، ومنها الدلالة على النبوة لأن الكتاب لا ينزل من اللوح المحفوظ إلا على نبي، ومنها أن فى هذا التنزيل حجة النبوة لأن النبوة لا بد لها من برهان، وبرهان نبوته ﷺ كتابه، ولا بد أن يكون البرهان معجزاً لأنه لا يكون برهاناً إلا بإعجازه، وبذلك تدل كلمة التنزيل على الإعجاز. ثم إن كلمة تنزيل خبر عن «حم» إذا أولناها بما تصلح به مبتدأ أو هى خبر مبتدأ محذوف، وكلمة «من» ابتدائية يعنى تنزيل مبتدئ من الرحمن الرحيم، وكلمة الرحمن أوسع فى الدلالة من كلمة الرحيم لأن الرحمة فيها نعم المؤمن والكافر والإنسان والحيوان، وكلمة الرحيم تخص المؤمنين، وهذا معنى جليل جداً وفيه أن هذا الكتاب رحمة لمن آمن به ومن كفر به ورحمة لكل ذات كبد رطبة، ثم هو رحيم بالذين آمنوا به وعزروه وأنك أيها المؤمن بهذا الكتاب تأتيك رحمته من الجهتين جهة العموم وجهة الخصوص

وأن الرحمة الشاملة الغامرة فى الكتاب جعلت الرسول المرسل به رحمة «هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكل سورة من سور الكتاب مبدوءة بالرحمن الرحيم لأنها جزء من البسملة وهذا هو ينبوع معنى هذه السورة وأقوى ما يذهب به خوفه على

أمة ﷺ الذي دل عليه ﴿ قَلَمٌ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الذي خُتِمَتْ به غافر، ولذلك كان الانتقال من غافر إلى فصلت انتقالاً من كلام دال على شدة الغضب إلى كلام دال على سعة الرحمة، وقرأ آخر غافر موصولاً بأول فصلت ﴿ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾، ﴿ حَمَّ ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.

وقوله سبحانه ﴿ كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

الكلام انتقل عن الذي أنزل الكتاب مكتفياً بهذين الوصفين الجليلين ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إلى الكتاب والمنزل عليهم الكتاب، كل هذا في إيجاز شديد ومعان بالغة السعة، وقد ذكر الكتاب بثلاث كلمات فهو أولاً كتاب وهذه إشارة إلى أننا لابد أن نحفظه مكتوباً مسطوراً مضبوطاً أدق الضبط وأحكمه، ثم فَصَّلْتَ آيَاتِهِ يعني بَيَّنْتَ وأظهرت وحُسنت كما يفصل اللؤلؤ والياقوت، وتأمل كلمة فَصَّلْتَ في ضوء إلفك وصُحْبَتِكَ للكتاب وكيف تصرف فيه المعانى وكيف بَيَّنْتَ وكيف فصلت ثم كيف جَوَّدْتَ وحُسنت وبهرت وقهرت. ثم لاحظ أن كلمة كتاب بدل من كلمة تنزيل يعني هي مشتملة على معانى البرهان والإعجاز وأنه غير حادث، وراجع الثناء البالغ على الكتاب في هذه الكلمات ﴿ كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ولا يذهلك الإلف لكلمة ﴿ آيَاتُهُ ﴾ عن معناها العظيم وهي أنها آيات دالات على أن مصدره الرحمن الرحيم، وأنه لا يكون ولا يتوقع أن يكون إلا من الرحمن الرحيم لأن الآية معناها العلامة والبرهان الدال على النبوة وهي لا تكون من البشر البتة، ثم بعد هذه الكلمات التي كأنها ينابيع تفيض بأنوار البيان المبهج المعجز تأتي كلمة ﴿ قُرْآنًا ﴾ وجاءت منصوبة ولم تأت مرفوعة مثل كتاب لأن نصبها يدل على شيء جليل لأنها مصدر قرأ يعني هو قرآن مقروء أبداً متعبداً بتلاوته مقروء في الصلوات ومقروء في المحاريب ومقروء في الدور، وهو ذكر

يذكر عبادة الله به خالقهم قياماً وعوداً وعلى جنوبهم إلى آخر ما لا يستطاع الإحاطة به من جهة وصف الكتاب بأنه قرآن.

ثم تأتي كلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ في سياق وصف التنزيل وما يحيط به مما أشرنا إلى بعضه فينبهك هذا إلى مراجعة كلمة «عربي» وموقعها في هذا السياق الحافل بالتقدير والتعظيم والتنويه، وتجد أول ما تجد ملاءمة جليلة بينها وبين كلمة فَصَّلَتْ لأن التفصيل معناه البيان والعربي معناه المبين، لأن مادة أعرب معناه أظهر وأبان، وسميت العربية عربية لأنها أبين اللغات وأظهرها، ثم هي أشرفها وأكملها وأبعدها غوراً وحسبك بها وهي مذكورة في هذا المقام، وكل من يؤمن بأن الكتاب تنزيل على قلبه ﷺ ليكون من المرسلين يؤمن بهذا الذي أقول من غير لاجحة، لأن علو مقام العربية ليس من كلامي ولا من كلام أهلها وإنما هو من هذه الآية ونظائرها في الكتاب وهو كثير.

ومعلوم أن الصفة تكتسب قدرًا من قدرها من الموصوف، فكلمة عالم مثلاً في قولنا فلان عالم لها دلالة تختلف عن دلالتها إذا جاءت وصفًا لعالم الغيب والشهادة سبحانه، وقياس هذا حين نقول قرآن عربي. ونقول شعر عربي.

ثم إن كلمة «عربيًا» التي جاءت وصفًا لما قبلها فتحت باب المعنى للذي بعدها وهو قوله جل شأنه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ والفعل يعلمون بصيغة المضارع ومن غير ذكر مفعول له يجعل دلالته تتسع لأنه صالح لأن يكون معناه يعلمون هذا اللسان العربي. وعلمهم به كان هو العلم الأوسع والأنفذ والأشمل والأدق وما داموا يعلمون هذا اللسان علمًا متجددًا فهم لا محالة يعلمون قدر هذا الكتاب المنزل الذي فصلت آياته، ويعرفون أنه ليس من جنس كلامهم لأنهم يعرفون طبقات الكلام والفاضل والأفضل ويحتفلون ببلغة البيان، وقد اختاروا من أشعارهم قصائد وعلقوها في الكعبة ومن كانوا

كذلك لا تخفى عليهم الآية القاطعة الباهرة التي أنزلها الله عليهم، ووراء هذا إحياء خفى بأن ما هم فيه من لاجحة سيئتهى وأنهم سيدعون يوماً وينقادون للذى جتتهم به، وإذا قلنا إن الفعل ليس له مفعول وإنما هو منزل منزلة اللازم، كان المعنى أنهم من شأنهم أنهم يعلمون وأنهم مؤهلون بفطرتهم لعلم ما أودعه الله فى كتابه العزيز، وأنهم سيعلمونه يوماً علماً مستفيضاً وسيكونون مرجعاً للأمة وحجة فى دين الله وأنهم سيبلغون عن رسول الله ﷺ الذى بلغه عن ربه سبحانه، وأن علمهم بما أنزل الله، سيكون قاعدة فى علم هذه الأمة ترجع إليه فى كل أزمانها وأجيالها وهذا هو الذى كان.

وهذا الفعل مع احتمال هذين التأويلين فاتح باب قوله سبحانه بعده ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لأنه متضمن بشارة خفية بما سيؤول إليه هؤلاء المعاندون المعرضون.

وقوله سبحانه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ رجوع إلى الكتاب بعد هذه الوقفة الموجزة عند الذين أنزل عليهم الكتاب، ومعنى بشيراً ونذيراً يمكن أن يكون بشيراً لمن آمن ونذيراً لمن كفر، ويمكن أن يكون الكتاب نفسه يبشر يعنى يغرى بالأعمال الصالحة؛ وينذر يعنى يكف ويردع عن الرذائل والفساد، والكلام الذى مضى كله فى الكتاب مع هذه الانعطافة الموجزة والبالغة نحو الذين أنزل عليهم، وبهذا تم الكلام عن الكتاب وانتقل إلى بيان أحوال ومواقف الذين تلقوا هذا الكتاب وابتدأ الكلام بقوله سبحانه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الكلام السابق كان يقتضى معنى غير هذا المعنى. وكان الأصل أن يرتب عليه ضد هذا المعنى ولذلك نجد هذه الفاء تفيد ترتيب شيء على شيء لا يترتب عليه، وإنما الذى رتبه عليه هو الواقع كما تقول أكرمه فأهانه وأعطاه فمنعه، وكما فى قوله سبحانه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقد وقعت ثم مكان الفاء وما قبل كلمة ثم يقتضى أن يكون ما بعدها على غير هذا المعنى. وهذه الطريقة فى بناء

الكلام فيها تعجيب وإنكار ولوم وتنبيه إلى باطل يخالف المنطق ويخالف الفطرة وخصوصاً بعدما بين أنهم قوم يعلمون، يعنى هم يعلمون ما فى هذا الإعراض من ضلال ومخالفة لما فطروا عليه من دقة منطق واستقامة فكر وخصوصية نفس واتساع خواطر، ثم إن هذه الفاء تفيد أنهم أعرضوا فور نزول هذا عليهم من غير مراجعة وتدبر مع أن منهم من استمع وعرف وانقاد ودخل فى الدين، ثم إنهم أعرضوا والإعراض يعنى الانصراف والرفض من غير نظر، وليس هذا هو موقف العقلاء من هذا الأمر الجلل، وقوله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الفاء فيه غير الفاء التى قبلها لأنها تفسر أو ترتب معنى على معنى يترتب عليه، ثم إن الجملة بعدها مؤكدة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى فهى تؤكد نفى سماعهم، وإنما كان التوكيد لأنه أمر مستغرب لأن المنزل قرآن عربى لقوم لهم علم بهذا اللسان يالفون سماعه ويحسنون تذوق الكلام الجيد، وقد خالفوا مألوف عاداتهم فالمعنى الذى جاء فيه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى الشأن فيه ألا يكون، ثم إن هذه الجملة تفيد مزيد بيان لجملة فأعرضوا وأن إعراضهم لم يكن إعراضاً عن الكتاب فى مجلس قريب يمكن أن يسمع فيه القرآن، وإنما بالغوا فى إعراضهم وأبعدوا، ووراء ذلك معنى آخر وهو إحساسهم بالقوة البيانية والأمر الإلهى الغالب الذى فى القرآن، وأنهم يتهيون سماعه لثقتهم أنه يغلبهم على أهوائهم وباطلهم وهم أعلم الناس جميعاً بسر البيان، ولذلك كانوا يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ ولما أزال الله عنهم أفعال قلوبهم وسمعوا امتلكت القرآن أفئدتهم ولم يتقادوا لشيء كما انقادوا له، وفتحوا وصاروا من بحار العلم وأنهار الخير فى الأرض.

وقوله جل شأنه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَاعْمَلُونَ﴾ .

حدثت الآية الأولى عن أفعالهم وهو الإعراض المبالغ فيه والذى يؤول بهم إلى أن لا يسمعوا التنزيل. ومجىء فعل لا يسمعون من غير مفعول ليس

كمجىء فعل يعلمون الذى قبله، لأن الفعل هنا لا يحتمل تنزيله منزلة اللازم لأن المراد لا يسمعون القرآن وهو من باب أصغيت إليه أى أذنى يعنى له مفعول معلوم ولكنه حذف.

أقول: إن هذه الآية حديث عن أفعالهم وآية ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ حدثت عن أقوالهم وأنهم رفضوا التنزيل فعلاً وقولاً وتجد مقاربة شديدة جداً بين الفعل والقول، لأن جملة ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ تكاد تكون متضمنة لجملة ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ إلى آخره.

ويلفتنا ابتداءهم بذكر قلوبهم وكأنهم يعلمون أن هذا التنزيل قاصد إلى قلوبهم لأنها موطن الإيمان والكفر وموطن التغيير، وأن النفوذ إليها هو رسالة الأنبياء والمصلحين والمربين، وأنهم كانوا يضمنون بما فيها مما كان عليه آباؤهم ويروغون بها عن سماع كل ما يؤدى إلى مراجعة المكنون فيها من مألوف عاداتهم وما ترسخ من عقائد وعوائد، وقولهم ﴿ فِي أَكِنَّةٍ ﴾ خبر المبتدأ وهو خبر دال على مزيد من التوتر والمغاضبة وقوة الرفض. وذلك أن الأكنة جمع كنان وهو الغطاء والستر، وإنما يكون الغطاء والستر فوق المكنون المستور ولا يكون المكنون فى الأكنة إلا على سبيل المبالغة وأن القلوب ليست تحت الغطاء وإنما دخلت فى الغطاء وكنت فيه واستكنت، وهذا القدر من المعنى الذى جاء به حرف الظرف يدل على حدة الموقف وشدة الرفض والمبالغة فى الإعراض، وأنهم لم يسمعوا تم يرفضوا ولم ينظروا ثم يعرضوا وإنما رفضوا الأمر من أوله فلا سماع ولا نظر، وإنما هو الرفض القاطع لما جئت به حقاً كان الذى جئت به أم باطلاً، ولا بد من ملاحظة البيان الجليل الذى ذكر فيه الكتاب الذى فصلت آياته، لأن مراجعة الحديث الذى فى أول السورة يكشف قوة الرفض والمغاضبة والإصرار الذى عبر عنه الإعراض المبالغ فيه وعبر عنه القول الذى فيه هذه الحدة، لأن هذا الأمر بوجهيه أعنى ظهور آيات الكتاب وظهور قوة الرفض لهذه البيّة

الظاهرة كان أساساً تأسست عليه السورة وشرح على كل صورها وتراكيبها وأحوالها ومعانيها، وقوله سبحانه ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ جملة فيها احتياط دقيق ووعى جيد لأنهم لما قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أفادوا أنهم لم يستوعبوا شيئاً ولم يحصلوا شيئاً مما يدعوهم إليه، فلم يذكروا ما يدعوهم إليه باسم ولا بصفة، يعنى لم يقولوا قلوبنا فى أكنة من دينك ولا من قرآنك ولا من الذى أنزل إليك، وإنما أحالوا تعريف ما يدعوهم إليه إليه ﷺ إيغالا منهم فى التبرى منه، وقد كانوا مع باطلهم يقعون على دقائق المعانى.

وقوله سبحانه ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ الوقر معناه الصمم والشغل من قولهم أوقر ظهره أى أثقله، والعبارة فيها الإفراط فى المبالغة كالعبارة التى قبلها، وذلك لأن الأذن توصف بأنها صماء ولا توصف بأنها فيها صمم إلا على وجه المبالغة، لأن الوقر الذى هو الصمم مصدر وهذا يلائم كلمة ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ ووراء ذلك من حدة الرفض وتأكيد ما وراءه، ثم إنهم لم يكتفوا بالقول بأن القلوب فى أكنة يعنى لا يصل إليها شيء مما تدعو إليه، وإنما أضافوا أن الطريق الواصل إلى هذه القلوب وهى الأذن فيه وقر، وهذا أكثر من قلوبنا فى أكنة لأنه لا طريق للقلوب فى استيعاب الدعوة إلا الأذان، ومادامت قد أوقرها الصمم فلن يصل منها شيء إلى القلوب، وهذا يشبه قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَلَّوْا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧] راجع التدرج؛ والوقر فى الأذنين هو ذروة عدم الانتفاع، وقد جاء على سبيل التشبيه فى قوله كأن فى أذنيه وقرا وجاء على وجه التقرير والتوكيد فى الآية التى معنا ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

وقوله جل شأنه ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ معنى آخر وفيه غضب وفيه بغضاء لأن المسألة لم تتوقف عند سد كل الطرقات أمام دعوته المدلول عليه بالجملتين السابقتين، وإنما انتقل الكلام هنا إلى سد منافذ الرؤية، وكان عيونهم

لا تطيق أن تراه وآذانهم لا تطيق أن تسمعه، وقد لحظ الزمخشري في هذه الجملة، ملحظاً لا يدركه إلا من كان على مثله وذلك في ذكرهم لكلمة من الدالة على الابتداء، وكان يمكن أن يقال وبيننا وبينك حجاب ولو قالوا هذا لأفاد أن حجاباً بيننا وبينك في أى موقع من المساحة التى بيننا وبينك، أما إضافة كلمة «من» فإنها تعنى أن هذا الحجاب يشغل كل المساحة التى بيننا وبينك وأنه يندئ من عندنا ويتهى عندك، وكأنه سد قائم على كل ما بيننا وبينك .

وراجع الخصوصيات التى فى كل جملة ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وهذه الخصوصيات هى التى دلت على فرط الرفض وفرط البغضاء وفرط العناد، وهذا بيان مفصل لباب من أبواب الجدال فى آيات الله الذى أجملته سورة غافر وفصلته فصلت، ثم إن كل هذا الذى قالوه محصور فى رفضهم هم لما يدعو إليه ﷺ من غير أن يكون دالاً على مواجهتهم لدعوته خارج نفوسهم، وقد جاءت الجملتان الأخيرتان من كلامهم لبيان موقفهم من دعوته مع غيرهم وذلك قوله سبحانه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ وهذه الفاء ترتب قولهم «اعمل» على كلامهم السابق والمعنى هذا هو موقعنا من دعوتك فاعمل، لأنه لا قيمة لعملك ولا فائدة منه ويستوى عندنا أن تعمل وأن تسكت، ومن أجل المبالغة فى نفى أى قيمة لعمله ﷺ كما زعموا أمروه بأن يعمل أو ندبوه لأن يعمل لأنه يعمل فى غير ما يفيد كما تقول لمن تعارضه قل ما شئت أو افعل ما شئت فلن تجد أثراً لقولك ولا لفعلك، ومجىء الفاء الدالة على الترتيب تعنى مزيداً من التحدى والإصرار والثقة فى نفى أى أثر لعمله، والجملة الثانية ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ لها دلالة أخرى لأنها تؤكد عملهم بمؤكدين «إن» «واسمية الجملة» وهذه الاسمية دالة على الثبوت والدوام وهو يقابل التجدد والحدوث المفهوم من قولهم ﴿ فَاعْمَلْ ﴾ والمعنى الجديد فى هذه الجملة أنهم يؤكدون احتشادهم وجمع

عزمهم وجهدهم وبلائهم فى محاصرة دعوته ﷺ من الجهات كلها وكانهم بهذه الجملة يعلنون المواجهة العامة للدعوة ولا يكتفون برفضهم هم لسماعها وبهذا يعالونهم ﷺ بالعداء والحرب ويدعونهم للعمل الذى يحتشدون لإجباطه وإطفائه. وبهذه الجملة الأخيرة بلغ قومه ﷺ ذروة الرفض وذروة التحدى وذروة المحادة والمحاربة ثم انتهى بها كلامهم، وقد بلغوا ما بلغته عاد لما جحدوا وما بلغته ثمود لما عتوا عن أمر ربهم وما بلغه فرعون لما تولى بركته، ويبدأ يتكشف الفرق بين هذه الأمة وبين الأمم من قبلهم، وأن الله علم منهم ما يدفع عنهم عذاب الاستتصال الذى أخذ الله به الأحزاب من قبلهم ويبدأ سر الله فى هؤلاء المحادين الذين كانوا بعد ذلك أنهار خير، والسورة مكية وكان هذا القول شاملاً لمثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومعاوية وغيرهم ممن لم يسلموا إلا بعد الهجرة والفتح، ثم كان لهم من البلاء فى دين الله ما لا يجهره أحد، وهذا شأن خاص بهذه الأمة لم يكن منه شئ فى الأمم التى أخذها الله وهى ظالمة، استوصلت عاد وثمود وأغرق فرعون وآله ولم يلحق عليه السلام بالرفيق الأعلى إلا بعد أن دخل قومه فى دين الله أفواجا وهذا هو الفرق بين قومه والأحزاب.

وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

تعد هذه الآية مفصلاً من مفاصل البيان الفارق بين كلامين متباينين أشد ما يكون التباين، فقد سمع ﷺ مقالته السابقة وما تحمله من رفض وجهالة وشراسة وغشم، وما تحمله أيضاً من بغضاء ومحادة ومنازعة، وكان مقتضى الإلف والعادة البشرية أن يكون جوابه مشتملاً على قدر من رد الفعل لهذا التسلط وهذه العنجهية التى لم يكن لهم أن يخاطبوه بها لو لم يكن مبلغاً عن ربه، لأنه ﷺ كان سيداً فيهم وابن سيدهم بل وابن سادتهم، فجده عبد المطلب سيد قريش وعمه أبو طالب شيخ الأباطح وقومه بنو هاشم عز العرب ويؤول إليهم شرف ولد قصى وقريش كلها، كل هذا يجعل الجواب

المتوقع على هذه العنجهية الجاهلية غير خالٍ من رد الفعل، ولكن الأمر فوق كل ذلك لأنه أمر إلهي وأمر وحى وأمر بلاغ، ولذلك جاء الجواب من ربه وليس منه مع أنهم خاطبوه هو صلوات الله وسلامه عليه وقالوا ﴿قَلُّوبُنَا فِي أَكْثَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أقول: جاء الجواب ولم يترك ليجيب هو صلوات الله وسلامه عليه وكان الجواب صورة بالغة تجسد أسلوب الدعوة إلى الله وتجدد أسلوب مواجهة الإلحاد الشرس والبغض الأعمى. فقال جل شأنه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وتأمل الجواب وما فيه من مقاربة وموادة وملاطفة ومؤانسة، فقد بدأ بأداة القصر التي يؤتى بها في الأمر الذي لا يجهره أحد ولا ينكره أحد ولا مدافعة فيه، وهو بهذا يؤكد المعنى الذي دخلت عليه هذه الأداة وهو أنه منهم ومثلهم ولا فضل له عليهم في شيء ولا يزيد عليهم في شيء، وهذه الجملة تعود إلى كلامهم السابق لتكشف من ورائه شيئاً وهو أنهم أكدوا رفضهم ولم يشيروا إلى سببه، وهذه الجملة تشير إلى هذا السبب وهو أنهم يعتقدون أنه بادعاء الرسالة يتميز عليهم ويجعل لنفسه عليهم سلطاناً، وهذا هو مقصود هذه الجملة لأن كلامهم السابق لم يتعرض لبشريته ولا لأنه مثلهم، فلا وجه لقوله في جوابه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ إلا أن يكون هذا موجهها ليس إلى رد كلامهم وإنما إلى رد جذر كلامهم وعلته وسببه وخصوصاً هذه الحمية التي بدأ فيها الإحساس بقطيعة الأرحام التي بينه وبينهم من قولهم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾، ولم يكن في قريش دار إلا ولرسول الله ﷺ فيها قرابة ورحم، وقوله ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ مزية عالية وفضل بالغ يعلو به قدره على الناس ولكنه لا حول له فيه ولم يطلبه ولم يسع إليه، وإنما هو فضل تفضل الله به عليه وهذا هو سر البناء للمجهول في هذا الفعل، وهذا كلام قادر على استلال السخائم وإطفاء وقدة البغضاء التي بدت في كلامهم، وقلت إن هذه الآية مفصل وأنا أريد أنها تبين الفرق بين معدن كلام الله ومعدن وكلام الناس وأنها أملت على رسول الله ما يقوله من كلام

رب العالمين الذى هو أعلم بأحوال خلقه وكيف يستل سخائهم، ثم إن كلمة ﴿قُلْ﴾ هذه المنبئة عن التلقى عن الله استمرت فى عرض الآيات فانتقلت من هذا إلى قوله ﴿قُلْ أُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمين﴾ ثم انتقلت مع انتقالات الآيات إلى قوله ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ إلى آخره، ولهذا قلت إن هذا البيان فى هذه السورة أشد ترابطاً من أن تصفه كلمة الجاحظ العالية والتي يذكر فيها الكلام الآخذ بعضه بحجزة بعض. لأن كل هذا متولد بعضه من بعض، وخروج المعنى من المعنى أقوى فى الترابط من أخذ الحجزة.

وقوله جل شأنه ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو نائب فاعل يوحى ولم يزد فى بيان ما أوحاه الله إليه على هذه الحقيقة؛ وما جاء بعدها من قوله ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ إلى آخره كل ذلك من توابع ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وكل هذا لتقريب ما يدعوهم إليه وأنه ليس بعيداً عنهم وليس مجهولاً لهم، فقد بقيت فيهم بقية من دين أبيهم إبراهيم ولا يزال بعضهم عليها. والبيت فيهم يحجون إليه وهم يعلمون أنه بيت الله، والأوثان التي يعبدونها يقولون إنها ليست معبودة لذاتها وإنما هي معبودة لتقربنا إلى الله، ثم إن فيهم من طلب الدين ورفض هذه الوثنية كورقة بن نوفل وغيره، وكل هذا يفيد أن أصل ما يدعوهم إليه ليس غريباً عليهم، ثم إن العبارة ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فيها مقاربة شديدة وملاطفة أيضاً ودعوة خفية إلى إصلاح ذات بينهم نجد ذلك فى قولهم ﴿إِلَهُكُمُ﴾ وأن وحدانية الإله أدعى إلى تقرب ما بينكم وهذا بخلاف أن لكل قوم إلهها، ووراء ذلك أن الإله هو الخالق وأنتم تعلمون ذلك وإذا سئلتهم من خلق السموات والأرض قلتم الله، وهذا القوى القادر الصانع الخالق لا يتسع الكون إلى اثنين منه فالوحي الذى يوحى إلى هو الفطرة وما تقتضيه العقول المستقيمة وأنتم من ذوى الأحلام الراجحة ولا يخفى عنكم سداده، وأنه هو الحق وهو الذى يحقق لكم الخير ويجمعكم على

الاستقامة والطاعة وهكذا نجد الجملة ﴿أَنْتُمْ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ توشك أن تكون أصلاً من الأصول الضرورية للاجتماع البشرى، وتوشك أن تكون بلسما شافيا لما هم عليه من أوصاب، وكانت الضرورة ملحة على وجود جامعة تجمعهم، ثم إن هذا الإله الواحد لم يكن أقرب إلى أمة من أمم الأرض منه إلى الأمة العربية مع شيوخ الوثنية، وذلك لما قدمناه من بقية دين أبيهم إبراهيم ولكانهم من بيت الله الذى كانت العرب كلها مجمعة على تعظيمه، وبهذا الأصل القاطع والمؤسس لما جاء به عليه السلام وهو الوجدانية والذى لهم به عهد قريب واجهت الآية هذه الغطرسة المتمثلة فى قوله ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ وما بعده، وهذا من عجيب الحكمة لأنها خاطبت النافر المبالغ فى الجنوح والعتو خطاباً قريباً جداً وسهلاً جداً وبينت له أن جنوحك هذا لا أصل له لأنى أدعوك إلى إلف مألوف عندك وفى أرضك وتحت بصرك وأنتم أهل الحرم الآمن.

وقوله جل شأنه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ كلام بالغ الدقة والحكمة لأن هذه الفاء ترتب الاستقامة التى يجب أن تكون على شريطة الوجدانية على الإيمان بها، وأن هذا مقتضى الفطرة والمنطق وأن الإيمان يجب أن يترتب عليه السلوك وأن يتواءم معه، وأن من آمن أنه لا إله إلا الله فالواجب أن يتعدل سلوكه على طريق الوجدانية المستقيم وأن الفصل بين الاعتقاد والعمل من الأخطاء الفادحة فى تاريخ الناس. وكذلك الفصل بين النظرية والتطبيق فى السلوك كله من الأخطاء الفادحة والمنتشرة جداً، وكان مقتضى القياس أن يقول فاستغفروه واستقيموا إليه لأن الاستغفار هو الأداة المينة على الاستقامة التى هى الغاية ونهاية الطريق، ولكنه خالف وقدم الاستقامة لمزيد العناية بها لأن الاستقامة شاملة للسلوك والذكر والدعاء والاستغفار، ثم عطف عليها الاستغفار لمزيد العناية ببراءة أهل التوحيد من الذنب وضرورة أن يغسلوا أنفسهم فى كل حال مما يقترفون والاستغفار هو الأقدر على ذلك.

وقوله ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أيضاً كلام نفيس جداً وحكيم جداً وملاطف جداً لانه عدل عن أسلوب الخطاب الذى تراه فى قوله ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ إلى طريق الغيبة فى قوله ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ مع أنهم قالوا: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وبهذا العدول سلم الكلام من التهديد المباشر لهم وانصرف إلى التهديد الغاضب لكل من أشرك، وصار تهديدهم مدلولاً عليه بالدلالة التضمنية، ثم إن هذه الكلمة راجعة إلى الجذر الذى تأسست عليه الدعوة وهى التوحيد المدلول عليه بقوله ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لأن مجافاة هذا الأصل وعدم صفاته وخلوصه ونقاته تدمير للإيمان وفتح لأبواب الويل.

ثم إن كلمة ﴿قُلْ﴾ التى فى قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تعنى أنكم حين قلتُم فاعمل إننا عاملون لا تتجهون بتهديدكم إلى الذى تخاطبون لانه مبلغ لا غير، وإنما أنتم تحادون الذى أرسله والذى أوحى إليه ولستم برادين على محمد صلوات الله وسلامه عليه قوله وإنما أنتم رادون قول الله الذى هو إلهكم إله واحد، ثم إن التهديد الذى فى قوله ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ليس تهديداً لكم من جهة محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد غفلتم غفلة شديدة حين توهمتم أنكم فى مواجهة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ويجب أن تعلموا أنكم تحادون الله، وكل هذا جرى فى خواطرهم وكل هذا كان له الأثر البالغ فى شكهم فى الذى هم عليه، ثم فى تراجعهم عنه ودخولهم فى دين الله أفواجاً.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذا تفسير للمشركين ثم هو تفسير بغير ما يدل عليه الكلام السابق لأن الكلام السابق يؤسس ما يوحى إليه ﷺ على الوحدانية والمشرك ليس موحدًا، وإنما هو معتقد التعدد وهذا ظاهر، أما الذين لا يؤتون الزكاة فإن اعتبارهم مشركين أمر مشكل وخصوصاً أن الزكاة فرضت بأنصابتها فى المدينة والآية مكية، وقد

قالوا: فى بيان ذلك كلاما كثيراً منه أنه كانت هناك زكاة فى مكة قبل فرضها فى المدينة وكانت بمثابة صدقات، وعدم إتيانها لا يعنى الشرك، وقالوا: إن عدم إيتاء الزكاة يعنى عدم الشفقة على خلق الله، وقالوا: إن السعادة تتحقق بأمرين الأول الإيمان بالله والثانى الشفقة على عباده وكأنها من أمارات الإيمان وإن لم تكن منه، وعلى ذلك يكون دلالتها على الشرك دلالة إشارة وأن الإيمان يرقق القلوب ويعطفها نحو ذوى الحاجات ويقودها إلى سبل مرضاة الله، ومن أهمها مساعدة ذوى الحاجات، وهذا كله ظاهر التكلف، وقالوا: إن المراد بالزكاة هنا طهارة القلوب بالإيمان كما قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وإن كان كلمة ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾ تعكر على ذلك، وقد روى عن ابن عباس لا يؤتون الزكاة لا يقولون لا إله إلا الله. والذى أراه أقرب هو القول بأن المراد بالزكاة هنا هو الزكاة المفروضة التى هى أخت الصلاة، وإنما ذكرت بين الشرك وإنكار البعث للإشارة إلى أنها عند الله بمكان على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أراد ومن لم يحج وإنما عبر عنه بقوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ للإشارة إلى أن حج المستطيع عند الله بمكان، وله نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز.

وإذا قلنا إن الواو التى فى قوله جل شأنه ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ واو الحال يكون عدم إيتائهم الزكاة مقيداً بهذه الحال وهو كفرهم بالآخرة، وبهذا يصح أن يكون تفسيراً للشرك لأن الحال وإن كانت خبراً فهى جزء من الخبر الأول وهو لا يؤتون الزكاة، ويبقى شىء وهو كيف يكون عدم إتيان الزكاة هو الخبر الأسمى والكفر بالبعث هو الخبر الفرعى والمقام مقام تفسير الشرك؟ ويجب عن هذا أن القصد للإشارة إلى أن الزكاة عند الله بمكان وأن مانعها يقال فيه كفر كما وصف من لم يحج، وجملة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

كافرون ﴿ فيها أولا تقديم الجار والمجرور لأن الآخرة هي الأهم والآية بها أعنى . وهم الثانية ضمير الفصل وهم الأولى مبتدأ وكافرون خبر .

والقول بأن آية ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ تفسير للمشركين هو ظاهر اللغة لأن الذين لا يؤتون الزكاة بدل من المشركين، ويؤيده تفسير ابن عباس السابق وهو قوله: لا يقولون لا إله إلا الله، وأراد معنى لا يؤتون الزكاة التي هي بالمعنى اللغوي وهو التطهير والتزكية، ومن تمام البيان أن تقول إن هذا لا يلزمه أن يكون كل مشرك منكرا للبعث لأن الذين يقولون عزير ابن الله والذين يقولون المسيح ابن الله مشركون لأنهم جعلوا لله ولدا وما كان لله أن يتخذ من ولد وهم مع ذلك مقرون بالآخرة، كما أن الإيمان بالله وحده لا يلزمه الإقرار بالآخرة والحياة الثانية، فقد رأيت لفظ الجلالة في شعر الجاهليين وأنه ينزل السحاب وأن مقادير العباد بيد قاهر غالب إذا حاول الأمر لا يغلب، ويقولون الله الذى خلق السموات والأرض ومع ذلك ينكرون البعث والآخرة، ولا شك أنهم لا يذكرون الله على الوجه الذى جاء به الشرع، ولم يكن رسول الله ﷺ بدعا حين اعتزل وتعبد قبل أن يبعث صلوات الله وسلامه عليه، وإنما فعل ذلك رجال من قومه صلوات الله وسلامه عليه، ومسألة أن الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير والسماء ذات الأبراج تدل على الإله الخالق كل ذلك مشهور ولم يلزم منه الإيمان بالبعث .

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ومن المهم جداً مراجعة الآيات لا لمعرفة معناها لأن هذا قريب وإنما لمعرفة موقع معناها من المعانى قبلها وإلى أى منها ترد وكيف استقام بها النسق وكيف التأم وكيف تولدت ومن أى نبعة تخلقت؟ لأن الجملة قد تبدو غريبة فى موضعها فإذا روجعت ظهر نسبها فى عرقها، والآيات التى معنا تبدأ برده عليه السلام بأمر ربه وقوله له ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ وهنا انتهى الكلام وهو ملخص لكل ما جاء

به صلوات الله وسلامه عليه، وتستطيع أن ترجع بكل ما فى الشريعة إلى هذه الحقائق الثلاثة التى هى الوحداية والاستقامة والاستغفار، وحرف الجر فى قوله ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ ومجىء إلى بدل اللام لإشراب الاستقامة معنى التوجه، يعنى إذا قلتى لا إله إلا الله فلتكن هذه الكلمة كلمة التوحيد والتى هى أفضل ما قالها ﷺ والنبون قبله وهى أيضاً كلمة التقوى، إذا قلتى لا إله إلا الله فلا ينبغى ولا يليق بمن قالها أن يكون له وجه يتجه إليه إلا وجه الله سبحانه فهو المائل أمامكم فى كل تصرفاتكم فى العلم والعمل. وقد سأل سفيان الثقفى رسول الله ﷺ وقال له «يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال عليه السلام: «قل آمنت بالله ثم استقم» يعنى أن من عرف هاتين فقد عرف الإسلام كله، وكلام المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مقتبس لفظاً ومعنى من الآية.

قلت: إن الكلام انتهى عند قوله ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ وهذا من الإيجاز المعجز. ثم جاء بعد ذلك الخبر عن من آمن ومن كفر يعنى من قال لا إله إلا الله ثم استقام، ومن رفض لا إله إلا الله ولم يستقم، وإنما قُدّم خبر من رفض وعاند على خبر من انقاد واستقام واستغفر لأن الكلام فى الرد على غطرسة المعاندين المتجبرين الذين حادوا الله ورسوله وقالوا فاعمل إننا عاملون، فذكر عذاب المشرك الرافض للوحداية والرافض للانقياد وكذب الدين ودعّ اليتيم ولم يحض على طعام المسكين، وهذا قريب جداً من معنى لا يؤتون الزكاة، وكفر أيضاً بالبعث وجعلت الآية هذين المنكرين منع الزكاة أو الكفر بالبعث تفسيراً للشرك، ثم وبعد ما أوجزت هذا وأشبعته وفتحت أبوابه وفتقت مسائله رجعت إلى إيحاز خبر من قال لا إله إلا الله ثم استقام واستغفر، وهذه هى الآية التى معنا يعنى هى الفرع الثانى للجذر الأول.

والآية الكريمة جملة واحدة مستأنفة ومؤكدة بأن لأن الذى يسمع ما قبلها تستشرف نفسه إلى معرفة الفريق الثانى. وكأن معناها يعتلج فى نفسه لما سمع

خبر المشرك وتهديده بالويل وتفسيره تفسيراً متسعاً وليس جامعاً ولا مانعاً وألحق الذى لا يؤتى الزكاة المفروضة به والذى ينكر البعث به، كل هذا يجرى فى خواطره أن الفريق المؤمن المستقيم على حال آخر غير هذا الحال فجاء الكلام مؤكداً لذلك كما جاء مؤكداً فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ اِنْ النَّفْسِ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ثم إن الاسم الموصول جاءت صلته مكونة من فعلين جامعين لأمر الدين كله وهذا عجيب جداً، الفعل الأول هو آمنوا يعنى آمنوا بالذى أوحاه الله إليه صلوات الله وسلامه عليه وهى إلهكم إله واحد وما يترتب على ذلك من الاستقامة والطاعة، والفعل؛ الثانى هو قوله سبحانه ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ومن العجيب الجامع المذهل أن المؤمن لا يطمح إلى شىء فوق هذين الفعلين الموجزين للإيمان والعمل الصالح، وإذ راجعنا قاعدة النحاة وهى أن الصلة لا بد أن تكون أمراً معلوماً للمخاطب دلنا ذلك على أنه كان هناك ناس موصوفون بهذين الوصفين ومعروفون بهما، لأنك لا تقول إن الذين قالوا كذا أو فعلوا كذا من أمرهم كيت وكيت إلا إذا كان المخاطب يعلم أن هناك ناساً قالوا كذا أو فعلوا كذا، وهذا ظاهر ويجب أن يلاحظ فى بيان المعنى، وهؤلاء المعروفون هم الذين دل عليهم الكلام دلالة ضمنية غامضة فى قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لأن فحواه وأقبل أقلهم، فهم هذا الأقل. والخبر قوله جل شأنه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ولا يكون الخبر إلا بعد تمام الصلة بفعلها الإيمان والعمل الصالح والممنون المقطوع وغير الممنون غير مقطوع، وهذا مقابل ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة، فالإيمان بالله الواحد يقابل الشرك وعمل الصالحات يقابل ﴿ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والأجر غير المقطوع يقابل الكفر بالآخرة وإن كانت المقابلة ليست صريحة وهذا ظاهر، وقوله جل شأنه ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِيْنَ ﴾ وما بعدها ﴿ اِنْ اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا ﴾ وما بعدها يتصلان

اتصالاً ظاهراً بقوله ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وبعض علمائنا يرى أن آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ داخلة في التهديد والوعيد لأن أصحاب الويل من المشركين يسوؤهم ويزيد في عذابهم أن يروا الذين آمنوا في أجر غير ممنون، وقبل أن تنتقل مع الآيات أشير إلى البلاغة العالية في اختيار المفردات التي تكسب الكلام سعة في الدلالة مع إيجاز اللفظ، وأنا أعنى كلمتي فاستقيموا إليه وعملوا الصالحات، لأن الاستقامة تشمل أمر الدين كله كما قال عليه السلام للثقفى الذى طلب من رسول الله ﷺ أن يقول له قولاً فى الدين لا يسأل عنه أحداً بعده وكذلك كلمة «الصالحات» لأنها أخت كلمة ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ ونحن نضيق دلالة عمل الصالحات ونحصرها فى التكاليف الشرعية كالصلاة والصوم والذكر، وهى ليست كذلك لأنها تشمل كل عمل صالح تصلح به حياة الأمة ما دامت النية متجهة إلى ذلك، فكل عامل يعمل عملاً ما لصالح هذه الأمة وهو يتغنى بإصلاحه وإتقانه وإحسانه نفع هذه الأمة الموحدة فهذا العمل عمل صالح، فالمعلم الصادق القاصد إلى أن يحسن تعليم أبناء المسلمين وأن يخرج منهم رجالاً صالحين تنهض بهم، عمله هذا من صميم العمل الصالح، وكذلك الصانع والزارع وكل ما يياشره الإنسان ويحسه ويتقنه بهذا الهم وهذا القصد فعمله هذا من الدين وأمر المسلم كله خير وبهذه الآية يتم هذا المعنى. ويتنقل الكلام إلى بيان البرهان القاطع الذى يُقَرُّون به وهو قاطع فى الدلالة على الوحدانية التى هى رأس الأمر فى السورة، وقد ابتدأ هذا القسم بقوله سبحانه لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ ذِكْرٌ وَالَّذِينَ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ بِهِ فَسُحْقًا لَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٠) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ لِّلسَّائِلِينَ (١١) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١٢) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿

وهذه الآيات الأربع معنى واحد. آيتان فى أحوال الأرض، وآيتان فى أحوال السماء.

وتكرار كلمة قل يرجع بها إلى كلمة تنزيل من الرحمن الرحيم، وأن هذا الذى يتلوه علينا صلوات الله وسلامه عليه هو التنزيل. وأن شرح هذه الحقائق وبيان هذه الأدلة هى من رحمة الرحمن الرحيم.

وقوله سبحانه ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ هو رأس المعانى فى هذه الآيات الأربع لأن أصل المعنى فيها هو الإنكار والتعجب والتجهيل لمن يكفر بالذى هذا صنعه، ثم ما جاء بعد ذلك من جعل الرواسى فيها. والاستواء إلى السماء، وقوله للسماء والأرض اثتيا طوعاً أو كرها؛ كل هذا من تفاصيل الأدلة المحمولة على هذا الإنكار.

ودخول همزة الاستفهام على الفعل أو الفاعل أو المفعول كل ذلك ظاهر، والمقصود بالهمزة هو ما يليها، وكذلك دخولها على الجمل إذا كان المراد بها السؤال عن السببة، أما دخولها على الجمل المؤكدة فذلك مما يحتاج إلى مراجعة وخصوصاً إذا كان المراد بالاستفهام فى الظاهر معناه الأسمى وهو طلب الفهم كالذى يجرى على لسان الخلق فى الكتاب العزيز من مثل قول أخوة يوسف عليه السلام ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] لأن الشك الذى هو معنى السؤال يتعارض مع معنى التوكيد، والوجه فيه أنهم يسألون عن معنى مؤكد عندهم وأنهم استيقنوا أنه يوسف، وإنما أرادوا أن يقر لهم بذلك، ولهذا قال عليه السلام فى الجواب أنا يوسف وهذا أخى. وعليه إذا قلت لمن كنت تنكره أنك لأنك زيد لم تقل هذا إلا إذا كنت مستيقناً أنه زيد، وإنما تريد إقراره، ومثله أنك لأنك الذى قال كذا أو فعل كذا، وكأن هذا الاستفهام يؤول فى النهاية إلى معنى التقرير.

وقوله فى الآية ﴿أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ همزة الإنكار داخله على هذه الجملة «إنكم لتكفرون» وهى جملة مؤكدة بما ترى، والتوكيد قيد فى الجملة والإنكار

قد يتوجه إلى القيد وقد يتوجه إلى المقيد، والفصل في ذلك للسياق وهو هنا يوجه إلى الكفر الذى هو المقيد والتوكيد لتوكيد للإنكار وليس الكلام إنكاراً للتوكيد وهذا ظاهر، وليس أمامنا فى فهم هذه الأساليب إلا أن نقرأها بدون الهمزة ونحكم فهم المراد منها ثم نتبين أن المقصود بالهمزة استفهاماً أو إنكاراً أو تقريراً داخل على هذا المراد من الجملة، والفعل المضارع فى قوله «تَكْفُرُونَ» فيه مزيد عن الاستهجان والإنكار، لأن معناه أن كفرهم يتجدد والأدلة القاطعة ببطلانه تحت أعينهم، وإيثار اسم الموصول بدل لفظ الجلالة الذى هو أجل وأهيب لأن اسم الموصول فيه إلزام بالدليل. وذلك لأن الصلة لا بد أن تكون أمراً معلوماً عند المخاطب حتى يتم بها التعريف، ومعنى هذا أنهم يعلمون أنه سبحانه خلق الأرض. ومُقَرُّونٌ بذلك بدليل قوله جل شأنه ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] وهذا يجعل الإنكار أوقع وأعجب، ويجعل الدلالة على مجافاة المنطق وما تقتضيه الفطرة أظهر وأبين، وهم قوم معروفون بأحلامهم، وعقولهم وقوة خواطيرهم، وانقيادهم لما يقتضيه العقل. وهذا ظاهر جداً فى شعرهم وآثارهم وقوله سبحانه ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ قالوا: الواو فيه عاطفة على قوله ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ وهو عطف تفسير يعنى أن المعطوف مفسر للمعطوف عليه، لأن المراد بالكفر هو جعل الأنداد لأن الكفر بمعنى الجحود لم يكن عليه العرب لأنهم مُقَرُّونٌ بالله ومُقَرُّونٌ بأن الأصنام تقربهم زلفى إليه، ولذلك كانوا أقرب أهل الشرك إلى التوحيد، وإنما جاء الكلام على الصورة التى جاء عليها ولم يقل أنتم لتجعلون للذى خلق الأرض أندادا، وذلك للإشارة إلى أن جعل الأنداد لله من صريح الكفر، والمراد بالأنداد جمع ند وهو المساوى والنظير. وتأمل ما فى الجملة من التشهير بأحلامهم وكأنهم فتنوا عن عقولهم لأنهم جعلوا للذى خلق الأرض أندادا من حجارة منصوبة وخشب منجورة، وهذا ليس لفتا بالغا فحسب وإنما هو تحريك قوى لنفوسهم وزلزلة شديدة تخرجهم عن غفلتهم وإثارة وتهيج.

والواو التي في قوله سبحانه ﴿وتجعلون له أندادا﴾ الأصل ألا تكون لأن الجملة الثانية مفسرة كما قلت، وإنما جرى بها للتحويل والتفطيع وكأنهم فعلوا أمرين عظيمين الكفر وجعل الأنداد.

وجملة ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ بنيت على القطع والاستئناف وذلك دال على شدة العناية بمضمونها وذلك دال على فساد الاعتقاد الذي صورته الآيات السابقة، وكان هذا الاستئناف يضرب عنه صفحا ويستأنف بيان الحق الأبلغ الذي لا يجوز لصاحب العقل أن يتجاوزه، ولذلك بدأت باسم الإشارة الذي يشير إلى أن معناه ظاهر ظهورا كأن العين تراه والأصابع تشير إليه وأن من خلق الأرض في يومين لا يختلف أحد في أنه رب العالمين وأنه سبحانه يتميز بذلك ويتفرد به وأنه سبحانه في عليائه لا ينازع ولا يزاحم، والعالمون هم العقلاء من الناس. وفيه غمز ولز لأن من ينكر ذلك ويستخذ لله أندادا ليس من العالمين، ثم إنه إذا كان رب العالمين العقلاء الذين سخر الله لهم ما في الأرض فهو رب كل شيء بطريق الأولى، ثم إنه ذكر الرب للإشارة إلى أنه يرعاهم ويحوظهم ويرزقهم وهو الرحمن الرحيم.

وقوله سبحانه ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا﴾ هو وما بعده إلى آخر الآيات الأربع معطوف على الصلة في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ والكلام أصله أنكم لتكفرون بالذي خلق وجعل وبارك وقدر واستوى وقال لها وللأرض إلى آخره، وهذه الجمل الكثيرة داخلية في جملة واحدة هي التي بنيت عليها هذه الآيات، وجملة ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ المستأنفة جاءت مقحمة ومعتضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وذلك للإشارة إلى معنى جليل جداً وهو أنه سبحانه حقيق بأن يعبد وحده لا إله غيره، يخلق الأرض في يومين، فكيف جعلتم له أندادا وقد زاد على خلقها بأن جعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها واستوى إلى السماء إلى آخره، وكل واحدة من هذه الأفعال تجعله وحده الحقيق بالألوهية، وهذا فيه من زيادة التشهير بما هم عليه ما فيه.

ثم إن تقديم جملة ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وكان الظاهر أن تكون خاتمة هذه الآيات البيّنات، والأدلة الظاهرة فيه إشارة إلى أن المعجز قليله ككثيره فى الدلالة على ما يراد به الاسدلال عليه، وكل هذه الأفعال المذكورة يستحيل صدورها من غير الواحد الأحد فلا فرق بين أن تؤسس جملة ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ عليها مجتمعة أو على واحدة منها، وهذا جيد.

وقوله ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا﴾ فيه دلالات جيدة أولها أن كلمة جعل تعنى أن شيئاً موجوداً ثم جعله سبحانه رِوَاسِيًا، فهى ليست دالة على خلق الرواسى وإيجادها لأن الرواسى خلقت مع الأرض فى يومين، ثم جعل سبحانه هذا المخلوق الذى صار رِوَاسِيًا جعله سبحانه رِوَاسِيًا، ومعناه أن كل سا فى الأرض من مادة خلق مع الأرض ثم كانت التفاصيل والوظائف لهذه المادة بعد الخلق، وكلمة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا﴾ كان يمكن أن يقال فى معناه جعل رِوَاسِيًا فوقها وأن يستغنى فى الظاهر عن هذا الظرف، وإنما جرى به للإشارة إلى أن الرواسى فيها يعنى فى باطن الأرض ومن فوق الأرض. فهذه الجبال نرى منها ما نراه وأصلها فى الأرض لا نراه ولهذا سميت أوتاداً والوتد بعضه ظاهر وبعضه خفى. وذكرت هذه الجملة بعد خلق الأرض لأنه أول ما يكون بعد الخلق، لأن هذه الرواسى هى التى تمسك الأرض أن تميد وهذا يكون قبل أن يقدر فيها أقواتها، وقوله ﴿وَبَارَكْ فِيهَا﴾ قدم على قوله ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ حتى يأتى التقدير بعد هذه البركة ويكون له نفع وله دوام، ومعنى ﴿وَبَارَكْ فِيهَا﴾ أودع فيها البركة فلا تنفد خيراتها، ترى ظاهرها يمد بالخير الذى لا ينفد فياكل منه الإنسان والأنعام والطيور، وترى باطنها يمد بالخير الذى لا ينفد من معادن وثروات، وترى البركة فى برها وبحرها، ترى عطاء مستدفقا فى كل شبر من ظاهرها وباطنها، وكلمة ﴿وَبَارَكْ فِيهَا﴾ كلمة شديدة الاختصار ومسعة المعنى جداً ولا أستطيع ولا يستطيع أحد أن يلم بهذه البركات التى فى الأرض.

ومثلها فى الإيجاز وسعة المعنى وعمقه وإعجازه قوله جل شأنه ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ وقد فسرهما الشيخ الطاهر بأنه سبحانه أوجد فيها الطاقات والقدرات المنتجة لأقوات من يعيشون عليها من إنسان وحيوان وطير، حتى ديدان الأرض تجد فى الأرض أقواتها، وحيتان البحر تجد فى البحر أقواتها، وهذا التعبير الموجز والمكون من ثلاث كلمات ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ وراءه من الفعل والخلق فى البر والبحر ما لا يحاط به، وهذا إعجاز ظاهر ولم أجد فى كلام العرب كلاما يشبهه، ثم إن البركة فيها وتقدير الأقوات ليس فى جيل واحد وإنما فى أجيال تتعاقب، وكلما جدت هذه الأجيال فى استثمار هذه الأرض أمدتهم الأرض بالمزيد من خيراتها وعطائها، لا تضن على من جد مسلماً كان أو كافراً، وقوله سبحانه ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ هذه الأربعة هى يومان خلق فيهما الأرض ويومان جعل فيهما رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وكلمة ﴿سَوَاءً﴾ قرئت بالجر صفة لأيام وقرئت منصوبة على الحال وقرئت مرفوعة خبراً لمبتدأ محذوف، يعنى هى سواء والمراد أنها أربعة أيام كاملة وإنما جمعت الأيام الأربعة لهذا الغرض ولو جاء البيان بالتفريق يعنى خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى وبارك فيها وقدر فيها أرزاقها فى يومين لا تحمل الكلام أنها ليست كاملة لأنك تقول فعلت هذا فى يومين إذا فعلته فى أكثر اليومين ولم تستغرق، وقد نبه العلماء إلى أن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها وإنما كان كل هذا قبل خلق الشمس وقبل طلوعها وغروبها، بل وقبل خلق السموات والأرض والكواكب، وهذا يعنى أن الأيام المذكورة ليست من أيام الدنيا المعروفة وإنما المراد ما هو قدر اليومين وقال بعض المحدثين إن الأيام هنا من أيام الله التى ذكرها فى كتابه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] وقال جل شأنه ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وهم يحاولون بذلك تقريب الآية من الدلالة على ما يقوله علماء الفلك فى أصل خلق

الأرض والسماء والكواكب وأن ذلك استغرق ملايين السنين، ولا أرى حاجة إلى ذلك لأن الكلام كلامه والخلق خلقه ولن ينعارض كلامه مع سننه في خلقه وإذا ظهر تعارض فمرجهه إلى خفاء بعض الحقائق علينا.

وقوله سبحانه ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ من أعجب الكلمات التي تراها قد وقعت موقعا وهي فيه صالحة لأن ترتبط بكلمات كثيرة سبقتها وكأنها لم تكن إلا لها. بيان ذلك أنها تنازعتها كلمات قبلها فهي صالحة لأن تكون مرتبطة بقوله سبحانه ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾ أى بارك فيها للسائلين الطالبين خيرها، وأن تكون متعلقة بقوله ﴿وَقَدَّرْ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ للسائلين الطالبين هذه الأقوات، وأن تكون متعلقة ﴿أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سِوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ أى الطالبين معرفة عدد هذه الأيام، وكل ذلك مستقيم وجيد، وهو باب من أبواب الإيجاز العالى الذى قلما رأيته فى غير كلام الله، قالوا: ويجوز أن تكون بقية جملة حذف أولها أى بينا ذلك للسائلين، ويكون المبيّن كل الذى مضى ابتداء من قوله سبحانه ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

قوله سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

انتقل الكلام من بيان الأدلة القاطعة القاهرة على الوجدانية والتمجلية فى خلق الأرض ورواسيها وبركاتها وأقواتها إلى بيان تجليات هذه البراهين القاطعة فى السماء، ويلاحظ أن الأرض والسماء ذكرتا كثيراً فى الكتاب العزيز من أدلة الوجدانية ولكن لم يكن القصد إلى الخلق والنشأة، وإنما كان القصد إلى أحوال لكل منها، فيها البرهان القاطع كإحياء الأرض بعد موتها، أو جعلها مهاداً وبساطاً، وكرفع السماء من غير عمد ترونها، أو تزيينها بمصابيح، أو أن فيها رجوماً للشياطين إلى آخر ما ذكرت فيه الأرض والسماء دليلاً على الصانع القادر القهر سبحانه، ولم تذكر الأرض والسماء من حيث

الخلق والنشأة بهذا التفصيل وهذا البيان إلا في هذه السورة وهذا مناسب جداً
لكلمة ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ٣].

وكلمة ثم التي ابتدأت بها هذه الآية فتحت باباً من الاختلاف في توجيهها
لأنها تعنى أن خلق الأرض سابق لخلق السماء، وهذا يتعارض تعارضاً
صريحاً مع ما جاء في آيات كثيرة دالة دلالة ظاهرة على خلق السموات قبل
خلق الأرض. ومن أبين ذلك ما جاء في سورة النازعات ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ
السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١]
وفي كتب التفسير كلام كثير في توجيه الآيات والبحث عن وجوه من التلازم
بينها، وخلصته أن قوله سبحانه في سورة النازعات ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ
دَحَاهَا﴾ ليس قاطعاً في أن الأرض خلقت بعد السماء لأن دحوها، يعنى
بسطها وهو غير خلقها، فقد تكون مخلوقة قبل السماء وبعد خلق السماء
دحاها والرازي كدر على هذا القول وهو على حق لأن قوله سبحانه في سورة
فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ كل ذلك
لا يكون إلا بعد دحوها يعنى بسطها، ومعناه أن آية فصلت تدل على خلقها
ودحوها قبل السماء.

وبعضهم قدر فعل كان قبل استوى والمعنى ثم كان استوى إلى السماء
ليصح معنى خلق السموات قبل خلق الأرض وهذا بعيد والرازي يردده لأن
تقدير كلمة كان في الآية تصادم كلمة ثم الدالة على الترتيب.

وقد تخلص الطاهر من هذا التعارض في الظاهر بتفسير جيد ومقبول
لكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في الآية التي معنا وذكر أنها ليست للترتيب الزمني الدال على
خلق السموات بعد خلق الأرض. لأن هذا يناقض ما جاء في سورة النازعات
وهو صريح في خلق الأرض. بعد السماء بدليل قوله جل شأنه ﴿وَالْأَرْضَ

بعد ذلك ﴿ [النازعات: ٣] لأن كلمة بعد ذلك صريحة في أن الأرض خلقت بعد السماء والوجه أن تكون ﴿ ثم ﴾ هنا للترتيب الرتبي ويكون قوله جل شأنه ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ للإشارة إلى أن خلق السماء أعلى وأبين وأدل على القدرة من خلق الأرض. لأن السماء بعوالمها أوسع وأغزر وأرفع من الأرض بعوالمها، وقد جاء ذكر خلق السموات في سورة النازعات لبيان أن خلقها أدل على القدرة من خلق الناس قال سبحانه ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ (٢٧) ﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ (٢٨) ﴿ وأغطش ليها وأخرج ضحاهما ﴾ (٢٩) والأرض بعد ذلك دحاهما ﴿ [النازعات: ٢٧-٣٠] وهذا ظاهر في أن خلق السماء أعلى رتبة من خلق الأرض وبذلك تخرج آية فصلت من باب المنازعة في هذا الشأن، ورحم الله الطاهر.

والذى يقال فى آية فصلت يقال فى آية البقرة ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم ﴾ [البقرة: ٢٩] وهذه الآية قاطعة فى رد قول الزمخشري وغيره من الذين ذهبوا إلى أن الله خلق الأرض جرماً قبل خلق السماء، ولما خلق السماء دحاهما يعنى بسطها لأن آية البقرة تقول ﴿ خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ وهذا يعنى أنه سبحانه دحاهما وأخرج منها ماءها ومرعاها، وإنما يحل الإشكال بما ذهب إليه الطاهر من أن كلمة ﴿ ثم ﴾ لا يراد بها التراخى الزمنى وإنما يراد بها التفاوت فى الرتبة، والله أعلم.

وإنما قدم ذكر الأرض فى آية فصلت لأن المراد التعريف بالصانع القادر المالك الباسط المهيمن والذى يستحق أن يعبد والذى لا يجوز أن نجعل له أنداداً، وأظهر هذا تحت عيون قومه ﷺ هى الأرض ورواسيها التى من فوقها وأقواتها ومرعاها التى يعيشون عليها، وقدم ذكر السماء فى سورة النازعات لأن المراد بيان القدرة على البعث لأن القوم ﴿ يقولون أننا لمردودون

فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾
 [النارعات: ١٠-١٢] فذكر سبحانه لهم أنه قادر على الأشد خلقاً ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ ثم إن ما فى السماء غيب وعودة الروح غيب وهذه مناسبة جيدة، هذا ما أثارته كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى قوله سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ .

واستوى إلى السماء من قولهم استوى إلى كذا اتجه إليه اتجاها لا يصرفه عنه شيء ولا يشغله عنه شيء وإنما صار إليه بكل همته وقدرته وفكره وحيوته، وهذا فى حق الله لا يجوز لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ولأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وإذا أراد شيئاً قال له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وقال الرازى فى معناه: استوى إلى السماء دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه، وقد أفاد الرازى هذا من الزمخشرى وهذه الكلمة جاءت فى الآية الدائرة على ألسنة أهل الفرق ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] والكلام فيها بين التأويل والتفويض كلام مشهور والتفويض يعنى أنه استوى كما قال سبحانه أما كيف فهو مجهول لنا ولا نسأل عنه وإنما نفوض علمه إليه. وهذه الكلمة التى من معانيها اللغوية اتجه إليه اتجاها لا يصرفه عنه شيء هيات لما بعدها من خطاب السماء والأرض هذا الخطاب الذى بلغت فيه تجليات الكمال والجلال ذروتها. . وهذه الصورة ﴿إِثْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ لم تتكرر فى القرآن الكريم وهى منا واقعة أمكن موقع لأنهم قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وردوا بذلك داعى الله فجاءت هذه الآية لسببين أن الأرض والسماء قالتا أتينا طائعين، وهذا هو المناسب لمواجهة غطرسة المستكبرين لأننا لا نرى فى خلقه أعظم وأجل من الأرض والسماء وكل مخلوق مهما عظم جرمه فهو فى قبضة خالقه، وكلمة

﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ من الكلمات الربانية الصادرة عن عز الالهية والتي لا يمكن أن تصدر عن نفس بشرية، وخطاب السماء والأرض وقول الحق ﴿ ائْتِيَا ﴾ هو وحده لا يصدر إلا عن سلطان قادر قاهر، فإذا أضيف إليه كلمتا ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ دل ذلك على نهايات الكمال فى الهيمنة والملك والاقترار وعز الربوبية، وإذا راجعت الكلمتين وجدت كلمة ﴿ أَوْ كَرْهًا ﴾ أدل على المقصود من كلمة ﴿ طَوْعًا ﴾، ثم تراها تحمل شوباً من التهديد للذين قالوا قلوبنا فى أكنة، وفيها مقارنة من مثل ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٣] والإتيان معناه قبول الأمر وليس التكوين والخلق لأنهما لم يخلقا معا وإنما خلقت الأرض فى أربعة أيام سواء وخلقت السماء فى يومين.

وقد ذهب العلماء مذاهب فى بيان حقيقة هذا القول ومجازه، فمنهم من حملها على ظاهرها وأن الحق خاطب الأرض والسماء وأنها قالتا ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا ﴾ وأنا الآن أركن إلى قبول هذا لأن حال الخلق مع الخالق لا يقاس بحال الخلق مع المخلوق، فإذا كنا ننادى الأرض على وجه المجاز والأرض تحببنا اعتباراً وليس مقالاً فهذا شأننا وشأنها، أما شأنها مع خالقها فهو شأن آخر، وقد أمر الله الجبال أن تؤوب مع داود عليه السلام: ﴿ يَا جِبَالُ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ [سبأ: ١٠]، فأوبت الجبال والطير، ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور: ٤١] كل ذلك وغيره كثير يجعلنا نألف الحقيقة فى هذه الآية، وأكثر الخلف صرف ذلك إلى التمثيل الدال على كمال الانصياع والانقياد لله رب العالمين، وأنها فى انقيادها لله كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع كما قال الزمخشري، قال ونظيره قول الجدار للوتد لم تشقنى؟ قال الوتد اسأل من يدقنى.

وهذه الآية أجملت ما قبلها من قصة الأرض وخلقها وجعل فيها رواسى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، لأن معنى ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا ﴾ يعنى أنهما اتقادا على وفق مراده سبحانه وعلى الوجه الذى أراده من خلق الأرض وجعل الرواسى

إلى آخره، وهذا من أدق آيات القدرة وتجلياتها وأنه سبحانه إذا قال للشيء كن كان الشيء على الوجه الذي أَرَادَهُ رُبْنَا، وكأنه سبحانه يخلق في الأشياء القدرة على أن تكون على الوجه الذي أَرَادَهُ. وهذا الوجه اشتمال ﴿قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على ما قبله، أما أن هذه الكلمة مجملة للمعنى الذي بعدها فإن قوله سبحانه ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وما بعده شرح لما تضمنته كلمة ﴿أَتَيْنَا﴾ وهذا ظاهر ومعجز فاعرفه لأنك لن تجده إلا فى كلام الله، وقوله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الفاء فيه راجعة إلى قوله ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ والقضاء معناه أنه سبحانه خلقها وأتم خلقها ويقال قضى الشيء إذا صنعه قال أبو ذؤيب.

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّمَوَاتِ سَبْعُ

والضمير فى ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ راجع إلى السماء، وإنما لم يقل فقضاها للإشارة إلى المعنى الذى صارت إليه وهو أنها ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وذكر بعضهم أنه ضمير مبهم مفسر بقوله ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ والمأل واحد، وهذه السبع هى السبع الشداد التى جاءت فى سورة النبأ ﴿وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ [النبأ: ١٢-١٣] وإنما قضى الله الأرض فى أربعة أيام والسماء فى يومين وهو قادر سبحانه على أن يقول للشيء كن فيكون لحكمة أَرَادَهَا سبحانه، كأن نتعلم أننا إذا احتشدنا لشيء وجمعنا له همنا واستوينا إليه فلا بد أن نعطيه من الوقت ما نتقنه فيه ونحسنه.

وإذا كان الضمير فى قوله ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ راجعاً إلى السماء باعتبار المعنى كان قوله ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ حالاً، وإذا كان ضميراً مبهماً كان قوله ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ تمييزاً، وتحليل بيان العربية من غير علم بهذه الفروق الدقيقة ضرب من التهويش.

وقوله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ نظير قوله سبحانه في البقرة ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

والفاء التي في قوله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ التي قلنا إنها راجعة إلى قوله ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ ليست مترتبة عليها ترتيباً زمنياً لأنه سبحانه قال لهما بعد كونهما وبعد صنعهما، وهذا ظاهر في الأرض وهو في السماء لا يعني أنه قال لها ثم قضاها وأنها في حال القول كانت كائنة في التقدير، والذي يبين هذا من غير إشكال أن تكون هذه الفاء مفيدة ترتيب ما بعدها على ما قبلها ترتيب التفسير على المفسر والتفصيل على المجمل والبيان على المبهم.

وقول جل شأنه ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ معطوف على قضاهن، ومعنى ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ألهمها وألهم خلقه فيها مراده سبحانه فزاوت السماء ما أراد، وزاول خلقه فيها ما أَرَادَهُ سبحانه منها ومنهم، وهذا كلام بالغ الإيجاز وبالغ الدقة وليس من معدن النفس الإنسانية فليس هناك نفس تشوف أو تطيق أن تقول ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ وإنما هو الأمر الإلهي. وكلمة ﴿أَوْحَىٰ﴾ تعدى إلى كما في قوله سبحانه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقوله جل شأنه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ [الإعراف: ١١٧] وجاءت هنا متعدية بحرف الظرف ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ للإشارة إلى أن الوحي كان في كل سماء، ولم يكن إلى كل سماء وأنه سبحانه بث في كل سماء أمرها وأودع فيها وقذف في قلبها، وفيه إشارة إلى أن لكل سماء أمراً وأن خلقه في سمائه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وقارن قوله ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ بقوله ﴿وَبَارِكْ فِيهَا وَقَدِّرْ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وكيف كان الذي في السماء وحى أمر والذي في الأرض تقدير

أقوات وكنيف ناسب، كل عالمه العالم العلوى عالم تسبيح وحمد وعبادة وعالم الأرض عالم أقوات وأرزاق، ومن المفيد فى معرفة أسرار البيان وأقداره التنبه إلى هذه الفروق، وقوله جل شأنه ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ وأول ما يلفت فى هذه الجملة هو الالتفات الذى فى قوله ﴿وَزَيَّنَّا﴾ لأن الكلام فيها انتقل إلى التكلم وكان قبل يمضى على طريق الغيبة فى قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسًا مِّنْ فَوْقِهَا وَيَبَارِكُ فِيهَا﴾ إلى آخره، وهذا الالتفات فضلاً عن أنه يفيد الكلام تطرية وإيقاظاً يشير إلى خصوصية فى الجملة لها صلة بالسياق والمقام، وهى هذا الذى تراه عيونهم فى هذه السماء وزينتها، وهذه صورة متكررة فى الكتاب العزيز وأقرب الصور إلى هذه الصورة قوله جل شأنه فى سورة الملك ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [المالك: ٥] وفى فصلت كلمة ﴿وَحِفْظًا﴾ بدل رجوم الشياطين، وإنما قال هناك رجوماً ليناسب قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المالك: ١] ومن مظاهر القدرة أن تكون هذه الكواكب التى هى زينة السماء رجوماً للشياطين، وحرساً لهذه الزينة. قلت إن الالتفات هنا لافى إلى خصوصية فى الجملة وهى هذا الذى تراه عيونهم فى السماء وقد راقتهم زينتها وذكروها فى أشعارهم وهو كثير جداً ومشهور، وقد وصفوا كثيراً من آيات الله كالسحاب والبرق ولكنهم لم يلتبسوا منها العبرة، وهذا هو الفرق بين ذكر الكواكب والبرق والسحاب فى القرآن وذكره فى الشعر الجاهلى.

ولاحظ الفرق الظاهر بين الجملتين المقترنتين ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الجملة الأولى أمر غيبى والجملة الثانية وصف لظاهر تتعلق به العيون فى كل ليلة، وكيف ربط هذا الاقتران بين الغيب والمشاهد وكيف أوماً إلى دلالة الشهود على الغيب، ثم لاحظ الربط بين الجمل وطريقة التكوين تجمد قوله ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ والتى قبلها

من تمام معنى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، وقوله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ بيان لقوله ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ مرتب على قوله ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ وكل هذه العائلة من الجمل المترابطة والمتآزرة معطوفة بتمامها على جملة الجمل المتعلقة بالأرض والتي هي خلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وتلاحظ أن جملة الجمل الأولى تماسكت وكانت جزءاً واحداً ممتداً، ثم جاءت جملة الجمل المتعلقة بالسماء، وهكذا نجد اسم الموصول الذي جاء للدلالة على الذات الإلهية جاء ممسكاً بصلتين واحدة جامعة لصنعه في الأرض والأخرى جامعة لصنعه في السماء، ولو راجعت مرة ثانية وجدت تعادلاً بين هذه الأفعال. الأرض خلقها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ والسماء «قضاهن سبع سموات وأوحى في كل سماء أمرها» وزينها وحفظها، وكلمة ﴿حِفْظًا﴾ مفعول مطلق أى وحفظناها حفظاً والمراد الحفظ عن الشياطين الذين يسترقون السمع.

وقوله جل شأنه: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

بُنيت هذه الجملة على القطع والاستئناف وقد علمنا علماؤنا أن نقف عند هذا الضرب من الجمل لأن له فى البيان شأنًا لأن القطع والاستئناف لا يكون إلا لأمر، والقطع هنا يعنى أن هذه الجملة قطعت امتداد المعنى الذى قبلها وانتقلت إلى شىء وراءه، والمعنى الذى قبلها بدأ بقوله تعالى ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ﴾ وما فيها من أدلة باهرة قاطعة قد وصلت إلى نهايتها التى بدأت بخلق الأرض فى يومين وانتهت بزينة السماء بالكواكب وحفظها، ومراجعة هذه الجمل من المعانى تبين أنها بلغت من مقصودها غاية ما يبلغه بيان، وليس لطالب الحق بعدها بيان وأن الذى وراءها هو تقدير العزيز العليم ثم الإنذار بالصاعقة لأنها أعذرت، وأما الاستئناف

فإننا نراها لم تستأنف معنى يكون محصلة لما قبلها وتضمينا له كما هو الحال في أكثر الفواصل. وإنما هي فاصلة تركز بطريقة فذة المقصود من الآيات السابقة وهو الجلاء البين بالذى وراء كل ذلك وهو الله الذى خلق الأرض ثم استوى إلى السماء والذى لا يجوز أن يكون له أنداد.

واسم الإشارة فى قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجع إلى تلك الأفعال الدالة على الحى القادر الصانع من أول خلقه، الأرض فى يومين إلى قوله ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا﴾ وهذه الإشارة دالة على تميز هذه الآيات فى بابها وبيان المقصود منها، ولام البعد هذه دالة على سمو هذه الآيات ورفعته جلالها وقوة ذهابها فى بيان المقصود منها، وكلمة ﴿تَقْدِيرٌ﴾ هى قطب رحا هذه الفاصلة، وراجع تجد أولاً هى خير اسم الإشارة والخبر الجزء المتم الفائدة، وهذا يجعلنا نعود إلى الآيات لنرى التقدير المطوى فيها والذى نبهت إليه الفاصلة، ولا شك أن التقدير ظاهر فى الخلق والجعل لأن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير، فخلق الأرض منطوق على تقدير وجعل الرواسى فيها ومن فوقها منطوق على تقدير، والأظهر والأهم فى بنائه على كثير من التقدير هو ذكر المصابيح التى زين الله بها السماء وهى الكواكب ومنها الشمس والقمر، وهذه الكواكب فى مواقعها قائمة على نسب دقيقة وتقدير بالغ، ولذلك أقسم الله سبحانه وتعالى بمواقع النجوم وذكر أنه قسم عظيم، وهذه الفاصلة بتمامها وكمالها ذكرت فى سورة ياسين مع بيان آيات الليل من ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: 37] ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] وتكرار الفواصل على هذا الوجه كان من الواجب أن يكون موضع عناية الدارسين فيربط بين فاصلة فصلت وفاصلة ياسين والموضوع الأسمى واحداً فى السورتين، فصلت تحاور الذين قالوا لرسول الله ﷺ ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وآية ياسين

تخاطب الذين قالوا لرسولهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨] ولو استقصيت لوجدت اتفاقا واختلافا وتقاربا وتباعدا، وكذلك جاءت كلمة التقدير مع ذكر القمر في سورة ياسين ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩] ثم إن كلمة التقدير داخلية فيما يرجع إليه اسم الإشارة في الفاصلة التي معنا وذلك قوله جل شأنه ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وإضافة التقدير إلى العزيز العليم إضافة لها هنا دلالة جليلة، وذلك أن العزيز يفسره علماؤنا بأحد أمرين إما الغالب الذي لا يزاحم ولا يعاند ولا يحاد ولا يعارض. وإما المفرد الذي لا مثيل له ولا ند له ولا نظير، وكلا المعنيين هنا مناسب جداً لأن العزيز المقترن الذي لا يغالب يواجه قولهم لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ والعزيز الذي لا نظير له ولا ند له يرجع إلى قوله سبحانه ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ﴾ وأما العليم فلأن كل ما في الآيات من خلق وجعل وتقدير ومباركة إلى آخره كل هذا لم يكن إلا بعلم لا يخفى عليه شيء ﴿ إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ [لقمان: ١٦] ولا يقوم تقديره سبحانه إلا بعزه الذي لا يغالب وبعلمه الذي لا يتدُّ عنه شيء في الأرض ولا في السماء ولا فيما كان ولا فيما هو كائن ولا فيما سيكون جل وعز وسبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

قوله جل شأنه ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ (١٧) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٨) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٩) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَلَذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (٢٠) وَأَمَّا ثَمُودُ

فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿﴾ هذا القسم من السورة معنى واحد لا تستطيع أن تجزئه كالجزاء الذي قبله، والآيات من قوله ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ تصور حقيقة واحدة بقسميها، القسم الأول: بلغ الغاية في بيان الحقيقة وأضاءها من كل جوانبها وليس حولها برهان يغشيه شيء من الغموض. وإنما هي متجلية ظاهرة ومبهرة من جميع نواحيها، وكل ما في هذا القسم ناطق بقوله عليه السلام في أول كلامه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ثم جاء هذا القسم مبتدئاً بالتهديد البالغ الشدة للإشارة إلى أن من لم يتنفع بالآيات الكاشفة لهذه الحقيقة فليس له إلا هذا التهديد، لأن البيان الذي مضى والدال على الوحدة لا يقبل مزيداً؛ وأن من يرفض الحقيقة الظاهرة كالشمس الساطعة فليس له إلا صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

وقوله جل شأنه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ الفاء عاطفة على قوله ﴿أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ لأن هذا هو الوجه الثاني كما قلت، وجاء بأداة الشرط «إن» للإشارة إلى أن إعراضهم غير موقوع والأصل أن يذكر على سبيل الفرض. وكلمة ﴿أَعْرَضُوا﴾ راجعة إلى قوله ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ولها دلالة هنا خفية وجيدة، وذلك لأنها تشير إلى أن استمرارهم على الكفر لا يكون أبداً بعد تدبر الأدلة المذكورة في آيات خلق الأرض والاستواء إلى السماء، لأن من تدبر هذا رجع لا محالة عن جحده، وإنما ظلوا على كفرهم لأنهم أعرضوا عنها وكانهم لا يزالون يقولون ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ولهذا أوتر قوله ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ على أن يقول مثلاً فإن ظلوا على كفرهم أو فإن جحدوا.

وقوله جل شأنه ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ يلاحظ فيها أمور أولها، تكرار كلمة ﴿قُلْ﴾ وقد سبق قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ

واحد ﴿ وقوله ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ وهذا تدرج دقيق فى المعنى لأن الأولى إبلاغ بنبوته التى الهدف منها الإقرار بالوحدانية والثانية قيام الأدلة على هذه الوحدانية، والثالثة إنذار من يرفض الأدلة بعد بيانها، ولذلك تجده هذه الكلمة ﴿ قُلْ ﴾ وقعت بحساب دقيق فى مواقع تحكمها حركة منتظمة للمعنى ومتدرجة تدرجاً منطقياً متقناً.

والامر الثانى الذى فى هذه الجملة هو قوله سبحانه ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ ﴾ وأنذر فعل ماضٍ والأصل أن يكون جواب الشرط فعلاً مضارعاً، يعنى إن أعرضتم فإنى أنذركم، لأن الإعدار سبق ويأتى بعده الإنذار، وفى مجيء المضارع فى صيغة الماضى دلالة على مزيد من الغضب ومزيد من الرغبة فى وقوع العقاب لمن رأى الحق رأى العين وأعرض عنه، وليس فى السوء أسوأ من الذى يرى الحق رأى العين ثم يعرض عنه، لأن الحياة مع هذا الصنف لا تطاق لأن إنكار الحقائق يجعل هذا المنكر أسوأ من كل سوء، والحياة لا تستقيم أبداً مع هذا الصنف المكابر، ولذلك كان خلودهم فى النار جزاء وفاقاً ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨] والمهم أن صيغة الماضى هنا فيها استعجال بالإنذار ووراء ذلك من شدة الغضب ما وراءه. وكلمة ﴿ صَاعِقَةٌ ﴾ قالوا: هى صوت شديد كالهدة يسمعه الإنسان فيغشى عليه ويذهب عقله ويموت، وقالوا: هى كل عذاب مهلك وهى الصوت الشديد من الرعد يسقط معها قطعة نار فتهلك الناس. ويقال أصابته الصاعقة أى أحرقه البرق، أو هى نار تسقط من السماء فى رعد شديد، وبكل هذا جاء كلام العرب وهى فى شعرهم وأدبهم أشد ضروب النكال، والمراد بها هنا صاعقة عاد وثمود وهما صاعقتان مختلفتان ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ ﴾ وَأَمَّا عَادَ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤، ٧] وصاعقة عاد أهول لأنهم

كانوا أشد عتوا واستكبروا فى الأرض. وهذا الإنذار يدل دلالة ظاهرة على أن القوم الذين خوطبوا به كان لهم علم ظاهر بالتاريخ القديم وبتاريخ أرضهم لأن عادا وثموداً من أنبياء العرب.

وكلمة مثل تعنى المماثلة وهى أقوى فى الدلالة على الشبه من الكاف، لأنك إذا قلت هو كالأسد تكون قد دلت على الاشتراك فى صفة وإن قلت هذه الصفة وذلك بخلاف كلمة مثل وهذا ظاهر.

ثم إن كل التفاصيل فى هذه الآية التى تتناول ما قالوه فى رد الرسل وما أنزل بهم من عقاب كل هذا تفاصيل لآيه غافر الأخيرة ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣] ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . . ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ هى تفصيل لفرحهم بما عندهم من العلم، وتفصيل للبأس وهذا هو المناسب لتسميتها فصلت ولقوله سبحانه ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت: ١].

وقال المفسرون: إن هذه الآيات من أول السورة تظهر فيها البلاغة بصورة ظاهرة باهرة قاطعة ولذلك قرأها رسول الله ﷺ على عتبة بن ربيعة لما جاءه يطلب منه أن يكف عما يدعو قومه إليه، قال أصحاب السير: إن أبا جهل المخذومى قال فى ملاء من قريش لقد التبس علينا أمر محمد فلو التمسنا لنا رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علمًا وما يخفى على. فاتاه فقال أنت يا محمد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، أنت خير أم عبد الله، فبم تشتم آلهتنا وتضلنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة من أى بنات قريش. وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به، ورسول الله ﷺ ساكت فلما فرغ قال بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ﴾ إلى

قوله ﴿صَاعِقَةٌ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٌ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج لقريش. فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ثم قال والله لقد كلمته فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب، هذه الرواية رواها صاحب الكشاف وقد روتها الكتب بزيادات كثيرة وهذه أخصرها.

وفى هذه الرواية دلالات: أولها: أن رسول الله ﷺ يعلم من حال قومه وما أنزله الله عليه أن الذى أنزله الله عليه قادر على أن يغير كل شيء وأن يذهب كل لبس وأن يكشف وجه الحقيقة بصورة لا تلتبس. وأن من ينكر الحقيقة بعد سماع الكتاب إنما ينكر ما يسيقن أنه الحق، ولذلك لم يناقش عتبة فى الذى قاله لا فى الرياسة والباءة والمال ولا فى شىء، وكأن هذه التى ذكرها عتبة التى هى الرياسة والباءة والمال هى الشاغل الأول والقيمة العليا عند القوم، ثم إن عتبة سمع سماعاً رفيعاً جداً وتدبر ما سمع تدبراً عالياً جداً، وكانت المعانى والصور والأحداث تتحرك أمام عينيه من خلال سماعه، يعنى كان يسمع بأذنه ويرى المعانى بخواطره ويرى الصور تتحرك أمامه حتى إنه نهض ووضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم وخاف أن تنزل بقومه الصاعقة، وهكذا كان هذا الجليل وكان وعيه بالبيان وكانت قراءته له، ثم إن قول عتبة «لقد كلمته فأجابني بشيء» يعنى أن صاحب هذا الوعى البالغ بدلالات البيان رأى فيما سمع شيئاً غريباً وكلمة «شىء»، نكرة مجهولة وكأنه يقول سمعت شيئاً لم أسمع مثله قط لا هو من الشعر ولا من الكهانة ولا من السحر، ولم يبق أمام عتبة إلا أن يقول ولكنه كلام رب العالمين ولكن القدر سبق عليه، يعنى كان عتبة على قاب قوس واحد من الإيمان ولم يلتبس عليه

أن هذا شيء ليس من كلامهم، وما دام ليس من كلامهم فهو من كلام ربهم، وهكذا دخل في دين الله من شاء لهم الهدى.

وفى بعض الروايات أن عتبة لما رجع إلى قريش قرأ عليهم ما سمع من أول فصلت إلى آية السجدة، يعنى أنه حفظ ما سمع من مرة واحدة وهذا شأن هذا الجيل الذى أنزل الله فيه كتابه.

وفى كثير من كتب التفسير إشارة إلى ظهور البلاغة القاهرة لقدرات البشر فى هذه السورة، واستدلوا على ذلك باختيار رسول الله ﷺ لها للرد على ما أراه عتبة، وليس هناك غضاضة من القول بأن البلاغة القرآنية تتفاوت من جهة ظهورها وأنها كلها معجزة، وتحليل صور البيان وتحليل الشعر الجاهلى وتحليل القرآن هو السبيل الهادى إلى هذا، والمهم أيضاً فى كلام عتبة هو قوله «وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لا يكذب» وهذا غريب لأن معناه أنهم جميعاً حتى الذين قالوا له ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ﴾ يعلمون أنه لا يكذب، وكانت هذه وحدها كافية لإقرارهم بما أخبرهم به، ويلاحظ أن عتبة استمال رسول الله ﷺ فى أول خطابه بقوله أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله وهو فى كل ذلك يؤكد كلامه بإعادة المبتدأ والخبر، وكان يمكن أن يقول أنت خير أم هاشم وعبد المطلب وعبد الله، ولكنه أكد وأطال الكلام ومدّه مع أن خبر أم هاشم تكفى وتغنى عن الذى بعده لأن عبد المطلب وعبد الله من أم هاشم، ثم إنه لم يقل أنت خير بنى هاشم وإنما فضله على هاشم نفسه لأنه جعله خير أمة أى خير من ولدت أم هاشم كما فضله على جده عبد المطلب وعلى أبيه عبد الله، وكل هذا يبين منزلته ﷺ فى صدور من كفروا به وعاندوه وقالوا له ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾.

وجملة ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ جملة متضمنة معانى الآيات التى جاءت بعدها فى هذا القسم، وكانها مطلع قسم من المعنى يشمل

كل هذا المعنى. وما بعده تفصيل له، وقد بدأ التفصيل بالرجوع إلى زمن عاد وشمود وذلك بواسطة كلمة مختصرة جداً وهي كلمة إذ لأنها ظرف في الماضي وكأنها استدار بها الزمان ورجع إلى زمن عاد الذي كان بعد نوح عليه السلام، لأن هوداً الذي أرسله الله إلى عاد قال لقومه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الاعراف: ٦٩] يعنى كانوا جيلاً من أجيال نوح عليه السلام، وكان أرض الأحقاف التى كان فيها عاد هى المسكن الأول لآبى البشر الثانى نوح عليه السلام.

وقوله سبحانه ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ والذى جاء كل قوم رسول واحد وإنما جاء بالجمع لأن الرسل جميعاً دعوا إلى عبادة الله، وكلهم قالوا لا تعبدوا إلا الله، والقرآن الكريم يكرر ما قاله كل رسول وهو ذاته الذى قاله غيره كما ترى فى سورة الشعراء، الكل يقول ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١١٠] فمن جاءهم رسول كأنه جاءهم كل الرسل لأن رأس كل النبوات شىء واحد - ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى. ١٣]، واختلاف الشرائع فى الفروع وهذا الأصل هو الذى تقدم فى قوله عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الرسالة واحدة والرسل متعددون فمن جاء يحمل هذه الرسالة كأنه كل الرسل، ثم إن فى التعبير عن الرسول بالرسل إشارة إلى أن هؤلاء القوم قد جاءهم كل رسل الله وهم صفوة خلقه وحمله وحيه، وفى هذا تفضيح للإنكار والإعراض ووراءه من الغضب ما وراءه.

وقوله سبحانه ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ المراد لم يتركوا وجهها من وجوه الإقناع إلا كشفوه لهم، ولم يتركوا طريقاً يهدى إلى خير إلا أضأوه وأقاموا عليهم الحججة من كل وجه، والتعبير بالرسل عن الرسول لآم هذه

الصورة التي هي أصل المراد وهي أنهم أناروا لهم المحجة من كل جهاتها وكان الرسل جميعاً تعاونوا في ذلك .

وقوله جل شأنه ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أصله أن لا تعبدوا إلا الله فأدغمت أن فى اللام وأن هذه هي أن المفسرة، لأن مجيء الرسل متضمن البلاغ وهذا بيان للبلاغ قال الطاهر ونظيره قول الشاعر:

إن محملاً حاجةً لى حَفَّ مَحْمَلُهَا تستوجباً مِنَّةً عُنْدى بها ويدا
أن تقرأن على أسماء ويحكُّما منى السلام وألا تخبراً أحداً

قال الطاهر «إذ فسر الحاجة بأن يقرأ السلام على أسماء لأنه أراد بالحاجة الرسالة» وهذا كلام جيد .

وجملة ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ التي جاءت بياناً بعد إبهام وجاءت الرسل كل الرسل بها وأقاموا المنارات إليها من كل وجه وكل طريق وأحاطت البراهين بها من بين يديها ومن خلفها؛ هي حقيقة واضحة تقرها العقول وتوشك أن تكون معلومة علم ضرورة وذلك لأن كل عاقل يفهم أنه لا يعبد إلا الله، وأن الألوهية القادرة الصانعة القاهرة الخالقة الرازقة المالكة لأزمة الوجود كله هي التأهيل الذى لا تأهيل غيره للعبادة وأنتم تعرفون الله وتقرُّون بأنه الصانع والقادر وأنه الذى خلق السموات والأرض، والمفروض أنكم لا تحتاجون إلى شيء يغريكم بعبادته ما دمتم تعتقدون أنه الخالق، وكانهم أصابتهم غفلة عظيمة عن هذه الحقيقة السهلة الواضحة التي لا تحتاج إلى تنطس ولا إلى حدلقة ولا إلى تفلسف، والبراهين التي جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم لإزالة هذه الغفلة وعودة العقل إلى ما يجب أن يكون عليه، ثم إن الآيات السابقة فى القسم السابق ﴿أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ إلى آخرها هي مثال وصورة للأدلة التي تحيط بموضوع الدليل من بين يديه ومن خلفه .

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾
من المفيد جداً أن ندرس ردود الذين ردوا دعوة رسلهم كهذا الرد، وأول ما نرى فيه أنهم أقروا بالله وأنه ربهم الذى يعيشون فى كنف عطائه وكلاءته، لأن كلمة ﴿رَبُّنَا﴾ فيها هذا المعنى، وأن الحقيقة التى نزلت بها الرسالات جميعاً وهى ألا تعبدوا إلا الله مؤسسة على هذا الإقرار، بمعنى أن من أقر بالله فلا يجوز له أن يعبد غيره، وهؤلاء أقروا بذلك فكأنهم على قاب قوس واحد من التصديق ويتهى الأمر، ولكن الذى باعد بينهم وبين الخير أمر آخر نقلوا الكلام إليه ولم يناقشوا فى أصل القضية التى أحاطت بها الأدلة من بين يديها ومن خلفها، وإنما نازعوا فى أنكم سرسلون من الله، ولم ينازعوا هنا فى الرسالة، وأصل هذه المنازعة وَهُمْ تَوَهَّمُوهُ وَتَوَهَّمَتِ الْأُمَمُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَرْسِلَ رَسُولًا لَأَرْسَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَنْ يَرْسِلَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، وهذه مقالة شائعة فى تاريخ النبوات وسجلها الكتاب العزيز فى آيات كثيرة منها قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۗ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥] وقد جمعت آية فصلت عاداً وثموداً فى هذا القول الواحد، ووراء ذلك الإشارة إلى تشابه عقولهم وضيق عطنهم فى ردودهم، وأنه مضيق عليهم فى الدليل فلم يفتحوا باباً تتنوع فيه حججهم، وإنما هو كلام يتكرر مع تباعد الأزمان والأحوال والامم، وصار باطلاً محفوظاً وتراثاً لأهل الضلالة موروثاً، والمهم أن هذا ليس دفعا للقضية وليس طعنا فى أنه لا يستحق العبادة إلا الله الذى خلق وبرأ، وإنما هو مراوغة وتشويش من جهات أخرى، وهم يعلمون أن محمداً إذا قال صدق، ثم إن هذه الجملة ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رأى فيها علماؤنا ما يوجب مراجعة قاعدة بلاغية مشهورة فى حذف مفعول المشيئة الواقعة فى حيز الشرط للدلالة جواب الشرط عليه كما فى قوله سبحانه

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٤٩] الأصل لو شاء هدايتكم لهداكم، وهم لا يذكرون المفعول ولا يفول عربى لو شئت أن أفعل، لفعلت وإنما يقول لو شئت لفعلت، وهذا المفعول واجب الحذف لأنه لم يأت فى كلامهم إلا محذوفاً وذلك لدلالة جواب الشرط عليه، فإذا كان الجواب لا يدل عليه وجب ذكره كقوله ولو شئت أن أبكى بكيت تفكراً، المفعول المحذوف لو شئت أن أبكى البكاء المألوف ومررت دموعى فلم أجد إلا التفكير فبكيت تفكراً، هكذا قال الشيخ عبد القاهر. وإنما وجب ذكر المفعول لأن بكاء التفكير الذى هو جواب الشرط غير صالح لأن يدل على مفعول المشيئة الذى هو البكاء المألوف، والذى فى الآية هو حذف مفعول المشيئة مع أن جواب الشرط ليس من جنسه وليس دالاً عليه، لأن أصل الكلام لو شاء ربنا أن يرسل رسولاً لأنزل ملائكة، فالمذكور معنا لأنزل ملائكة، والمحذوف أن يرسل رسولاً وليس المقصود لو شاء ربنا أن ينزل ملائكة لأنزل ملائكة، وهذا المعنى ما يقتضيه الحذف بناء على القاعدة البلاغية، وإنما جاء الكلام على الحذف مع افتقاد شرط صلاحية دلالة جواب الشرط على مفعول المشيئة، وذلك لقوة القرائن الدالة على المحذوف، ويمكن أن تكون هذه الآية تحريراً للقاعدة البلاغية وأن وجوب الذكر الذى قالوه حين يختلف جواب الشرط عن مفعول المشيئة ليس بلازم إذا قويت القرائن الدالة على المراد كما فى الآية.

وقوله جل شأنه ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الفاء رتبت الجملة بعدها على الجملة قبلها، يعنى رتبت الكفر بالرسالة على وهم أن الله لو شاء أن يرسل رسولاً لأنزله من الملائكة، وكان هذا الوهم حقيقة منطقية مسلمة، وهذا فساد فى الاحتجاج وقد تأكد هذا الفساد بتأكيد جملة إعلان الكفر وأنهم أكدوها بأن وباسمية الجملة، وقدموا ما أرسلهم به وهو مناط الفائدة ومعناها وأنهم كفروا بالرسالة لا من أجل شىء يتعلق بها وإنما من أجل حاملها، وهذا كله فساد، ولهذا قلت إن احتجاج أهل الباطل يجب أن يدرس

فى الكتاب لأنه تهوئش كهذا التهوئش الذى ملأ حياتنا السئاسية والفكرية، تجد فى ردود أهل الباطل على رسل الله إما روغانا من الموقف وسلوك طريق جانبى آخر ليس من مهمات النقاش، أو تجد شيئاً يترتب على شئ لا يجوز فى العقل أن يترتب عليه كما هو الحال فى هذا الرد لأن الكفر بالرسالة لا يترتب على جنسية حاملها ملكا أو بشراً.

وقوله جل شأنه: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

هذا بداية تفصيل لما أجملته الآيات فى شأن الأمتين من أول قوله سبحانه ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ وهذه الآية كانت تفصيلاً لما أجمال فى الآية قبلها فى قوله جل شأنه ﴿ أَنْذَرْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وهكذا نجد الآيات تتدرج فى الإجمال والتفصيل. ثم يأتى من بعد التفصيل تفصيل أوسع يصير ما قبله إجمالاً، وقد كان تفصيلاً بالنسبة لما قبله وهذا وجه من وجوه البيان لا تراه على ما هو عليه فى غير كلام الله.

والفاء فى قوله ﴿ فَأَمَّا عَادٌ ﴾ ترتب لهذا القسم على القسم الذى قبله وزيادة بيان له. وكلمة (أما) تفيد التفصيل والتوكيد وما بعدها مبتدأ وخبرها مقرون بالفاء والهزمة والسين والتاء فى قوله ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ للمبالغة فى استكبارهم وطغيانهم، كالهزمة والسين والتاء فى استجاب وقوله ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ لا يعنى أن هناك استكباراً بحق، وكل استكبار فى الأرض هو استكبار بغير الحق لأن كل ما فى الأرض من الله وإلى الله، وأعرف الناس بعاد وشدتها وقوتها واستكبارها هو نبيها هود عليه السلام، ومراجعة خطابه لقومه تكشف لنا المراد باستكبارهم، وقد وصف حالهم بقوله ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ

جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٤].

وهذا باب من أبواب قوتهم وبطشهم وجبروتهم، وقد لفتهم نبي الله إلى
أن هذا من عطاء الله لهم وهو الذي أمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون فلا
وجه لاستكبارهم بما أمدَّهم الله به، وكانوا يجيئونهم بمثل قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي
سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] وهو عليه السلام يذكرهم بعطاء الله لهم وأن ما هم فيه من
قوة هو من آلاء الله التي يجب أن تذكر، وأن ذكر آلاء الله هو سبيل الفلاح
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آيَةَ
اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

هذا جانب من جوانب استكبارهم في الأرض بغير الحق، لأنهم استكبروا
على رسول الله بسبب النعم التي أمدَّهم الله بها، ولا يجوز لأحد أن يستعلى
في الأرض لأن كل ما في الأرض من الله وإليه، ولهذا كان كل استكبار في
الأرض بغير الحق، وإنما ذكر هذا القيد لمزيد التشنيع والتشهير بالاستكبار وهو
قريب من مثل قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٣٥] وكل جدال في آيات الله بغير سلطان وليس هناك جدال بسلطان،
وفي الكلام معنى أنكم لو وجدتم سلطاناً للجدال فجادلوا ولن تجدوه ولو
وجدتم وجه حق للاستكبار في الأرض فاستكبروا ولن تجدوه، ومثله
﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١] ولا يقتل نبي بحق أبداً، ثم إن
الآيات من جانب آخر تدل على أن أمة عاد كانت أمة قوية في هذا التاريخ
القديم، وأنهم بنوا وزرعوا وأقاموا حضارة مادية قديمة في الأحقاف، وإنما
دمرها الاستكبار عن الحق والعتو والغطرسة لافتقادها الجانب الأخلاقي
وافقادها الحكمة، مع أن هناك جانباً آخر مضيئاً في تاريخ هذه الأمة وإن كان

ذلك قبل زمن نبي الله هود وأعنى ظهور لقمان بن عاد الذي سميت باسمه سورة من القرآن الكريم ومواعظه لولده فى السورة تدل على علم متسع وهو الذى قال ﴿إِنَّ تَكُ مِنْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] وتدهشك ثقافة وحكمة ومكانة لقمان الذى قالوا إنه ابن عاد، يعنى قبل أن يتكاثر أبناء عاد ويصبحوا قومًا ويبعث فيهم هود عليه السلام، من أين جاءت لقمان هذه المعرفة وهذه الحكمة وهذا المستوى العالى من المعرفة بالله رب العالمين، وإلى أى مدى شاعت هذه المعرفة بين أبناء عاد الذين هم إخوة لقمان، وإلى أى مدى امتدت ومتى انحصرت، وماذا بقى منها؟ وهل أدرك هود عليه السلام شيئاً منها، ولا شك أن أصول هذه المعرفة القديمة كانت وحيًا من الله للقمان الذى قال الله فى شأنه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] وهل كان لقمان نبياً؟ وكل ذلك كان قريباً جداً من زمن نوح عليه السلام، ولعلها بقايا من نبوة نوح عليه السلام وقبل أمة اليونان وأمة الفراعنة وغيرهم بآلاف السنين، ونحن نقف فقط عند زمن الأنبياء ونكتفى بما كان بين الأقسام وبين أنبيائهم عليهم السلام، وقد يذكر القرآن الكريم إشارات لأحقاب ومراحل تاريخية فى أزمنة مختلفة فى إقليم واحد ونحن نقرأ ذلك منفصلاً بعضه عن بعض. ولم نكلف أنفسنا الربط بين هذه المراحل مثل ما كان فى أرض اليمن زمن لقمان ثم ما كان فيه زمن سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]. وما كان فيها زمن بلقيس التى أوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم، ثم لا نربط بين هذه الأطوار الحضارية ونقول كيف كانت الحضارة السبئية امتداداً لما كان زمن لقمان الذى آتاه الله الحكمة؟ ثم كيف كانت حضارة زمن بلقيس التى كان لها صرح مُمرّد من قوارير، ومثل هذا يقال فى مصر زمن يوسف عليه السلام وكيف كان النظام السياسى مؤمناً بالكفاءة غير ناظر للجنس، ولا للدين حتى إن يوسف بن يعقوب صار على خزائنها وكيف كان الشخصية

الثانية بعد الملك، وكيف كانت ثقافة المجتمع، وكيف كان ثراء قصور الملوك، وكيف آل الأمر إلى زمن موسى عليه السلام، لا أرى دراسة كل ذلك بعيدة عن الدرس القرآني. وإنما هي كاشفة لتلك الإشارات السخية الموجزة في الكتاب العزيز.

قوله جل شأنه ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. قال المفسرون: هذا بيان لاستكبارهم، وإنما جاءت الواو بين البيان والمبين للإشارة إلى أن هناك مغايرة وكانهم ارتكبوا شناعتين شناعة الاستكبار وشناعة قولهم من أشد منا قوة، ثم إن الآية الأولى ذكرت حديث الحق عنهم وهذه الآية أنطقتهم بما حدث به الحق عنهم، وأنت تقرأ جملتين واحدة من كلام الله والثانية من كلامه سبحانه الذي أجراه الله على لسانهم، وأنهم بلغوا فيه غاية الاستكبار والاستعلاء والطغيان ولو أنهم قالوا من أشد منا قوة في الأرض لكان ذلك أخف لأنهم بهذا يستكبرون على من في الأرض ويستعلون عليهم، ولكن هذا الإطلاق الذي جاءت عليه الآية أنساهم موروث حكمة شيخهم لقمان ودفعوا به ما نبههم إليه نبي الله هود عليه السلام، ونسوا الله الذي خلقهم، ثم إن قولهم من أشد منا قوة يلفتنا إلى أن ما كان عليه قوم هود كان شبيهاً بالذي كان عليه قوم فرعون الذين قال لهم صاحبهم المؤمن ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فكلاهما كان قوة متفردة في الأرض. ودراسة هذا يكشف أسراراً في تاريخ النبوات، وهل كانت الرسالات تكون في هذه الشعوب الأكثر فعلاً والأكثر حيوية، كما أن هذا يكشف السر في الجمع بين هذه الحضارات القديمة في الكتاب العزيز من مثل قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ٦ - ١٢] تكاد تكون هذه وثائق تاريخية لا يفهم الكتاب على وجهه إلا بكشف كل شيء فيها، هذه الآيات كأنها كلمات

في فهرس مدونة حضارات قديمة على أرضنا. ثم إنه لا يليق بالشعوب الحية أن تعيش على أرضها وهي تجهل تاريخها، وتكتفى بدراسة ما يلزم علمه من أجل «السياحة» ودراهم السياح، هذه شناعة وجهالة وخساسة أيضاً.

ثم إن هذه الجملة المحكية عنهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ تطوى وراءها قدرًا من الغضب، ولذلك جاء الرد بعدها عليها هي وكأنها خلاصة استكبارهم. وقد بدأ الرد بهذا الاستفهام الدال على الإنكار والتوبيخ والتجهيل والتسفيه، راجع هذه الجملة ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأول ما يجب أن يعلم منها دلالة اسم الموصول في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ لأنه قاطع في دلالاته على إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم، لأن الصلة لا بد أن تكون معلومة عند المخاطب حتى يصح التعريف بها، وهذا يعني أنهم في حُمية الاستكبار والاستعلاء نسوا الله الذي خلقهم وأطلقوا القول الذي عبر عن شدة قوتهم، ولم يقيدوا كما قيد مؤمن آل فرعون حين قال ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى غالبين عليها. وهذا واضح في دلالاته على أنهم كانوا يقولون إنهم أشد قوة من الناس ومن رب الناس. ولو لم يكن هذا مرادهم لما صَحَّت جملة ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ثم إن هذه الجملة ردت حجتهم واحتجت عليهم ولا تكون حجة عليهم وناقضة حجتهم إلا إذا كانوا يعتقدون أن الله هو الذي خلقهم، ثم إنك تجد هذا الاحتجاج الملزم في هذه الجملة مؤسساً على منطوق لا يرده صريح عقل ولا صحيح منطوق. لأن كل ذي عقل يعلم علم اليقين أن خالق الأشد أشد من الأشد ولا يحتاج إدراك هذا إلى تَنَطُّس ولا إلى حذلقة، وهكذا تجد احتجاج القرآن ظاهراً ظهور الشمس لا تجوز فيه اللجاجة إلا أن تكون لاجحة باطل. ثم إنك تجد في الاستفهام وفي دخوله على واو العطف دلالة على أن المعنى المذكور والمفهوم من اللفظ هو جزء من المعنى المقصود والمراد، لأن هذه الواو التي دخلت عليها الهمزة دالة على كلام محذوف، وقلت إنني لم أجد

تقديرًا يغمض ويلتبس كما أجد تقدير الجملة المحذوفة التي تدل عليها هذه الواو، وإنما تراها دالة على إشارات وإيماءات وهواجس متسعة، وكأنها حشد من المعاني والخواطر التي لم يتهيأ لأن تدخل في ضوابط الدلالة اللغوية المحددة، ويدلك على ذلك أنك لو قلت: ألم يروا أن الله الذي خلقهم بدون هذه الواو لوجدت الذي ذهب من المعنى أغزر من الذي بقي. ولو حذف حرف الاستفهام وقلت: وقالوا من أشد منا قوة ولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة لكانت هذه الواو واو الحال ولانتقل الكلام عن معناه إلى معنى آخر، وقد قلت إن الصلة في هذه الجملة دالة على أنهم كانوا يعتقدون أن الله خلقهم، وقلت أيضًا. أن الاحتجاج عليهم بهذه الجملة لا يستقيم ما لم يكونوا مقرين بأن الله خلقهم. وأقول: إن الذي يؤكد هذا الذي قلته الجملة الفاصلة في هذه الآية وهي قوله جل شأنه ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ووجه دلالة هذه الجملة على أنهم كانوا مقرين بأن الله خلقهم هو استعمال كلمة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ لأن الجحد إنكار الشيء بعد علمه، قال أهل اللغة: الجحود الإنكار مع العلم، وجحده حقه وجحد بحقه إذا أنكره مع علمه به، وهذا يعنى أنه لا يجوز هنا أن نقول كانوا بآياتنا يكفرون، لأن السياق هيا لكلمة يجحدون وجعلها واقعة موقعها، والمضارع دال على أن هذا الجحد مع العلم يتكرر منهم، وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تعنى أن ذلك من شأنهم ومن ديدنهم، ولو راجعنا النظر فى الآيات وجدنا أن إنكار الآيات كان بعد العلم بها وهذا يعنى أنهم كذبوا على أنفسهم لما قالوا ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وراعوا كما قلت من القضية الام التي هي الرسالة إلى حاملها وأنهم علموا الآيات، وكذلك لما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ﴾ لأنهم علموا أنهم يخاطبون رسول الذي خلقهم وهو أشد منهم قوة، ولا شك أنك ترى طبقات من التواصل والترابط بين الجمل وأن بعضها من بعض وأن بعضها ينادى بعضًا.

ثم إذا سألنا عن آيات هود التي جحدوا بها وهم عالمون بها، فلن نجد في القرآن إشارة إلى آية كآية صالح وآيات موسى وعيسى عليهم السلام، والقرآن الكريم لم يستقص آيات الأنبياء وإنما ذكر منها ما ذكر وسكت عن ما سكت، والقاعدة الأساسية هي أن الله لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وكل رسول مؤيد بأمر خارق يجريه الله على يديه ليكون دليل نبوته، قال الطاهر «ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنه أُنذِرهم عذابًا يأتيهم من السماء ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] والآية لا تكون عند نزول العذاب وإنما تكون عند البدء بالرسالة».

والالتفات الذي في قوله ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ انتقال من الغيبة التي في قوله سبحانه ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ أقول هذا الالتفات يشير إلى أن موطنه له خصوصية في الكلام وما سبق له، وهو هنا دال على شوب من الغضب الزائد على من علم آياته سبحانه وأنكرها، وإضافة الآيات إلى ضمير العظمة والجلال بدل أن يقول وكانوا بآياتي يجحدون فيه لمح إلى عذاب مبين، وهذا مناسب تناسبًا خفيًا وقويًا مع قوله بعدها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

نجد هذا التناسب أولاً في هذه الفاء الدالة على ترتيب الهلاك على الجحد بدون مهلة، وأنهم ما إن ارتكبوا هذه الحمقاء التي هي التناول على الله والاستكبار على آياته وجحدها إلا أرسل عليهم ريحاً.

ثم نجد إسناد الفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ إلى نون العظمة ليتلاءم مع قوله ﴿آيَاتِنَا﴾

وأن الجزاء كان جزاء وفاقاً لأن الآيات آياته والسلطان سلطانه والكون كونه، وكلمة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فيها إشارة إلى أن الريح فى قبضته يرسلها على من يشاء ويرسلها رحمة على من يشاء ويرسلها عذاباً أليماً على من يشاء وكأنها جند من جنده، وهى ككل شىء من خلقه فى قبضته، وهذه الصورة تشبه التى فى قوله سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. كل هذه جند الله مسخر بأمره، وفى الكلام مجاز خفى وأن الريح رسول يُرسل كما أن الطوفان والجراد والقمل كل ذلك رسل ترسل. ثم إنك تجد عز الألوهية وصدور الكلام عن الربوبية واستحالة صدوره عن نفس إنسانية، لأن النفس المحكومة بمحدوديتها لا تساعد صاحبها على أن يقول ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصراً﴾ فليس هذا من منطقتها ولا مما يدخل فى طاقتها وكل هذا من الإعجاز.

ووصف الريح بكلمة «صرصر» يحتمل معانى كثيرة. فالصرصر التى تهب ولها صوت يشبه كلمة «صرصر»، أو التى لها جلبة وصيحة من قوله تعالى ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. أى فى جلبة وصيحة، أو التى فيها صر بكسر الصاد وهو البرد الشديد الذى يهلك كما فى قوله سبحانه ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ووصف هلاك قوم هود فى هذه الآية قريب جداً من وصف هلاكهم فى سورة القمر فى قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصراً فِى يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

وتلاحظ فروقاً خفية مع التشابه الشديد فلم يذكر فى القمر أنه أرسل عليهم الريح لينذرهم سذاب الخزى كما جاء فى فصلت، لأن القمر فيها خسر

تكذيبهم وليس فيها خبر استكبارهم، وقال فى القمر ﴿فِى يَوْمٍ نَحْسِرُ﴾ [القمر: ١٩] وقال فى فصلت ﴿فِى أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ لأن السياق فى القمر سياق إيجاز شديد ولأن كلمة يوم والمراد بها أيام يعنى أنها أيام يشبه بعضها بعضاً؛ حتى كأن اليوم هو الذى بعده وهو الذى قبله فهو واحد فى الأوصاف والأحوال، وهذا جيد، وترى الصورة فى سورة الحاقة وفيها أطياف أخرى من المعانى والأحوال مع الاشتراك مع القمر وفصلت فى أصل الصورة، وذلك فى قوله جل شأنه ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦] وقد وُصفت الريح بأنها عاتية وهذا معنى جديد يناسب الحاقة، وقوله ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ [الحاقة: ٧] وهذه الصورة لم تذكر فى فصلت وقال ﴿سَخَّرَهَا﴾ بدل ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، وبينهما فرق كبير، والتسخير غير الإرسال وهو المناسب للغاية التى تريد الصورة بيانها وهى «ترى القوم فيها صرعى» إلى آخره، والإرسال يناسب الذى تريد فصلت بيانه وهو إذافة عذاب الخزى لأن السياق سياق عتو واستكبار وطغيان فناسبه عذاب الخزى، وهذا كلام موجز جداً وإنما أردت به أن أقول إن جمع الآيات التى تحدثت عن هذا الشأن أو عن نظائره فى الكتاب وتحليل الفروق وبيان ملاءمتها باب لم تحكمه الدراسات القرآنية، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قاله الجاهليون فى هذا المعنى كالذى قالوه فى الريح والسحاب والمطر، ووصفهم للصباء والذبور ورياح الخصب ورياح القحط ومعتك الجياع وخبّ السفير، وعزت الشمال الرياح، إلى آخره لوجدت باباً ليس ضرورياً لفهم أسرار البيان فقط، وإنما هو ضرورى لفهم أسرار الإعجاز، وضرورى لفهم أسرار الشعر أيضاً وأنا أستحضر الآن صور الرياح فى الشعر الجاهلى وهى صور بالغة التميز والدقة وتصور القدرة الإنسانية الفذة فى الإدراك والوعى حتى لتظن أنه لا يقال فى الريح والسحاب والمطر بيان أعلى من ذلك، فإذا قرأت هذا فى الكتاب العزيز وجدت صوراً تطلع عليك من أفق آخر وتعلو بسلطان آخر.

وقوله سبحانه ﴿لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ تعليل لإرسال الرياح الصرصر وفيه غضب شديد لأنه يبين أننا أرسلنا عليهم الرياح الصرصر لنذيقهم عذاب الخزي، وكأن إذاعة العذاب هو الأمر المطلوب والتعبير عن الإصابة بالإذاعة يعني أنها إصابة تذاق، وإذاعة العذاب أهول من إصابته، وكل هذا راجع إلى خطيئة الاستكبار على آيات الله وجحدها بعد العلم بها، لأن هذا من سوء الأدب المتعمد مع الله رب العالمين، وتأمل إضافة العذاب إلى الخزي وكأنه عذاب من نوع آخر هو عذاب الإهانة والمهانة والهلاك وهذا مناسب لما ارتكبه من الاستكبار، ولما ذكرت الآيات استكبارهم لوّن هذا الاستكبار أقسام الصورة وأجزاء البيان وهذا سياقها، لأن رأس الكلام هو ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهذا استكبار، فناسب ذكر عاد الذين استكبروا وناسب ذكر عذاب الخزي للذين استكبروا.

والآيات مذكورة للإنذار والتخويف والاعتبار وتستمد كثيرا من صورها وأحوالها وفروعها وظلالها من الجذر الذي خرجت منه، ولهذا كله كان الاعتبار بذكر عاد وشمود الذين يعيشون في أرضهم وهم خلفاؤهم وجيل من أجيالهم، وهذا كله يعني أن ذكر إذاعة عذاب الخزي في الحياة الدنيا وعيد وتهديد موجه للذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وهذا هو الجذر.

لم يذكر في ريباح عاد هنا إلا إذاعة عذاب الخزي، ولم يذكر أنهم أعجاز نخل، وإنما ذكر ذلك في الحاقة لأن الحاقة تعنى القيامة والنفخ في الصور وانشقت السماء، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، وذكر ذلك في القمر لأنها حديث عن ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وهكذا تجذ الملامات العجيبة التي هي سر بلاغة الكلام، والتي لم نشبعها كما أشبعنا التشبيه والمجاز، وقوله جل شأنه ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ هذه الواو من عطف

المعنى على المعنى لأنها لا تقع موقع المفرد من كلام قبلها، لأنها تخبر عن عذاب الآخرة وليس مرتبطاً بإرسال الرياح. وحين ترتبط الجمل بعضها ببعض تستطيع أن تعود ببعضها إلى بعض فتقول مثلاً إن جملة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ عائدة إلى جملة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ والكلام فاستكبروا في الأرض بغير الحق فأرسلنا، حتى إن بعض المفسرين قال هذا وجه الكلام والذي بينهما اعتراض. يعنى اعتبر قوله سبحانه ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كل ذلك اعتراض بين فأرسلنا واستكبروا، وهذا كلام لم أنه إليه لأن المفسرين يتوسعون جداً في الاعتراض. ولأننى بينت قوة الصلة بين ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وما قبله، ثم قوة الصلة بين ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وما بعده، والمهم أنك إذا أردت أن تعود بجملة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ إلى موطن لها فى الكلام السابق لا تجد، ولهذا قلت إنها مستأنفة والتأكيد فيها باللام وبأفعل التفضيل الذى فى قوله ﴿أَخْزَى﴾ وترى مزيداً من الغضب فى هذا التوكيد لأن التوكيد يعنى مزيد عناية بالإسناد، والإسناد هنا ليس لبيان أن عذاباً سيقع عليهم فى الآخرة، وإنما الإسناد المؤكد هنا هو زيادة أفعل التفضيل الذى هو من الخزى، فالتوكيد توكيد للأخزى وكان وقوع العذاب فى الآخرة أمر مقرر لا يحتاج إلى بيان، وإنما المحتاج إلى بيان هو أنه أخزى، وهذا هو معنى الغضب الذى نسخرجه من الجملة. ثم إنك تجد فيها مقابلات واضحة فقد قابلت عذاب الآخرة بعذاب الدنيا وقابلت الخزى فى الدنيا بالأخزى فى الآخرة. ونلاحظ أيضاً عناية الآية بلفظ الخزى والأخزى لأن هذا هو المراد إبرازه لقدع تلك الأنوف المستكبرة والمتنطرسة، وكان يمكن أن تقول الآية ولعذاب الآخرة أشد، وقد جاء ذلك كثيراً فى الكتاب ولكل كلمة مقام.

وقوله جل شأنه ﴿وَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ معطوفة على قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَزْهَى﴾، وهذه الجملة ناظرة إلى قوله ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾، وناقضة لها لأنهم لو كانوا كما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ لما احتاجوا إلى ناصر، ثم إنهم ليسوا كغيرهم ممن إذا استصر نُصر وإنما هم خصوصاً يستنصرون فلا ينصرون، ومبنى الآية يفيد هذا أعنى أنهم يستنصرون فلا ينصرون، وليس المقصود منه نفى الناصر فقط وإنما المقصود أنهم يطلبونه فلا يجدونه، وهذا باب آخر من أبواب الخزي فى الآخرة.

قلت: إن الإعراض الذى كان من قومه صلوات الله وسلامه عليه كان مصحوباً بغطرسة واستعلاء، فاستدعى ذلك ذكر عاد واستكبارها وذكر ثمود وغيبائها. وقد رشح هذا على الكلام كما بينا، والذى أردته أن كل هذا بأطرافه وظلاله مَهَيَّ لِقَوْلِهِ بعد ذلك ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ وتأمل كلمتى «يحشر ويوزعون» وتذكر خزي الدنيا الذى صار فى الآخرة أخزى.

قوله جل شأنه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

هذه الآية مكونة من ثلاث جمل ترتبت الثانية على الأولى والثالثة على الثانية وكانت الفاء وهى الرابطة والمشيرة إلى الترتيب بلا مهلة وهذا من أخصر الكلام وأوجزه، وكل جملة تطوى وراءها مرحلة كاملة فالأولى تطوى وراءها مرحلة دعوة صالح لقومه، وخطابه لهم، وخطابهم له، وقد ذكر كل هذا مفصلاً فى الكتاب العزيز. والثانية تطوى مرحلة إصرارهم على الباطل وعنادهم وطغيانهم وهذه أيضاً مصورة فى مواضع كثيرة من الكتاب، والثالثة تطوى مرحلة استئصالهم وأحوال هذا الاستئصال وهذه أيضاً جاءت فى صور متعددة ومختلفة فى الكتاب.

وإذا جمعنا ما فى الكتاب من دعوة صالح والذى قاله لقومه وردهم عليه
 وتعتهم وطفغانهم، وطلبهم الآية ومجىء الآية وموقفهم من الآية، ثم أخذ
 الله لهم، وشرحنا كل ذلك وجعلناه الخلفية التفصيلية لشرح هذه الجمل
 الثلاثة، لو فعلنا واستقرينا ما تشابه وما اقترب وما ابتعد وما اختلف، وفسرنا
 كل ذلك فى ضوء سياقه وموقعه من السورة التى ذكر فيها وربطناه بالجذر
 الأصلى الذى دارت عليه السورة، ولماذا استدعت هذه السورة من القصّة هذا
 القدر، ولماذا جاءت العبارة عنه على هذا الوجه من التعبير دون غيره، لوجدنا
 أنفسنا أمام باب من أبواب أسرار البيان القرآنى لم تُشبعه الدراسة بعد،
 وحسبنا أن نشير، ثم أقول: إننا أيضاً لو وضعنا الآيات التى ذكرت ثمود فى
 سورتنا بإزاء الآيات التى ذكرت عاد لوجدنا فروقاً كبيرة؛ أولها أن آية ثمود
 ذكرت جملة ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وجعلتها خبراً عن ثمود، وآية عاد لم تذكر هذا
 وإنما أخبرت عن عاد بأنهم استكبروا فى الأرض بغير الحق، وسكتت عن
 مضمون جملة ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وهى تعنى تلخيص دعوة صالح لقومه، وإنما
 سكتت عنه آية عاد للمبادرة بذكر موقفهم من دعوة هود عليه السلام،
 وللإشارة إلى دائهم الأعظم الذى أضلهم وهو استكبارهم واعتدادهم بقوتهم
 وأنهم إذا بطشوا بطشوا جبارين، وأن الله أمدهم بأنعام وبنين وأن هذه الآلاء
 أظغتهم حتى ظنوا أنهم أوتوا ما أوتوا على علم منهم، وفرحوا بما عندهم فكان
 ما كان، وكل سدا مسكوت عنه فى ثمود فى سورتنا والمذكور فى ثمود هو
 ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ والأمر الأظهر هنا هو رؤية الآية
 أعنى الناقة التى خرجت لهم من الصخرة لما طلبوا من صالح عليه السلام آية
 ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَا بِمَا نَعُدُّنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] فقال لهم عليه السلام ﴿هذه
 ناقةُ الله لكم آية﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذا هو معنى ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ لأن الذى
 رآه بعيونهم من خروج الناقة من الصخرة ليس بعده آية دالة على أن صالحاً

مبلغ عن ربه، ولا يجوز لمن فيه عتق أن يدبر ظهره لهذه الآية، ولذلك جاء
 تعبير القرآن عن هذا الضلال تعبيراً فيه شوب من السخرية، وفيه إشارة إلى
 عجلتهم وأنهم رفضوا الآية من غير تدبر ومن غير مراجعة، والفاء التي في
 قوله ﴿فَاسْتَجِبُوا﴾ دالة على ذلك والسين والتاء في قوله ﴿اسْتَجِبُوا﴾ دالة
 على المبالغة، واختيار كلمة استجبوا بمبناها الدال على المبالغة يفيد التشهير
 بعقولهم وأفئدتهم لأنهم بالغوا في جبهم للعمى على الهدى، وناهيك عن
 من يستحب العمى على الهدى، والعمى هنا مستعار للضلال الذي هو ضد
 الهدى وهذه الاستعارة فيها قدر من السخرية والتشهير بهم، وقرأ هذه
 الكلمات وقف عندها وقلبها بلسانك ووعيك ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجِبُوا الْعَمَى عَلَى
 الْهُدَى﴾ لأنك ستجد فيها أكثر مما قلته، والغضب الذي أشرنا إليه هناك تحت
 الالتفات في قوله ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ تجد له نظيراً هنا تحت زيادة الهمزة والسين
 والتاء، واستعمال مادة الحب واستعارة العمى للضلال الذي اختاروه، وأن
 ذلك كله كان ثمرة أن مَنْ الله عليهم بالهداية يعنى بالآية، وأن ثمة في الكلام
 إشارة إلى سدا المَنْ في إسناد الهداية إلى ضمير العظمة ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾
 ولا شك أن المراد بالهدى هنا ليس ما يقابل الضلال لأن الله لو هداهم على
 طريق الهدى لما ضلُّوا لأن من يهديه الله فلا مضل له، وإنما المراد الآية التي
 من شأنها أنها تهدي، وإطلاق الهدى على سببه وهو الآية فيه معنى أنها آية
 هادية وبيّنة ولا يزيغ عنها إلا هالك، ثم إنك تجد كل هذا يحرك الكلام
 ويدفعه دفعا إلى هذه الجملة البالغة القوة وهي الجملة الأخيرة ﴿فَأَخَذْتَهُمْ
 صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكل كلمة فيها وراءها مغزى، فالفاء
 دالة على أن من كان شأنه أنه يستحب العمى على الهدى فوفوع الصاعقة به
 يكون بلا ريث ولا إبطاء، والثاني كلمة ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ ولها في سياق القرآن
 وفي موضوع أخذ الأمم دلالة بيّنة وأنها تعنى الأخذ الشديد ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُ

ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴿ [هود: ٢-١] ومثل هذا كثير وقد مضى بعضه ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ [غافر: ٥] ﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ثم إن الحق سبحانه قال في شأن عاد ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ وقال في شأن ثمود ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب ﴾ فأسند الأخير إلى صاعقة العذاب وهذا أضاف إلى الجملة معنى آخر، وكان صاعقة العذاب لها عندهم ثار، وأنها مغیظةٌ منهم لشناعة فعلهم لما اسحبوا العمى على الهدى، لأن هذا ليس ما يقتضيه العقل. وإنما هو ضد فطرة الأشياء؛ وليس هذا ببعيد وله نظائر كثيرة في الكتاب من ذلك قوله جل شأنه ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ [الفرقان: ١٢].

وإضافة الصاعقة إلى العذاب يزيد من هولها وبشاعتها وشدتها، لأن الصاعقة من غير إضافة هي عذاب فإذا أضيفت إلى العذاب دل ذلك على أنها صاعقة ليست كالصواعق وإنما هي صاعقة عذاب وهذا أهول، ثم إن وصف العذاب بالهون يعني عذاباً يهين فهو عذاب مهين، وهو في الآية موصوف بالمصدر وراجع لتدرك، لأن في أسرار البيان ما لا يتعلم وإنما يدرك ويذاق، وأن طريق العلم به هو الروية والفكر، وقد عبر القرآن عن صاعقة العذاب الهون هذه بصور مختلفة كل صورة تكشف جانباً منها، ففي سورة الحاقة ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ [الحاقة: ٥]. وهذا معناه أن صاعقة العذاب الهون كان فيها حدة واقتدار وطغيان، وأنها أخذتهم أخذ المتمكن المغيظ الغاضب الذي يتوقد غضباً، وعبر عنها في سورة القمر بقوله جل شأنه ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ [القمر: ٣١]. فدل هذا على جلبتها وقصر مدتها وعلى حالهم التي تركتهم عليها وأنهم كانوا كهشيم المحتظر، يعني صاحب الحظيرة والهشيم المهشوم المكسر والذي داسه الدواب وراثت عليه، وهذا هو معنى عذاب الهون، وهكذا تابع وتستقصى وتجد الفروق الجليلة.

ولك أن تقارن أحوال هلاك عاد بالريح الصرصر العاتية وهلاك ثمود بصاعقة العذاب الهون وأن تجمع صور التعبير عن هذين في الكتاب، ولك أن تقول إن حدة الغضب أظهر في عذاب ثمود لأن عادا جحدوا آيات الله وثمرود عقروا آية الله، وهذا أهول.

وقوله سبحانه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذا المعنى في شأن ثمود يحاذى قوله سبحانه في شأن عاد ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ لأن هذا هو سبب عذاب الاستئصال، وإنما قال هناك ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وقال هنا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ لأن عذاب عاد كان بسبب جحد الآيات والكفر بها بعد العلم بصحتها ولم تذكر الآيات أنهم عملوا بأيديهم عملاً محاداً للدعوة وإنما هو الاستكبار في الأرض بغير الحق وذلك بخلاف ثمود الذين عقروا الناقة التي هي آية وهذا كسب والأول جحد، ولهذا وقع كل في موقعه، ثم إن كلمة كان هنا أخت كان التي هناك وأنها مشيرة إلى أن هذا الكسب المضاد لدعوة صالح عليه السلام هو شأنهم ودينتهم، ثم إنك لو رجعت إلى الجذر الذي استدعى قصة عاد وثمرود وهو قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ لو رجعت إلى هذا وجدته يصور أمرين الأول الرفض لما تدعو إليه وهذا هو الجحد، والثاني التهديد والتحدى بالعمل والكسب الذي في قولهم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وهذا هو موضع تلاقي الفاصلتين في القصتين ثم نلاحظ أن الجحد الذي هو سبب العذاب ذكر في عاد وجاء بعده ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ الذي هو العذاب وذكر الكسب في ثمود وجاء قبله العذاب الذي هو ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ﴾ ووجه ذلك والله أعلم أن جرم عاد هو الاستكبار على الحق فقدم لبشاعته، وجرم ثمود شقان شق هو الاعتقاد وقد عبرت عنه آية ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وقسم هو مزاولة الجرم الآثم بعقر الناقة وأشير إليه بالكسب. ووقع العذاب بينهما للإشارة إلى أن

استحباب العمى على الهدى يُقضى بهم إلى صاعقة العذاب الهون وأن
عقرهم الناقة يفضى بهم إلى صاعقة العذاب الهون. هذا والله أعلم.

ثم إنك ترى الكتاب العزيز يقرن العقوبة بالذنب الذى استوجبهها ويقر
ذلك ويؤكد احتراماً للإنسان وأنه لا عقوبة إلا بذنب وإلا كانت حياة الناس
جحيماً لا يطاق، وبعض ذلك يقع الآن، يعاقب ناس من غير ذنب ويسهل
طريق الهرب للمذنبين وأبو جهل يتكلم فى الفقه وفرعون يصلى ويصوم
ورجعنا إلى زمن ابن الإله «رع» ولا ندرى إلى أين أنت ذاهبة يا أم البلاد.

قوله سبحانه ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الواو واو الاستئناف التى
تعطف معنى على معنى. والمعنيان متقابلان تقابلاً شديداً، لأن المعنى الأول
يصور نموذجاً رديئاً يرى الحق ويجحده ويرى البرهان ويعقره، والنمط الثانى
هو الإنسان المستقيم الفطرة الذى رأى الحق فانقاد، ورأى البرهان القاطع
فأسلم وجهه لله وهو محسن، وهذه الآية أخت الآية التى ختمت القسم
الأول وهى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ﴾ هناك آمنوا وهنا آمنوا، وهناك عملوا الصالحات وهنا كانوا يتقون،
يعنى من شأنهم أنهم يجعلون بينهم وبين غضب الله وقاية بفعل ما أمر
سبحانه وترك ما نهى وهو نفسه «عملوا الصالحات»، وهناك لهم أجر غير
ممنون ويقابله هنا ﴿نَجَّيْنَا﴾ والأجر غير المقطوع يبدو فى الظاهر أكثر من
النجاة لأنه نجاة وأجر وليس فى الكتاب ولا فى السنة - فيما أعلم - نجاة من
غير أجر فكل من زحزح عن النار دخل الجنة، وبهذا تكون النجاة دالة على
الأجر غير الممنون، ثم تزيد هذه الآية شيئاً ليس فى التى قبلها وهى قوله
﴿نَجَّيْنَا﴾ وإسناد نجاتهم من الأحوال التى سقطت فيها عاد وثمود إلى ضمير
العظمة وأنه سبحانه بجلاله وسلطانه مديده إليهم ونجاهم، وهذا تكريم ليس
بعده تكريم، وتقريب ومؤانسة فى موقف الشدة والفرع، ثم إن كلمة (نجاة)
إنما يقال لمن أشفى على هلاك، وأنا جميعاً على شفا حفرة من النار وأنه من

زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وكل هذا يفيد ضرورة وجوب الخذر وأن النجاة من النار أمر محفوظ بالمخاطر، وأن الصراط المستقيم لا يهتدى إليه إلا من كابد لأن سبلاً كثيرة تتفرق بنا عن سبيله والله هو المستعان، ثم إن الآية الأولى كما قلت كانت ختاماً على القسم الأول من السورة، وهذه الآية ختم خاتم على هذا القسم الثاني. لأن الآيات بعدها انتقلت، ومن المهم جداً أن تعود أنت أيها القارئ إلى القسم الأول وتبحث عن قطبه الذي دارت حوله معانيه، ثم تنتقل إلى القسم الثاني وتبحث عن قطبه الذي دارت حوله معانيه، ثم وهو الأهم أن تبحث لا عن صلة القسم الثاني بالقسم الأول وإنما عن كيف تولد القسم الثاني من القسم الأول، وكيف كان من تمام معناه، لأن العلاقات بين المعاني الجزئية والمعاني الكلية أيضاً المكونة للسورة لم أعد أراها علاقة مناسبة، وإنما هي العلاقة التي تراها بين أجزاء الشيء الواحد وأن ثمة نسيجاً بيانياً من خيوط واحدة هو الذي جمع طرفي السورة من أولها إلى آخرها بخيوط واحدة ممدودة من أولها إلى آخرها ليس فيها خيط سوصول بخيط ليمده، وإنما تداخلت الخيوط على وفق سير المعاني في السورة، وليس هذا من المجاز البعيد، والكلام الآن سينتقل انتقالاً أوسع من الانتقال الذي كان عند المفصل الأول وهو قوله تعالى ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وستجد أنها انتقله من مرحلة إلى مرحلة في طريق واحد.

قال سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ عَلَيْنَا فُلْنَا لَأَنذَقْنَا اللَّهُ الَّذِي نُنَادِيكُمْ بِذُنُوبِكُمْ لَئِن لَّمْ يَظْهَرْ لَكُم بَيِّنَاتٌ مِّنَ رَبِّكُمْ لَتَقُولُنَّ لَوْلَا يُرْسِلُ اللَّهُ سَاقِطًا مِّنَ السَّمَاءِ تَلِيكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿﴾

هذا الجزء من السورة لا يختصر لانه يمثل حقيقة واحدة قد أمسك بعضها ببعض. وترى السورة مكونة من أقسام هي بمثابة فصول وهي تشبه القصيدة فى هذا وخصوصاً الشعر الجاهلى المسك بعضه ببعض .

وقد يكون الفصل مكوناً من جزئين مثل الفصل السابق الذى أوله ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمين﴾ وآخره ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وتجد فيه مفصلاً فارقاً بين قسميه وذلك فى قوله سبحانه ﴿فَإِنِ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ وقد بينا ذلك وكل الذى مضى إنما هو عذاب الهون فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أذى .

وهذا القسم فى عذاب الآخرة الأذى، فإذا كانت عاد قد أهلكتها الريح الصرصر، وإذا كانت ثمود قد أهلكتها صاعقة العذاب الهون، وانتقل الكل من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة فإن الكلام انتقل معهم من عذاب الاستئصال فى الدنيا إلى عذاب الآخرة الأذى، يعنى هذه الآيات تفصيل لقوله سبحانه ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ والخيط لا تزال ممتدة وليس هنا مفاصل يعنى الكلام عندها كما كان يقول علماؤنا .

وقوله سبحانه ﴿وَيَوْمٌ﴾ هذه واو الاستئناف التى يبتدئ الكلام معها معنى جديداً وهى من أكرم الواوات وأدقها فى ربط معاهد المعانى، لأنها ليست عطف مفرد ولا عطف جملة وإنما هى عطف غرض على غرض ومقصد على مقصد، وتقع فى مفاصل الكلام أحسن سوقع ولا يحسن فقه موقعها إلا من أحسن فقه الكلام قبلها، والكلام بعدها، وكان بصيراً بعلاقات المعانى وكيف تتفق وكيف تختلف .

ثم إن لها موقعاً جليلاً مع كلمة «يوم» فإذا قلت (ويوم) التفت السامع واستيقن أنك ستحدث عن أمر غريب، وهكذا تجدها فى الكلام كقوله امرئ القيس «ويوم عقرت للعذارى مطيتى» «ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة»

وهكذا، والأمر الغريب هنا ليس هو الحشر، وإنما المعانى التى تطيف بالحشر فى هذا الموقع، وأولها بناؤه للمجهول ومجيئه على خلاف مثل قوله سبحانه ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] وهذا البناء للمجهول مشعر بأن المقصود هو حشرهم وإنما بنى للمجهول حتى لا ينصرف الذهن إلى الفاعل لأن المراد أن ينصرف الذهن إلى الحشر ذاته لأمر فيه، وهذا البناء للمجهول يشعر بأن شيئاً ما يتهاى السامع إليه وهو الغرائب التى ستذكر فى هذا الحشر، وكلمة ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ دالة على عموم من رد دعوة الله وكذب أنبياءه فى الأمم كلها، وهى الآن تلقى على مسامع من قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ إلى آخره، وكل الذى يذكر من سير الأمم القديمة مراد به الأحياء لأن الخطاب خطابهم والدعوة دعوتهم ومن مات فات، ثم إنها شاملة لكل من يرد دعوة الله فى الأرض ويحاربها ويحادها، فى زماننا وبعد زماننا وفى أرضنا وغير أرضنا إلى يوم أن يتفخ فى الصور ويظلم التكليف، ولهذا تجد فى الكلمة سعة شديدة وتجد الكلام بدأ مع الذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ ثم انتقل إلى عاد وثمود ثم انتقل إلى أعداء الله ممن ولدت حواء ممن فات ومن هو كائن ومن سيكون إلى يوم القيامة، وهكذا تتسع مساحة الكلام وينتقل الخطاب من قريش إلى كل من فى الأرض. هذه واحدة من دلالة كلمة أعداء الله، والثانية هى أن العبارة عنهم بأنهم أعداء الله غير العبارة عنهم بالذين كفروا، أو الظالمين، أو ماشئت، لأن هذه الكلمة هنا مشعرة بأن الخبر الوارد عنهم بعد تعريفهم بهذه الصفة سيكون من نوع العذاب المناسب لعداوتهم لله، والحشر إلى النار فيه قدر من الإهانة والغضب، وقد يكون أكثر من الذى فى مثل قوله سبحانه ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] مع أن كلمة سيق فيها من الهوان ما فيها وقد جاءت جملة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ لتأكيد معنى الغضب والإهانة الذى فى جملة ﴿يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَىٰ النَّارِ﴾ ومعنى يوزعون يحبس أولهم على آخرهم

وهذا تأكيد لمعنى الحشر، ومن أجل توكيد هذه الصورة وتثبيتها في القلب قدم المسند إليه على الخبر الفعلي وجيء بالفعل المضارع حتى كأن القارئ يراهم وهم يحبس أولهم على آخرهم إهانة وإذلالاً، وهذه الجملة جاءت بلفظها وطريقة بنائها في قوله تعالى ﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧] وإنما تقدم المسند إليه لتأكيد المعنى وذلك لغرابة الخبر، وحشر هذه الأجناس المتصادمة من الجن والإنس والطيور أمر غريب لم تجر به عادة «وفرق بين حشر جنود سليمان وحشر أعداء الله». وجملة ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ مرتبة على جملة يحشر أعداء الله إلى النار ومبينة لها وهي من تمام معناها، وكان هذه الآية جملة واحدة هي، يوم يحشر أعداء الله إلى النار ثم تلحق بها توابعها، وقصر هذه الجملة مع سعة المعنى الذي وراءها وحشود أهل الباطل والزور والنفاق والكفر والضلال الذين تراهم فيها يحشرون ويحبس أولهم على آخرهم، أقول: قصر هذه الجملة ليتوفر العقل على مراجعتها ويتوفر الخيال على استيفاء صورتها بكل حواشيها وما تزخر به من حركات ووقوع واضطرابات وهياج وصراخ، ولا بد من ملاحظة أن الكلام لما انتقل إليها تجاوز الحشر والحساب والصراف والميزان إلى آخره، وهؤلاء قد حكم عليهم وأنهم أعداء الله وأهل النار، وهم الآن يحشرون ولك أن تتلمى ما وراء ذلك من أحوال وأحداث، قلت: إن قصر هذه الجملة مقصود لاستيعاب أحوالها ومعانيها، وقد جاءت كذلك في قصة سليمان، وهذه الجملة مع استقلالها وسخائها وسعة دلالتها واستغنائها عما قبلها وما بعدها إذا نظرت إليها في سياقها مع ما بعدها وجدتها كأنها ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي مقصودة لما بعدها لأن ما بعدها مؤسس عليها تأسيس الشيء على الشيء - لا يكون إلا به، وذلك قوله سبحانه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهذه هي المفاجأة المزلزلة التي لم يكن خيال يتوقعها، وقريب منها في قصة سليمان

عليه السلام ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ [النمل: ١٨] والغريب أن المترتب على الجملة الأولى في الموضوعين نطق ما لم يكن يتوقع نطقه لأن النطق ليس من شأنه، وكأن الحشر والدَّعَّ والزَّعَّ كان مقدمة لهذه المفاجأة، وقوله سبحانه ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ تفيد كلمة ﴿ حَتَّى ﴾ أن زمانا قد مضى وهم يحشرون ويوزعون وأنهم انصرفوا من المحشر إلى النار، وأنهم كانوا بين المحشر والنار على هذه الحالة من الصخب والحشر والزرع والدع، وكلمة إذا للشرط في المستقبل وجواب الشرط ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ ﴾ وما زائدة لتأكيد ترتب الجواب على الشرط، ولم تأت في آية سليمان وإنما قال سبحانه ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ [النمل: ١٨] وذلك لأن قول النملة وإن كان غريباً فليس المقصود منه التخويف والتهديد وإنما هو امتنان بما أنعمه الله على نبيه سليمان الذى علمه منطق الطير، وكلمة ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ ﴾ هى المفاجأة وهى موطن التخويف والتهديد والوعيد ليكف أعداء الله عن عداوة الله، لأن عداوة الله أشنع ما يرتكبه المخلوق مع خالقه، وهؤلاء الشهود لا ترد شهادتهم لأنهم شهدوا بما كانوا يعملون يعنى شهدوا على أعداء الله بما كان يعمل أعداء الله، وشهدت هذه الأعضاء بما كانت تعمل هى، وعبر عنها بالعبارة التى تكون للعقلاء لأنها لما شهدت صارت من ذوى الشهادة وهم العقلاء، فالأسماع شهدت بما كان يعمل صاحبها، وبما كانت تعمل هى وكذلك الأبصار والجلود، وإنما خصت الأسماع لأنها سمعت داعى الله ومقالة رسله عليهم السلام من مثل قوله عليه السلام ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ كما خصت الأبصار لأنها ترى آيات الله الدالة عليه دلالة لا يدفعها صاحب عقل كالمذكور فى قوله سبحانه ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ وقوله ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا ﴾ وقوله ﴿ وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

وَحِفْظًا ﴿ أما الجلود فهي شاملة لكل ما فى الإنسان ومحيطة به ، وشهادة
الجلود تعنى شهادة أيديهم وأرجلهم وكل ما يكون به تصرف منهم ، وعطف
الجلود على الأسماع والأبصار من عطف العام على الخاص . وكان عدو الله
لما سخر هذه الأعضاء المخلوقة لله فيما يغضبه سبحانه كان قد أساء إليها
وأجراها على غير فطرتها فشهدت عليه بين يدي الله لتبراً ساحتها أمام
خالقها ، وكأنها انتقادت إلى ما يغضب خالقها وهي كارهة وأن فطرتها أن
تنقاد مع هذا الوجود لله رب العالمين وأن تقول كما قالت السموات والأرض
أتينا طائعين ، وهي الآن تتبرأ من سدو الله وتعلن عداوتها لعدو خالقها ،
وهذه الآية من أشد الآيات وأخوفها فى الكتاب العزيز وهي معنى قرأتى
محض لم يعرفه اللسان قبل القرآن ، وتجد شبهها بين هذه الآية وما جاء فى
الحديث القدسى من أن العبد ما يزال يتقرب إلى ربه بالنوافل حتى يحبه فإذا
أحبه (فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى
ييطش بها ورجله التى يمشى عليها) قال العلماء فى تفسير ذلك يعنى كنت
سمعه فلا يسمع إلا ما يرضينى وكنت بصره فلا يتصرف ببصره إلا فيما
يرضينى . وهكذا لا تمتد يده إلى شىء يغضبنى ولا يسعى بقدمه إلا فى
طاعة ، ووجه الشبه بين الآية والحديث هو أن للأعضاء شأنًا فى عمل العبد
فى طاعته ومعصيته ، وأن فطرتها أن تكون ربانية .

وقوله سبحانه ﴿ وَقَالُوا جُلُودَهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ هذه الجملة معطوفة على
جملة الجواب ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ ﴾ وقد خصوا الجلود بقولهم لم
شهدتم علينا لأن الجلود شاملة لكل الأعضاء كما قلنا ، وهذه المقابلة بين الناس
وأعضائهم تقرب وترشح ما استخرجناه من أن هذه الأعضاء يسوؤها أن يتصرف
فيها أصحابها فى الذى يغضب باريها ، لأنها مخلوقة لله وكل مخلوق لله هو
بفطرته منقاد إلى الله الذى خلقه ، وقول السموات والأرض أتينا طائعين دليل
على ذلك ، وقوله سبحانه ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

دليل على أن كل شيء بهذا العموم الشامل لكل ما فى الكون هو منقاد ومسيح بحمده لأنه مخلوق له وقوله جل شأنه ﴿وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] يعنى أنه ليس تسبيح استدلال، وأن فى كل شيء له آية لأننا نفهم التسبيح إذا كان بهذا المعنى. ويلاحظ أن الناس لم يعترضوا على ما شهدوا به يعنى لم يعترضوا على مضمون الشهادة، لأن الجلود شهدت بما كانوا يعملون فلا وجه للطعن فى هذا الشهادة، وإنما سألوا عن سبب شهادتهم عليهم وهم أعضاؤهم وانقلبوا عليهم فى هذا الوقت البالغ الحرج، لأن كل شيء يبرأ من عدو الله حتى جلده وقد أجابت الجلود بقولها ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا جواب يحتاج إلى مراجعة وأول ما فيه أنهم عدلوا عن جواب السؤال لأن السؤال عن علة الشهادة وليس عن كيف شهدتم علينا وأنتم أعضاء لا تنطق، وإنما كان هذا العدول لأنهم رأوا أن الأشباه بالسائل أن يقال له هذا الذى قالوه، لأن الذى كبه فى النار هو مخالفة هذا الذى قالوه، فقد جهلوا قدرة الله الذى أنطق كل شيء، وجهلوا قدرة الله الذى خلقهم أول مرة، وجهلوا أنهم إليه يرجعون، وكان هذه الجلود تعيد عليهم دعوة رسل الله التى عارضوها، لأن هذا الجواب فيه الوحداية وأنه سبحانه خالق الخلق، وفيه البعث والرجوع إليه، وفيه الحساب والثواب والعقاب، وكان هذه الجلود التى هى هيكل الإنسان وبنياته آمنت، وإنما بقى الكفر والجحد والباطل فى قلوبهم وليس فى أسماعهم ولا أبصارهم ولا جلودهم، لأن هذه القلوب هى موطن الكفر والإيمان والاستكبار والعناد والطغيان.

وقولهم ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فيه ترشيح للمعنى الذى استخرجناه لأن ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ كلمة تختصر الخلق كله والكوائن كلها والحي والميت والناطق والصامت والجماد والإنسان، فليس هناك شيء إلا ونطق بحمده وتسيحه، وقد أمر الحجر والجبل أن يؤوب مع داود تسيحه يعنى

يرجع مع داود تسبيحه، فأوب الجبل وأوب الطير، وليس فى هذا كله مجاز، فإذا كان الله الذى خلق كل شىء وأنطق كل شىء هو الذى خلقنا فلا غرابة أن نطق ونشهد بما عملتم وبما عملناه مما صرفتمونا فيه مما لا يرضى خالقنا، ولو أحسستم لكننا كما جاء فى الحديث القدسى «كنتُ سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها» وقولهم ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه توبيخ لهم وتجهيل لهم لأنه لا جهل أجهل من أن تجهل الذى خلقك، وهذه الجملة التى نطقت بها الجلود جاءت بلفظها فى أدلة البعث فى قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ لِلَّهِ ۗ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩] ومن المفيد أن تذكر أن كل هذا الحوار وهم على أبواب الجحيم ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ والمطلوب أن يحسن خلقه قراءته حتى لا تقودهم أعمالهم إلى هذا الموقف، وهذا من كريم الرحمة بعباده والبر بهم.

وقوله سبحانه ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ لِلَّهِ ۚ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

هذا من خطاب الله لهم وقد انتهى كلام الجلود عند قوله ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ وذهب بعض علماؤنا إلى أن الجلود لم تقل إلا جملة واحدة وهى ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأن الكلام فى قوله ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من كلام الله لهم، وقد ذكرت ما رجحته لأن قوله سبحانه ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من تمام معنى أنطق كل شىء والضمير الذى هو أول الجملة عائد على لفظ الجلالة فى قولهم ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ﴾، وهذا يرجح أن الكلام الثانى من المتكلم بالكلام الأول، ثم إن الواو التى فى قوله ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾ يمكن أن تكون واو الحال

وتكون الجملة الثانية من تمام الأولى من الناحية الإعرابية فضلاً عن المعنى، وكل هذه مرجحات ويمكن أن يكون من كلام الله وهو ملتئم مع كلامهم، وكأنه قسم منه ومثله كثير في الكتاب العزيز والآية تحتمل. ومن المفيد أن أتبه إلى أنه لا يجوز حمل نطق الأسماع والأبصار والجلود على المجاز وهذا يرجح حمل نظائره في الكتاب على الحقيقة من مثل قالتا أتينا طائعين، ويوم نقول لجهنم إلى آخره؛ لأن الغائب لا يقاس على الشاهد.

ثم إن بعض المفسرين ومنهم ابن كثير يرى أن قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ من تمام كلام الجلود، والواو في قوله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ﴾ عاطفة على قوله ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهَ﴾ والاستتار افتعال من الستر، والافتعال هنا وإن دل على الاحتشاد والاحتفال بالفعل الذى هو الستر فإنه دال أيضاً على أن فاعل الفعل هو ما وقع عليه الفعل. فإذا قلت ستره فلان كان المسور غير الساتر، وإذا قلت استتر فلان كان هو الذى فعل الاستتار وأوقعه على نفسه، والآية تنفى أن يكونوا استتروا وليس المراد نفى القيد الذى هو الاحتشاد والاحتفال والمبالغة المفهومة من صيغة الافتعال، وإنما المراد نفى الفعل نفسه وأنهم لم يستتروا أى ستر من أسماعهم وأبصارهم وجلودهم، ولم يتوهموا أن تشهد عليهم هذه الأعضاء فيحتاطوا منها أى قدر من الاحتياط، وفى الجملة حذف، وتقدير الكلام وما كنتم تستترون من أن يشهد عليكم سمعكم، أى بسبب أن يشهد عليكم أو مخافة أن يشهد عليكم، وفى هذا قدر من التهكم لأن الأسماع والأبصار والجلود لا يتسر منها، والاستدراك الذى فى قوله ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يفيد أنهم لم يستتروا من أسماعهم ولا من أبصارهم ولا من شئ، وأنهم لم يستخفوا من الله لأنهم ظنوا أنه لا يعلم، وما دام لا يعلم فلا معنى للتستر لانه إنما يتستر من الذى يظن أنه يعلم، وإذا قلت إنه قوله سبحانه ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا﴾ يفيد أنهم يظنون أنه يعلم قليلاً وهذا القليل الذى يعلمه هو ما كانوا

يسخفون فيه صح الكلام واستقام، ويكون الاستتار المنفى عن الأسماع والأبصار والجلود فحسب، وأنهم كانوا لا يسترون عنها ويسترون عن غيرها مما ظنوا أن الله يعلمه، وجملة ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هي الجملة التي كانوا بها من أعداء الله والتي حشروا بها إلى النار، لأن الذي يظن أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل لا يعرف الله، وإنما يعرف إلهاً غير الله الذي يعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور، ولخطر هذه الجملة أتبعت بجملة بينت أن سر هلاككم هو ما تضمنته هذه الجملة، وذلك قوله سبحانه ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ واسم الإشارة الذي ابتدأت الجملة به راجع إلى ظنهم أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وهذه الإشارة تميز هذا الظن وتحدده وتشير إليه ليقع الخير المفرع عنه بعد بيانه أكمل بيان وتمييزه أكمل تمييز، واللام التي للبعد تشير إلى بعده في الضلال والباطل وبعده عن السداد والرشاد، ثم جاء ما بعده بياناً له وهذا البيان ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ وهذه صياغة ثانية لقوله ﴿ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأن الآية لم تذكر لهم ظناً بربهم إلا هذا، وفي سدا البيان وهذا التكرار مزيد عناية بخطر أن يقول أحد على الله ما لا يعلم أو أن يعتقد أو يظن أحد بالله ظناً يخرج عن كمالات صفاته سبحانه وأسمائه.

وقوله سبحانه ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ هو خبر اسم الإشارة المفسر بالظن المذكور، ونحن نقول أرداكم يعني أهلككم، وهذا تفسير فيه تسامح لأن الردى وإن كان الهلاك ففيه معنى زائد عن هلك؛ لأن الردى فيه معنى السقوط، يقولون تردى في البئر وتردى من الجبل، وفي حديث ابن مسعود «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردى فهو ينزع بذنبيه» قال صاحب اللسان: أراد أنه وقع في الإثم وهلك كالبعير الذي تردى في البئر، والتردية التي تقع من الجبل ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١] أى سقط في النار، وإنما يقال لهم هذا وهم على أبواب جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ وفيه دلالة ظاهرة على أنكم

ستطرحون فيها وتلقون ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ ﴾ وكان الآيات تصور المشهد الأخير والكلام الأخير وتعرض عليهم ما اكتسبوا مما أفضى بهم إلى هذا التردى، وأنه لا يشفق عليهم أحد ولا يرق لهم أحد، وأن الكل يكره ويفض ما كان منهم في حق ربهم حتى أسماعهم وأبصارهم وجلودهم.

وقوله جل شأنه ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ معطوف على قوله ﴿ أَرَادَأَكْمُ ﴾ والفاء تعنى الترتيب وتعنى السببية لأنهم أصبحوا من الخاسرين بسبب الظن الذى أرداهم، وكلمة ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ ﴾ والتى فيها معنى الإصباح ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٨] تشير هنا إلى أن الوقت الذى يغتبط فيه الناس هو وقت الخسران بالنسبة لكم، وكلمة ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ تشبه ﴿ لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩] من جهة دلالتها على أن ثمة فريقاً معروفاً بالخسران ويعرف الناس أنهم الخاسرون وأنتم أصبحتم منهم، والالف واللام فى الخاسرين أى المعروفين بذلك والمشهورين به، وبهذه الجملة انتهى الحديث والحوار معهم، وأذكر مرة ثانية بأن هذا الحوار إنما كان وهم على بوابة الدخول وأن الآيات تركتهم على هذه البوابة ولما يدخلوا بعد، وأن هذا الحوار كان بمثابة الإشهاد عليهم بالخطيئة التى أردتهم وأن الله سبحانه ما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وأن هذا كله تحذير من الرحمن لعباده حتى لا يكونوا من الخاسرين. قوله سبحانه ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أول ما يلاحظ أن الكلام انتقل من الخطاب إلى الغيبة فصار حديثاً عنهم وليس حديثاً معهم، وكان الكتاب العزيز بعدما بين من أحوالهم ما بين ليعتبر بذلك من يقرأ أو من يسمع بين هذه النهاية البالغة التهديد والوعيد، والتى عبرت عنها هذه الجملة ليعتبر من يعتبر. وجملة ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا ﴾ والفاء التى فى جملة ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا ﴾ عطفت الجملتين معاً على ما قبلها، ويمكن أن يكون أصبحتم من الخاسرين فإن تصبروا، ثم عدل الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ويمكن أن تكون عاطفة

مضمونها على مضمون الكلام قبلها من أول قوله ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ والجملتان حذيتا حذوا واحداً لأن حقيقتهما واحدة، ومجىء كلمة إن التي تستعمل في الشرط المشكوك فيه وقعت موقعها الظاهر في الجملة الأولى. لأن الصبر على النار أمر صعب لا يتوقع وهو من النادر، وفي الآية الثانية يتوقع أن يستعبوا يعنى يطلبون أن يسمح لهم بالعودة إلى الدنيا ليعبدوا ربهم، أو أن يطلبوا من ربهم أن يخرجهم منها وهذا كثير في الكتاب، و«إن» في هذا المعنى تشير إلى أن هذا الأصل فيه أنه لا يكون أو أن يكون من القليل النادر، لأنكم أعذرتكم ومتّعتمُ زماناً يتزكى فيه من تزكى. والآية الكريمة بجملتها تفيد التثبيت من تغيير هذه الحالة الشاقة التي يواجهونها، وأنكم إن صبرتم صبرتم على النار وإن طلبتم التخفيف فلن يقبل منكم، فليس أمامكم إلا هذا الجحيم الذي وقفتم على بابه، وفي هذا مزيد من الغضب عليهم والمقت لهم وأنهم هم الذين صَيَّرُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْكَارِثَةِ التي يواجهونها ولا مخرج لهم منها، والخطيئة التي ليس فوقها خطيئة هي إنكار الحق بعد بيانه، وهي التي لها كان الجحيم. ولا بد أن نتذكر أن هذا التصوير المخيف والتهديد المفرع هو من أجلّ النعم ومن أبين دلائل الرحمة التي وسعت كل شيء وغلبت غضبه سبحانه، لأنه إلى الآن وإلى أن ينفخ في الصور وتأتى الصاخة والحاقة وينفخ مرة ثانية فإذا هم قيام ينظرون ويأتى هول المحشر والصراط والحساب والميزان ثم يحشر الذين هم أعداء الله في آخر مراحل القيامة وحين يتم قضاء الأمر بالحق أقول هذه هي الصورة الأخيرة. وقد وضعها القرآن منصوبة أمام أعيننا بكل ما فيها من أهوال ونحن في فسحة من الوقت ليراجع من يراجع ويهتدى من يهتدى ويرتدع من يرتدع، وكان أمثال هذه التهديدات المفزعة تأخذ بأيدينا بعيداً عنها، وكأنها تحذيرات شديدة تقول لنا لا تقتربوا من هذا الخطر الأحمر المتوقد فإن فيه هلاكاً وصعقاً، ولذلك أحب قراءة آيات الوعيد لأنها تردع، وخوفى من النار أهول من طمعى في الجنة. والنجاة من النار، أو الزحزحة عنها هي الفوز العظيم.

ثم إن الآية بجملتها حذيت حذوا واحداً كما قلت وبئيتا على إيجاز شديد جداً، لأن جواب الشرط في كل محذوف والمذكور مكانه هو سببه فاختصر الكلام بحذف الجواب، وبيان هذا أن قوله سبحانه ﴿فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ﴾ ليس جواب الشرط لأنه ليس مترتباً على الشرط وإنما النار مَثْوَى لَهُمْ صبروا أو لم يصبروا، وأصل الكلام فإن يصبروا يصبروا على عذاب شديد فالنار مَثْوَى لَهُمْ يعنى مَقَرّاً ومقاماً، والفاء التي في قوله ﴿فَالنَّارُ﴾ بمعنى لام التعليل يعنى يصبروا على عذاب شديد لأن النار مَثْوَى لَهُمْ، وكذلك ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ قوله ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ليس جواباً لأنهم كذلك استعتبوا أو لم يستعتبوا، والجواب فإن يستعتبوا فلن يعتبوا لأنهم ليسوا من المعتبين والغضب والاستخفاف وإهمال شأنهم واضح في كل. وكأن الكلام يقول لهم وهم على باب الجحيم هذا مصيركم وليس لكم سواه صبرتم أو لم تصبروا، استعتبتهم أو لم تستعتبوا فواجهوا هذا المصير المخيف الذى لا فكاك لكم عنه، والهزمة والسين والتاء فى قوله ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ معناه طلب العتبي يعنى أن يرجعوا إلى الدنيا أو يخرجوا من النار لاستدراك ما فات، وقوله ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ من باب ﴿وَمَا لَهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ومن زائدة ولك أن تقول إن الكلام فى أعداء الله وهم أهل الكفر فى الأرض من يوم أن بعث الله أنبياءه إلى يوم أن ينفخ فى الصور، وهؤلاء ليسوا من المعتبين بخلاف أصحاب الكبيرة من أهل الإيمان، وعليه يكون الكلام مفيداً للاختصاص كما يقال فى ﴿وَمَا لَهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والآية فى معنى قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦].

وكلمة الصبر جاءت فى هذا المقام وهو صبر لا أجر له ولا قيمة له، وهو صبر على أشق ما يعانیه الإنسان لأنه صبر على النار، وجاء فى مقامات

أخرى وله أجر عظيم وله البشرى وبشر الصابرين وجاء وصفا لخبر خلق الله وأمر به عليه السلام كثيراً ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسْلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهذا الصبر الذى يجزل الله به الأجر أقل مشقة من الصبر على النار، وكان الكتاب العزيز يقول باشرُوا التكاليف التى أجزل الله لكم بها الأجر قبل أن تباشرُوا ما هو أشق منها من غير أجر، وكل مشقات التكاليف الشرعية لا تساوى لحظة من لفتح النار.

قلت: إن هذه الآية بكل ما فيها من غضب هى خاتمة هذا القسم، ولو نظرنا نظرة سريعة لأصول المعانى فى هذا القسم وجدنا أولها بيانا لحالهم وهم يساقون إلى النار وأنهم يحشرون ويوزعون، وكان هذا بيان لمثل قوله سبحانه فى سورة الزمر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ووصلة بين السورتين، ثم فى هذا القسم شهادة أسماعهم وأبصارهم وجلودهم وكأنه من تمام مثل قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ فأضافت هذه الآيات الأسماع والأبصار ووضعت الجلود موضع أيديهم وأرجلهم، ثم هذا الحوار الذى بينهم وبين أسماعهم وأبصارهم وجلودهم وهو من باب الحوار الذى بينهم وبين خزنة النار فى مثل قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخره، ثم ركز هذا القسم الباتقة الماحقة التى طرحتهم فى الجحيم وهى ﴿وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قوله سبحانه: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّغْوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٤٠﴾ .

هذا قسم آخر هو من تمام معنى ما قبله سواء الذى قبله مباشرة أو الذى قبل الذى قبله، وبيان ذلك أن الذى قبله انتهى بأعداء الله إلى باب الجحيم وكان آخر ما قيل عنهم ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ .

وهذا القسم رجع إلى الورا قليلًا ليستوفى بيان قصتهم فى الجحود وسيرتهم فى الكفر وإصرارهم عليه ومحاربتهم للحق وعداوتهم ومحادثهم له وهذا هو الذى أفضى بهم إلى باب الجحيم .

وأما علاقته بالذى قبل الذى قبله فهو شرح لإعراضهم وبيان صور من هذا الإعراض وهذا ظاهر .

والواو فى قوله ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ هى الواو التى تعطف معنى على معنى وهى من أكثر وأدق معاهد الكلام، والكلام معها لا يأخذ بعضه بحجزة بعض وإنما تمتد بها خيوط نسيجه فيصير بعضه من بعض .

وكلمة ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ من المقايضة، وقالوا: قايضه مقايضة أعطاه سلعة وأخذ عوضها، وفى حديث معاوية أنه قال لسعيد بن عثمان بن عفان لو ملئت لى غوطة دمشق رجالاً مثلك قياضاً يزيد ما قبلتهم، قال صاحب اللسان أى مقايضة به .

وقالوا قايض الله فلاناً لفلان أى جاءه به وأتاحه له، وقايض الله لهم قرناء هياهم لهم وسيبهم لهم من حيث لم يحتسبوا .

والله سبحانه وتعالى يزيد الذين اهتدوا هدى ويعين من يسعون، وإذا تقرب إليه العبد شبراً تقرب إليه باعاً وأنه كما قال سبحانه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ

بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴿ [النساء: ١٤٧] وأنه سبحانه لا يخذل إلا المصرين على الكفر والمعاندين للحق والذين يعلم من حالهم سبحانه أنهم لن يطلبوا الهدى أبداً، وأنهم كفروا الحق وجحدوه، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وهؤلاء الذين علم الله منهم هذا هم الذين يزيد غضبه عليهم ويخذلهم ويقيض لهم قرناء يزينون لهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وقد جاءت مادة هذه الكلمة فى سورة الزخرف فى آية هى التى استخرجت منها ما قلته وذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وآية فصلت لا تفهم على وجهها إلا بآية الزخرف وكلمتا قَيِّض والقريّن المذكورتان فى الزخرف، والذى فى آية الزخرف زائداً عن آية فصلت هو أن الله يقيض القريّن لمن يعشو عن ذكره يعنى يعمى عن آياته وعن ذكره ولا يهتدى إلى الإيمان به، وهم الذين علم الله منهم الإصرار على الجحد، ثم إنها جاءت فى فصلت من غير ذكر القيد الذى هو الشرط، لأن من مقاصد ذكرها فى فصلت إظهار الغضب المواجه للعناد والإصرار والتحدى الذى بدأ بقولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ ﴾ وانتهى بهم إلى باب الجحيم ومروراً بالإعراض الذى كان من عاد وثمود فأهلكوا بالصاعقة، كل هذا أفضى إلى الغضب الشديد الذى ترى الحق فيه يعلن أنه يقيض لهم قرناء فزينوا لهم وليس بعد غضب الرحمن الرحيم غضب.

ثم إنه سبحانه أنزل الكتاب وبعث النبيّن وأقام الأدلة لهداية خلقه وأكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته، ثم هو سبحانه مع هدايته ورحمته ورعايته لخلقه وبعث أنبيائه وإنزال كتبه يُقَيِّضْ لَهُؤَلَاءِ قرناء يزيّنون لهم الباطل، هذا لا يكون إلا إذا بلغوا غاية التمرد وغاية الفجور وغاية المحاربة والمحادّة لله رب العالمين.

والقريّن هو النظير والشبيه فهو نظيره فى باطله وفى إصراره وفى خذلانه وأن كلا يصدُّ صاحبه عن السبيل وأنهما يطرحان فى النار معاً كما جاء فى

سورة الزخرف ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف . ٣٩] وقد جاء خبر القرين بتفصيل أوسع في سورة ق ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ ﴿ [ق: ٢٣ ، ٢٤] إلى أن قال سبحانه ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُ وَتَكُنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ بِالْوَعِيدِ ﴿ (٢٨) مَا يُدَلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَتِيدِ ﴿ [ق . ٢٧ - ٢٩] .

وهؤلاء الذين قبيض الله لهم قرناء حالهم في أنهم لن يستشرفوا إلى الهداية كحال الذين ختم الله على قلوبهم، والذين طبع الله على قلوبهم، والذين جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، كل هؤلاء علم الله منهم الإصرار كما علم من أهل النار، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، ولا يظلم ربك أحداً، مع أننا نؤمن بإماناً قاطعاً أنه سبحانه لا يسأل عما يفعل وأن الخلق خلقه والأمر أمره يفعل ما يشاء فيما يشاء، له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، وراجع هاتين الجملتين الأخيرتين وكلمة من يشاء كلمة مطلقة وأن جزاء السيئة سيئة مثلها وجزاء الحسنة عشرة أمثالها إلى مائة ضعف، فليس لأحد شأن في تصريفه في خلقه ولو عذب المطيع وأثاب العاصي لقلنا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وإنما من علينا ببيان ما يغفر به الذنب وما يعاقب عليه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، وما يفعل بعذابكم إن شكرتم وكلمة ﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ﴾ وراءها معنى آخر أوأمأت إليه كلمة ﴿ وَقَيِّضْنَا ﴾ التي من المقايضة، وهذا المعنى الخفي هو أن من طلب الهدى اهتدى، ومن استعان يُعان، وأن الله يقبض له قرين خَيْرٍ يُعِينُهُ عَلَى الْخَيْرِ ويدله عليه ويذكره بربه ويحوفه من عقابه، وهو الجليس الصالح والمقابل للجلس السوء، وهذه الآية مصدر هذا الحديث، وقد بين الحديث ما سكتت عنه الآية وأوأمأت إليه بمادة

المقايضة، وأن قرناء السوء مع أهل السوء قياض لقرناء الخير مع أهل الخير، وأن كلاً منّا له قرين إما أن يدلّه على الخير ويحثّه عليه أو يزين له سوء عمله، والمهم أنه قرينه يعني شبيهه ونظيره ومعدنه من معدنه وهواه من هواه وصلاحه من صلاحه وفساده من فساده.

وقوله جل شأنه ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الفاء عاطفة لزينوا على قيضنا، أى قيضنا فزينوا، وهذا إيجاز شديد لأن المزين لم يذكر والذي ذكر هو ما بين أيديهم وما خلفهم، وقد تعدد تفسيره قالوا ما بين أيديهم يعني أمر الآخرة وما خلفهم يعني أمر الدنيا، ففى الآخرة زينوا لهم أنه لا بعث ولا حساب، وفى الدنيا زينوا لهم باطل الشرك ونفى الصانع، وقالوا ما بين أيديهم يعني الحاضر الشاهد وما خلفهم الغائب، وقالوا إنهم أحاطوا بهم ولم يتركوا سبيلاً يصلون منه إلى إفساد عقائدهم إلا سلكوه، والآية إلى هنا تؤكد بيان فعل القرناء وأنهم جادون فى إفسادهم، وأن الله هو الذى قيض هؤلاء القرناء الجادين، ووراء ذلك من مزيد الغضب ما وراءه، والذى لم تبيّن الآية هو ما يقع عليه التزيين وإنما يفهم من كلمة فزينوا لهم أن المزين عمل غير صالح لأن العرف جرى على أن يوصف بالتزيين ما ليس بزين، والذى يزيد هذه الآية بيانياً قوله تعالى فى سورة فاطر ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] والموازنة بين الآيتين تدل على أن الذى أظهر هنا وهم القرناء الذين زينوا أضمر هناك، وبنى الفعل للمجهول وسكت عن الفاعل، والذى ذكر هناك وهو سوء العمل فرآه حسناً وهو شرح للتزيين سكت عنه الكلام هنا، وتجد العناية فى فصلت بفاعل التزيين الذين هم القرناء الذين قيضهم الله، والعناية فى فاطر بالتزيين نفسه لأنها توازن بين من زين له سوء عمله ومن لم يزين لمزيد بيان الفرق بين الذين كفروا والذين آمنوا، وقد جاء ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [فاطر: ٨] فى عقب هذه الآية، وهكذا تجد كل كلمة دعا إليها سياقها، ثم ترى الكلمات يتم بعضها بعضاً وكأنها فى السياقات المختلفة

مفردات متنوعة فإذا جمعتها كَوْنَتْ لك صورة متكاملة للمعنى الذى تريده. وقوله عز وجل ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى ثبت عليهم والمراد بالقول كلمة العذاب ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ [الزمر: ١٩] والمراد بقوله ﴿ فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ أى حق عليهم العذاب كما حق على أمم من قبلهم من الجن والإنس وهم نظراؤهم الذين قبض الله لهم قرناء فزينوا لهم، وهذا يعنى أن المراد كفسار قريش وأن الحديث انتقل من عموم أعداء الله إلى الذين قالوا قلوبنا فى أكنة وأنهم هم المرادون بقوله ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ وحرف الظرف فى قوله ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّمٍ ﴾ . بمعنى من : وإنما جىء بحرف الظرف للإشارة إلى أنهم ألحقوا بهم ودخلوا فيهم ، والظرف واقع حالاً أى حق عليهم القول حالة كونهم فى أمم من قبلهم ، وقد ذكر المفسرون نظير ذلك قول الشاعر عمرو بن أذينة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأفو كما فنى آخرين قد أفكوا

قوله فنى آخرين أى من آخرين يعنى إذا كنت مصروفاً عن الصنيعة وفعل المعروف فحالك حال غيرك ، وقد أفك عن الخير خلق كثير وهذا معنى نبيل .

وقوله سبحانه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ جملة مستأنفة واقعة موقع العلة لكل ما فى الآية ، وهى جواب عن سؤال يجرى فى خاطر كل من قرأ الآية وهو لما قبض الله لهم قرناء فزينوا لهم . ويلاحظ أن كلمة كانوا خاسرين تشرحها آية البقرة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] وهذا هو معنى خسرانهم لأن كلمة الخسارة والربح والاشترى كل ذلك من باب واحد، وتفسير الخسران بالكفر تفسير مقارب لأن الحقيقة أنهم استبدلوا شيئاً بشيء وهم مغبونون فى هذا الاستبدال وهذا الاختيار ، وكلمة الخسران تحتها كلمة الاشتراء ، وهذا كله يعنى المعنى الذى قلناه فى أول الآية ، وأن الله قبض لهم قرناء لما علم منهم الضلال الذى ليس

بعده هدى وأنهم مصرون على الضلال، وأنهم لن يستشرقوا إلى طلب الحق والخير، وهذا أيضاً يستدعي آية الزخرف ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦] وهذا الخسران هو العمى عن ذكر الله الذى عبر عنه بقوله ﴿ يَعِشْ ﴾ وراجع الآية من قوله ﴿ وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ ﴾ لتأكد أنها صادرة عن مزيد من الغضب والمقت وأنهم من معدن الأمم التى قد خلت من قبلهم، وأنهم حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب، وأن الله لا يضل إلا من أصر على الضلال وكان من أهل الخسران واشترى الضلالة بالهدى، وأنه سبحانه يدعو إلى دار السلام وينادى عباده ويقول ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قوله سبحانه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . هذا القول مما زينة القراء وصورة من صوره، ولهذا يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام لشدة العناية بهذا الخاص، وأنه من أشنع شناعاتهم وهذه الواو تعطف هذا القول على قوله ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ والكلام قيضنا لهم قراء فزينوا وقالوا. وقد وضع المظهر ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ موضع المضمرة ﴿ وَقِيضْنَا لَهُمْ ﴾ وذلك لتسجيل الكفر، وأن هذا السلوك الشاذ لا يكون إلا من الذين كفروا وأن كفرهم غير مؤسس على منطق معقول وإنما هو مصون عندهم بإبعاده عن الأدلة التى تنقضه، وأنهم حين يقولون لا تسمعوا لهذا القرآن يقرون بسلطانه وغلبته وأن فيه أمراً إلهياً لا يُدفع ولا يُدافع، وأن كفرهم مقرون بعدم سماعه، ويلاحظ أنهم أدخلوا حرف النهى على الفعل تسمعوا الذى هو ماضى سمع، ولم يقولوا لا تسمعوا لأن استمع قصد إلى الاستماع، ويقال سمع سواء قصد أو لم يقصد، فالذى يسمع الأصوات من غير قصد يقال فيه سمع كالذى يسمع الضوضاء، والمقصود نهيمهم عن السماع وهذا نهى غريب لأنك لا تستطيع أن تدفع عن أذنك صوت القارئ، ولهذا

عدى هذا الفعل باللام وكان يمكن أن يقال لا تسمعوا هذا القرآن، وهذه اللام أفادت معنى أنكم إذا سمعتموه فلا تسمعوا إليه يعنى لا تميل آذانكم إليه، وهذه اللام تدخل فى الكلام على صاحب الصوت فيقال سمع لزيد أو لم يسمع لزيد، فإذا قلت سمع لصوته أفاد أنه مال إليه. وهذا هو موطن النهى والتحذير لأنه هو المخيف والمهدد لكفرهم.

وقوله سبحانه ﴿وَأَلْفُوا فِيهِ﴾ يقال لغى يَلْغِي كرمى يرمى، ويقال لغا يلغو كدعا يدعو إذا تكلم بالهذر والسخف، والمراد باللغو فيه التشويش على من يسمعه، وكل هذا محاصرة لصوت القرآن حتى لا يصل إلى قلوبهم ولا إلى قلوب غيرهم، وهذا أيضًا قاطع فى أنهم أدركوا أنه قادر على أن يقتحم قلوبهم وأن ينتزعهم من أنفسهم وأنه هو هذا الدين وأن الإفلات منه إفلات من هذا الدين، وأنه سلاح محمد الذى لا يواجه إلا بالروغان منه، وكل هذا وراء إحساس بأنهم مغلوبون، وأن كل هذه محاولات غير قابلة للاستمرار وأنهم ما لبثوا أن استسلموا، إلا من حقت عليه كلمة العذاب، ولا أشك فى أن قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ راجع إلى الآية الثانية فى السورة وهى قوله سبحانه ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لانهم علموا سر هذا القرآن وأنه لا يقاوم إلا بعدم سماعه، وهذه الآية فى أول السورة هيات سياق آية ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، وهى أعنى لقوم يعلمون المقام الذى اقتضى ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، ثم هى أيضًا راجعة إلى قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ولن يقلت القوم الذين يعلمون سر البيان من تأثير القرآن إلا إذا قالوا لا تسمعوا له وقالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، والربط بين ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ وآية ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ لا يحتاج إلى بيان، والخلاصة أن السورة بناء واحد يمسك بعضه ببعض لو نقضت منها جملة واحدة لاختل البناء كله، وكشف هذا من أرقى الدراسات القرآنية.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فاصلة في غاية الأهمية أولا لان كلمة لعل فيها رجاء وهذا يعنى أنهم استشعروا ضعفاً، وكلمة ﴿تَغْلِبُونَ﴾ تدل على إحساسهم بأن هناك مغالبة وأن هذه المغالبة بينهم وبين القرآن، وأن السبيل الوحيد لإفلاتهم من أن يغلبهم هو ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ فإذا سمعتموه أو لم تشوشوا عليه غلبكم، وهذا إقرار قاطع بالعجز وإقرار قاطع بمعرفة الحق والمكابرة فيه، ولهذا جاءت الآية بعدها وفيها غضب شديد وكلها وعيد وتهديد.

قوله جل شأنه: ﴿فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه الآية بُنيت على غضب شديد تجدد هذا الغضب الشديد في كلماتها وفي موقعها. أما موقعها فلمجيئها عقب هذا الإثم الأحمق والمعالن بالتحدى والفجور والإصرار وهو قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ لأن هذا رفض لحق تبيينه، والقرآن كلامه سبحانه وقد أنزله رحمة لخلقه وهدى وبصائر ونعم الله لا تحصى والقرآن أجلها، لأن الله هدى خلقه إليه وشرع لسا فيه من الدين ما وصى به أنبياءه وأبان لنا الحلال والحرام، وما هو من ذلك مما لا يحصى ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهذا الموقف الأحمق يضع جدارا بين الناس وبين ذلك كله، وهو ترجمة عملية لقولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾، وهذا موقف منهم يحاد رحمة الله وهو إيذان بحرب الله، وبمقدار رضى ربنا عن أهل القرآن وأهل ذكره والذين يتلونهم حق تلاوته يكون غضبه سبحانه لمن ينازع في هذا كله، ولذلك لا أجد هذه الآية إلا واقعة عقب التي قبلها وهى من تمامها وهذا ظاهر، ولا يزال هذا سلوكاً لأعداء القرآن حتى أن بعض الجهات المحادة لله تضع قرآناً بدل هذا القرآن، وبعض النصارى حولنا بوصايا من آباؤهم يهربون من سماعه.

هذا موقع هذه الآية وأما كلماتها فأولها هذه الفاء التى تبادر بترتيب ما بعدها من ذوق العذاب الشديد والجزاء بالأسوأ على ما قبلها وهو قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ .

ومعلوم أن إذاقة العذاب الشديد والجزاء بالأسوأ فى الآخرة يكون بعد البعث والنشور وهذا القول الذى قالوه فى الدنيا، وهذه الفاء وصلة رابطة بين زمانين مختلفين أشد ما يكون الاختلاف، وعالمين متباينين أشد ما يكون التباين لأنهما عالم الغيب وعالم الشهادة، وهذه الفاء تؤكد أن ذلك لا محالة كائن لهم فى الآخرة فى أثر قضاء الدنيا وبلا مهلة، وإنما تنقضى الأزمنة التى يجب أن تنقضى ثم يكون ذلك من غير ريث ولا إبطاء كمثلهم المشهور تزوج فلان فولد له، مع أن مدة الحمل تفصل بينهما لا محالة.

والثانى لام القسم فى قوله ﴿فَلَنذِيقَنَّ﴾ والقسم يؤكد المعنى الذى دخل عليه وقدّر القسم بقدر من أقسم، فإذا كان الذى أقسم هو الذى قال لها وللأرض أتتيا طوعاً أو كرها كان وراءه ما وراءه، ثم تأكيد هذا القسم بنون التوكيد الثقيلة ثم استعمال كلمة «نذيق» وهى كلمة يكثر استعمالها فى العذاب، والمراد أنهم يجدون حقيقة العذاب وجوهر العذاب ويعالجون ألمه وشدته وطغيانه وأوجاعه ويجدون كل ذلك كما يجد ذائق الطعام جوهر الطعام وحقيقته وطعمه ونكهته، والتذوق فى كل شئ نهاية العلم به ونهاية معرفته بدقيقه وجليله، ثم صيغة المضارع الدالة على أن ذلك يتجدد ولا ينقطع ولا يقتر، ثم ذكر الذين كفروا ووضع الظاهر موضع المضمّر لأنه كان يمكن أن يقال فلنذيقنهم وإنما لينصب الغضب على كفرهم وأنهم لم يصيبهم ما أصابهم إلا بكفرهم، وهذا تحذير من الكفر وتخويف من سواقبه، ثم وقوع الإذاقة على العذاب ووصفه بالشديد وإنما يذاق الطعام والشراب، وكان العذاب الشديد هو القرى الذى يعد لهم والنزل الذى يقدم لهم، وفيه إيماة خفية إلى السخرية منهم كما فى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وقد فهم الرازى من كلمة الإذاقة معنى القلّة ولفت إلى معنى جيد قال رحمه الله: الإذاقة تعنى القدر القليل. ثم إن هذا القدر القليل وصف فى الآية بالعذاب الشديد فكيف يكون حال القدر الكبير من العذاب فضلاً عن الدوام الدائم فى دهر الدهارير، انتهى كلامه رحمه الله وهو كلام جيد ولأهل البصائر فى كلام الله بصائر.

وهذه الجملة من الآية الكريمة هى شقها الأول، وفيها إذاقة العذاب الشديد لكفرهم، ويأتى الشق الثانى وقد حُدِى على طريقة الشق الأول ليبين الجزاء على أعمالهم، وكأنهم يعذبون عذابين عذاب الكفر وهو العذاب الشديد وعذاب ما ارتكبه من الذنوب، ونفح الغضب فيه أنه يكون مجازاة على أسوأ ما فعلوا ليكون العذاب أشد، قوله سبحانه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وأول ما فيها هذه الواو التى تعطفها على الجملة الأولى فتربط وجهى الحقيقة ثانيها بأولها، ثم هذه اللام التى هى للقسم وإعادة القسم وتوكيده، وتوكيد المضارع معه وما وراء كل ذلك من مزيد الغضب ومزيد التهديد والوعيد ومزيد الرحمة أيضاً، لأنه سبحانه حدّث عباده بذلك وهم فى فسحة من أمرهم ليراجعوا فيرجعوا ويستهدوا فيهدتوا، فمن أصاب منهم الخير فكان لم يكن منه شر، ولهذا أجد فيض الرحمة يفيض من وراء صور المقت الشديد والوعيد الشديد.

ويلاحظ أن الواو عطفت على الجملة الأولى وليس على الفاء الداخلة عليها، لأن هذه الجملة الثانية داخلة فى حكم الفاء ومرتبّة مع التى قبلها على ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم يلاحظ أيضاً أن الكلام وضع فيه المضمّر موضع المظهر ولم يقل ولنجزين الذين كفروا كما قال فى الأولى. لأن العقاب هنا عقاب على المعاصى غير الكفر، وإنما قدم عقاب الكفر لأنه الأصل وهو المتّج لضروب المعاصى الأخرى، والغضب فى هذه الجملة فى هذا القسم وفى هذا التوكيد وفى كلمة الأسوأ لأن الله سبحانه إذا رضى عن عبده أثابه على أحسن ما عمل وإذا غضب عليه عاقبه على أسوأ ما عمل، وقوله سبحانه

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ﴾ فيها ما فيها من هذا الغضب وقوله سبحانه ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كان يمكن أن يقال فيه أسوأ ما عملوا، ولكنه جاء على ما جاء عليه لتشير الصلة إلى أن هذا الذي كانوا يعملون أمر معلوم مشهور وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تعنى أنهم ألفوه واعتادوه، والمضارع فى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ يعنى أنه يتجدد منهم أبداً، وكل هذه الخصوصيات والدقائق وراءها من المعانى والخواص ما وراءها، والمهم ليس هو التنبيه على هذه الخصائص اللغوية فحسب وإنما المهم البحث عن الذى وراءها.

قوله جل شأنه: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

هذه الآية من تمام معنى الآية ﴿فَلَنُنذِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهى مكونة من جملتين الجملة الاولى ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ﴾ وهى عبارة عن تلخيص للآية قبلها، والجملة الثانية ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ وهى من توابع الجملة قبلها، وإنما أضافت أن لهم فى هذه النار دارا هى دار خلد مع أن النار نفسها دار خلد، وقوله ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كلمة ﴿جَزَاءً﴾ حال وما بعدها متعلق بها، وقد جاءت جملة ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ﴾ بدون واو لأنها مؤكدة لمعنى الجملة قبلها ﴿فَلَنُنذِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واسم الإشارة راجع إلى الفعلين السابقين اللذين هما رأس الجملتين وهما لنذيرن الذين كفروا ولنجزينهم، ويلاحظ إسناد أفعال العذاب إلى الحق جل جلاله وأنه وهو الرحمن الرحيم يذيق بنفسه هولاء العذاب الشديد ويجازيهم أسوأ الذين يعملون، يعنى بأسوأ الذى كانوا يعملون لأن الجزاء ليس واقعاً على أسوأ الذى كانوا يعملون وإنما وقع بسبب الأسوأ، والجزاء نفسه محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿فَلَنُنذِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً﴾، والمعنى ولنجزينهم العذاب الشديد على أسوأ ما كانوا يعملون.

أقول: إن اسم الإشارة جامع لهذين الفعلين وما وراءهما وملخص لهما ومميز لهما ومصور لهما في صورة تحس وتمس ويشار إليها بالإصبع، وكلمة جزاء أعداء الله هي الخبر، وهي واقعة موقع الذين كفروا في الآية السابقة وراجعة أيضًا إلى رأس الفصل السابق ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ وفي هذه الجملة كلمتان من رأس الفصل السابق وهما كلمة أعداء الله وكلمة النار، وهذا الرجوع يؤكد رابطة معلومة وهي علاقة الكفر بعداوة الله ويبشع من هذا الكفر، الذي هو مُنَاصَبَةُ الله بالعداء، وإعراب كلمة النار إما أن تكون بدلًا من جزاء أعداء الله، أو بيانا لها وفي هذا البدل وهذا البيان مزيد تشويق لمعرفة ومزيد عناية بشيئته في النفس لتفسير النفس منه، ويجوز أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أى هو النار وتكون الجملة جوابا عن سؤال مقدر تثيره الجملة قبله وهذا كثير وله مواقع جليلة، كما في قراءة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ﴾ [النور: ٣٦]، على بناء يسبح للمفعول، وعليه تكون الجملة الأولى انتهت عند قوله ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾. وهو كلام تتم به الفائدة وفيه غموض أبانته وكشفته جملة هو النار.

وقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ الجملة التي قبلها مهيئة لها وهذه مؤسسة عليها، والجار والمجرور المقدم خبر ودار الخلد مبتدأ، وإنما قدم الخبر لأنه هو الأهم ورأس المعنى في الجملة وأساسه أن النار دار خلد لهم، وتقديم الخبر يفيد الاختصاص في هذا المقام لأن النار دار خلد لهم وحدهم بخلاف العصاة من أهل الإيمان، وهذا هو المعنى الجديد الذى فى الجملة والذى تأسس على قول: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ وبهذه الجملة صار الجزاء خلودًا فى النار. الأولى تفيد أن جزاء أعداء الله النار والثانية تفيد أن هذا الجزاء خلود فى النار وهذا أخوف وأبشع، ثم إن الطرف الثانى ﴿ فِيهَا ﴾ أحدث فى المعنى تصويرا آخر لأنه نقل الحديث من أن تكون النار دار خلد لهم إلى أن يكون لهم فيها

دار خلد، يعنى هى دار خلد ولهم فيها دار خلد كما تقول لى فى هذا السكن سكن ولى فى هذه الدار دار ولى من هذا الكريم كسريم، ويسمى هذا التجريد، والآية من شواهد الدائرة فى كتب البلاغيين وهو أن ينتزع من شىء ذى صفة شىء مثله فى تلك الصفة مبالغة لكمالها فيه، وهذا تعريف جيد وفهم جيد للمعنى. وعليه يكون الأمر ذو الصفة هى دار الخلد التى هى النار أعاذنا الله منها والذى انتزع منها شىء مثلها يعنى دار خلد مبالغة لمعنى الخلود ومعنى المقام والثوى فى دار جهنم. وظاهر العبارة وإن كان يفيد أن الحديث عن المنتزع وأن الذى لهم هى دار الخلد المنتزعة من النار التى هى دار خلد، فإن الأمر يرجع إلى الأصل المنتزع منه لأن هذا الانتزاع إنما ذكر ليدل على المبالغة فى الصفة، فلو قلت لى من فلان صديق فالذى لك ليس هو الصديق المنتزع كما يدل ظاهر العبارة وإنما الذى لك هو الصديق المنتزع منه، وإنما جىء بالمنتزع للدلالة على المبالغة وهذا هو فقه هذا الفن وهو دقيق فاعرفه.

وقوله سبحانه: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

قلت: إن كلمة ﴿جَزَاءٌ﴾ يمكن أن تكون حالاً فى تأويل اسم المفعول (مجازين)، ويمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً حذف فعله ثم هى توكيد ﴿جَزَاءٌ﴾ الأولى أى ذلك جزاؤهم جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون، وتأكيد الجزاء وتكراره لبيان أنهم لا يظلمون بهذا العذاب الشديد والجزاء على أسوأ الأعمال، وأصل الجزاءين المذكورين فى الآية قوله فى الجملة الثانية ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وإنما كثرت كلمة الجزاء هنا لأن ذوق العذاب الشديد والخلود الدائم فى الجحيم وهذا العذاب الشديد لا يخفف، وربط كل هذا بالجحود ويناؤه عليه كل هذا يؤكد شناعة الكفر وشناعة الجحود بآيات الله بعدما علموها، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ تدل كلمة كانوا على أن هذا كان شأنهم ودأبهم وديندهم وأنهم لم يراجعوا فراجعوا مع

ظهور الآيات وعلمهم بها، وقد لاحظنا أن كلمة ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ النَّارُ﴾ ترجع بنا إلى قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ وكذلك نقول إن جملة ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ترجع بنا إلى قوم هود عليه السلام: ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والآية هي والجدد إنكار المعلوم وقد علموه لما قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وبهذا تربط هذه الكلمات هذه النهاية بالموضوع الأصلي الذي بدأ بقوله سبحانه: ﴿فَاعْرَضْ أَكْثَرَهُمْ﴾ واستدعى هذا الإعراض إعراض عاد وثمود واستئصالهم في الدنيا وذكر حشرهم وحشر كل أعداء الله إلى النار إلى آخره، وهذا ربط ظاهر وأظهر منه أنها مؤذنة بنهاية هذا القسم وربطه بالذي قبله ورجوعه إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾، وبقي في هذا القسم آية واحدة تحدثت عن شيء لم تتحدث عنه الآيات السابقة، وهو حال هؤلاء المعذبين وما كان منهم لما أذاقهم الله العذاب الشديد وجعل نار العذاب الشديد دار خلد لهم وهذه الآية الأخيرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِّينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

وأهم ما يلاحظ في بلاغة الآية هو موقعها عما قبلها، وهو موقع بالغ السداد والإصابة لأنها جاءت بعد ما ذاقوا العذاب الشديد، وجوزوا على أسوأ ما كانوا يعملون، وكتب عليهم الخلود، وهذا نهاية النكال، وليس هذا فحسب وإنما الأهم منه والأبين في موقعها هو أن هذه الآية نهاية الفصل الذي افتتح بقوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهذه نهاية التزيين فلا بد أن يكون قول أهل النار هنا مخالفاً لقول أهل النار في مواقع أخرى، وقد قالوا مرة ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] وقالوا ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣] وقالوا وهم بصطرخون فيها ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ

الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿ [فاطر: ٣٧] وقالوا لحزنتها ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ ومثل هذا كثير ونحن نكتفى بتحليله من غير أن نسأل لماذا قالوا في فصلت ﴿ أَرَأَى الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ ولماذا قالوا في فاطر: ﴿ أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]. وهكذا، وجواب هذا لا يكون إلا بعد مراجعة السياق والسياق ليس هو الآية قبلها فحسب وإنما هو معرفة الجذر الذى تدور عليه السورة، وكيف تسلسل الكلام إلى هذه الآية، وكيف اقتضى هذا دون غيره وكل ذلك يحتاج إلى وقت وشغل ومراجعة، وإلا تكلمنا فى العلم بغير علم. وقد شغلنا ببلاغة البناء عن بلاغة الموقع حتى صارت بلاغة الموقع بابة من بابات البلاغة الغائبة.

ولا يُتَصَوَّرُ أن يقولوا فى فصلت: ﴿ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ [الأعراف: ٥٣] أو يقولوا ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ وإنما يقولون ﴿ أَرَأَى الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ لبيان نهاية قصة القراء التى كانت من تمام ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ والتى كانت هى أيضاً من تمام بيان صاعقة عاد وثمود إلى آخره وجملة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ معطوفة عطف معنى على ما قبلها ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ﴾ لأنها خارجة منها لأنهم لم يقولوا ﴿ أَرَأَى الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ إلا من هول ما قاسوه فى دار الخلد، وراجع معاقد الآيات ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ أنتج ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ لأن هذا كان من تزنيهم ثم إن آية ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أنتجت: ﴿ فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لأن هذا من جزائهم.

ثم إن قوله: ﴿ فَلَنَذِيقَنَ ﴾ هو مضمون ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ﴾ ثم تأتى الآية التى هى مقطع هذا القسم وهى ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ ومن الأفضل ألا نعود بها إلى غير الآية التى قبلها والتى كانت هى ثمرة من ثمارها، وقد أسند القول إلى الذين كفروا والمراد كل واحد منهم يريد أن

يعرف الذى أضله وزين له، قال البقاعى: والظاهر أن المراد أن كل واحد يتمنى أن يعرف من أضله، من القبيلين ليفعل بهم ذلك إن قدر عليه، والمراد بالثنية شيطان الإنس وشيطان الجن وهم القرناء ﴿نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقوله جل شأنه ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ فيه مزيد من الغضب على من زينوا لهم الطريق الذى أضلهم عن الإقرار بالحق، وكان لهم عليهم سلطان فى الدنيا فاستمعوا إليهم وأجابوهم واتبعوهم ولم يتبعوا الهدى الذى رأته عقولهم، وفى هذا تحذير شديد لكل من يسلم عقله ونفسه ومنهجه وفكره وسلوكه لغيره، وينقاد له لسلطانه أو لمكانته وجاهه أو لما حوله من منافع ومآثر إلى آخره، ويوجب علينا معشر الكتاب ألا نجعل لأحد على عقلنا سلطاناً ولا على رأينا سلطان ولا على قلمنا توجيهها مهما كانت الإغراءات، لأن القرناء الذين يزينون فى زماننا تطوروا وصاروا أنظمة سياسية أو سفارات أو ما شئت مما تباع فيه العقول والألسنة والأقلام، وكلمة ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ فيها إحساس بالانتقام والرغبة فى إهانتهم وإذلالهم كما فعلوا بهم فى الدنيا، وبصورة أكثر وضوحاً سنجد كتاب النفاق للملك وللرئيس يدعون ربهم أن يمكنهم وهم فى قعر دار الجحيم من رأس الملك أو رأس الرئيس ليضعوه تحت أقدامهم لأنهم هم الذين زينوا لهم الباطل والضلال وخداع الشعوب والكذب عليها، ولأنهم وهم فى الدنيا يكتبون ويناقفون يشعرون فى داخلهم بالمهانة والذل وأنهم لا يعبرون عن الحقيقة، لأن عز القلم أن يعبر عن الحقيقة التى يؤمن بها من يكتب به، وذل القلم أن يكون محامياً عن الخطافين والخونة والأندال وإن كانوا فى صورة ملوك وأصحاب فخامة.

وقوله جل شأنه ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ بيان للرغبة فى وضعهم تحت أقدامهم، وأن شفاء غليلهم أن يروهم فى الأسفلين وهذا ظاهر فى أن المسألة ثار للكرامة، وأنهم لما أسلموا رؤوسهم لهم فى الدنيا كانوا حيثئذ من الأسفلين بالنسبة لهم، وأنه لا يبرئهم من هذا الإحساس القاهر بالذل والخزى إلا أن يضعوهم تحت أقدامهم كما كانوا يعيشون فى الدنيا تحت أقدامهم،

ولاحظ أن طلب القرناء ووضعهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين لا شأن له بتخفيف العذاب، يعنى لم يقولوا لهم هل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار وإنما هو انتقام لا غير، وكان إحساس الأتباع المضر بالذل يبقى بعد موتهم سريرة باقية حية يوم تبلى السرائر يثور فيهم الإحساس بالانتقام فيقولون لربهم أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نضعهما تحت أقدامنا وقد ذكر المفسرون فى قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أى ليكونوا فى أسفل الجحيم، وقالوا الذين ضلوا فى النار والذين ضلوا وأضلوا فى قعر النار وأن النار دركات، واللام فى قوله ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ متعلقة بقوله ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يعنى يذهبان إلى قعر جهنم وهم تحت أقدامهم، وهذا من مزيد الغيظ، وبهذا انتهى هذا القسم وردّ فيه العجز الذى هو ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ والمراد القرناء على الصدر الذى هو ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ﴾ وتمّ المعنى والتقى طرفاه.

وبدأت الآيات مع فريق مقابل، ليتم المعنى وبضدها تمييز الأشياء، وإذا كانت نهاية اللذين قالوا ربنا أرنا اللذين أضلانا قد بدأت من قوله سبحانه فى أول السورة ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ فإن بداية حكاية: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قد بدأت معها فى قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لهذا تجد بداية الآية القادمة هو الإيمان والاستقامة لتصلنا بهذا الابتداء.

قال جل شأن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

المُسْلِمِينَ (٢٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٢٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٥) وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿

وأول ما يلاحظ في هذه الآيات أنها أمسكت بومضات سريعة مضت خاطفة في السورة فكانت امتدادا وبسطا لها، وأعنى بذلك هذا النموذج الطيب المبرأ من الأحقاد، والمدعن للحق والصدق، والذي كان يظهر مشرقاً بوجهه خلال ظلمات الذين قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾، ومن سلك مسلكهم ممن أعرضوا عن الدليل، وراغوا من البرهان ووغان الثعالب وهم الأكثر، وقد مضت السورة معهم ومع أحوالهم لأنهم هم الأكثر، وجاء خلق السموات والأرض وذكر عاد وثمود وما بعده إلى هذه الآية وكل هذا في خطابهم، وكان هذا النموذج الطيب يشرق في ومضات خاطفة وظهر في السورة: أول ما ظهر تحت قوله سبحانه: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لأن معنى هذا أن أقلهم أقبل ثم أفصحت عنه الآيات في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ثم ترك هذا واتسع الكلام مع الذين يكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، ثم ظهر سدا النموذج الطيب ظهوراً سريعاً في قوله سبحانه بعد ذكر صاعقة عاد وثمود ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ثم جاء حشر أعداء الله النار وزعمهم، وانتقل الكلام إلى قرناء السوء الذين زينوا لهم، ثم طويت هذه الصفحة بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أقدامنا لِيَكُونَا مِنَ الأسْفَلِينَ ﴾ ثم جاء الحديث المتصل عن هذا النوع العالى والنمط الاكرم.

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾.

هذه جملة مستأنفة بنيت على القطع لأنها بها انتقل الكلام وهذا هو معنى القطع، ثم بنيت على التوكيد متصلة بما قبلها اتصالاً من ذات نفسها فأغناها

هذا عن الواو لأن آية: ﴿أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ لما كانت مؤذنة بانتهاء الكلام عن الذين أعرضوا أثارت في النفس خاطراً يتشوف لمعرفة حال الذين لم يعرضوا، فجاءت هذه الآيات لتبيّن هذا النموذج المقابل ولتحدث عنه كما تحدثت الآيات قبلها في شأن الذين أعرضوا، وعلى هذا تكون هذه الآيات امتداداً لباطن الآيات قبلها؛ هذا الباطن الذي أثار هذه الخواطر، ثم إن أداة التوكيد التي ابتدأت بها الآيات تشير إلى الحفاوة بأمرهم والعناية بحديثهم وتأكيده في نفوس من يسمعون، ولذلك جاء التعبير عنهم بصور تزيدهم قرباً من نفوس الذين يسمعون الآيات، فلم تقل الآية إن الذين آمنوا كما مضى وكما هو الأكثر في الحديث عنهم، وإنما قالت إن الذين قالوا ربنا الله، فحدثنا عنهم بصفة هي أجل صفاتهم وجعلتنا نعرفهم من خلال منطقتهم بكلام لم ينطقوا هم ولا من قبلهم ولا من بعدهم بأفضل منه بل هي أفضل ما قاله ﷺ والنبيون من قبله، ثم إن قولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ جملة فيها الوجدانية ودليلها، أما الوجدانية فظاهرة في تعريف الطرفين ومشهور دلالتها على الوجدانية، وأما الدليل ففي قولهم ﴿رَبُّنَا﴾ لأن معناه الذي أنشأنا ورعانا ورزقنا وربانا وكل هذا وغيره من دلالة كلمة ﴿رَبُّنَا﴾ لا يكون إلا من الله، ثم إن في هذه الجملة أيضاً معنى التذلل والتضرع والتعبد والتسبيح والحمد، وكل هذا لا تراه على هذا الوجه البين لو قال إن الذين آمنوا، وفرق بين أن تخبر عنهم بأنهم آمنوا وأن تسمعننا قولهم الذي به صاروا من الذاكرين الموحدين.

وقوله جل شأنه: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ تشير إلى تفاوت بين الفعلين قولهم ربنا الله واستقامتهم، فما حقيقة هذا التفاوت؟ وما المراد بقوله استقاموا؟ وبيان المراد بالاستقامة يبين حقيقة التفاوت الذي تدل عليه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ وقد قالوا في معنى استقاموا لم يرجعوا إلى الشرك وهذا مروى عن

أبي بكر، فقد روى ابن عباس أن أبا بكر قال لمن حوله ما تقولون فيها: قالوا: لم يذنبوا، قال. حملتم الأمر على أشده. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعلى هذا التفسير تكون كلمة ثم مفيدة معنى أن الاستمرار على كلمة التوحيد والاستقرار عليها أصعب وأعلى مرتبة من النطق بها، فالتفاوت الرتبى ليس بين كلمة التوحيد والاستقامة لأن كلمة التوحيد رتبة ليس فوقها رتبة، وإنما التفاوت فى أحوال العباد ودوام حالة الإقرار بها والاستقامة عليها، لأن النفس تعترها أحوال الفتور، وقال عمر فى معنى: ﴿اسْتَقَامُوا﴾ استقاموا لله تعالى بطاعته لم يروغوا وروغان الشعالب. وقال عثمان: أخلصوا العمل. وقال على كرم الله وجهه: أدوا الفرائض. وقال الثورى: عملوا على وفاق ما قالوا، وقال الفضيل: زهدوا فى الفانية وروغوا فى الباقية، قال صاحب روح المعانى: وفى الكشف أى ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وأراد أن من قال ربى الله فقد اعترف أنه عز وجل مالكة ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدى مولاه، فالثبات على مقتضاه أن لا تنزل قدمه عن طريق العبودية قلبا وقالبا ولا يتخطاه، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات، ولهذا قال ﷺ لمن طلب أمراً يعتصم به «قل ربى الله ثم استقم» انتهى كلام أبى الفضل. وكل هذه الصور التى ذكرها فى معنى الاستقامة تفيد الاستمرار عليها والثبات عليها، وألا تنزل القدم عنها، كل هذا أصعب وأشق وأشد من الإقرار وهذا وجه المجيء بـثم، وكل هذه المعانى تقبلها كلمة ﴿اسْتَقَامُوا﴾ وتقبل ما هو أوسع منها حتى إن بعضهم ذكر أن كل تفسير من هذه التفاسير إنما ذكره صاحبه من باب التمثيل وليس من باب أنه جامع لمعنى الاستقامة، وهذا باب من أبواب الإيجاز فى الكتاب العزيز لا نجد على هذا الوجه فى غيره، وهو من أدق أبواب بلاغته، ثم إن هذه الجملة هى إقرار بما حدث به رسول الله ﷺ فى أول السورة فى قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴿﴾ وضع جملة ﴿﴾ أُنْمَا إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴿﴾ بإزاء قالوا ﴿﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ نجد أن قولهم هذا والتعبير عنهم به للإشارة إلى أنهم سمعوه عليه السلام يقول: ﴿﴾ أُنْمَا إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴿﴾ فقالوا ﴿﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ وكان قوله سبحانه ﴿﴾ قَالُوا ﴿﴾ للإشارة إلى ربط هذه الآية برأس السورة ورأس ما جاء به ﷺ، وقد جاء قوله ﴿﴾ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴿﴾ بالفاء لأنه دعوة إلى الإقرار والاستقامة، أما الآية التي معنا فهي وصف للمزاولة والعمل. ولذلك لم يقولوا إلهاً واحداً وإنما قالوا ﴿﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ﴿﴾ فذكروا ما هو ألصق بهم من النشأة والخلق والتربية والرزق، جاءت كلمة ﴿﴾ ثُمَّ ﴿﴾ لتبين طبيعة النفس الإنسانية عند مزاولة أمر الله ونهيه وأن ذلك يكون منها بصبر وأناة، وأنها لا تستقيم على وجه مما آمنت به إلا بعد مراودة ورياضة وتخليص النفس من أوضاع الإثم، وخصوصاً في جماعة انتقلت من وثنية مغرقة في ضلالات الجاهلية إلى محجة الحق والشرع والحنيفية البيضاء.

وقوله سبحانه: ﴿﴾ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿﴾ هو الجزء المتم الفائدة وهذا معناه أن المبتدأ ﴿﴾ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ معلوم ومعروف، وأن ثمة جماعة قالت ﴿﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ وهذا يعرفه المخاطبون بهذا الكلام، وحين تقول: زيد كاتب أنت لا تعرف المخاطب يزيد وإنما تعرفه بأنه كاتب، والمبتدأ لا بد أن يكون معرفة لأنك وضعت موضع المحكوم عليه ولا يحكم على مجهول، وهذا ظاهر، وكلمة ﴿﴾ تَنْزَلُ ﴿﴾ تفعل من نزل وهي خلاف تنزل لأن معناها أنها تنزل عليهم في الزمن بعد الزمن وفي الوقت بعد الوقت، ولذلك فسرها البقاعي بقوله على سبيل التدرج المتصل، وهذا خبر غريب لأن تنزل الملائكة على القائلين ﴿﴾ رَبُّنَا اللَّهُ ﴿﴾ ليس أمراً مألوفاً، ولذلك أكد وجيء بـ ﴿﴾ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ لتهيأ الكلام إلى هذا الخبر الذي فيه إكرام ليس بعده إكرام، وكما كانت كلمة ﴿﴾ اسْتَقَامُوا ﴿﴾ كلمة عامة وتحملت

تأويلات كثيرة، كذلك كانت كلمة ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لأنهم قالوا تنزل عليهم من يوم أن تنفخ فيهم الروح إلى أن يدخلوا الجنة، وهذا بعيد لأن تنزل الملائكة إنما كان لقولهم ﴿رَبَّنَا اللَّهُ تُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وقالوا إنها تنزل عليهم عند الموت وعند القبر وعند البعث، أو تنزل عليهم فى الدنيا عند الملمات لتثبتهم وتلهمهم، وكما أن الله سبحانه قيض للفريق الذى علم منه أنه لن يهتدى قرناء السوء يزينون لهم، قابل ذلك بتنزل الملائكة على عباده الذاكرين له، وفرق بين من يلازم قرناء السوء الذين يزينون له ما يفضى به إلى الجحيم ومن يلازم الملائكة الذين يلهمونهم دائماً ما يقربهم من ربه، ويلهمونه دائماً ذكره وتسيححه، وإذا كان المرء يتخلق بأخلاق قرينه فالقسم الأول يتخلق بأخلاق قرين الجن والإنس فتغلب عليه طابع الشر، والفريق الثانى يتخلق بأخلاق الذين يذكرون الله لا يفترون فيغلب عليه الخير، وهذا يجعل هذه الآية من تمام معنى الكلام قبلها لأن الضد يظهره الضد، وهذه المقابلة بين من أعرضوا وقيض الله لهم قرناء فزينوا لهم وبين من قالوا ربنا الله وأنزل الله عليهم الملائكة، تجعل الكلامين كلاماً واحداً ثم إنى أفهم قرين الملائكة فهما أدق لما أضغ يازاته قرين الشياطين وهكذا.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ليست هذه الثلاثة كل ما تنزل له الملائكة لأنها تعينهم على ما ينوبهم بالهام الذكر وتحثهم على العمل الصالح، حتى إنها لتوقظهم من منامهم للصلاة كما قال بعض العلماء، ولولا أن الشياطين تطوف بالصالحين لكلمتهم الملائكة، وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ هو أن المخفقة من الثقيله واسمها ضمير الشأن محذوف، وأصل الكلام أنه لا تخافوا ولا ناهية وبناء الجملة على هذا الوجه فيه قدر من التوكيد والتشويق والإثارة، لأن ضمير الشأن تفسره الجملة بعده، وكأنه يلفت ويُنَبِّه ويهيئ لما بعده، وهذا وجه حسنه فى الكلام ونبله كما قال علماؤنا، والمقصود تقرير معنى الجملة التى بعده وتأكيدها فى النفس. وأنهم يريدون أن يقرروا فى نفوسهم نفى الخوف، والخوف إنما يكون من مكروه

يتوقع، وتأكيد نفى الخوف عن مكروهه فى الدنيا والآخرة نعمة من أعظم النعم وأجلها، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ داخل فى حكم ضمير الشأن، وأصل الكلام وأنه لا تحزنوا. والحزن إنما يكون على شىء فات، وتأمل الترتيب بين الجملتين تجد أن انتزاع الخوف من مكروهات ونوائب ونوازل الغد أقوى فى الألم من الحزن على ما مضى من شىء كنا نحب أن يكون ولكنه لم يكن فقدم الأهم، وكأنهم يروضون نفوس الذاكرين على الرضى بما يجرى به أمره فلا يقولون فى شىء كان لم كان؟ ولا فى شىء لم يكن لم يكن؟ وإنما تكون نفوسهم على وفق ما يجرى به القضاء، ويلاحظ أنهم قالوا لا تخافوا ولا تحزنوا، يعنى أن أحداث الدنيا ستمضى بكم كما تمضى بالناس، والمطلوب أن تكونوا غير الناس فلا تخافوا من الآتى ولا تحزنوا على ما فات. ومادمتم أسلمتم فأسلموا، ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله: ﴿وَأَبشُرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ هو من التحلية بعد التخليلة فبعد ما أدخل نفوسهم من توقع المكروه والأسى على المرغوب بشرهم بالجنة ولا يبشروا أحد بأفضل من هذه البشرى، وثنمها فى الآية الكريمة هو ﴿رَبَّنَا اللَّهُ تُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهذا كلام عجيب فى إيجازه وفى عظمة معناه، والآية تشرع الطريق الذى إذا سرت فيه كنت من المبشرين بالجنة ولا يقعد عنه إلا خاذل نفسه وظالم لها، والبقاعى يفسر كلمة ﴿وَأَبشُرُوا﴾ بقوله (املأوا صدوركم سرورا يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه ونعمة سائر الجسد) وقد أصاب فيما قال لأنه لا يملأ القلب حورا وغبطة ومسرة كالتبشير بالجنة.

وقوله: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوْعَدُونَ﴾ أى التى وعدكم بها أنبياء الله ورسله، ووعدتكم بها كتبه المنزلة، والآن تبشركم بها ملائكته، وليس المطلوب منكم أكثر من الإقرار بأنه الواحد الأحد الذى يدللكم عليه كل ما تقع عليه عيونكم وما يقرع أسماعكم ثم تستقيمون على نهجه وتكونون عباده الصادقين

الأصفياء المخلصين، يعنى تعيشون عيشة كريمة لا تلتفت إلا إلى الله، ولا تمد يداً إلا إليه، وهو حسبكم وكافيكم فى الدنيا والآخرة، والمضارع فى قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ معناه أن ذلك تكرر عليكم وأن رسلكم وأنبياءكم كانوا يجددون ذلك لكم، وكلمة ﴿كُنْتُمْ﴾ تفيد أن ذلك كان من مألوف أقوال رسل الله وأنه كان من شأنهم؛ هكذا كانوا من يوم أن كانوا.

وقال بعض علمائنا إن الملائكة يبشرون الذاكرين المستقيمين فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى القبر ويوم البعث، وليس فى الآية ما يدل على هذا القيد، وإن كان فى الآية ما يشير إلى أنهم يتنزلون عليهم عند الشدة بدليل قولهم لا تخافوا، ويرى البعض أيضاً أن قوله: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ تفسير وبيان لقوله: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لأن تنزل الملائكة يتضمن بلاغاً وهذا بيانه، والكلام يحتمل ذلك كله.

قوله جل شأنه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أكثر أهل التفسير على أن هذا من كلام الملائكة، وذكر بعضهم أنه من كلام الله للذين قالوا ﴿رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ولا ريب فى أن الله ولى الذين آمنوا، والولى هو القريب الذى يؤازرك ويحوطك ويأخذ بيدك، وعلى قول الأكثر تكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها مع إضافة هذا المعنى الجديد الجليل وهو ولاية الملائكة للقائلين ربنا الله، ووجه التوكيد أن من كانت ملائكة الله أولياءه فلا يخاف ولا يحزن، ومادام لا يخاف فهو آمن من عذاب النار، ومن آمن من عذاب النار فهو مبشر بالجنة لأن الجنة لا يدخلها أحد بعمله وإنما هو محض فضل من الله للذين زحزحوا عن النار، ومعنى ولايتهم لهم فى الحياة الدنيا أنهم يلهمونهم الخير والرشاد والذكر والعمل الصالح، وهو تأكيد لمعنى ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثم إن الملائكة تشد أزر أهل الله فى مواجهة أهل الباطل. وقد شرح الرازى هذه الولاية شرحاً مطولاً قال فيه: «ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية بالإلهامات

والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح بإلقاء الوسوس فيها وتخيل الأباطيل إليها، ثم ذكر قوله عليه السلام «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

أما ولا يتهم لهم فى الآخرة فقد ذكر غير الرازى أن الملائكة يمدونهم بالشفاعة وأنهم يدفعون عنهم العداوة التى تكون بين الأخلاء فى هذا اليوم ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وأنهم يدفعون عنهم الفرع الأكبر، ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ويقولون لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ومثل هذا مما تلقى به الملائكة أهل المغفرة الذين قالوا ﴿رَبَّنَا اللَّهُ تَمَّ اسْتِقَامُوْا﴾ ويفسر الرازى ولاية الملائكة لهم فى الآخرة تفسيراً آخر قال فيه: إن المؤمن إذا انتقل إلى الدار الآخرة تزول العلائق الجسمانية والتدابير البدنية، ويزول الغطاء والوظء فيتصل الأثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس، وهذا هو المراد بولايتهم لهم فى الآخرة، وللرازى فى تفسيره كلام غريب وهذا منه.

وقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أكثر أهل التفسير على أن الضمير فى قوله ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الآخرة لأنها أقرب مذكور، والبعض يراه عائداً على الجنة، وجملة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ معترضه، وأصل الكلام تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، وإنما قدم نحن أولياؤكم للإشارة إلى مزيد فضل هذه الولاية وأنها عند الله بمكان، وقالوا: هى جزء من البشرى لهم فى الحياة الدنيا، ولما كفوا أنفسهم عن شهواتها فى الدنيا أعطوا ما تشتهيه أنفسهم فى الآخرة، وجاء فعل ﴿تَشْتَهَى﴾ بدون

مفعول لبيان معنى أنهم لهم شهوة أنفسهم مع صرف النظر عن المشتبهى، وأن هذه الأنفس التي كفت شهواتها في الدنيا لها كل ما يشبع شهوتها في الآخرة، وبهذا قدم على قوله ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ وإنما أعيد ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع أنه كان يمكن أن يقال ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وما تدعون للإشارة إلى استقلال العطاء الثانى وأنه قسيم العطاء الأول، ومعنى وما تدعون يعنى ما تطلبون وتمنون وتحدثكم به نفوسكم ويدخل فيه المحسوسات والمعنويات، ولهذا قالوا هو من عطف العام على الخاص، والمعنويات والأمنيات المتضمنة فى كلمة وما تدعون منها رضوان الله ورؤيته سبحانه وهذا من أعظم العطاء وليس بعده عطاء، والكلمات كما ترى فى غاية الاختصار والمعانى متسعة جداً، وراجع دلالة ﴿مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تجد معانى لا حدود لها، والعطاء فى الآية ابتداء من تنزل الملائكة ونفى الخوف والحزن والبشارة بالجنة وولاية الملائكة فى الدنيا والآخرة والعطاء الذى فى الآخرة تجمد فيضاً من التكريم للذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ثم لم يعودوا إلى الشرك على حد تفسير أبى بكر ولا يهلك على الله إلا هالك، ثم ضع هذا بإزاء ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ثم شهادة أسماعهم وأبصارهم وجلودهم، ثم ذوقهم العذاب الشديد والنار التى لهم فيها دار الخلد، ومن يرى هذا ثم لا يكف نفسه عن اللجاجة فى الباطل فهو الذى خذل نفسه وظلمها ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] وازن بين أصوات الأسماع والأبصار والجلود وهى تشهد عليهم، وأصوات الملائكة يقولون ما قالوا.

وقوله جل شأنه: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ هذا جزء من الجملة السابقة، وقوله ﴿نُزُلًا﴾ حال من الضمير المجرور بحرف الظرف أى مستقر فيها حالة كونه نزلاً، ولا يجوز أن يكون حالاً من قوله ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ لأن ما تدعون معناه ما تطلبون وتمنون، ولا يجوز أن يكون المطلوب والمتمنى نزلاً، أى

حال كونه نزلاً، وهذا الجزء فيه عطاء أكرم من كل العطاء الذي مضى ابتداء من قوله ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، لأن تنزل الملائكة ونفى الخوف والحزن والبشرى بالجنة وولاية الملائكة لهم في الدنيا والآخرة كل هذا شيء، وكونهم صاروا ضيوفاً للغفور الرحيم قدم لهم نزلاً وهو ما يقدم للضيف حال نزوله إلى أن يتهيأ ما يضاف به كما قال البقاعي أقول هذا شيء آخر وهو أرجح وأكرم؛ لأن الإكرام من الله قليله لا يقال له قليل، فكيف إذا كان نزلاً يقدم حال القدوم ثم يقدم للضيف النازل ما يضاف به بعد ذلك؟ وهذه المكرمة العظيمة والنعمة الأجل واحدة مما في هذه الكلمات، لأن هناك أخرى وهي أن المكرمين بهذه الكرامة الذين صاروا بها ضيوفاً عند ربهم مكرمين يقدم لهم النزول فيهم أصحاب ذنوب أوماً إلى ذلك قوله ﴿مَنْ غَفُورٌ﴾، ومعنى أن النزول من غفور أن هذا النزول سبقه مغفرة ذنب، والمغفرة معناها المحو للذنب والستر له، وإذا كان الغفور يتجاوز الذنب ويستره ولا يحاسب عليه فإن الرحيم يعطف ويمنح ويعطى ويحوظ وينعم، وهذه فاصلة مستوعبة ومتضمنة كل ما في هذه الآية من النعم، وتزيد عليها مغفرة الذلات وتجاوز السيئات ولا يجوز لمن يقرأ هذا ويعقله أن يغفل عن وجه ربه.

وقوله جل شأنه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

يلاحظ أن المكرمين بالنزول وتنزل الملائكة قالوا ربنا الله واستقاموا، يعنى كانوا صالحين فى أنفسهم وقاموا على هذه الأنفس وتعهدوها حتى استقامت على منهج الله واهتدت إلى صراطه المستقيم، والمذكورون فى هذه الآية جماعة توجهت بعملها إلى الجماعة المؤمنة وتجاوزت فعل الخير إلى الدعوة إلى الخير، فإذا كانت الأولى جماعة صالحة فهذه جماعة صالحة ومصالحة، ولذلك كانت أعلى فى الدرجات وجاءت العبارة عنها بأنها

تعمل عملاً ليس في العمل أحسن من عملها، والاستفهام في قوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ معناه النفي يعني لا تمجد قولاً أحسن من قول من وجّه قوله إلى الدعوة إلى الله، وهذه غاية ليس فوقها غاية لأنها بلاغ عن رسل الله الذين بلغوا عن الله فهم رسل رسل الله، ﴿الَّذِينَ يُلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فليس فوقهم إلا الأنبياء، ولاحظ أن قولاً تمييز وهو المقصود بالأحسن وهذا معناه تجويد القول الذي يدعو إلى الله وتحسينه وتهذيبه بالفهم والعلم وحسن البيان وحسن التاني ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وحسن قول الداعية لا يعني البيان الحسن، وإنما الفهم الصحيح والحكمة الواعية واختيار ما يناسب من الموعظة الحسنة وكل ما يرتقى بأسلوب الدعوة ومضمونها.

ثم إن الدعوة إلى الله ليست فقط فيما نسميهم دعاة لأن هؤلاء الدعاة لم يولدوا دعاة وإنما أعدهم علماء، وهؤلاء الذين يعدون الدعاة دعاة ومن جهز داعياً فقد دعا على طريقة من جهز غازياً فقد غزا، وهذه الكتب والمؤلفات في التفسير والحديث والفقهاء والحكمة واللغة وغير ذلك مما هو داخل في ثقافة الدعاة كل هذا يعد صانعوه دعاة، ومن باشر سماعاً في غير الدعوة ونبته معقودة على المشاركة في إصلاح أجيال وأحوال الأمة فهو بهذه الممارسة المستقيمة يعد داعياً إلى الله، لأنه يمثل نموذجاً إسلامياً رفيعاً في فهمه وعلمه وأمانته، فكأنه يدعو بهذا السلوك إلى الله، وقد قرأت في بعض الكتب أن من دخل في دين الله فهو داع يدعو إلى الله بدخوله في دينه، وقد وسع العلماء معنى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ وقالوا هو شامل لكل من يكمل غيره، ويعمل عملاً فيه خير للأمة، والمهم أن يخرج المسلم من دائرة نفسه إلى الاشتغال بصالح قومه الذين يقومون لنصرتهم وهم عامة المسلمين.

وقوله سبحانه ﴿ وَعَمِلْ صَالِحًا ﴾ الواو فيها واو الحال يعنى يدعو إلى الخير فى حال مباشرته لفعل الخير، لأنه لا يستجاب له إلا إذا كان يعمل ما يدعو الناس إلى عمله ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف. ٣] وهذا جيد لأن عملك للخير يجعلك أكثر حبًا له ورغبة فيه واقتناعًا به، وكل هذا منعكس على دعوتك ويجعلها صادرة عن قوة يقين ووفرة نشاط ورغبة ويجعلك داعيًا إلى الله بقولك وعملك، وهذان يتآزران فى تقوية دعوتك، وجملة ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ليس المراد بها الإعلام بأنه مسلم لأن ما قبلها من الدعوة إلى الله والعمل الصالح ظاهر فى بيان أنه مسلم، والآية لم تقل وقال إننى مسلم، وإنما قالت ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى أنا واحد من هذه الجماعة التى أجتهد فى أن أنفض عنها الغفلة، وأجتهد فى أن أدعوها إلى ربها، وأن أدعوها إلى العمل الصالح الذى تنهض به وتقوى به، لأننى منها وهم منى وحىي لها وانتمائى لها واعتزازى بها وحرصى عليها وأنا وهم كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص. ويسعى بدمتنا أذنانا ونحن يد على من سوانا، وكل هذا يوجب على الصدق فى دعوتهم والإخلاص لهم، ويوجب عليهم الإصغاء لدعوتى وحسن الظن بى لأننى منهم كما كان مؤمن آل فرعون يقول ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ [غافر. ٣] ويكرر ذلك، وهذا معنى كريم لأنه ينفى عن الدعاة الخداع والتليس والتدليس لصالح الحكام المفسدين الذين أفسدوا كل شىء، حتى إنهم أدخلوا الفساد على أهل المحراب، ووضع أمن الدولة أنه فيما يقوله الداعى وما لا يقوله، وصار أمن النظام هو المطلب الأعلى حتى إنهم ليفرضون على الدعاة وغير الدعاة أن يسكتوا عن أشياء من الدين لأن الحديث فيها يكدر صفو الأمن وهذا أسوأ ما تبغى به الشعوب ونسأل الله أن يخلصنا من ظلم الظالمين وفساد المفسدين. وجملة ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ينفى بها عن نفسه كل ما ليس صادرًا عن قلب وعقل عالم مسلم صادق فى توجهه إلى أمته وجماعته وقومه، ووقوعها حالًا يعنى أنه يقولها فى كل حال يدعو فيها إلى الله ليؤنس

نفوسهم بما يسمعون، ويؤكد في قلوبهم أنه حريص عليهم وأنه بهم وأنه منهم وأن الداعى لا يكذب أهله .

وقد نبه أهل العلم إلى أن الحديث فى الآية الأولى كان عن جماعة ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ والحديث فى الآية الثانية كان عن مفرد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ واستخرج أهل البصيرة فى كلام الله من هذا الإشارة إلى قلة الصنف الثانى لأن مرتبته لا تنال بالهويانا، لصعوبة تحقيق الصدق والإخلاص، والعلم والبصيرة والحكمة، والصدع بالحق وعدم الالتفات وعدم الانصياع لضغوط أهل الضلالة من حكام هذا الزمان الذين يريدون أن يتكلم الدعاة بما يبرر سلوكهم، ولا يصادم قراراتهم، وأن يؤولوا فى الدين حتى يكون على وفق مرادهم لأنهم مخذولون، ولم يوفقوا أوضاعهم على وفق ما جاء به الشرع، أو أن يفتح الدعاة قضايا فرعية وأن يصنعوا منها معارك فقهية ليشغلوا الناس عن القضايا الحقيقية التى يجب أن يتكلم فيها الدعاة كالذى تراه الآن فى مصر من الخلافات الفقهية حول قضية الختان والبلاد، تباع لأعدائها بيع بخس وينهبها من ينهبها وبذلك يشغل الناس عن الأهم بغير المهم وينام الحراس. ويعود زمن أبى الطيب لما حكمت البلاد عصابة ساقطة الهمة فسلبت ونهبت وسجل أبو الطيب ذلك فى قوله:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفتى العناقيد

نعم الدعاة إلى الله أندر من الكبريت الأحمر وإن ملأوا الأرض. لأن الأصل أن يكونوا أكثر هبة فى صدور أبناء الأمة، وأن يكونوا أجل من الملوك جلالة كما وصفهم شوقى. وليسوا ألعاباً فى يد عصابات الحكم.

وقوله جل شأنه ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

من المهم أن تراجع الآيات المكونة للفصل أو للقسمة الذى تدرسه لا لترى علاقات المعانى بعضها ببعض، وإنما لترى ما هو أبعد من هذا وهو كيف تتولد

المعاني ويخرج لاحقها من رحم سابقها، والذي تراه هنا أن الآية الأولى ذكرت ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وكان ذلك في خاصة نفوسهم مع ما تقتضيه الاستقامة بمعناها العام من قدر من الاشتغال بشأن الأمة، ثم جاءت الآيات الثانية لتتكلم عن فريق كل ما حدثت به الآيات عنه هو اشتغاله بشأن الأمة وتقريبها من نبع كل خير وفلاح وتقدم وقوة ومنعة من خلال اقترابها من النهج الذي شرعه لها خالقها وهو الطريق المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا هالك، لأن الدعوة إلى الله دعوة إلى كل فلاح كما يقول المؤذن حى على الفلاح، ثم نتج من ذكر هذين النوعين تفاوت الحسنات وأن المحسنين طبقات ومراتب، فجاءت هذه الآية لتحدث عن تفاوت الإحسان ويستتبعه تفاوت السوء، ثم تقدم الآية نظاً ربيعاً من الدعوة إلى الله وهى مكافأة الأسوأ بالأحسن، وإذا دعا ربنا إلى هذا فالطريق بعد ذلك مفتوح لأحوال كثيرة كالعفو والقصاص إلى آخره.

وجملة ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ معطوفة على قوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وإذا كانت الآية المعطوف عليها تبين تفاوت المحسنين فهذه تبين تفاوت الحسنات كما قلنا، ويلاحظ في الآية تكرار كلمة لا النافية ولم يكن الكلام ولا تستوى الحسنة والسيئة لأنه لو كان كذلك لأفاد نفى استواء الحسنة والسيئة، وليس هذا بمراد لأنه ظاهر لا يحتاج إلى أن يخبر به، وإنما جاءت «لا» مع السيئة ليكون المعنى لا تستوى الحسنة، وهذا كلام تام ولا السيئة يعنى ولا تستوى السيئة وهذا كلام تام، والمراد أن الحسات تتفاوت وبعضها يفضل بعضاً وبعضها أحسن من بعض، وأن السيئات تتفاوت وبعضها أسوأ من بعض، وقد ذكر علماؤنا أن وجه التفاوت فى الحسات والسيئات يرجع إلى أمرين، أولاً: نوع الحسنة ونوع السيئة، فليس كل الحسنات سواء، وقد تقدم أن أحسن الحسن هو الدعوة إلى الله ولكن ليس على طريق من نسميهم الدعاة وإنما على الطريق الذى وصفه ربنا بقوله ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] يعنى أبى الحق إبانة كصدع الزجاجاة

كسرها لا يجبر، وقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الاحزاب: ٣٩] وكذلك يقال فى السيئة فليس
الكذب على الناس كالكذب على الله، وليس ذنب الشاب كذنب الشيخ،
وليس بخل الفقير كبخل الغنى إلى آخره، وهذا تفاوت مصدره الحسنة فى
ذاتها، والسيئة فى ذاتها، الأمر الثانى: النية المعقودة وراء الحسنة ووراء السيئة
والتي عبر عنها ربنا سبحانه فى قوله ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ
التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وقوله عليه السلام «رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة
بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذى المسلمين»، وهكذا يقال
فى السيئة فهناك من تقع منه السيئة فى حالة غلبه عليها شيطان، وهناك من
طبعه الاجتراء على الله وفعل ما يغضبه سبحانه، وهذه الجملة بشقيها
المعطوف والمعطوف عليه مقدمة للمقصود الأهم وهو قوله سبحانه ﴿ادْفَعْ
بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذه كلمة شديدة الاختصار وشديدة الدقة «والتي هى
أحسن» ليست الحسنة وإنما هى الأحسن، والمدفوع ليست هى السيئة وإنما هى
الأسوأ، والمطلوب الذى دعانا ربنا إليه فى هذه الجملة ﴿ادْفَعْ بِالتِّي هِيَ
أَحْسَنُ﴾ أن ندفع أسوأ السيئات بأحسن الحسنات، وهذه مرتبة فوق العفو
بكثير، فإذا أذاك فلا تكفى بالمسامحة وإنما أحسن إليه، وقد ذكر الزمخشري
لذلك مثلاً صعباً جداً قال: رجل أساء إليك فالحسنة أن تعفو عنه والتي
هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته لك، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل
ولذلك فتفتدى ولده من يد عدوه، وهذا صعب جداً ولكنه هو معنى الآية،
ولذلك أعقبها قوله جل شأنه ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هذه آفاق مكارم
الأخلاق يفتحها القرآن ولا يلزمنا بها، وأهم ما يجب أن نلتفت إليه أن هذه
الآية جاءت عقب ذكر أحسن القول وهو القول الداعى إلى الله، وكأنها تشير
إلى أن هؤلاء الدعاة الذين هم أندر من الكبريت الأحمر سيواجهون بتحديات

وإساءات، وستقع عليهم مظالم لأن طريق الحق في كل زمان وخصوصاً في زماننا محفوف بمكاره، وعليهم أن يضربوا للناس مثلاً ليس في الصفع والعتو وإنما في أكرم صور المكافأة والعقبي، ثم إن هناك معنى آخر للذي دعانا ربنا إليه بقوله ﴿ادْفَعْ بِأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذا المعنى هو أن التحاب في الله والتآخي في الله وشيوع المودة بين أفراد المسلمين الذي يقول الداعية في حال دعوته إلى الله ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أقول إن شد بناء الأمة وتآخيتها وتساندها وتآزرها أمر نفيس جداً، وكل نفيس له ثمن نفيس والدفع بالتي هي أحسن وإن صعب على النفس إلا أنه ينتج نتيجة تستحقه وهي ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهذه من أعظم الآيات ومعناها من أكرم المعاني وأنبأها، وراجع عمق المعنى وقوته وله ثلاثة مواطن في هذه الجملة، الأول: الفاء الداخلة على إذا الفجائية، الثاني: الظرف الذي هو ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ الثالث: كلمة ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

أما الفاء فإنها دالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ترتب السببية بلا مهلة ثم كلمة المفاجأة بهذا التغير الذي هو أشبه بانقلاب كامل في شأن هو أقل الشئون تغيراً وأبطؤها في تغيره إن تغير، وقيمة هذه المفاجأة تظهر بعد مراجعة المواطنين الباقيين الأول قوله سبحانه ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ وهذا تعبير يخالف قولنا هو عدو أو فلان عدوى، لأن هذا التعبير يجعل المساحة التي بينك وبينه مسدودة بالبغضاء والحقد والعداوة ويا بعد ما بين أن تقول هو عدو؛ وأن تقول بيننا وبينه عداوة، كما تقول بيننا وبينه دم، وكأن المسافة التي بينكما تموج بالدم، ثم يقابل هذا المعنى بعمقه بمعنى مضاد هو في معناه في عمق هذا في معناه وهو قوله ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ والولى هو القريب الذي يصونك ويحوطك ويكرمك، ودمك من دمه ومالك من ماله وعرضك من عرضه، وكلمة حميم معناها دفء هذه القرابة وهذه الولاية وحميميتها،

والمفاجأة هي هذا الانقلاب من الذى بينك وبينه مساحة كلها عداوة وكأنها بيان من العداوة وجدران من البغضاء إلى هذه القرابة ذات المعنى الحميمى . وهذا شيء عجيب ، وإنما قلبه هذا الانقلاب السحرى هو الدفع بالتى هي أحسن ، وليس فى حياة الناس أفضل من تدمير العداوات وبناء علاقات الود والإخاء والمرحمة ، لأن هذا ليس معناه المحبة فحسب وإنما معناه إزالة الغش والكذب والأثانية والنصب والتصلت والحطف ، وغير ذلك من المضار التى تسود فى المجتمعات مع فساد الأنظمة وجهل المسئولين ودناءة نفوسهم واستحلال الخسائس وتربية أبنائهم عليها .

وقوله جل شأنه ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها وهى دالة على مكانة وجلالة هذه القيمة الأخلاقية العالية التى دلت عليها هاتان اللفظتان اللتان لا أعرف فى بيان العربية كلاما يقاربهما فى معناهما وهما ﴿ ادْفَعْ بِأَتَى هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وكلمة ﴿ يُلْقَاهَا ﴾ جاءت مبنية للمفعول ليتوفر عقل السامع ووعيه على إدراك الفعل الذى هو التلقى . وهو من الفعل لقى كما تقول لقى فلان فلاناً ولقى فلان حاجته إذا كان يبحث عنها ، وقد فسر البقاعى قوله سبحانه ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ بقوله أى يجعل لاقياً لهذه الخصلة ، والذى يبدو لى ومن المفيد أن أنه إليه أن قوله ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ يفيد أن هذا الذى أكرمه الله بتلقيها فتلقاها كان يعالج نفسه لتحملها ويأخذ نفسه على طريقها ، وأنها لا تمتح لغافل عنها وإنما تمتح لمن طلبها ويبحث عنها كما يبحث المرء عن حاجته ، فإذا أصابها قيل تلقاها ، وقوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى كان منهم الصبر لأن الفعل المتعدى نزل منزلة اللازم ليتوفر الكلام على بيان وقوع الفعل من الفاعل . أى شأنهم الصبر على كل ما يكون الصبر له : على البأساء والضراء وعلى الفقر والمرض والمشقة وشظف العيش . والصبر فى العمل والصبر فى طلب العلم وغير ذلك من

وجوه الصبر، لأن الصبر مر. أعظم القربات ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] إلى آخره، وهذا ما يفهم من ذكر الصبر من غير مفعول يقع الصبر عليه، ثم إن ذكر الصابرين في سياق المعنى الذى نحن فيه يدل دلالة لا يستطيع أحد أن يدفعها، وهى أن هؤلاء كانوا يروضون أنفسهم لتكون قادرة على الاستجابة لدعوة الله بالدفع بالتى هى أحسن، وأنهم كانوا يزاولون ذلك ويجهدون فى تحصيله، والمعنى لا يلغاها إلا الصابرون فى طلبها والباحثون عنها ولهم فيها رغبة أكيدة، والآية الثانية ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يلاحظ فيها أنها أعادت الكلام الأول بلفظه، والذى اختلف هو ما بعد إلا التى للقصر والمقصود عليه فى الأولى هم الذين صبروا والمقصود عليه فى الثانية هو ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ والمراد صاحب نصيب عظيم، وسياق الكلام دال دلالة ظاهرة على أن هذا النصيب العظيم هو من باب الخير والبر وصالح الأعمال، وبمثله فسره ابن عباس قال «من خصال الخير وكمال النفس» ولا شك أن الذين صبروا أوتوا حظاً عظيماً من البر وكمال النفس. لأن الصبر لا يكون إلا بالمجاهدة والاحتساب والتوفر على طلب الثواب، ثم إن الحظ العظيم يتسع لكل أعمال البر وأن هذه الخليقة العظيمة والقيمة الأخلاقية النفسية والاجتماعية التى هى الدفع بالتى هى أحسن لا يصيبها إلا من بلغ الغاية فى الصفاء والصلاح وتربية النفس، وأنها خليقة بالداعين إلى الله الذين هم أصحاب القول الأحسن والذى لا ينازعه قول فى درجة إحسانه، وأنهم حين يستجيبون لله الذى دعاهم إلى الدفع بالتى هى أحسن استجاب لهم الناس. وأنهم قبل أن يكونوا داعين هم مدعوون أولاً وبقدر استجابتهم لداعيهم عز سلطانه يكون نصيبهم من الفضل فى الدعوة إلى الله، ولا ننسى أن هذه الدعوة إلى الله هى رسالة الأنبياء، وكل ما جاء فى الكتاب العزيز على لسان الأنبياء هو دعوة إلى الله وهو أحسن القول، وأن هذا المرتقى العالى لمن اجتباهم ربهم واصطفاهم وفضلهم على العالمين له زاد واحد هو الصبر وسعة الحظ من كل أعمال البر، هذا والله أعلم.

وقوله جل شأنه: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

لا شك أن بلاغة التركيب في الكتاب العزيز بلغت الغاية في الدقة والإحكام، ومن المفيد أن نضيف إلى بلاغة التركيب في الجملة بلاغة التركيب في موقع الآية من التي قبلها، لأن هذا كلما راجعت النظر فيه رأيت أشياء تروع ولا أستطيع استقصاءها، ومن ذلك هذه الآية التي ليست عظمتها وتفوقها في مبنائها ومعناها فحسب وإنما في موقعها من الكلام قبلها، وهذا يوجب علينا تكرار مراجعة الكلام وبيان بناء معانيه بعضها على بعض ومعرفة سمود المعنى وهيأته وسمته، وترى الآيات من أول قوله ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تشعرك بإشارات خفية لتلك الإشارة التي تنبه إليها علماءنا من الحديث عن الجماعة في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ثم الانتقال إلى الحديث عن المفرد في قوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأن هذا يعنى ندرة وقلة هذه الطبقة من الناس وأنها أجدر بأن تقل وأن يكون الحديث عنها متجها دائما إلى الإشارة إلى قلتها، ومثل هذا تجده في الآية بعدها فقد جاء الحديث عن جماعة في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم انتقل إلى الحديث عن الواحد في قوله ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وكل هذا تأكيد لمعنى أن تحصيل هذه الخليقة أمر صعب جدا، وأن الموصوفين بها قلة قليلة وكل هذا مضي. والمقصود الآن هو أن الآية التي معنا تشير إلى مداخل الخطر والفساد والإفساد إلى هذه الصفوة القليلة، وأن وساوس التكدير لهذا الصفاء ليس أمرا محتملا فحسب وإنما هو واقع لا محالة، وأن هذه النفوس في حاجة إلى حصانة تحصنها ومناعة تمنعها ودواء دائم يقوى هذه المناعة، وأن القابضين عليها والقائمين عليها يجب أن يكونوا حراسا لها، وبهذا الوعى بموقع الآية يتبين لك أنه لا يمكن للآيات قبلها أن تستغنى عنها، وأنها لا يمكن أن تكون إلا عقب الآيات قبلها، وأرى أن هذا من باب تحليل التركيب الذي يجب أن يتسع وأن يكون أشمل من

الجملة والجمل. وأعود الآن إلى التركيب الذى ألفناه؛ وكثير جداً الذى تراه فى هذه الآية من هذا الباب وأوله هو كلمة و«إما» وهى إن التى تكون للشرط المشكوك فيه، وهى تشير إلى أن الشرط بعدها يكون على وجه القلة والندرة ومع هذا جرى بعدها بما الزائدة التى تفيد التوكيد، ثم جرى بالفعل المضارع الدال على التجدد. ثم أكد هذا المضارع بنون التوكيد الثقيلة، ثم جرى بفاعل هذا الفعل المؤكد وهو مصدره ﴿نَزَغٌ﴾ ثم كان الخطاب لسيد هذه الصفوة صلوات الله وسلامه عليه وهو المقدم فيها وهو إمامها، وكل هذه الخصوصيات وراءها ما وراءها، أما الشرط بإن فلدلالاته على أن المخاطب صلوات الله وسلامه عليه الشأن ألا يكون هذا معه إلا على سبيل الندرة، وأما التوكيد فلإشارة إلى أن الشيطان سينزغ هذا النزغ لا محالة له ولصفوة أمته من ورائه صلوات الله وسلامه عليه، ولا يمنعه من ذلك علمه بأنه ﷺ معصوم لأن اللعين يضرب فى كل جهة، ثم إن كلمة النزغ وإثارها على الوسوسة التى هى مرادة بها لأن النزغ معناه فى أصل اللغة النخس والوخز والدفع والذب، وقال صاحب اللسان فى الآية: نَزَغُ الشيطان وساوسه ونخسه فى القلب وإنما عبر عن الوسوسة بالنزغ للإشارة إلى قوتها، وإسناد النزغ إلى ينزغ من باب المجاز العقلى مثل جد جده وضل ضلاله، وكل هذا يؤكد شراسة الهجمة على هذا الصفاء المفضى إلى خليقة ﴿ادْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وأن الخلق الطيب والسلوك الطيب والطريق المستقيم كل ذلك يترصد له المبطلون على طريق أهله، وأن الاستقامة لا تنال بالهويناء وأن الاستمرار عليها محفوف بمخاطر كثيرة، وأن توجه الآية بالخطاب لرسول الله ﷺ يعنى أن ما وراءه عليه السلام يجدون أشد من ذلك، وقوله ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ كل التأكيد الذى مضى لا يؤكد نزغ الشيطان فحسب وإنما يؤكد بناء الجواب على الشرط. وهو هنا المسارعة بالاستعاذة بالله عند أول الإحساس بهذه الوسوسة، ومن استعاذ بالله أعاده ومن استعان بالله أعانه ومن استجار بالله أجاره، والمعول عليه فى كل ذلك صدق النفس فى التوجه إلى الله سواء كانت مستعيذة أو مستجيبة أو مستعينة.

وقوله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فاصلة فيها التوكيد بأداة التوكيد وبضمير الفصل وتعريف الطرفين وذكر السميع العليم، وهما أنسب ما يقال في هذا المقام، لأن هذه فاصلة راجعة إلى الآيات من قوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، وأن بناء هذه الآيات على القول الأحسن ناسب ذكر السميع الذي يسمع ما يكون من أصحاب هذا القول الأحسن والعليم الذي يعلم صحة وسداد أقوالهم ويعلم ما تنطوي عليه نفوسهم، وإذا قلت إن هذه الفاصلة راجعة إلى الآيات من أول هذا القسم من قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وأن هذه الفاصلة هي خاتمة هذا القسم كله وأن قوله سبحانه ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ مناسب لقوله ﴿السَّمِيعُ﴾ ﴿اسْتَقَامُوا﴾ مناسب لقوله العليم لكان كلامًا مستقيمًا، والله أعلم.

وبقى أن أشير إلى لمع من كلام أهل التفسير رضى الله عنهم، قالوا: إن الخطاب لما كان لرسول الله ﷺ ﴿وَأَمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ جيء بيان التى للشرط النادر، ولما كان الخبر عن عامة المسلمين وخاصتهم جيء بإذا فى قوله سبحانه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ويلحق بهذا أنه مع الأمة عبّر بالمس ومع نبيها عبّر بالنزغ، وهذا يعنى مزيد احتشاد من اللعين بنزغ سيد المرسلين، وهذا اجتراء وتقحم وتوقح، ثم إن فيه إشارة إلى كلف اللعين بأهل الفضل أكثر من كلفه بالعامه، وللظاهر فى الآية نص كريم قال فيه:

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية العصمة المركوزة فى نفس النبى ﷺ، لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للعصمة وصقل لذكاء النفس مما قد يقترب منها مما يكدر صفوها، وهذا سر من الاتصال بين النبى ﷺ وربه، وقد أشار إليه قول النبى ﷺ: «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شىء من الكدر، ويلحق به فى

ذلك صالحوا المؤمنين، وفي الحديث القدسي عند الترمذى «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألتى لأعطيته ولئن استعازنى لأعيذته».

ثم يلتحق بذلك بقية المؤمنين على تفاوتهم كما دل عليه حديث ابن مسعود عند الترمذى «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وبالملك لَمَّةً فأما لَمَّةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لَمَّةُ الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ومن وجد الأخرى فليسعد بالله من الشيطان» وراجع مرتبة الإعادة فى الحديث وكيف جاءت بعد قوله كنت سمعه وبصره ويده وبعد قوله: ولئن سألتى لأعطينه، ثم عد إلى مقامها فى الآية وتأمل ما يجب أن يوفره المستعيز بالله من نفسه، وكيف أن الاستعاذة التى يعيذ الله صاحبها لا تنال بالهويناء، والله أعلم.

قال جل شأنه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾.

انتقل الحديث إلى ذكر آيات الله فذكر آية الليل والنهار والشمس والقمر ثم ذكر آية الأرض الخاشعة، ثم انتقل إلى الذين يلحدون فى آياته وهذا كله بعضه من بعض.

وقد تكلم أهل العلم فى علاقة آية الليل والنهار بالكلام قبلها وبينوا أنها علاقات متنوعة، منها أن الذى قبلها حديث أحسن القول الذى هو الدعوة إلى الله، وأن ذكر هذه الآيات ترسم طريق الدعوة أو سى مشال واضح لخطوات الدعوة إلى الله، وأنها لأبداً أن تقوم على بيان آياته المبتوثة فى الكون وتوير أدلة التوحيد وتجليتها وتركيتها حتى تقوى أصرة الإيمان بالله الواحد

الأحد فى قلوب أهل الإسلام، لأن الإيمان بالواحد الأحد هو الجذر الذى تتولد منه فروع وتزكو، وهو أصل الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء وقد فُسِّرت بكلمة التوحيد، ولا تجد أبر بقلوب أهل الإيمان من النظر فى آيات الله والتدبر فى صنعه وخلقه سبحانه، وهذا هو الرادع الذى يكف النفس عن كل ما نهى الله وهو الحادى الذى يحدو النفس نحو كل ما يرضى الله. وضعفه أو اهتزازه أو الغفلة عنه يُفْضَى إلى ما يكره أهل الحق أن يصيروا إليه. وكان أهل الحق ولا يزالون يرون أن هذا الذى تراه عينك رؤية دائمة وتسمعه أذنك ويجده حسك كله هو كتاب الملك الديان الذى نشره للإنس والجان يقرؤون فى سطورهِ أنه الواحد الأحد، روى البقاعى قول الأول:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطه ألا كل شيء ما خلا الله باطل

مجىء الآية عقب الدعوة إلى الله كأنها تقول إن مهمة الداعى إلى الله أن يعلم الناس الذين هم خلق الله كيف يقرؤون رسالة الله إلى خلقه والتى سطورها هذا الوجود. مهمة الداعى أن يعلم الناس فك خط هذه الكائنات، هكذا تقول الآية وهذا وجه جيد من الربط.

ومن هذه العلاقات المتنوعة بيان أن هذه الآية خارجة من الكلمة الأخيرة فى فاصلة الآية السابقة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأن كلمة العليم تعنى أنه عليم بكل شيء وقدرته جارية مع علمه فهو قادر على كل شيء، ومن جملة المقدورات الليل والنهار والشمس والقمر، وهذا أيضاً نظر دقيق ومستقيم.

ومن هذه العلاقات وهذا أهم أن هذه الآية راجعة إلى قوله تعالى ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ وأن الكلام بعد

الآية الأولى جرى فيما جرى فيه من ذكر عاد وثمود ثم حشر أعداء الله النار ثم قِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا، وتوابعه من قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ إلى آخره، ثم ذكر المقابل وهم الذين لم يعرضوا، ثم انتهى هذا الامتداد لهذا الفرع الكبير من المعنى. ثم رجع الكلام إلى الجذر الذي واجهت به السورة إعراض أهل الشرك بقيام الأدلة بخلق السموات والأرض. ولما رجعت إليه رجعت بدليل آخر مستخرج من خلق السموات والأرض. وهذا الدليل هو الليل والنهار والشمس والقمر، وهما متوجان ناتجان من خلق الأرض والسماء وتزيين السماء بمصابيح وتقدير العزيز العليم، ويلاحظ أن الآيات الممثلة في الكائنات تأتي مرة في صورة عامة مثل خلق السموات والأرض وتأتي مرة في صورة تفاصيل من هذا العموم مثل الليل والنهار والشمس والقمر، ثم إن الليل والنهار والشمس والقمر لها تنوعات كثيرة في مواطن الاستدلال، وإذا كانت سطرًا من رسائل الخالق إلى خلقه فإن هذا السطر يقرأ في الكتاب العزيز قراءات مختلفة، فأحيانًا ترى الليل والنهار آيتين الليل لسكنوا فيه والنهار مبصرًا، ومرة يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. ومرة يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل. ومرة يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا، ومرة الليل نسلخ منه النهار، ومرة يجعل لكم النهار سرمدًا أو الليل سرمدًا، وهكذا نجد تنوعات كثيرة جدًا ومفيدة جدًا وظاهرة جدًا ولا يضل عنها إلا هالك، وهكذا قل في الشمس والقمر، مرة الشمس تجرى لمستقر لها والقمر قدرناه منازل، ومرة جعل الشمس ضياء والقمر نورًا، ومرة وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وهكذا كل ما تراه عينك من الكائنات استخرج منه الكتاب العزيز معاني شتى. وكأن الشيخ عبد القاهر لما تكلم في باب التشبيه عن أن الشعراء يستخرجون من الشيء الواحد معاني شتى فيستخرجون من القمر التمام بعد النقصان أو النقصان بعد التمام إلى آخره، إنما نظر إلى هذا وأدركه وإن لم يتكلم فيه.

وهذا باب متسع جداً فى الكتاب العزيز ولم يدرس وأعنى به تنوع دلالات الصور الكونية، خذ مثلاً أدلة خلق الإنسان على وجود الله ووحدانيته، تجد مرة من طين ومرة من تراب ومرة من صلصال ومرة من نطفة، وربط كل هذا بسياقه مما لا يتأتى إلا لمن اكتملت أدواته .

وقوله سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ هذا الحذو من البناء يتكرر كثيراً وقد جاء هنا فى آيتين متابعتين هذه الآية والآية بعدها ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ وقد تكرر فى سورة الروم ست مرات متتابعة من قوله سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] إلى قوله جل شأنه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥] وهى من أكرم الآيات وأعظمها، ويقارب هذا حذو آخر تأتى الآيات عليه كما فى يس ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ [يس: ٣٣] . ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُجٌ مِنْهُ النَّهَارُ ﴾ . ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

وفرق بين ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ لأن الصياغة الأولى تُنبه إلى أن الذى يأتى بعدها آية من آيات كثيرة كلها دالة، وليس هذا المعنى فى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ وإنما قال هنا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ لأن السياق سياق المعرضين عن آيات الله والذين قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ فأشارت الآية إلى وفرة الآيات الداحضة لما هم عليه والمؤيدة لما يدعوهم رسول الله إليه، وذلك بخلاف ما فى سورة يس فقد جاء ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ لأن المقام مقام بيان الإحياء بعد الموت، ولذلك جاء فى أول آية ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أُحْيَيْنَاهَا ﴾ [يس: ٣٣] وقال قبلها ﴿ وَإِنْ كُلُّ لُحْمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ وجاء بعدها ﴿ وَنُفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ وختمت السورة بقوله ﴿ وَضُرِبَ لَنَا مَثَلًا نَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴿ وهذه الآية

تشمل أربع آيات وقد جاءت كل واحدة منها آية مفردة، وقد اقترن هنا الليل والنهار كما اقترن الشمس والقمر، وهذه الواو التي بينها ليست سواء فالواو التي بين الليل والنهار عطفت النهار على الليل. والواو التي بين الشمس والقمر عطفت القمر على الشمس. والواو التي بين النهار والشمس عطفت الشمس وما عطف عليها على الليل وما عطف عليه.

وقدم الليل على النهار لأنه هو الأصل ويوجد بدون علة، لأن الظلمة لا تحتاج إلى شيء ينتجها، بخلاف النهار فإنه لا يكون إلا بالشمس، ولذلك يقدم الليل على النهار في الآيات التي جمعت بينهما مثل ﴿اللَّيْلُ لَسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۗ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١]. وكذلك تقدم الشمس على القمر كما في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] وبعدها ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. وهكذا، وصلة الليل بالنهار كصلة الشمس بالقمر، والآية في هذه الأربعة أظهر وأبين لأن المخاطبين الذين هم الناس لا يكونون أبداً إلا في ليل أو في نهار، فإذا كانوا في النهار فهم مع الشمس أبداً، وإذا كانوا في الليل فهم مع القمر إلا أن يكون في المحاق، وهذا أظهر وأبين، وثبات نظام الكون الممثل في هذه الأربعة والتي لا ينكرون أنها مخلوقة لله رب العالمين، وأن من خلقها يعلم كل علم في كل جزئية من جزئياته المكونة لها دال دلالة قاطعة على الخالق الباري القادر القاهر وأنه لا ينكر ذلك إلا من عمى. والآية ليست مسوقة قصداً للدلالة على الواحد الأحد مثل آية ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ فَئِزًا بِأَلَدِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أو إنما هي مسوقة لتصحيح انحراف في الفهم والعبادة، سدا الانحراف هو الانبهار بالشمس والقمر انبهاراً أدى إلى السجود لها وتعظيمها، وأنهم كانوا يسجدون لها

لتقربهم إلى حالقها، ولهذا قال سبحانه بعد ما بين هذه الآية ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ وهذا يعني أنهم رأوا الآية وأنها عظمت عندهم، وكل هذا لا خطأ فيه وإنما الخطأ في أنهم سجدوا لها، فتوجه النهى إلى هذا السجود، واللغة هنا غير اللغة في قوله ﴿ قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ هناك إنكار للآية ولدالاتها، وهنا إقرار بالآية وتعظيم لها تعظيماً تجاوز الحد إلى عبادتها تقرباً لله، ولذلك لم تزد الآية على أن قالت ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ولم تقل مثلاً: الليل نسلخ منه النهار، ولا محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة، ولا الشمس تجرى لمستقر لها، يعني ليس هناك لفت للآية وشرح لها لأن هذا مسلم عندهم بدليل أنهم يسجدون للشمس والقمر، وهما منتوجان لليل والنهار ومولودان بهما، وفيهما، يعني الشمس والقمر آية تابعة لآية الليل والنهار، وقوله ﴿ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ ومجىء الأمر بعد النهى تأكيد للنهى وتأكيد أيضاً للأمر، لأن الأمر بالسجود للذي خلقهن تأكيد للنهى عن السجود لهن، ثم هو ترتيب بالغ الدقة وبالغ المعقولية في وضوح شديد وقرب بالغ، فالنهى عن السجود للمخلوق نهى طبيعي والأمر بالسجود للمخالق أمر طبيعي، ثم إن هذا النهى وهذا الأمر وإن كانا على سبيل الوجوب، وكان النهى نهياً عن الشرك وهو أعظم ضرور النهى لأن الشرك رأس الخطايا أقول: إن وراء هذا النهى وهذا الأمر تكريماً ظاهراً للمخاطبين بالنهى والأمر، لأن الأكرم للمخلوق أن يسجد للمخالق وليس لمخلوق مثله وليس لمخلوق هو أكرم منه، لأن الله سخر الشمس والقمر والليل والنهار لهذا الإنسان فكيف يسجد لكائنات سخرها الله له؟ ثم إن وراء ذلك أيضاً الدلالة الظاهرة على أن القوم عبدوا الكواكب ولم يعبدوا الأصنام وحدها، وإن كانت الأوثان أكثر شهرة في عقائدهم، وقد أشار القرآن إلى عبادة اليمن للشمس زمن سليمان عليه السلام وقال سبحانه في سورة النمل في خبر الهدد لسليمان ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿[النمل: ٢٣]﴾ وراجع الآية تجمد امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، يعنى كان ملك بلقيس ملكاً عظيماً وأنها أوتيت من كل شيء وعرشها كان ممرداً من قوارير، وهذا ملك نادر فى هذا التاريخ البعيد، وقد استظهر المفسرون على عبادة الشمس فى عرب الشمال بوجود أسماء مثل عبد شمس. وعبادة الكواكب فى أرض العرب أبعد من زمن بلقيس. واسم عبد شمس فى العرب قديم جداً يرجع إلى أوائل طى الذين هم من أوائل أجيال نوح عليه السلام، وقد ذكر البحترى فى شعره عبد شمس ووصفه بأنه شمس العرب وأنه أبونا وأنه أول من من على الأسرى وأعفاهم من السيف وجعلهم عبيداً بدل قتلهم قال البحترى:

وعبد شمس شمس العرب أبونا ملك الناس وأصطفاهم عبيداً

وهذا من أصول عقائد أهل اليمن فى السجود للشمس كما كان فى زمن بلقيس. وقوله جل شأنه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مجيء ﴿إِنْ﴾ الدالة على الشرط المشكوك فيه تعنى أن ما دخلت عليه وهو اختصاصه سبحانه بالعبادة أمر فيه ريب، وليس هذا هو المهم وإنما المهم أن مجيء هذا الشرط فى عقب النهى عن السجود للشمس والقمر فيه دلالة ظاهرة على أنهم كانوا يزاوجون بين سجودهم للشمس والقمر وعبادة الله، وأن هذا السجود كان عندهم ضرباً من عبادة الله، وأن الله سبحانه كان قائماً فى وجدانهم وأنهم كانوا إذا حزبتهم شدة ضرعوا إليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيَّةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] وهذا تحليل دقيق لعمق عقائد العرب فى جاهليتهم ووثنيتهم وعبادتهم للكواكب، وأن الله كان ساكناً هناك فى أعماق القلوب. وراجع كلمة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وتقديم النهى عن عبادة الشمس على عبادة القمر فيه

إشارة إلى أن عبادتها كانت أكثر شيوعاً، وفي الآية أيضاً ما يدل على رسوخ عبادة القمر وذلك بإعادة لا الناهية في قوله ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وكان يمكن أن يقال لا تسجدوا للشمس والقمر، ولكن هذا التكرار أكد أنه نهى مستقل. وشيء آخر في بيان قدم السجود للكواكب في أمة العرب وذلك في قول إبراهيم عليه السلام لما جن عليه الليل ورأى كوكباً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٨].

وإذا كانت الحنيفية التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام بقيت في أرض العرب إلى زمن المبعث فلا بد أن تكون ضلالات قومه قد بقيت في جوارها، وأرض آرام التي كان فيها إبراهيم وقومه من أرض العرب وإبراهيم عليه السلام من العرب، وإنما أسكن إسماعيل عليه السلام أرض آبائه وعاش إسماعيل بينهم ولم ينكروه ولم ينكرهم، ويلاحظ اقتران عبادة الأصنام بعبادة الكواكب في قوم إبراهيم عليه السلام، وقد ذكرت سورة الأنعام عبادة الكواكب، وذكرت سورة الأنبياء عبادة الأصنام، وإبراهيم عليه السلام حاور قومه في العقيدتين.

وقوله سبحانه ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾.

هذه الفاء مترتبة على قوله ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ هاتان الجملتان بمثابة جملة واحدة بوجهيها، والمعنى فإن استكبروا على النهي والأمر وسجدوا للشمس والقمر، فلا يحزنك ذلك. ومجىء أداة الشرط «إن» التي تكون في المعنى النادر إشارة إلى أن الأصل في هذا الاستكبار ألا يكون إلا على سبيل الشك، لأن الذي يدعوهم إليه الكلام السابق هو

المتلائم مع الفطرة والمتلائم مع كرامة العقلاء، فلا يسجد مخلوق لمخلوق إلا إذا كان قد أهان عقله، وكرامة الإنسان عند الله بمكان، لأن الله حرّم على الإنسان أن يسجد إلا لله وهذا تكريم له وأمر ملائكته أن يسجدوا لآدم فسجدوا له، فإن استكبروا مع كل هذا فلا يحزنك استكبارهم، وقد ترى فى كلمة ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ طرفاً من السخرية لأن الذى يستكبر على السجود للمخلوق ويسجد للمخلوق ليس جديراً بأن يستعلى وإنما هو جدير بأن يسفُل. والاستكبار منهم استكبار من لا يعقل، والهمزة والسين والتاء فى قوله ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ للمبالغة كالتى فى استجابوا، وقوله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ليس هو الجواب لأنه ليس مترتباً على الشرط لأن الذين عند ربك يسبحونه استكبر هؤلاء أو لم يستكبروا، وإنما الجواب ما دل عليه هذا المذكور وهو فلا يحزنك أو فلا تبتئس. ولا يجوز أن نقدر الجواب، فالله غنى عنهم لأن الله غنى عنهم استكبروا أو لم يستكبروا، وقد قدره الظاهر وهذه غفلة، قال رحمه الله: وجملة فالذين عند ربك دليل جواب الشرط والتقدير فإن تكبروا عن السجود لله فهو غنى عن سجودهم، لأن له عبيد أفضل منهم لا يفترون عن التسبيح له، انتهى كلامه. وجلّ من لا يسهو.

ثم إن هذه الجملة بنيت على الالتفات وأن الكلام انصرف عن خطابهم لما استكبروا عن الذى يرفع قدرهم وانصرفوا إلى ما تنحط به آدميتهم، فكانوا جديرين بالانصراف عنهم وتغييبهم عن مقام الخطاب الذى كان نهياً عن السجود للمخلوق وأمر بالسجود للمخلوق. وهذه هى الرتبة اللائقة بالإنسان، ثم إن ذكر الملائكة بالاسم الموصول فيه إشارة إلى تكريمهم بدلالة الصلة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهذا هو المقام الأرفع وليست العندية مكانية لأن الله منزّه عن ذلك، وإنما هى دلالة على درجة الرضى والكرامة والتقريب.

وقوله سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

والتسبيح التنزيه الذى يليق بجلاله، ويقال سبحانه وسبح له: أى يقصدون بالتسبيح والتحميد والتنزيه إليه وليس لغيره مثل الذين يسجدون للشمس والقمر، وليس عند الملائكة ليل ولا نهار وإنما المراد التسبيح الدائم، وكثيراً ما يذكر تسبيح الملائكة غير مقيد بليل ولا نهار كما فى سورة غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقوله سبحانه فى سورة الزمر ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] وإنما قيد هنا بقوله يسبحون الليل والنهار لمناسبة قوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وقوله ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ جملة حالية، يعنى يسبحون هذا التسبيح الدائم السرمد الذى لا ينقطع أبداً، والحال أنهم لا يسأمون يعنى لا يداخلهم ملل ولا سأم، وقد أكد نفى السأم عنهم بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى المنفى «وهم لا يسأموا»، لأن الذاكرين المسبحين العابدين يخالط التسبيح والذكر قلوبهم، فكلما زادوا ذكراً ازدادوا إلى الذكر شوقاً وازدادوا فيه رغبة وازدادوا به غبطة، وهذا ما أفهمه من قوله سبحانه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأن الذين فى الملأ الأعلى ويحملون العرش ومن حوله ويرون الجلال وعز الربوبية لا يجدون نفوسهم إلا فى التسبيح والذكر

وقوله جل شأنه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

كان المقصود الأهم فى الآية الأولى هو ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، والذى قبله يوطئ له والذى بعده تفريع عليه.

ولما فرغت الآية من بيان أن السجود لا يكون إلا للذى خلق جاءت هذه الآية لتنتقل الكلام إلى البعث بعد الموت، وكانت المشكلة عند الوثنيين هى الحياة بعد الموت وبعد أن يكونوا تراباً وعظاماً، وكانوا يستبعدون ذلك

ويعتقدون أنه مستحيل . وقد بدأت الآية بما بدأت به الآية قبلها ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ للإشارة إلى أن الآيتين يسلكان مسلكاً واحداً في الاستدلال على حقيقتين متقاربتين، أما الحقيقتان فأولاهما: وجوب السجود للذى خلق ونهى عن السجود للمخلوق، والاستدلال على هذا بالإدراك البدهى الفطرى والعلم الضرورى، والحقيقة الثانية: هى البعث بعد الموت وقد سلكت الآية لبيان هذا والاستدلال عليه مسلكا قريبا جداً ومالوفاً جداً حتى إنها تكاد تشعرنا بأن هذا مما يدرك دليله بالحس وليس بالعقل والاستنباط .

وأول ما تراه فى الآية هو قوله: ﴿ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ والخطاب فيها عام لكل من تصح منه الرؤية مسلماً أو منكراً، وهذا بخلاف الآية السابقة التى خاطبت فريقاً محدوداً وهم الذين يسجدون للشمس والقمر، وسأقت آيات الليل والنهار والشمس والقمر مساقاً لا استدلال فيه، وكأن الأمر فيه مسلم، وهى هنا تضع قدم المنكر على الطريق الواضح من أول خطوة وتقول له إنك ترى بعينك الأرض خاشعة والمراد بالخاشعة أنها قحط جدياء مهملة لا حياة فيها، وقد عبر عن هذا بالخشوع للدلالة على التظامن والتصاغر والتضاؤل الذى تجده هذه الأرض إذا انقطع عنها مدد ربها، وفى هذا إشارة خفية إلى سخافة الإنسان المستكبر وهو لئن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً، وتأمل مناسبة ذكر خشوع الأرض مع تكبر الإنسان ومع ذكر السجود وسياق السجود وهذه كلها معان أولاد أم وأب؟؟ وقارنه بآية الحج: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ [الحج: ٥] ولم يكن الخشوع هناك مناسباً لأن السياق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ والهمود هو الأشبه بأحوال الموتى الذين ينكرون بعثهم، وفى سورة يس ﴿ وَأَيُّ لُحْمٍ أُلْمِئْتَهُ ﴾ [يس: ٣٣] ولم يقل خاشعة ولا هامدة وإنما قال ﴿ أُلْمِئْتَهُ ﴾ وهذا صريح فى الدلالة على الموت لأن الخشوع والهمود وإن كان يراد بهما الموت فليست دلالتهما

صريحة عليه، وإنما أثر منا لفظ الموت -والله أعلم- لأنه أعقب هذا بذكر ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥] وهذا واضح فى الدلالة على القدرة التى أفاضت عليهم بهذه الخيرات من الأرض الميتة، ولهذا كان ذكر الميتة هنا أشبه لبيان أن هذا الذى منه تأكلون من حب وعنب وكل الثمرات إنما هو من أرض ميتة.

وقوله: ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ معطوف على قوله ترى الأرض خاشعة وداخل فى حيز ﴿ أَنْتَ تَرَى ﴾ وبهذه الجملة تضع الآية مشهداً مكان مشهد وكأنها تعرض تحت عين كل من تصح منه الرؤية صورة الأرض وهى تتعرض لمظهر من مظاهر قدرة الحى الصانع الذى لا ينزل الماء من السماء على الأرض إلا هو، ثم يحدث بهذه القدرة هذا التغيير الذى ليس إخراج حب ولا جنات ولا أعناب لأن هذا ليس مراداً وإنما المراد أنها اهتزت وربت يعنى دبّت فيها الحياة ثم ربت يعنى زادت واكتملت، وهذا هو المطلوب لأن هذا القدر هو البرهان القاطع على قدرة من أحيائها على إحياء الموتى. وليس المراد الحديث عن نعمة ليشكرها الشاكرون كما فى يس. والذى اهتز بنزول الماء هو القشرة السطحية والتى لا تتجاوز قدراً يسيراً جداً من الأرض. وإنما اهتزت بسقوط المطر الذى ينزع جلد الحصى كما قال أوس. وربت يعنى انتفخت وزادت بالنبات الذى تحرك فى جوفها، وهذا أيضاً قدر قليل جداً من زيادة الأرض. وهذان يكفيان فى بيان المقصود بخلاف ما ترى أحياناً من ذكر ﴿ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿ [النبا: ٦] أو ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِي ﴾ من فوقها ﴿ وكل هذا يذكر فى سياقه بدقة شديدة جداً وعلى قدر المقصود لا يزيد شيئاً ولا ينقص شيئاً وهذا باب فى حاجة إلى دراسة أكثر دقة وهذا باب يشغلنى جداً لأنى أريد أن أعرف لماذا حدث القرآن عن الأرض بهذه الصورة

فى سورة كذا وحدث عنها بصورة أخرى فى سورة كذا، وليست الأرض وحدها وإنما كل الموضوعات التى تنوع حديث الكتاب عنها كالسما والنجوم والقيامه والشواب والعقاب والجنة والنار، وهذا يعنى فتح باب متسع جداً للدراسات القرآنية نحن فى أشد الحاجة إليه، ولا ينهض به مبتدئ وإنما ينهض به الشيوخ الذين عاشوا يراجعون ويتدبرون، فإن كانوا قد انقطعوا من الدنيا فالواجب إغلاق هذا الباب حتى يعودوا إليها والله غالب على أمره، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ وهذه الجملة هى المقصود الاصلى فى الآية، ولذلك بنيت على القطع والاستئناف وابتدأت بتوكيد دال على العناية بالمعنى. ثم انتقل فيها الكلام من المتكلم إلى الغائب، والالتفات وإنما يكون فى المقاطع الأكثر أهمية والتي يراد اللفت إليها، ثم جاء الاستشهاد بها على وجه من الوضوح لا ينكره إلا مكابر وهو ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتِ﴾، يعنى الذى رآته عينك - والمراد كل من له عين ترى- هو أن الأرض كانت خاشعة فأنزلنا عليها الماء فاهتزت والذى فعل بها ذلك هو الذى يفعل بالموتى مثل ما فعل بالأرض. الدليل على البعث هنا دليل تراه العين ليس فيه فلسفة ولا تنطس ولا شىء من هذا، وإنما خطاب للضمير والعقل الإنسانى بصورة قريبة جداً، ثم يلاحظ أن قوله ﴿اهْتَزَّتْ﴾ كناية عن الحياة وكذلك قوله ﴿وَرَبَّتْ﴾ وإن كان فيها معنى زائد عن الحياة وهو زيادتها، فلما جاء لوضع الدليل عبر عن هذا بقوله: ﴿أَحْيَاهَا﴾ لأن هذا هو المقصود بيانه، ثم إنه ساق ذلك فى صلة الموصول للدلالة على التسليم بأنه سبحانه هو الذى أحياها وهو الذى أنزل عليها الماء، وكان العرب فى الجاهلية يقرون بأن الله هو الذى أنزل السحاب عليهم وإذا استشرفوا البرق والمطر ذكروا الراهب المتبتل. ثم زاد توكيد الخبر باللام الداخلة على خبر إن ﴿لُمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ وعدل الكلام عن الفعل فى قوله: ﴿أَحْيَاهَا﴾ إلى الاسم فى قوله ﴿لُمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ لأن الحدث الأول إحياء مشاهد معين رآه من يرى بعينه بعدما أنزل الله عليها الماء،

وذلك بخلاف لمحي الموتى فإنه وصف ثابت دائم، وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انتقال من الخاص الذي هو القدرة على إحياء الموتى إلى العام الذي هو القدرة على كل شيء، وتجد تدرجاً بالغ الدقة في الدليل الذي يبدأ برؤية مألوفة جداً وهي رؤية الأرض الخاشعة، ثم رؤية الحياة وهي تدب فيها وتتهز، ثم إحياء الموتى، ثم القدرة على كل شيء، وكل حالة تسلم إلى التي بعدها بطريقة ظاهرة جداً ليس فيها ما يحتاج إلى مراجعة تفكير وتنتهي إلى حقيقة من أعظم حقائق الإيمان، وهي أنه على كل شيء قدير، وكان الآية تأخذنا برفق شديد على مدرجة دليل ظاهر لتنتهي بنا إلى هذا الاعتقاد العظيم الذي هو قدرة الله على كل شيء.

وراجع مفصلين من مفاصل هذه الآية الأول: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتَى﴾. والثاني: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وراجع الدليل الذي أسلم إلى الأول والدليل الذي أسلم إلى الثاني وكيف كان هذا الوضوح الشديد في الدليل على أمر غيبي. الشأن فيه الخفاء.

ثم إن هذا الوجه الاستدلالي الظاهر هو الذي أسلم إلى آية الوعيد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ ومعنى يلحدون يميلون وكيف كانت كلمة يلحدون هنا واقعة موقعاً بالغ التمكن، لأن الميل والتحرير والإلحاد بعد هذا البيان للدليل وللآية لا يكون أبداً إلا سبيلاً من سبل الباطل واللجاجة في الباطل والروغان عن الحق البين الذي صار حجة كالشمس في الظهور لا تحجبها شبهة في أي جهة من جهاتها، ولا يكون رفض الانقياد لها إلا إلحاداً ظاهراً وميلاً متعمداً، وكان الآية الظاهرة والبرهان البين في الآية السابقة هو الذي أنتج كلمة ﴿يُلْحِدُونَ﴾ ووضعها في موضعها الذي تكون فيه شديدة التمكن، وكلمة ﴿آيَاتِنَا﴾ هي الأدلة التي وضعتها الجملة السابقة نصب أعين كل من يرى. ثم إن هذه الكلمة الغاضبة

﴿يَلْحَدُونَ﴾ هي أيضاً التي أنتج هذا الوعيد الذي هو أشد غضباً
﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ وكان كل كلمة تغرس بيدها الكلمة التي بعدها، ولاحظ
الإضافة في قوله ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ وما فيها من غضب ودلالة على فجور الذين
يلحدون في آيات القادر على كل شيء. وقوله: ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ وعيد
بالغ كما قلت ومهين لقوله في الفاصلة ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
وقوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ انتقال من الوعيد، بالقول إلى بيان جانب
من صورة هذا الوعيد وكأنه مثال تطبيقي على هذا الوعيد النظري، وراجع
الجملة مع وجازتها الشديدة وما وراءها من حشد هائل وحركة مفزعة مخوفة
يلقى فيها هذا الجمع العرمرم في النار، وراجع اختيار كلمة ﴿يُلْقَى﴾ وما فيها
من معنى الاستخفاف والإهانة وتذكر كلمة ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ ثم بناءها للمجهول
ليتوفر الكلام على بيان هذا الإلقاء المفرغ والطرح المهين، ثم هذا الاستفهام الذي
بدأت به الجملة ومعناه الإنكار ودخوله على الفاء الدالة على أن كلاماً آخر
مكوثاً عنه في سياق هذا الغضب، وهذه الصور المتلاحقة والتي تبعثها كلمة
﴿يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ ثم راجع كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ وما فيها من سخرية واستهانة لأنه لا
خير البتة في من يطرح في النار طرح إهانة وعذاب، ثم راجع الصورة التي
جاءت في مقابلة صورة الفرع هذه وكيف بدأت بفعل يدل على الأناة والهدوء
والروية ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا﴾ يأتي هو ولا يؤتى به ثم هذه الحال ﴿آمِنًا﴾ من فاعل
يأتي وأن هذا الكريم تراه يأتي وهو هانئ هادئ آمن في محيط هذا الفرع المتوتر،
ثم لاحظ الأفعال المضارعة في الفعلين الأساسيين المصورين لهذين النوعين
﴿يُلْقَى﴾ و﴿يَأْتِي﴾ ثم هذا الظرف ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ومعناه يوم الفرع
الأكبر، وراجع هذه الصورة الأخيرة مرة ثانية ﴿يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وتذكر
معها ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ وتذكر
أيضاً ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ثم راجع الصورتين

وضعهما فى موضع التقابل لتدرك أبعاد التصوير والوعيد والتهديد، وأن صورة الذى يأتى آتياً يوم القيامة جاءت هنا لتعين على إدراك هذه الصورة المتفجرة بالرهبة والحزن وهى ﴿يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ ثم انتقل مع انتقال الآية إلى تهديد أوسع وأشمل وإلى غضب أتم وأكمل وهو قوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وهذا راجع إلى الذين يلحدون فى آياتنا وما أعقبه من تهديد ووعيد، وهذا الأمر المراد به التهديد والآية من شواهد البلاغيين، وفيها بلغ التهديد أقصاه وكان شدة الغضب والمقت عليهم من الله دعت إلى أمرهم بأن يفعلوا ما يشاؤون ولن يكون منهم إلا ما يغضب، وذلك ليقع بهم أشد النكال والعذاب، وهذه الجملة التى بلغ فيها التهديد ذروته انتقل فيها الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وذلك ليواجهوا ويجابها بهذا التهديد فضلاً عن أن الالتفات يفيد معنى أن مضمون الجملة التى كان عندها هذا الالتفات له خصوصية وفضل عناية فى سياق الكلام، وقوله ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد آخر وفيه معنى ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وزيادة وهو أنه يراكم سبحانه أنتم وما تعملون تحت عينه سبحانه، وتقديم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبر للإشارة إلى أنه هو المقصود، وكلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من مادة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وهذه الآية من أشد آيات القرآن وإن كنت أرى فيها جانباً من أوسع جوانب الرحمة لأن شدة الوعيد تعنى شدة الردع والكف حتى لا يقع العبد فيما يفضى به إلى الهلكة، وكل هذا الذى قرأته الأجيال من يوم أن نزل واستقرؤه إلى يوم النسخ لم يقع منه شئ ولم يلق أحد فى النار بعد، وإنما هى صور تحت سمع الناس وبصرهم وهم لا يزالون فى فسحة من أمرهم، والمراجعة ممكنة والعدول عن الإلحاد فى الآية ممكن وفى الوقت متسع ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا

مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
 أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٧﴾

هذه الآيات تدور حول ثلاثة معان الأول: الذين كفروا بالذكر لما جاءهم،
 والثاني: تسليته عليه السلام وأن ما يقال له من قومه قاله أقوام الرسل
 لرسولهم، والثالث: عربية لسان القرآن، وكنت على أن أفرد كل قسم لولا
 أنني رأيت بعض علمائنا يجعل آخر جملة في القسم الثالث وهى قوله
 سبحانه ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ خير إن التى ابتدأ بها القسم الأول
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فجعل هذه الآيات جملة واحدة،
 فكرهت أن أقسم الجملة الواحدة ولو على غير الرأى المشهور.

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قريب جداً من قوله
 فى الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ حتى إن بعض أهل العلم
 بالكتاب اعتبرها بدلاً أو بياناً، وإن كانت الآية الأولى تبين وجهها من وجوه
 ضلالهم وهو الإلحاد فى آيات الله يعنى الميل المتعمد بها عن وجه الحق
 والمراوغة فى بيان وجه حقيقتها، أو أنهم ينحرفون فى تأويل آيات القرآن عن
 جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة كما هو منسوب إلى
 ابن عباس، فى بيانه لمعناها وهذا يدخل فيه تفسير الكتاب على الوجه الذى
 يرضى المضلين من الحكام الذين يريدون إبعاد الدين عن الحياة، أو يرومون من
 العلماء السكوت عن بيان حكم الله فى ضلالتهم إلى آخره، والمهم أن هذا
 هو مترع الدلالة فى آية ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أما مترع الدلالة فى آية
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهو ليس تحريف الأدلة وإنما تغطيتها وطمسها أو ستر مرائى
 العقول الدالة على الحق كما قال البقاعى. وهذا مترعها، والآيتان يرجعان إلى
 جذر واحد وهو المحادة لله والمعاندة لدينه ومحاربة رسله عليهم السلام.

وقوله سبحانه: ﴿بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المراد به الكتاب كما بينَ جل شأنه في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ والكتاب آية الله والكفر به والإلحاد في آياته بمعنى تحريفها أو طمسها أو اللغو فيها كل ذلك باب واحد، وجملة ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لما هنا حينية يعنى كفروا به حين جاءهم، والمراد أنهم من غير مراجعة ونظر في الأدلة، وإنما سارعوا بالإنكار عنادا واستكباراً، وهذه المبادرة بالكفر والإنكار هو المعنى الذى تبرزه هذه الآية وليس فى آية الذين يلحدون فى آياتنا وإن كان العملان يلتقيان عند أصل واحد وهو المعاندة والمحادثة كما قلت، ثم إن هذا التنوع فى ضروب محادثهم لله أعان على بيانه الحديث عنهم باسم الموصول، والصلة فى كل منبئة عن وجه بناء الخبر، وأكثر أهل التفسير على أن خبر إن فى هذه الآية محذوف والتقدير لخاسرون، أو هو محذوف لدلالة ما قبله عليه وما قبله هو خبر الذين يلحدون وهو ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ و﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ و﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ و﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لأن كل هذا تهديد ووعيد وهو واقع موقع خبر ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ وقد تكاثرت وتواترت وأشيع كما ترى، ثم جاءت الآية التى نحن فيها وسكتت عن هذا الخبر اعتماداً على الذى سبق، ثم زادت فى شىء أجملته الآية السابقة وهذا الشىء هو الحديث عن آيات الله التى ألحدوا فيها، وهذا مجمل فى الآية السابقة ومفصل فى الآية التى معنا ويبدأ تفصيله من قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وهذا ضرب من الإيجاز عجيب ترى فيه قبض جزء من المعنى وبسط جزء آخر، ثم يأتى الكلام الثانى وفيه بسط لما قبض الأول وقبض لما بسط، ولا أذكر أننى رأيت فى الشعر، وقد لفتنى إليه قول المفسرين إن خبر الذين كفروا محذوف لدلالة ما قبله عليه، ثم رأيتهم يعربون قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ حالاً بمعنى كفروا به، وهذه حالة، والذى قبله سكتت عن هذه الحال،

والآيات التى أُلحدوا فيها هى آيات الكتاب لأن كل آيات الله فى الكون فى السماء والأرض والجبال والبر والبحر، كل ذلك لم يكن له معرض يعرض فيه إلا الكتاب فكل الآيات راجعة إلى الكتاب، وهذا واضح.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ هذا التوكيد توكيد لإسناد الخبر إلى المبتدأ يعنى العزة إلى الكتاب والعزیز المتفرد الذى لا يغلب ولا يقهر وإنما يغلب هو ويقهر هو، وهذا تأكيد موجه للذين يلحدون فى آيات الله وأنهم لن يصلوا إلى ما يريدون، وأن الآيات التى يلحدون فيها هى الغالبة، وهى القاهرة وهى المتفردة.

وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وصف آخر للكتاب والمراد لا يأتیه الباطل من أى جهة من جهاته لا من جهة حكم من أحكامه ولا من جهة خبر من أخباره، فكل الذى فيه حق وصدق لا تتعلق بشيء منه شبهة أى شبهة، وهذا هو المعنى الأشهر لقوله ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وهذا كقولهم يأتونهم من عن أيمانهم وشمالهم يريدون من كل جهة، وهذه الجملة فيها دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الذين يلحدون فى آياته لن يصيبوا منه شيئاً، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وصف آخر للكتاب أو هو خبر لمبتدأ محذوف، ولاحظ أن الآيات من أول قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ رجعت بنا رجوعاً ظاهراً إلى قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وكل هذا القسم الذى نحن فيه راجع إلى هذا، وسوف نجد ذلك ظاهراً فى قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وهذا عود صريح إلى المطلع، والكلمات تتكرر مثل كلمة ﴿تَنْزِيلٌ﴾ و﴿عَرَبِيًّا﴾ و﴿فُصِّلَتْ﴾ إلى آخره وهذا ظاهر، والمهم فقه الطريقة البيانية التى قام عليها عمود السورة، وقوله: ﴿مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ يعنى أنه نزله سبحانه بحكمة وما كان من لدن حكيم، فليس فيه مدخل لباطل ولا يأتیه

باطل ولا يقدر فيه إلحاد ملحد وإبطال مبطل. والحميد هو الذى يحمده خلقه على نعمه التى لا تحصى، وأجلها وأعلاها نعمة تنزيل الكتاب، وموقعه هنا للإشارة إلى أن الذين يلحدون فى الكتاب ويكفرون بالكتاب قابلوا النعمة الموجبة للحمد والثناء بالكفر والإلحاد، وفيه لوم خفى وتشهير خفى وأن الأمر تجاوز فساد العقائد إلى فساد الطباع والكفر بموجب الحمد، وقد جاء هنا قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وفى الشعراء ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] وفى طه ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٤، ٥] وفى أول السورة ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وكل هذا له مقامات تقتضيه، والكلام الموجز فيها سهل. والكشف عن حقيقتها يحتاج إلى مزيد من المراجعة، وهذا باب من أبواب فقه البيان القرآنى لم نشبعه، وقد حاولت فى الآية أن أذكر مطابقة قوله من حكيم حميد لسياق الآية، ولا يصح بعد ذكر الذين يلحدون فى الكتاب والذين يكفرون بالكتاب أن نقول تنزيل من الرحمن الرحيم، ولا تنزيل من رب العالمين، ولا تنزيل ممن خلق الأرض والسماوات العلا، وإنما نقول تنزيل من حكيم حميد، وحكيم يرجع للذين يلحدون وحميد ترجع للذين يكفرون وهذا ظاهر.

وقوله جل شأنه: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّنَا لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الحديث عن الكتاب من أول قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ إلى قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ كان هذا الحديث هو الذى غرس هذه الآية هنا، لأن هذه الأوصاف العالية للكتاب الذى نزله الله على رسوله ﷺ توجب القبول، والألّا تكون هناك لاجابة وألّا يكون هناك لغو فيه وألّا يقولوا ﴿قُلُوبُنَا

فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴿١٠﴾ وخصوصاً أنهم قوم يعلمون وأنه نزل
بلسانهم، جاءت هذه الآية لتبين أن كل آيات الأنبياء من حكيم حميد وأنها
كلها بينات وأنها كلها توجب الإذعان والقبول، ومع ذلك كان من أمم الأنبياء
ما هو كائن من أمتك، وأن ما يقال لك قد قيل لهم، وهذه تسلية لرسول الله
ﷺ وتسلية لحملة البلاغ من بعده، وأن يعلموا أن إظهار الحق البين لا يعنى
الإذعان له، وأهل الباطل يعرفون أنه حق كما يعرفون أبناءهم ولا يهتدى
إلا أقل القليل. وقوله ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ المراد ما قيل وما يقال وما سيقال،
وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام شديد الاختصار لأن هذه
الجملة طوت واختصرت حركات إلحادية ضالة في تاريخ الناس من يوم أن
بعث الله فيهم أنبياءه، وأشارت إلى شيء مهم جداً وهو أن كلام الضلال من
بدء التاريخ إلى يوم الناس هذا كلام بعضه من بعض وهو متشابه جداً، وقد
اهتمت هذه الجملة بهذا التشابه حتى إنها بالغت فى التشابه وجعلت الذى قيل
له هو ما قيل للرسل. وسأقت ذلك على سبيل الحصر وأكدت بحرف
التحقيق «قد» مع أن الذى قيل له عليه السلام مثل الذى قيل للرسل. من قبله
وليس هو لأنه يستحيل أن يكون الذى قيل له هو ذاته ما قيل للرسل، لأن
لكل رسول قوماً قالوا له بلغتهم وبطريقتهم، وقد حكى القرآن ما قالته عاد
وهو غير الذى قالته ثمود وهو غير الذى قاله أصحاب الأيكة وأصحاب
الحجر إلى آخره، وإنما المقصود هو توارث أصول منهج الإلحاد وتوارث سبل
الطعن وتشابه كل ذلك، ومثله ما يقال اليوم فى الطعن فى دين الله. وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

مجىء جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ بعد جملة ما ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ
قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يحتاج إلى فضل بيان، لأن جملة ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ
قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعنى الدلالة عن غاية الضلال وغاية العناد وغاية
التحدى وأن كل ذلك من الباطل العريق فى الأمم ومن الفجور المتأصل

والمتجذّر في تاريخ أهل الضلالة، وهذا يناسبه ﴿ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإنما قدم قوله: ﴿ذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأمر آخر هو أن الربط المؤكد بين ما يقال له عليه السلام من قومه وما قالته الأمم البائدة لرسلمهم عليهم السلام وإن كان جرى به على سبيل التسلية والتصبر، فإنه من وجه آخر يومئ إلى أنه يمكن أن يقع بقومه ما وقع بهذه الأمم من عذاب الاستئصال وهو عليه السلام شديد الحرص على قومه وشديد الحب لهم، وكان إذا اشتد أذاهم له عليه السلام قال «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وقد قال الحق جل شأنه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وكل هذا دعا إلى المبادرة بذكر المغفرة لتذهب الآيات ما عساه يوحشه عليه السلام من وقوع العذاب بقومه، وقد أشار البقاعي إلى هذا وذكر أن الله سبحانه: (سكّن روعه صلوات الله وسلامه عليه بالإعلام بأن رحمته سبقت غضبه» وبهذا يتضح أن جملة ما يقال لك اقتضت جملة وإن ربك لذو مغفرة وأنها من تمام معناه، ثم يلاحظ أن هذه الجملة ابتدأت بالتوكيد الدال على مزيد العناية بمعناها وبما في بنائها من خصوصيات، ثم جرى بلفظ ربك الدال على مزيد العناية والرعاية والرفق بك، وفي هذا اللفظ الكثير من معاني الرحمة والخير للعباد، وقد دل على ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] وراجع هذه الجملة لترى فيها فيض العطاء وفيض القدرة وفيض الرحمة، وحسب سبحانه علما واقتدارا وكرما أنه أعطى كل شيء خلقه؛ ثم حسبه رحمة وبراً أنه ﴿هُدَى﴾ أقول: إن لفظ (ربك) فيه تسكين لروعه كما قال البقاعي. وإضافة هذه الكلمة الرفيعة العالية إلى ضمير المخاطب عليه السلام وهو سبحانه رب كل شيء فيه إشارة إلى خصوصيته ﷺ في مقام المغفرة، وهذا تسكين آخر، ثم إن قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ بعد ذكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يفيد شيئاً آخر وهو أنه سبحانه يغفر لمن ألد ومن كفر إذا رجعوا عن باطلهم، وقد كان ذلك لقومه عليه السلام إلا من سبق

عليه الكتاب ومات على كفره، رجع أبو سفيان ورجع خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وحكيم بن حزام وغيرهم ممن لا حصر لهم، وكل هؤلاء كفروا بالذكر، وكل هؤلاء ألدوا في آيات الله، وكل هؤلاء دخلوا في مغفرة الله. وكل هؤلاء كانوا أنهار خير في هذه الأمة.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذه الآية تتصل بما قبلها اتصالاً ظاهراً، فهي متصلة اتصالاً ظاهراً بقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني يلحدون فيها وهي بلسانهم وهم أعلم به ومتصلة بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ومتصلة اتصالاً أظهر بقوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ ووقوع قوله سبحانه ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بينها وبين ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ لبيان أن ما تسمعه من قولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ﴾ ليس هذا لنقص الأدلة وإنما هو العناد الذي كان عليه من قبلهم، والكلام متواصل من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ إلى هذه الآية.

ووجه آخر من وجوه الاتصال ليس بالآيات قبلها وإنما بالآيات التي هي رأس السورة وأظهرها قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وقد تفرع عن هذه الآية الأم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ﴾ ثم مضى الكلام يستوفى آثار هذه المقالة، ثم رجع الكلام إلى الكتاب الذي فصلت آياته قرآناً عربياً وهذا من الشوايك التي لا تراها في غير القرآن، ترى الكلام يطول ويمتد ويشعب بابا من أبواب المعنى ثم يعود إلى الأصل الذي بدأ منه هذا الباب ويستل منه خيطاً آخر، على الوجه الذي تراه هنا، وقد تكررت كلمات ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، في الآية الأم وفي هذه الآية كما تكررت كلمة فصلت، والكلمات أو الصيغ حين تتكرر يكون هذا التكرار إيذاناً بإشخاص صورة المعنى الأول أو إشخاص طيفٍ من أطيافه.

وهذه الآية بمثابة تعليل وتفسير لقوله هناك ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وهذا إجمال والذي هنا بيان لسر مجيئه قرآنا عربياً، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ والمعنى والله أعلم أننا أنزلناه قرآنا عربياً فقالوا قلوبنا فى أكنة، ثم بين الحق أن هذا من العناد وليس من نقص الأدلة كما قلت، ثم استوفى هنا هذا المعنى وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ لما آمنوا لأن المسألة مسألة إصرار على الضلال، ولكنهم فى هذه الحالة سيجدون سبباً لعنادهم ويقولون كيف يكون أعجمياً والرسول عربى ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقد فصلناه فقالوا قلوبنا فى أكنة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، وهم فى كل حال سيرفضون، وقد فصلناه ونزلناه عربياً ليكون رفضهم ظاهراً فى تعنته وعناده، ولو التى فى قوله ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ وهى لو التى تفيد امتناع شرطها لامتناع جوابها يعنى لم يجدوا لهم حجة ولم يقولوا لولا فصلت آياته لأننا لم نجعله أعجمياً، وكلمة ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ تعنى أن الأصل أنه عربى لأن الجعل تصيير الشئ من حال إلى حال، وليس كقولنا ولو أنزلناه، وقوله ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ يعنى بينت وأعربت، وقوله ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الهمزة فيه للإنكار والمراد إنكار المخالفة بين الكتاب المنزل ولغة الرسول الذى أنزل عليه، وهذا بيان للحكمة فى قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد قرئ بدون الهمزة وقرئ بتسهيل الهمزة الثانية، وجملة ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ تأكيد لمعنى ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ لأن إنكار عجمته تأكيد لمعنى تفصيله، وفحوى هذه الجملة أنهم لا ينكرون عربى وعربى. مع أنهم أنكروا الكتاب نفسه وهو عربى بلسانهم، وقوله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ كلمة ﴿قُلْ﴾ ترجع بنا إلى رأس السورة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ﴿قُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ وأمثال هذه الكلمات التى تكرر تشد بعض أجزاء الكلام ببعض

وتشد روابطه وتجعله ممسكاً ببعضه ببعض، وكما عادت آية ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
أَعْجَمِيًّا﴾ إلى أصل السورة كذلك رشحت هذه الكلمة هذه العودة، وقوله
﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى هو بهذه الأوصاف التى هو عليها مفصلاً بلسان
عربى مبين، وكما أنزله الله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ والمراد بالذين آمنوا،
الصائرون إلى الإيمان لأن القرآن هو الذى أخرجهم من الكفر إلى الإيمان،
وهذا كالذى فى قوله سبحانه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أى الذين انقادوا
للحق بعد ما تبين، والانقياد للحق بعد ما يتبين شرط أساسى للانتفاع
بالكتاب وبغير الكتاب من كل قول أو فعل يدعو إلى الرشد وهو شأن الفطرة
المبرأة من السوء، وهذا الكتاب حفظ لهذه الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾
[الروم: ٣٠] وإنما عبر بالماضى فى قوله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن من كان مبرأ من
الضلال والعناد كان إيمانه بالحق بعد ما يتبين أمراً مقطوعاً به، ويصير هذا
الكتاب هدى له، وكلمة هدى كلمة جامعة لكل خصال الخير من الصدق
والبر والوفاء والأمانة والبعد عن الكذب والتدليس والغش والتفاق والباطل
وكل الضلالات، وكذلك هى جامعة لكل أعمال الخير من الصلاح وأداء حق
الله وحقوق الناس والطهارة والعفة وكل ما تصلح به حياة الناس وتعمر به
الأرض عمارة بر ومرحمة وليست عمارة سيطرة وغطرسة ونهب، وقوله
﴿شِفَاءً﴾ كلمة تتولج إلى باطن نفوس هؤلاء المبرئين وتفيد صحتها وسلامتها
من أمراض القلوب، وهذا هو النموذج الإنسانى الأرقى والأعلى الذى هو
الغاية التى يتوخاها أهل الخير والحكمة والسداد على هذه الأرض، ثم قابلت
الآية الذين يذعنون للحق بالذين لا يذعنون، وهم الذين لا يؤمنون وهم
الرافضون للحق بعد ما يتبين وهم الذين قالوا لما سمعوا تنزيل الرحمن
الرحيم وقد فصلت آياته قرآناً عربياً يعنى بلسانهم وهم قوم يعلمون، قالوا

بعدها سمعوا هذا ﴿ قُلُوبَنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ وهذه الآية رجوع ظاهر إلى هؤلاء وقد بينت شيئاً لم تبينه الآيات السابقة، لأنهم قالوا هناك ﴿ قُلُوبَنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ والآية هنا تقول إن الهدى الذى أنزله الله بلسانهم وهم يعلمون كان وقرأ فى آذانهم، وفى هذا إشارة إلى أن أهل الباطل الذين ألقوا الضلال يزيدهم صوت الحق ضللاً، فإذا كانت آيات الله تزيد الذين اهتدوا هدى فإنها تزيد أهل الباطل رجسا إلى رجسهم ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَادَتُهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وراجع الآية مرة ثانية ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ يعنى هو هدى وليس هادياً فحسب وهو شفاء وليس شافياً فحسب، والذين يقرؤون الكتاب ويرون شيئاً من نوره تتأكد هذه الحقيقة فى نفوسهم، ولا يرون فيه شيئاً يحول بين الناس كل الناس والإيمان به، ويرون فيه الخير كله وما ترك باباً من أبواب الخير إلا حث عليه ولا ترك باباً من أبواب الشر إلا صرف عنه.

وقد قابل تأكيد الهدى والشفاء فى جانب الذين آمنوا تأكيد الضلالة فى الجانب الآخر فجعله وقرا فى آذان الفريق الآخر، ثم جعله عليهم عمى. وراجع جملة ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ترى فيها عدولاً عن الطريقة الأولى ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ وكان يمكن أن يقال وفى عيونهم عمى كما قال سبحانه ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧] وإنما بنى الجملة على إعادة الضمير ﴿ وَهُوَ ﴾ أى القرآن، ثم أخبر عنه بأنه عمى والقرآن هدى ونور وشفاء ويدعو إلى التى هى أحسن ويدعو إلى دار السلام، وقد أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، يعنى من الكفر إلى الإيمان، ثم هو على هذه الطائفة عمى بهذا التوكيد، ثم إن كلمة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بحرف الاستعلاء وتقديمه على متعلقه الذى هو الخبر كل ذلك يفيد أنه عمى مستعمل عليهم، بل إن استعلاءه عليهم مقدم

على عمى ليؤكد هذا المعنى. وأن هذا النمط الضال المبطل نصيبه من الهدى والنور هو هذا الذى وصفته الجملة، وكل ذلك توكيد لمعنى فساد هذا الصنف وأنه متأصل فى الضلال والبعد عن الخير، والبعد عن الصلاح، وهو الذى ترى أهل الباطل حولك عليه، فإذا قرأت عذابهم، وأن لهم فيها دار الخلد، وأنه قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم وغير ذلك من صور أهل النار فلا ترق لهم، لأن رذيلة عناد الحق وإنكاره واللجاجة فى إنكاره وأن أدلته البينات وآياته الساطعات كلما عرضت عليهم ونوقشوا فيها زادوا رجساً وضلالاً وكفراً، وفى الجملة أكثر من هذا وحسبى ما قلته.

وقوله جل شأنه ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ جملة مستأنفة قطع بها الكلام، وابتدئت باسم الإشارة الراجع إلى هذه الأوصاف الخبيثة والتي تأصلت فيهم، والتي أبعدها بها فى غيابات الضلال لأنه ليس هناك فى الخبث أبعد ولا أشنع من أن يكون الهدى عليهم سمي، وأن يكون فى آذانهم وقر من أحسن الحديث ﴿مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] اسم الإشارة مشعر باستحضار ذلك وتمييزه وبعده فى الفساد والضلال وإبعاده، ثم يأتى الخبر ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ واسم الإشارة الجامع لما ذكرنا يفيد أنه جدير بما يأتى بعده كما هى القاعدة فى هذا التعريف، وهذا يعنى أن هذا الخبر فيه من الوعيد والتهديد ما يتلاءم مع هذا الجرم الشنيع الذى صاروا به على حاله، يزيدهم الهدى ضلالاً حتى إنهم فى آذانهم منه وقر وهدهاء عليهم عمى. وهذا التهديد الشديد غير ظاهر فى المعنى الحقيقى لجملة ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لأنها وإن كانت إبعاداً فليس هذا مما يصح أن يكون متناسباً مع الشناعات السابقة، ولهذا اختلفت أقوال المفسرين فى تأويل هذه الجملة وبيان المراد بمجازها، فقال الزمخشري: إن معناها أنهم لا يقبلونه ولا يوعونه أسمعهم فمثلهم فى ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء، وروى عن ابن عباس: يريد مثل

البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء، وقال الرازي: من دعى من مكان بعيد لم يسمع وإن سمع لم يفهم فكذلك حال هؤلاء، وقال الطاهر: هو تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من ينادى من مكان بعيد لا يبلغ إليه في مثله صوت المنادى، وكل هذا الكلام بعضه من بعض، وأصله أن الذى ينادى من مكان بعيد لا يسمع، وكذلك هؤلاء، ويكون معنى الآية أولئك أعنى أصحاب هذه الخبائث التي لا أحبث منها لا يسمعون نداء الحق، ولا داعى الله، وهذا وإن كان لفظ الآية لا ينكره فإننى أرى فيه شيئاً من وجه آخر وهو أنهم وصفوا بأن فى آذانهم وقر وأن القرآن العظيم صار وقرا فى آذانهم، والذى فى أذنه وقر لا يسمع نودى من قريب أو من بعيد، فإذا جاء الخبر بعد القطع والاستئناف والاحتشاد للمعنى والمجئ باسم الإشارة الجامع والملخص لما مضى. وقلنا إنهم مثل الذى ينادى من مكان بعيد فلا يسمع، نكون قد حملنا الكلام على وجه يضعف به، لأن الوقر فى الآذان أشد من هذا. وقد جرت عادة الكتاب العزيز أنه فى مثل هذا المقام ينتقل من القوى إلى الأقوى كما فى قوله سبحانه ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧] فالذى كان لم يسمعها أكد من الذى ولى والذى فى أذنيه وقر أكد من الذى كان لم يسمعها، فإذا جننا هنا وقلنا فى أذنيه وقر وينادى من مكان بعيد، وأنه يسمع دعاء ونداء أو يسمع ولكنه لا يفهم، يكون الكلام قد انحلت عقدته وانتقل من القوة إلى الضعف، وقد وقفت كثيراً أمام هذه الآية وقصارى الذى وجدته أن يكون قوله تعالى ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ليس المقصود به سماعهم دعاء ونداء أو عدم سماعهم، لأن هذا مدلول عليه بقوله فى ﴿آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وإنما المراد به والله أعلم إبعادهم وهلاكهم كما قال سبحانه ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] وقال سبحانه ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ونداء البعيد يكون مجازاً عن نداء الميت، وعلى هذا يكون الخبر عن اسم الإشارة

دعاء عليهم بالهلاك والاستئصال، وهذا هو الأشبه بأصحاب هذه الخلال التي سبقت اسم الإشارة، ثم إن في هذا التعبير إشارة أخرى وهي الحث على البعد عنهم وعدم مخالطتهم ومجالستهم، لأننا أمرنا أن نجالس الجليس الصالح وأن نباعد جليس السوء، وليس أسوأ ممن يصير الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقرا في أذنيه، ثم يكون هذا المعنى الذي هو مباحثتهم حتى لا تقع الطباع على الطباع فتفسد بفسادها أصلاً في حياة المجتمع الذي يحرص على إعلاء قيمة الإذعان للحق والانقياد له، وقبل ذلك يبحث عن وجه الصواب والصلاح في شئونه كلها، فإذا تبين الصواب وقوى برهانه فلا يجوز لأحد أن يروغ منه أو يجادل فيه، وهذا شامل لضروب الحياة كلها، وأصلها الدين، ثم يكون في سياسة الجماعة وفي حياتها العلمية والاقتصادية الأصل هو البحث الدؤوب عن الصواب في كل ذلك، ثم يتبعه التمسك الصارم بما قوى برهانه واستقام دليله، وهذا يغسل أضراراً كثيرة تهلك بها المجتمعات كما هو الحال عندنا، تزييف وتلبس وتدليس من الرأس إلى القدم، الآية تقول إن هذه الجماعة الراضية للبرهان والتي يكون الحق وقرأ في أذانها وعمى عليها لا يجوز أن يكون لها تأثير في حياة الجماعة، فلا تتولى أمراً وإن صغر، الواجب أن يسعدوا وإنما يكون أمر الناس في أيدي الصادقين الذين يكون لهم الحق هدى وشفاء، وأي نظام سياسى يستعين بغير المدعنين للحق والعدل يجب الوقوف في وجهه حتى تبقى الأمة قوية بالصدق وقوية بالحق ولا تضعف بأهل الباطل وأهل النفاق وأهل الموالاته والباحثين عن مصالحهم، وكل هذا قريب جداً من هذه الجملة العظيمة ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وكأنهم هناك في معزل عن مسيرة الأمة التي يجب أن يكون أمرها في أيدي الصالحين وليس في أيدي المبطلين. كن على أى مذهب شئت ولكن لا يجوز لك أن تروغ عن الحق بعدما يتبين، والقضية ليست قضية الإيمان والكفر وإن كان هذا من أجل وأعظم قضاياها، وإنما هي قضية الصدق والأهلية للبحث عن الصواب ثم التمسك الشديد به.

ولما كان وجود هذا الصنف في حياة الناس أمراً مقلقاً وباعثاً على الأسى
 نبهت الآيات التي بعده إلى أن هذا لم يكن في أمتك وحدها، وأن إنكار
 الحق ومعاندته هو من شأن أُمم الأنبياء جميعاً، فأشارت إلى موسى عليه
 السلام الذي واجه الإنكار من جهتين الجهة الأولى من فرعون وملكه والجهة
 الثانية من قومه الذين أراهم الله آياته، ثم رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم
 فقالوا لموسى عليه السلام ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]،
 فقال سبحانه واصفاً اختلافهم في الحق واللجاجة في الباطل. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا
 مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ
 مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

وهذه الآية من تمام الكلام قبلها لأن كتاب موسى عليه السلام يقابله الذكر
 الذي هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل والذي هو هدى وشفاء، وأن الذين
 اختلفوا فيه يقابل الذين يلحدون في آياتنا، والذين كفروا بالذكر لما جاءهم
 والذين في آذانهم قر وهو عليهم عمى، وكأن الآية الكريمة تضرب للرسول
 الكريم مثلاً بكليم الله صلوات الله وسلامه عليه وهو من أولى العزم من
 الرسل، والتوراة من أجمع الكتب وأشملها وأعظمها، ثم إن هذه الآية كأنها
 شرح وبيان لقوله سبحانه ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وأن
 قومه عليه السلام لما أعرض أكثرهم عن كتاب هو تنزيل من الرحمن الرحيم
 وفصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، أقول لما أعرضوا عن كتاب هذا وصفه
 لم يكونوا بدعا من الأقوام فمن قبلهم أعرضت الأمم وقد سبق أن ضرب لهم
 مثلاً بعد وثمود وهما من أقدم أمم الأرض ومن أقواها، ولم يذكر القرآن لهم
 كتاباً كالتوراة، وكانت عاد من أعظم الأمم أحلاماً، وقد ظل العرب إلى زمن
 المبعث وبعد زمن المبعث يضربون المثل بأحلام عاد، ومن آياتهم لقمان عليه
 السلام ومع ذلك قالوا لهود عليه السلام ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا

بِسُوءٍ ﴿ [هود: ٥٤] كل هذا كان من الأهم قبل أمتك، ثم الآية هنا تؤمى إيماء مختصر جداً إلى موسى عليه السلام، ولم يكن أصل المعنى هو ذكر القوم كما قال هناك ﴿ إِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وإنما أصل المعنى هنا هو ذكر الكتاب ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [هود: ١١٠] ولذلك كانت هذه الآية أكثر روما ورجوعاً إلى رأس السورة، وكان رجوع العجز فيها إلى الصدر أظهر، ثم إن التنويه بكتاب موسى الذى اختلف فيه ظاهر جداً فى الآية، وراجع المبنى ودقائقه لتدرك المعنى ورقائقه، اللام فى قوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ﴾ تفيد التوكيد، وكلمة قد تفيد التوكيد والواو معناها الاستئناف والاستئناف من دلالاته الإشارة إلى الحفاوة بالكلام الجديد، ثم إن إسناد الإتيان إلى ضمير العظمة فيه تنويه بمنزلة الكتاب لأن الذى آتاه الكتاب هو العزيز الغالب القاهر الباسط، ثم تعريف الكتاب بلام التعريف الدالة على الكمال، وأن كل ما به يكون الكتاب كتاباً تاماً كاملاً صادقاً نافعاً كل ذلك توفر فى التوراة حتى صح أن تسمى الكتاب، وحتى يكون لفظ الكتاب إذا أطلق لم ينصرف إلا إليها، وأنها هى لا غيرها كتاب زمانها ومع هذا كله جاءت الفاء فى الجملة الثانية، وقال سبحانه ﴿ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ وهذه الفاء هى رأس المعنى فى الآية لأنها تعنى أنهم اختلفوا فيه وهو على هذه الأوصاف من الكمال والذى أومأت إليه الجملة السابقة، وذلك بدون ريث ولا إبطاء ولم يعطوا أنفسهم وقتاً لمراجعته حتى يكون رفضهم عن بيته، وكان السرعة فى الاختلاف فور إتيان الله لهم الكتاب تكاد تكون هى السرعة فى الإعراض الذى فى قوله سبحانه ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾، والفاء هنا هى الفاء التى هناك والموقف المعاند المعارض غير المتأنى هو هو والكتاب الذى كان إتيانه من المتكلم الخالق البارئ هو الكتاب الذى كان تنزيله من الرحمن الرحيم، وإنما أوتر ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى فصلت لأنها تخاطب من أنزل الله عليهم الكتاب وتدعوهم إلى دار السلام وتحذرهم من دار الخلد فى الجحيم،

وأثر ضمير العظمة مع موسى عليه السلام لأن العقاب قد تم وأنزله الله بمن
أعرضوا عن موسى وغشيتهم من اليم ما غشيتهم وأصل فرعون قومه
وما هدى، ثم إن البناء للمجهول في قوله ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ تدل على العناية
بالاختلاف وليس بالذين كان منهم الاختلاف، يعنى أضمر الفاعل، لينصرف
المعنى إلى إظهار الفعل وإبرازه الذى هو الاختلاف والمقابل لقوله ﴿فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ﴾ وبهذا ينتهى الكلام عن موسى وقومه وكتابه فى هاتين الجملتين
المختصرتين جداً ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ وعاد الكلام إلى
ما كان عليه وقال جل شأنه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ والمراد تأجيل
العقوبة إلى يوم القيامة كما فى قوله تعالى ﴿بَلِ السَّاعَةَ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةَ أَذْهَبُ
وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦] وفى هذه الجملة غضب كثير ووعيد وتهديد وأنه
لا يؤجل العقاب العاجل الصارم الذى هم جديرون به إلا هذا الوعد السابق،
ولولاه لأنزلنا بهم من العقاب ما هو أشبه بهم، وكلمة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، فيها
تقريب له عليه السلام ومزيد تسلية ومزيد تصبر وأن أعداءك هم منا بمنزلة ما
تسمع، ولولا سبق الوعد لأنزلنا بهم ما هم أهل له، وأنت منا بالمنزلة التى
تدل عليها هذه الإضافة التى تضيفك إلى ربك الذى خلقك ورزقك وكرمك
بالرسالة وأنزل عليك الكتاب الذى هو نور وبرهان، وهذه الإضافة هنا تقوى
وتؤكد أن الكلام عن موسى عليه السلام انتهى عند قوله ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ وأن
قوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ رجع إلى ما كان قبله
من قوله ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وبعض المفسرين جعل هذا من تمام
الكلام فى موسى وقومه، والأكثر على خلافه، وراجع الجملتين اللتين
اخترقنا السياق وأوجزنا نزول الكتاب الذى هو نور على نبي الله موسى
وما كان من أمر قومه فيه، كل ذلك فى كلمات بالغة الإيجاز وراجعها وتأملها
وتذكر أنها اختصرت ما جاء فى غافر اختصاراً شديداً جداً، وأن الاختلاف

المذكور فى غافر لم يتناول السحرة ولا سجودهم ولا شيئاً من ذلك، وإنما ذكر كلام الملائكة من قوم فرعون لما جاءهم الحق وقالوا ﴿ أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وقال فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ وقال رجل واحد من آل فرعون ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ وهو واحد وهم الأكثر، وهذا أشبه بالذين أعرضوا فى فُصِّلَتْ وهم الأكثر، وهكذا نجد أمثال هذه الروابط التى بين غافر وفصلت .

ولولا فى قوله سبحانه ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هى لولا التى معناها امتناع جوابها لوجود شرطها مثل لولا زيد لهلك عمرو، وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف وجوباً والتقدير لولا زيد موجود لهلك عمرو، ولا يقولون موجود أبداً، وقلت: إنها راجعة إلى الذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى لأنهم هم المقصودون بهذا التهديد، وقلت أيضاً: إن الجملتين المختصرتين المضيئتين واقعتان موقع الاعتراض للمسارعة بتسليته عليه السلام، وكلمة سبقت تستأثر بكثير من معنى التهديد والوعيد، وأنها هى الحاجز والمانع والمؤجل لوقوع العذاب بهم، ولولاها لأوقع الله بهم أشد النكال، وفى هذا مزيد من الغضب، ولو وقعت هذه فى كلام الناس لأشارت إلى أن قائلها كأنه يتندم لأنه سبق منه الوعد بتأجيل العقوبة، ولولا أنه لا يخلف وعده لنكل بهم والله المثل الأعلى. وإنما خاطب خلقه سبحانه بما يخاطبون به أنفسهم وأجرى كلامه معهم على أسلوب جريان كلامهم بعضهم مع بعض. وكل هذا بيان لمزيد الغضب، والبناء للمجهول فى قوله ﴿ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ لبيان معنى العناية بالقضاء الذى فيه الوقوع بهم، ولتوفر العناية عليه، والقضاء لا يكون إلا من الله لأنه هو الذى يقضى بالحق، ثم إن إشار كلمة ﴿ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ فيها معنى آخر وهو أنهم مع سوء ما ارتكبوا وفضاعة وفضاظة ما كان منهم لن يظلموا شيئاً أى شىء، وإنما يقع بهم ما يقع جزاء عدلاً وقضاء حقاً لأن من عمل سيئة لا يجزى إلا مثلها وهذا وعده سبحانه .

وقوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ والواو لا تخلو من إشارة غامضة إلى معنى الاستئناف يستوى في ذلك الواو العاطفة وواو الحال، وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد القاهر، والمعنى الذى أعنيه بالإشارة الغامضة هنا هو الحفاوة بالمعنى الذى دخلت عليه الواو وأنه جدير أن يفتح بهذه الواو التى يفتح بها الكلام المستأنف، وقلت هذا لأن هذه الجملة بمثابة فاصلة للآيات المبينة لعنادهم وتحديهم للكتاب، وسواء نظرت إليها من أول السورة من قوله ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أو نظرت إليها من قوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أو استحضرت ذلك كله بما فى ذلك ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فإنك واجد هذه الآية جامعة لهذا النموذج الخبيث السيئ، وتبين لنا علة تحديهم وعلة رفضهم وعلة المسارعة بهذا التحدى وهذا الرفض. وأن مرجع ذلك إلى أنهم فى شك منه مرعب، ثم إن مراجعته مبنى الآية يدل على المقصود الأهم منها وأول ذلك التوكيد بأن واللام، وهذا التوكيد ينبئنا بعناية الكلام العالى بمعنى هذه الجملة، وأنها بمكان من الغرض الذى سيق له الكلام، ثم حرف الظرف فى قوله ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ ودلالته على أنهم مغموسون فى الشك غارقون فيه وهو محيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف، ثم وهو الأهم وصف الشك الذى هم غاطسون فيه بأنه ﴿مُرِيبٌ﴾ ومرعب اسم فاعل من أرابه إذا جعله فى ريب والريب الشك، والريب الذى أرابهم ليس مصدره الكتاب والشك الذى هم مغموسون فيه لا يرجع إلى شىء فى الكتاب وإنما يرجع إلى رفضهم البرهان الساطع والنور المبين، وأنهم أعرضوا وقالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ وهذا ظاهر فى أنهم لم يقفوا على شىء مما دعاهم عليه السلام إليه ومع كل هذا الرفض وهذا الانصراف وهذا التمرد على السماع

والرفض للنظر والتدبر هاجمهم الشك وأحاط بهم، ثم لم يكن الأمر فقط أنهم في شك وإنما وصف الشك الذى هم فيه بأنه مريب أى شاك، كما يقال جد جده وشعر شاعر وهذا ظاهر، وقد قال علماؤنا إن وصف الشك بأنه مريب يعنى شاك هو من قولهم ليل أليل ويوم أيوم، فقد اشتقوا أليل من الليل وأيوم من اليوم ليؤكدوا معنى الليل واليوم، وكان لفظ الليل يجسد المعانى التى يكون بها الليل ليلاً من ظلمة ووحشة إلى آخره، فإذا اشتقتنا منه لفظاً كان هذا زيادة فى هذا المعنى، وكذلك يقال فى اليوم وكذلك يقال فى الشك المريب، وليس المعنى أن شكهم فيه شك لأن هذا يضعف الشك، وإنما المعنى أنه شك تكتمل فيه المعانى التى يكون بها الشك شكاً، وأنه لن يخرج من هذا السيم المتلاطم بمعانى الشك إلا من عصم ربك، كما خرج خالد سيف الله المسلول وكما خرج عمرو بن العاص رضى الله عنهم أجمعين. هذا والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ هذه الآية مرتبطة ارتباطاً ظاهراً بقوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأن أصل القضاء الإلهى العادل هو ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ثم إن قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ فاصلة جامعة لهذا النموذج الراض والتمحدى والمصر على الكفر والعناد، وهذه الآية فاصلة جامعة للفريقين الفريق الذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ والفريق الذين قالوا ﴿رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وقد انتقل فيها الكلام من الحديث عن الجماعة إلى الحديث عن الفرد للإشارة إلى أن الحساب والثواب والعقاب مسئولية فردية، ويجب أن يتنبه المساقون وراء غيرهم من الذين استكبروا إلى أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، وأن هذا الفريق المستضعف يجب أن يخلع نفسه من التبعية والغوغائية التى يظاهر بها الذين استكبروا، ويعينهم على التمكن والسيطرة والغطرسة، يعنى الآية تشير إلى وجوب تصفية القطيع الذى

يسوقه أصحاب الأهواء ويكثرون به سوادهم هذه واحدة، والثانية هي أنه يجب على كل فرد أن يرى بعينه لا بعين غيره وأن يفكر بعقله لا بعقل غيره، وأن يتقاد لما يراه وليس للذى يراه غيره، وهذا هو الإنسان السوى الذى تخاطبه الآية بلغة المفرد والذى يتكون منه المجتمع الأرقى والأفضل. والآية تحذر الناس الذين تراهم حولك كأسراب الطير ينبع بعضها بعضاً ويقودها طائر واحد يتقدمها، وربما كان أخبثها وتقول لهم إن حياة الإنسان الذى يحاسب ويثاب ويعاقب تختلف عن حياة القطعان سواء كانت أسراب طير أو أسراب نعاج أو قطعان غنم يقودها كبش جاهل، ثم إن الآية الكريمة تتحدث عن المجازاة وتتجاوز الحديث عن البعث مع أن الذين أعرضوا وهم الأكثر ينكرون البعث ويقولون ﴿أَنذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَتِنَا لَمُبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٩٨] وقد لحظت السورة هذا وأقامت البرهان على البعث وضربت له المثل بالأرض الخاشعة التى أنزل الله عليها الماء فاهترت وربت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أقول تجاوزت الآية أمر البعث وتكلمت عن الذى بعده، وكان أمر مفروغ منه لأن أنكارهم له كلا إنكار لسطوع براهينه، ثم إن الآية بنيت على الفعل الماضى عمل صالحاً- وأساء وكان كل شىء قد انتهى ومضى زمن التكليف وعمل صالحاً من عمل وأساء من أساء، وكأنها تطوى فى صياغتها ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ ٥٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿٥٦﴾، وقد جاء هذا المعنى فى صيغة المضارع فى قوله سبحانه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧، ٨] ولكل مقامه، والمقصود فى آية الزلزلة ليس بيان مبدأ ثواب العمل الصالح وعقاب السيئ، وإنما بيان أنه لن يضيع شىء وإن كان مثقال ذرة من خير أو من شر، وأن من عمل مثقال ذرة من الخير يراه ومن عمل مثقال ذرة من الشر يراه، وأفعال السورة كلها مضارعة لأنها دالة على المستقبل الذى يبدأ بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].. ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤١﴾ بأن ربك أوحى لها ﴿٥٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا

أَعْمَالَهُمْ ﴿ [الزلزلة: ٤ ٦]، وهذا غير المقام الذى نحن فيه، ثم إن الآية خالفت فى بناء العبارة فقالت فى الاول ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وفى الثانى ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ ﴾ ولم تقل ومن عمل سيئاً أو من جاء بالسيئة، وقد لفت البقاعى إلى سر ذلك وقال إن العمل لا بد أن يسبق بالعلم والنية، وأن عمل الصالحات الذى يقبله الله ويزكى به نفس عامله مشروط بموافقتة لما أمر الله وبصدوره عن قصد ونية، بخلاف السوء فليس فيه هذه الاحتياطات وقد يضاف إلى ذلك أن السوء ليس من شرط وجوده أن يكون عملاً، فقد يكون اعتقاداً كالقلوب المطوية على الكفر أو النفاق أو البغضاء للذين آمنوا أو ما شئت من أمراض القلوب.

ثم إن الآية قالت ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ ولم تقل فله، وذلك كما قال البقاعى لحاجة النفس إلى التزكية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٩]. ثم هى أمانة بالسوء إلا من رحم ربي، والآية تدل على أن عمل الصالحات يزكى القلوب ويطهر النفوس. وكذلك مقارنة السوء ومقارنته وقوله جل شأنه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ هذه جملة من أعظم الجمل القرآنية وأكرمها، لأن الخلق خلقه وهو الذى أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، ورزقهم من الطيبات، وجعل لهم الأرض ذلولاً، وهداهم بالبينات وبالكتب التى أنزلها، وبعث فيهم الأنبياء وهداهم وأعانهم، وهو لا يُسأل عما يفعل ولا يجب عليه شئ ولكنه هو الذى أوجب على نفسه، وهذا من محض كرمه سبحانه.

وهذه الجملة معطوفة على قوله سبحانه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ وهى مؤكدة لها لأن مجازاة العمل الصالح بصلاحه والمسيئى بإساءته يعنى العدل، والعدل نفى الظلم، وقد نبه علماؤنا فيها إلى أشياء أولها: ذكر لفظ ربك وهو دال على الرحمة، وقد كثر فى هذه السورة لأنها ناظرة إلى الرحمة التى بنيت عليها ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ولأن خطابه عليه السلام من ربه فيه

تكريم له وإضافته إلى نفسه وهو سبحانه رب كل شيء فيه تقريب وتكريم له صلوات الله وسلامه عليه، والأمر الثاني: ذكر كلمة ﴿ظَلَامٌ﴾ وهى صيغة مبالغة والنفى المنصب على المبالغة قد يفيد نفى المبالغة، لأن المبالغة قيد ونفى القيد يبقى القيد، فإذا قلت ليس فلان بصوأم تكون قد نفيت أنه صوام ولم تنف أنه صائم، هذا وجه من وجوه الدلالة، وقد يكون النفى موجهاً إلى القيد والقيد وحينئذ يكون القيد قيداً للنفى. وليس النفى نفيًا للقيد، والذي فى الآية هو نفى الظلم قل أو كثر، وإنما جاءت صيغة المبالغة لتفيد أن الظلم قليله مثل كثيره، فمن ظلم مثقال ذرة فهو ظلام وهذا تبشيع للظلم وتنفير منه، وأن الله الذى لا يُسأل عما يفعل حرّمه على نفسه ثم حرّمه على عباده وقال: «إِنِّي حَرَمْتُ الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»، وعلى هذا إذا قلت ليس فلان بكذاب يصح أن يكون المعنى أنه لا يكذب البتة، وإنما ذكرت صيغة المبالغة لتنبئ عن معنى لطيف عندك أيها المتكلم، وهو أن الكذب ليس فيه قليل وكثير وإنما هو كله شيء واحد وقليله ككثيره والواجب اجتنابه فى كل صورته، قال الشيخ الطاهر رحمه الله: وهذا استعمال دقيق فى الكلام البليغ فى نفس الوصف المصوغ بصيغة المبالغة من تمام عدل الله تعالى أنه جعل كل درجات الظلم فى رتبة الظلم الشديد، انتهى كلام الطاهر. وقد شرح قبله مراد البلاغيين بنفى القيد وتقييد النفى. وقد فسّر البقاعى صيغة المبالغة فى الآية تفسيراً قريباً وليس فيه دقة تفسير الطاهر، وإن كان يشير إلى جهة من جهات النظر قال رحمه الله: ولعل حكمة التعبير بصيغة المبالغة الإشارة إلى أنه لو ترك الحكم والأخذ للمظلوم من الظالم لكان بليغ الظلم من جهة ترك الحكمة التى هى وضع الأشياء فى أتنّ محلّها، ثم من جهة وضع الشيء وهو العفو عن المسيئ وترك الانتصار للمظلوم فى غير موضعه، ومن جهة التسوية بين المحسن والمسيئ، ثم قال هذا مع أن التعبير بها لا يضر لأنها موضوعة أيضاً للنسبة إلى أصل المعنى مطلقاً، ولأن نفي مطلق الظلم مصرح به فى آيات أخرى انتهى كلامه.

وقوله جل شأنه ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ ولم يقل سبحانه للعباد أو لعبادي كما تكرر ذلك فى الكتاب العزيز، قالوا: لأن كلمة عبيد فيها دلالة على ضعف وقلة حيلة وعجز عن الانتصاف، وليس من المروءة أن توقع الظلم على الضعيف العاجز عن الانتصاف ولله المثل الأعلى. وكان لفظ العبيد هنا يؤكد نفي الظلم والعبيد جمع عبد، وإضافة العبودية لله تشرىف وتكريم كما فى قوله تعالى ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ثم إن العبودية لله هى أرقى صور الحرية، لأن من كان عبدا لله لا يكون البتة عبدا لغيره، وليس هناك قامة أعلى من قامة الذى لا يجعل فوق رأسه إلا الله. ثم إن العبودية لله فى معجم القرآن الكريم معناها العبادة والطاعة والانقياد، والذى يستتكف أن يكون عبداً للذى خلقه وأنشأ له السمع والأبصار والأفئدة ورزقه من الطيبات وجعل له الأرض مهاداً والسماء بناء وأمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، الذى يستتكف أن يكون عبدا لله هو فى حقيقته عبد لمن هم دون الله، ﴿لَن يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] وهذا قاطع فى أن المسيح عبد لله بمعنى أنه لا يستتكف عن عبادته وكذلك الملائكة، ولا معنى مطلقاً لأن تكون العبودية لله من نوع العبودية التى يعرفها الناس والتى هى الرق، لأن العبد الرقيق هو الذى يملكه مالك معين ويبيعه إن شاء لملك آخر، ونحن عبيد مالك الملك كله وله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى فلا معنى للرق هنا.

قوله سبحانه ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) وصلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿

المعنى الأم فى هذه الآية هو قوله جل شأنه ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ والكلام قبله تهيئة وتوطئة له، والمعنى بعده تابع له، والمعنى الأم فى السورة هو دحض الشرك ودحض الشبه المهيئة له. وعلاقة قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ بما قبله هى أن هذه الجملة من تمام معنى الكلام السابق الذى ذكر فيه القضاء ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ والكلمة التى سبقت هى تأجيل القضاء ليوم الساعة، ثم جاءت جملة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ لبيان الأصل الذى يقوم عليه القضاء يوم التلاق أو يوم التغابن أو يوم التناد، وكل هذا يجتذب إلى السياق كلمة الساعة والعلم بها، وكان الجملة الكريمة جاءت استجابة لداعية السياق، وهذه علاقة فوق المناسبة كما قلت لأن كون الكلام من تمام الكلام قبله يتجاوز المناسبة إلى أن يصير الكلامان كلاماً واحداً.

وابتداء الجملة بقوله سبحانه ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يجعل القارئ والسامع من أول وهلة يشعر بأن المعنى الآتى من المعانى التى لا يشاركه فيها أحد سبحانه، والضمير عائد إلى ريبك فى قوله ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١١٠] فهو سبحانه صاحب الكلمة التى سبقت وهو وحده العليم بها، وقد ذكرنا ما قاله علماؤنا من أن كلمة «الرب» فيها معنى الرحمة لأنها تعنى الرعاية والإحاطة والصون، ومن رحمته سبحانه أن جعل علم الساعة وعلم الآجال خاصاً به لا يعلمه سواه، ولو علم الناس آجالهم أو علموا الساعة لحدث فزع كبير، وكلمة ﴿ يُرَدُّ ﴾ تعنى أنه سبحانه هو وحده مرجعها ومرددها ومهما تخرص المتخرصون وجدَّ المجدون ليعلموها فلن يصلوا إلى شيء، وهذا كقوله سبحانه ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] لأن علم ذلك عند الله ورسوله، وكلمة ﴿ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ يعنى تعريف الساعة بالألف واللام لأنها هى الجديرة بهذا الاسم وهى التى تراد به عند الإطلاق

والألف واللام فيها كالألف واللام في الكتاب في قوله جل شأنه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وعلمها يعنى وقتها وأحوالها، وقد بين القرآن ذلك في آيات كثيرة كقوله سبحانه ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وقوله جل شأنه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢] وقوله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢] إلى آخر ذلك من الآيات التى أشار الرسول الكريم إليها، وقال من أراد أن يرى القيامة فليقرأ هذه الآيات وكل هذا وهو كثير جداً مطوى فى كلمة ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

ثم إن اختصاص علم الساعة بالخالق جل شأنه تواردت عليه صور كثيرة فى الكتاب العزيز، منها قوله ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤] وقوله ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤] وغير ذلك كثير، وكل صورة من هذه الصور اقتضاها سياقها ولا يصح أن توضع صورة ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ مكان ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ولا أن توضع صورة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ مكان ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والكشف عن ملاءمة كل صورة لموقعها صعب جداً وهو من جوهر درس بلاغة الكتاب العزيز، وكم ترك أوائلنا لنا وكم سترك لمن بعدنا وقوله جل شأنه ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍ﴾ قالوا إن كلمة «ما» يمكن أن تكون اسم موصول معطوفة على علم الساعة وداخلة فى حكمها، يعنى وإليه يرد الذى يخرج من ثمرات من أكمامها، وهذا بلا شك مما استأثر الله بعلمه، والأكمام جمع كم بكسر الكاف وهى أوعية الثمر والأكمام للثمر كالأرحام للأجنة، وقد فسرها البقاعى بقوله «ومن ادعى علماً به فليخبر بأن ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلانى والبلد الفلانى تخرج فى الوقت الفلانى أو لا تخرج العام شيئاً أصلاً، والمرأة الفلانية تحمل فى

الوقت الفلاني وتضع في وقت كذا أو لا تحمل العام شيئاً، ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علماً إلا الله سبحانه «تعالى» وكان الشيخ البقاعي بهذا النص القريب كان ملهماً أو مستشعراً ما يحدث في زماننا، فقد سمعت بعض المتورين جداً يحدث بأن ما دل القرآن على استئثار الله بعلمه كقوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ صارت أصغر ممرضة بالأجهزة الحديثة تعلمه، وجعل الأستاذ ما أشار إليه البقاعي من عموم العلم المستقصى للأحوال كلها والحالات كلها وفي الأزمنة كلها والامكنة كلها.

قلت: إن ﴿مَا﴾ في قوله ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ يصح أن تكون موصولة كما قلنا ويصح أن تكون نافية وعلى هذا الوجه تدخل في الجملة بعدها ويكون جملة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ معطوفة عليها والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا بَعْلُمِهِ﴾ شاملاً لهما يعني وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلا بعلمه، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، ولا بد من ملاحظة المعنى الجامع لهذه الثلاثة وهو الساعة وخروج الثمرة من أكمامها وحمل الأنثى ووضعها، والساعة تعني فيما تعني البعث، وقد فطن علماؤنا إلى أن خروج الثمرة من أكمامها أشبه بحالة البعث بعد الموت ورجوع الحياة إلى الموتى، وكذلك بعث الحياة في الأجنة وهذا هو سر اقترانها، ثم إن خروج الثمرات من أكمامها كانه بيان وتفصيل لقوله سبحانه في الآية قبلها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ولو وضعت ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ بإزاء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ لوجدته بياناً، ولو وضعت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لوجدت سرَّ اقتران الساعة ومن معانيها البعث بذكر خروج الثمرة من أكمامها، وكذلك سرَّ اقتران خروج الثمرة بالولادة ثم إن آية ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ ولا تَضَعُ إِلَّا بَعْلُمِهِ﴾ اختصار شديد لمراحل كثيرة طالما ذكرت في أدلة البعث

فى مثل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ [الحج: ٥] إلى أن قال: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ثم جعل ذلك كله برهانا على أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير.

والآية التى معنا سكتت عن مراحل الحمل من علقه ومضغه إلى آخره، وسكتت عن ما بعد الولادة ﴿ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخره، وذكرت معها الثمرة التى هى كثيرة الاقتران بالخلق الذى يساق دائما برهاناً على البعث، وهكذا تجد القبض والبسط فى آيات لو جمعتهما وحددت ما قبض هنا وما بسط هناك ولماذا قبض هنا وبسط هناك لوجدت نفسك أمام باب من أبواب فقه البيان القرآنى لا يقادر قدره.

وآية ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ رجع بها بعض علمائنا إلى آية ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ وكان ذلك من رجع الجذور إلى الجذور وترك الفروع تتنامى ما تتنامى. ثم يعود بعدها الجذر إلى الجذر وهذا عجيب فى البيان، وقد جاءت هذه الثلاثة مقترنة فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ﴿ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ هو ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾. ﴿ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ ﴾ هو ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾. لأن الله سمى الغيث رزقاً فى قوله تعالى ﴿ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ هو ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾، وهذا يعنى أن لهذا الاقتران أسراراً، وقد أومأنا إلى ما عرفنا، وقد نبه علماؤنا إلى أن النفى فى قوله ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ ﴾ وفى قوله: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ

أُنْتَى ﴿ جاء بما النافية وهي تنفى الحال وقد تحمل الأنتى فى لحظة كما يقول
 البقاعى. وقال فى الوضع ﴿ وَلَا تَضَعُ ﴾ فغير حرف النفى وجىء بلا لأن
 الوضع يطول زمانه بطول زمن الحمل وقالوا: إن النفى بلا أطول زمناً من
 النفى بـ (لن) لأن الصوت ممتد مع ألف لا ومقطوع بنون لن قاله السهلبى.

ولو قارنت بين دلالة هذه الآية ودلالة الآية التى قرنها بها وهى قوله
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ لوجدت اتفاقاً ظاهراً بين الاثنتين من حيث
 دلالة كل على الواحد، ووجدت اختلافاً ظاهراً أيضاً بين وجه الدلالة فى كل،
 وآية الأرض الخاشعة دالة على تمام القدرة، وآية ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ دالة
 على تمام العلم، ومن أجل مزيد العناية بتمام العلم أدخلت كلمات زائدة مثل
 من التى فى قوله ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ ﴾ والأصل وما تخرج ثمرات لأنها
 فاعل تخرج وإنما جىء بمن الزائدة للدلالة على الاستقصاء، وأنه لا تخرج ثمرة
 أى ثمرة من كمها من يوم أن قدر الله فى الأرض أقواتها إلى يوم أن تزلزل
 الأرض زوالها إلا بعلمه، وكذلك قال ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ﴾ وهو الحذو الذى
 مضى والأصل وما تحمل أنثى. وإنما ذكر من الزائدة للدلالة على استقصاء
 حمل كل أنثى من يوم أن أثقلت أمنا حواء إلى آخر مولود يولد على الأرض
 عند لحظة النفخة الأولى. كل ذلك يعلمه لا يند عنه شىء وهذا كلام عجب
 فى البيان وعجيب فى الإيجاز وعجيب فى لفظه ومعناه ولا وجود له فى غير
 القرآن، وتصفح الكلام كله لأنك لن تدرك بيان القرآن ما لم تملأ عينك من
 كلام الجليل الذى نزل فيه وأفضل بيانهم الشعر.

ولاحظ أن آية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ جاءت بعد قوله ﴿ فَإِنْ
 اسْتَكْبَرُوا ﴾ فناسب ذكر القدرة وآية ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ جاءت بعد ﴿ مَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ فناسب ذكر العلم، والسكوت عن هذا
 فى تحليل البيان سكوت عن أسرار عزيزة.

وقوله جل شأنه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ (٤٧) و ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِصٍ ﴿

هذه الآية انتقل الكلام فيها من صورة ترى فيها الثمار تولد وتخرج من أكمامها، كما ترى فيها صفاء ونقاء وطهارة الطفولة، وهى تطل على الحياة انتقل الكلام من هذا المشهد الحى النقى الصافى إلى مشهد آخر زاخر بالاضطراب والتخبط والفرع ويا بعد ما بين المشهدين، وترى الرحمن الرحيم الذى أنشأ لهم الزرع والشمر وأخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ونصب لهم الأدلة، ثم جعلوا له شركاء، وهو سبحانه يناديهم أين شركائى والسؤال سؤال توبيخ ولوم وتعنيف وتجهيل. ويلاحظ أن الآيات بعد ذكر الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تأتى غاضبة فى خطاب من عمى عنها.

وراجع الذى لا تخرج ثمرة من أوعينها إلا بعلمه: وهذا طعام الناس. ولا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وهذا خلق الناس. وكأنه خلق أرزاقهم قبل أن يخلقهم سبحانه، هذا الرحمن الرحيم «يجعلون له أندادا» ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل. ٢٠] كل هذا وغيره مطوى فى غضب جملة أين شركائى؟ والسؤال بأين سؤال عن المكان، وكأن الإنكار ليس إنكاراً لاتخاذ الشركاء، وإنما هو إنكار المكان ويلزم منه إنكار الشركاء ويلزم منه تجهيل من جعلوا لله شركاء، وقوله سبحانه ﴿قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ آذناك قالوا معناه أسمعناك وهو مروى عن ابن عباس وقالوا أعلمناك بمعنى أخبرناك لأن الله يعلم من أحوالهم ما يعلمون وما لا يعلمون، ويعلم سبحانه أنهم رأوا الآيات الملجثة وعلموا أنه سبحانه واحد لا شريك له، ولهذا لا يحمل قولهم آذناك بمعنى أعلمناك على ظاهره، وقالوا إن قولهم آذناك يعنى أنهم سئلوا قبل ذلك وأجابوا بنفى الشريك، وإنما سئلوا مرة ثانية من باب زيادة التعنيف واللوم والتوبيخ، وقالوا إن قولهم آذناك بهذا المعنى فيه

سوء أدب مع الله، وإنما المراد آذناك لا بلسان المقال ولكن بلسان الحال لأنك تعلم منا إنكار الشريك لك، ولو قالوا أسمعناك أو أخبرناك أو أعلمناك لما احتتمل هذا النوع من تنوع المعنى. وإنما كلمة آذناك هي التي فتحت الباب لهذه التأويلات، وهذا سر ذكرها.

وقولهم ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ قدم النفى فيه على الخبر الجار والمجرور فانصب النفى عليها، ولو قالوا ما شهيد منا لكان كلاماً آخر، لأنهم فى الآية سلطوا النفى على الكون منهم، ثم أكدوا الاستقصاء فزادوا من الداخلة على المبتدأ ولها نظائر كثيرة وهى مثل من الداخلة على الفاعل فى ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ﴾ وهى كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، وهذا التقديم هنا لا يفيد الاختصاص لأنهم لا يعنون نفى ذلك عنهم خصوصاً وإثباته لغيرهم، لأن المتادين هم أهل الشرك فى الأرض من يوم أن دعا أبونا آدم وأما حواء وقال ﴿ لئن آتيتنا صالحاً لنكوننَّ من الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٨٩) فلما آتاهما صالحاً جعلناه شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر مخذول يعيش على ظهرها عند الصعقة، فليس هناك غيرهم يثبتون له ما نفوه عن أنفسهم، ومثل هذا التركيب يأتى فى القرآن كثيراً من غير دلالة على الاختصاص.

وقد ذكر البلاغيون أنه يفيد الاختصاص غالباً، وظنى أن الذى أوقعهم فى هذا هو أنهم قارنوا بين لا ريب فيه ولا فيها غول واستخلصوا القاعدة فى ضوء ما كان بين أيديهم من شواهد وغفر الله لنا ولهم، وكلمة ﴿ شَهِيدٍ ﴾ يعنى شاهد يشهد بالشرك وليس منا مشرك، وإنما أرادوا الحال الذى صاروا إليه فى الآخرة بعد كشف الغطاء، أو أرادوا ما كانوا عليه فى الدنيا وكذبوا كما قال سبحانه عنهم ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] وهذا من فرط ما هم فيه من أهوال.

قوله جل شأنه: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ قوله ﴿ وَظَنُوا ﴾ معطوف على قوله ﴿ ضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ، والواو التي في ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ واو استئناف، ومعنى ضل ذهب وغاب وخفى كما قال البقاعي، وفاعل ضل ما الموصولة والمراد ما جعلوهم لله شركاء من الأصنام وغيرها، وهذه الجملة تأكيد لمعنى الإنكار في قوله سبحانه ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ وفيها تبييت وتجهيل واستخفاف لأنهم دُعُوا إلى عبادة الله الواحد الأحد فعبدوا من لا يستطيعون نصرهم ولا هم ينصرون، وكلمة كان في قوله ﴿ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ تفيد أن دأبهم وشأنهم كان تجديد الدعاء لهم، ولم يفتنوا إلى أنهم يدعون ما لا يضر ولا ينفع، وإيثار كلمة ضل على غاب أو ذهب أو خفى فيها إيحاء أخرى إلى خيبة الأمل وأنهم كانوا في الدنْب ينتظرون منهم شيئاً في وقت الشدة في الآخرة، وكانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وكل هذا تأكيد لحقيقة واحدة، هي أنهم يواجهون ما لا سبيل لغيره، وهذا ما دل عليه قوله سبحانه ﴿ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ وبناء جملة ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ هو طريق بناء جملة ﴿ مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴾ دخل فيه حرف النفي على الخبر الجار والمجرور المقدم وليس فيه معنى الاختصاص لأنه لا محيص لهم ولا لغيرهم، ولأنه ليس هناك غيرهم لأنهم هم كل من جعلوا لله شريكاً في الأزمنة كلها والأمكنة كلها، وزيادة من الداخلة على المتبدأ تفيد الاستغراق وأنه لا محيص السبته، والمحيص معناه المهرب يعنى واجهوا أمراً واحداً هو العذاب الشديد وليس من سبيل سواه. وكلمة ﴿ مَحِيصٍ ﴾ لا تسدُّ مسدّها كلمة مهرب التي نفسرها بها، لأن كلمة ﴿ مَحِيصٍ ﴾ فيها معنى الفزع الشديد وأصله من محص الطيبي إذا أسرع في عدوه، وكلمة ﴿ وَظَنُوا ﴾ معناه أيقنوا، واستعمال الظن بمعنى اليقين كثير في الكتاب العزيز، ومنه قوله سبحانه ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢٠]، ومعناها: أيقنت، وربما كان وجه استعمالها هنا للإشارة إلى أنهم لا يزالون في

الشك المريب وهم يرون الآيات المملجة، لأن اليقين ليس من شأنهم حتى فى هذا الوقت الذى أشرقت فيه الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالبين وشهدت عليهم جلودهم، وكان نفوسهم التى كانت ترى آيات الله البينات التى جاء بها رسل الله إليهم وكانت تروغ منها ويقولون قلوبنا فى أكنة أو يَنْغُضُونَ لها رؤوسهم لا تزال فى هذه النفوس بقية مما طبعت عليه.

وإذا كنا نفسر الظن باليقين فى كثير من الآيات فإن الذى يقتضيه فقه البيان أن تسأل لماذا عبر عن اليقين بالظن فى كل موقع جاء فيه الظن بمعنى اليقين، وهل يمكن أن يقال إن التعبير عن اليقين بالظن فى آيات كثيرة فيه إشارة إلى أن اليقين بعيد المثال ولا يدرك بالهويناء وخصوصاً إذا تعلق الأمر بالغيب، والإيمان بالغيب أعلى مراتب الإيمان، ثم إنه يوجب على من رزقه الله هذا الإيمان أن يتعهد بالنظر فى الأدلة والتدبر والمراجعة حتى يثبت ويتأصل. ثم يتابع النظر أو الاستدلال حتى يستمر وحتى يلقى الله على هذا اليقين، وهذه هى الغاية التى يحط كل مؤمن سندها رحله، ويدعوا الله فى كل حال أن يُخْتَمَ له بالإيمان، وكأنه يخاف على هذا الإيمان ويحوطه بالدعاء والعبادة. ويدخل فى هذا الباب معنى أن الإيمان يزيد وينقص حتى يصل إلى حق اليقين وينقص حتى يقف على شاطئ الظن أو حتى يصير يقيناً يعبر عنه بالظن، وسيدنا إبراهيم الذى أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين هو الذى قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قال ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطَمِينَ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقد سأل الرؤية الحسية ليزداد يقينه بما تراه عينه، ولما قال له ربنا سبحانه ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ كأنه سبحانه ينهنا إلى أن الإيمان بالغيب يحتاج إلى المتابعة والتعهد والرعاية الدائمة بالذكر والتدبر والنظر فى الآيات، لأنه سبحانه لم ينكر على إبراهيم سؤاله وقد أراه ملكوت السموات والأرض وكان من الموقنين، بل من عليه وقال له ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ولماذا جعل الله لموسى تسع آيات بينات وكانت تكفى آية واحدة؟ ولماذا بنى القرآن كله على الآيات وتتابع كثير منها من مثل قوله ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣] . . ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الروم: ٢٢] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ﴾ [الروم: ٢٣] إلى آخر ما ترى الكتاب العزيز فيه يكرر ويذكر حتى يثبت الإيمان ويثبت اليقين، ولو كان المراد المعرفة فقط لاكتفى بواحدة وفرق بين أن تعرف وأن تستيقن، وإذا كانت هذه الآية تفيد أنهم ضلوا عنهم ما كانوا يدعون من قبل، فإن فى القرآن آيات تفيد أن الله جمعهم مع شركائهم وأنهم جادلوهم وتبرؤوا منهم من مثل قوله تعالى فى سورة يونس ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقال سبحانه فى سورة الفرقان ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ [الفرقان: ١٧] ومثل هذا كثير، وقد ذكر علماؤنا فى بيان وجه ذلك أن المواقف كثيرة ومختلفة مرة يكونون مع شركائهم ومرة يضل عنهم شركاؤهم وهذا هو اليوم العسير على الكافرين غير يسير.

قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَكِنْ أَدْقَاهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

هذه الآيات الثلاثة فى معنى واحد وتعالج حقيقة واحدة وتتناولها من جهات مختلفة، وهى تدور حول تحليل الأحوال النفسية التى أفضت بالذين

ذكروا قبلها إلى هذا المصير المفزع الذى حسبوا فيه فى سراديب جهنم ما لهم من محيص. ثم تركتهم هذه الآيات يتقلبون فى هذا الثبور وبدأت تحدث عن الأحوال النفسية التى أفضت بهم إلى هذا، وكل ذلك من بالغ الرحمة. وتصوير هذا الواقع المزلزل ثم بحث علله وأسبابه وتحديد مداخل الشيطان التى يدخل منها ليقود الإنسان إلى هذا المصير، وذلك ليتنبه الإنسان ويتعرف على مكامن الخطأ المهلك فينجو أو يجتهد فى أن ينجو، وكأنها علامات على طريق السير تحدد الخطر المهلك وكيف تتفاداه.

وأظهر ما فى هذه الآيات الثلاثة والمعنى المشترك بينها والأصل والجذر الذى تدور حوله، هو الانصراف الكامل إلى اتباع الأهواء والانصراف الكامل عن مواجهتها وردعها وتنظيمها، وهذه الأهواء التى هي جزء من فطرة النفوس أو هي فجورها الذى يقابله تقواها وهما الأمران اللذان ألهمهما الله النفس وبنائها عليهما يوم سواها سبحانه، أقول المشكلة الأم هو طغيان جانب الأهواء أو جانب الفجور وترك مقاومته ومدافعته ومن شأنه أنه ذنوبى محض مغموس فى هذه الدنيا ومحب لخيراتها ولا يشبع من طلبها ولا يحب أن يلتفت إلى ما بعدها، وإنما هي كل همة فإذا أصاب من خيرها بغى وطغى ونأى بجانبه وأعرض ودار حول ذات نفسه، ورأى أنه هو مدار هذا الخير وأنه استحقاقه، وإذا أصابه الشر انكسر وأحبط وتهدم وهذا الانقطاع إلى هذه الدنيا وضرب الصفح عن الآخرة أقرب إلى المذهب العلمانى نسبة إلى العالم الذى نعيشه، ولا شأن لنا بما وراء ذلك، ثم هو مذهب الجاهليين الذين عبروا عنه فى أشعارهم وآدابهم وهذا ظاهر لمن له صلة بحياة الجاهلية، وهذه الحقيقة التى هي عبادة الحياة الدنيا والركض كل الركض وراءها، وضرب الصفح عن الآخرة قَلَّبَتْهَا هذه الآيات على وجوه ثلاثة انفردت كل آية بوجه، وتأمل الآية الأولى تجد أنها تصف لك الحالة العامة والشاملة لهذه الأحوال الثلاثة، ثم تأتى الآية الثانية وتضيف بعض الأحوال والصفات إلى الحالة الأولى، ثم تأتى الآية الثالثة وتعيد تلخيص وتركيز هذه الأحوال الدائرة حول هذه الخليقة.

وهذه الآيات الثلاثة من تمام الكلام قبلها، لأنك إذا نظرت إليها وهى مقترنة بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ وجدتها تبين السر الذى أفضى بهم كما قلت إلى هذا البلاء الذى لا فكاك لهم منه. وإذا نظرت إليها وهى من أعجاز السورة الرادة إلى صدرها والشاملة لكل ما فيها وجدت السورة تعالج أحوال هؤلاء المتمردين على الحق والرافضين له والمعاندين له من بعدما تبين آياته وكانت كالشمس ليس بينها وبين العين حجاب، وهم مصرون على رفض الحق البين، وهذه أسوأ خليقة وأحط رذيلة، ولم تبطل البشرية ببلاء أظع من ابتلائها بالمنكرين للحق البين والبرهان القاطع، والسورة تضع اليد على البراهين الدالة دلالة قاطعة على الحى القادر الذى خلق الأرض فى يومين وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ثم استوى إلى السماء، وإذا كان هذا من الغيب الذى تشهدون برهانه ولا تشهدون أعيانه، فهى الأرض الخاشعة ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وأن الذى أحياها لمحى الموتى. وعلى هذا تدور السورة وتبرز ملامح هذا النموذج المصر على الرفض والعناد والطمس الظالم للأدلة التى تراها العيون، وتنتهى إلى هذه الآيات التى تحدثنا عن العلل التى أنتجت هذا السلوك الكريه الشاذ والمدمر لأكثر الناس الذين يمثلون النموذج الرافض للفهم والرافض للانقياد والراكض وراء الأنايية المحضة، والذى يستبيح كل شىء ويأخذ ولا يشبع، وهكذا ترى هذه الآيات فى آخر السورة تضع اليد على الشىء الذى كان بسببه كل ما قبلها وكأنها المفتاح الذى تدخل به نفوس هؤلاء المبطلين، وتتعرف على قوى الشر ومكامن السوء داخل هذه النفوس.

وقد نبهت آيات كثيرة إلى هذه الحقيقة وكثير من الألفاظ والصيغ تتكرر لتذكر بنظائرها، فإذا قرأت هذه الآيات الثلاثة ثم قرأت آيتين من سورة الزمر وجدت الكلام هو؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ

إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿ [الزمر: ٤٨] وقال سبحانه في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَذَقْنَاهُ
نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿ [هود: ١٠].

هذه الآيات تتفق في معان كثيرة وتختلف في معان كثيرة، والتحليل اللغوي
الدقيق هو الذى يبين ما تتفق فيه وما تختلف، وكثير جداً من أحاديث رسول
الله ﷺ ترجع إلى أصول المعانى فى هذا الآيات، وكل هذا دال دلالة ظاهرة
على أن هذه الآيات الثلاثة التى هى أصل ختام هذه السورة والشاملة لكل
ما فيها هى من الدين بمكان، ومن كلام الله بمكان، ومن كلام رسوله ﷺ بمكان،
وما تعالجه من أهواء لا تزال غالبية فى زماننا، وإن كانت أخذت صورة مذاهب
فكرية وثقافية وتحررية وغير ذلك مما يتلاعب به زماننا، وهى جاهلية محضة.

هذا وصف عام لهذه الآيات الثلاثة وموقعها من أعجب المواقع وأمكنها
كما قلت، والآن نحلل أبنيتها اللغوية لنرى الفروق والدقائق.

قوله سبحانه: ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾.

هذه الآية مكونة من جملتين تصوران وجهين لحقيقة واحدة هذه الحقيقة
هى إلحاح الإنسان فى طلب الخير، فإن أصابه الخير اطمأن وإن مسه الشر
أصابه اليأس. وترى الجملة الأولى وكأنها جذر معنى الآية التى هى جذر
معانى الآيتين بعدها إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾.

وقد بنيت على القطع والاستئناف وهذا يشعر بجلال المعنى الذى بدأت
الحديث فيه، وخصوصاً إذا راعينا ما قبلها من حبس الإنسان فى الحطمة وماله
عنها من محيص. فلا بد أن يكون الحديث عن الإنسان من الأهمية لأنه
سيكشف الذى أفضى به إلى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة.

ثم إن كلمة ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ ﴾ كلمة ذات لَفْت قوى لأمرين الأول أنها
جاءت قبل ذلك بقليل فى قوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ وجاءت هنا فى معنى مقابل لهذا

المعنى . والذى يُسَبِّحُ ولا يسأم هو الذى صار التسبيح جزءاً من سعادته ولذته ، لأن نفي السأم يعنى نفي الفتور والملل ولا يُنْفَى الفتور والملل إلا إذا كان الشيء الذى من شأنه أن يبعث على السأم والملل صارت مباشرته من اللذات المحببة والمُتَمِّعِ التي لا تشيع النفوس منها، ويكون كالذى وجد حلاوة الذكر فهو لا يفتر عنه، وجاءت هذه الآية فى صورة هى فى حقيقتها وعمق دلالتها من باب الأولى . وإن اختلف الشيء الذى يمارس من غير سأم، فإذا كان هناك هو التسبيح فهو هنا طلب الخير، والخير هنا هو الخير الدنيوى المحض . والمسلم لا حرج عليه فى أن يطلب خير الدنيا ولكنه يطلبه من جهة نفسية مختلفة، فهو يطلبه لأن الله أمره أن يمشى فى مناكبها وأن يأكل من رزقها، ولأن الله خلقه لعمارة الأرض وجعله خليفة له سبحانه، ثم هو يطلبها متادباً بأدب الله فلا يظلم ولا يكذب ولا يبغي ولا يجعلها همماً وإنما يجعلها مزرعة لآخرته، لأن هذه الدنيا هى طريق الجنة والعمل الصالح والبر والصدق والإيثار والإحسان ورعاية من يستحقون الرعاية، هذا هو العمل الصالح الذى هو قرين الإيمان، أما الذى لا يسأم من طلب الخير والمذكور فى الآية فهو الذى حبيت إليه الدنيا كما حيب التسبيح للذاكرين من الملائكة، وصارت هذه الدنيا متعمته ولذته وشغله ووثنه القائم بين عينيه يطلبه ولا يسأم .

وقد قلت إن كلمة ﴿ لا يسأم ﴾ استدعت النموذج السابق من الذين يسبحون ووصفت صورتين متقابلتين، هذا لا يسأم من التسبيح والتقديس وما يشبه ذلك مما هو غذاء الأرواح، وهذا لا يسأم من طلب الحطام الذى هو غذاء الأشباح، وقد تأكد هذا المعنى لما راجعت كلمة يسأم فى معجم القرآن ووجدت أنها لم تأت إلا منفية بلا كما هنا، وأنها جاءت فى ثلاثة مواقع هذا الموقع والذى قبله فى آية ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ والموقع الثالث فى آية الدين ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

وهذه الجملة ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ فيها إيجاز لا يدرك كنهه، وعليك أن تداخل هذا المعنى وتتأمل أوديته الفسيحة، وكيف تأتى لهذه

الكلمات الموجزة أن تحيط بهذا الباب المتسع . وأول شيء تراه أن كلمة الإنسان صالحة لأن يراد بها الجنس كله، وحملها بعض المفسرين على هذا. وحملها الآخرون على الإنسان الذي أعرض وهم الأكثر وذلك لقوله سبحانه بعدها ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ ثم كلمة ﴿الْخَيْرِ﴾ وهى كلمة جامعة لخير الدنيا وخير الآخرة، وإن كان المراد بها خير الدنيا لأن طالب خير الدنيا والآخرة معا إن مسَّ الشر لا ييأس وإنما يصبر ويحتسب، فدللت الجملة الثانية التى هى الوجه الثانى لهذه الجملة على تحديد كلمة ﴿الْخَيْرِ﴾ بخير الدنيا لا غير، ثم وهو أنفذ فى البلاغة التعبير عن طلب الدنيا بكلمة ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ وكلمة الدعاء من معانيها العبادة، وكان الدنيا وخيراتها صارت إليه ووثنه، وكأنه نموذج لما جاء فى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وأنه انطلق يركض وراء أهوائه لا يكف نفسه عن شهواتها وأهوائها وما يراه هو خيرا يستوى فى ذلك ما وافق الشرع وما خالفه، لأن أمر الشرع مرفوض عنده فالخير ما يراه هو خيرا، وهذا أيضاً جزء من الفكر المادى الحديث الذى يدعوننا إليه المثفقون والمتنورون جداً، والذين يقولون إن الإنسان بلغ رشده واستغنى عن وصاية من يقول افعل ولا تفعل. وهذا الفكر المستنير جداً هو من الجاهلية المعركة فى الزمن القديم، ثم إن كلمة ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ هى التى قادتني إلى القول بأن طلبها صار متعته، لأن الدعاء فيه لذة ولا تجد لذة أرقى ولا أعلى من مناجاة الواحد الأحد، وهكذا انتقلت هذه الكلمة بزخمها الشرعى إلى طلب الخير كما يتصوره المعاند للحق، وجملة ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُبْسُ قَنُوطٌ﴾ يلاحظ فيها أنها أولاً جاءت بأداة الشرط التى تكون للمعنى المشكوك فيه، وفى هذا دلالة على أن مسَّ الشر قليل، ثم كلمة «مسَّ» ومعناها الإصابة الخفيفة كما جاء فى قوله على لسان إبراهيم لأبيه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ فذكر المس ونكَّر العذاب تأديباً وترفعاً فى الخطاب مع أبيه، ثم ترى الذى ترتب على هذا المس الخفيف من جواب حذف صدره والتقدير فهو يؤوس. وكان حذف المستأدأ ينبي عن المسارعة بهذا الخبر الدال على هذا الطبع

القلق المتفرِّع، ثم بناء كلمة يؤوس للمبالغة والياس قاتل ومدمر وكأنه يرى أن لحظة الانتكاس هذه وهى لحظة مس الشر هى نهاية الدنيا، ولا يرى فرجا بعد الشدة، ثم لم تكتف الجملة بهذا وإنما أردفت بكلمة (قنوط) من قنط ونفسرها بيثس وآيساً سواء، لأن القنوط أشد اليأس وكل هذا ظاهر جداً فى دلالة الألفاظ والتراكيب، ووراءه معان هى أخفى وأغمض. من ذلك أننا نعود إلى رأس الجملة الأولى فنجد إنساناً لا يسأم من دعاء الخير، وفحوى ذلك أنه لا يسأم من دفع الشر وأن يغلُق من حوله كل أبواب الشر، وأن يفتح من حوله كل أبواب الخير، ثم يفاجأ بهجوم طلائع الشر عليه تمسه مساً خفيفاً لتقول له إنك لا تستطيع أن تشكل هذا الوجود على وفق ما تشتهى. لأن وراءه صانعاً قادراً إذا حاول الأمر لا يُغلب، وهو مع ذلك لا يتبه ولا يعيد النظر، وقد كشفت له الأحداث ضعفه ونفسه وأرته أن دعاءه وحده لا يكفى مهما ألحّ ومهما احتاط، وأن هناك مقادير لا تغالب، وأنها تقتحم عليه أبواب الشر التى يغلقها، وكل ذلك كان من الممكن أن ينبّه ولكنه محجوب عن رؤية الصواب وقلبه فى أكّة وفى أذنه وقر. الخلاصة أن هذه النفس بناؤها خرب تماماً إلا من الأهواء تركض فى طلب خير الدنيا ركض الداعى العابد لهذه الأهواء لا يفر ولا يسأم، وهذا بخلاف بناء النفس التى رأت الآيات فانقادت وأسلمت وجهها لله، فقد زرع الدين فى هذه النفس قيمة من أنبل القيم وأعلاها وهى الصبر عند البلاء، وليس مس الشر فحسب، وتؤكد عندها أن الله يوقى الصابرين أجرهم بغير حساب، وأن الله سبحانه بشرّ الصابرين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴿ وإذا وازنت الصلاة من ربنا والرحمة وتوفية الأجر من غير حساب وبشارة الصابرين وجدت الصبر ثمناً زهيداً جداً لهذا العطاء الذى لا يرجو المؤمن أفضل منه، حتى إن المؤمن ليقول البلىا عطايا وإن المصيبات بعض النعم، بل إنه ليهش ويغبط بما قدره الله عليه من الابتلاء والافتتان وليس عليه إلا أن يستعين بالله ويصبر، ويا بعد ما بين من ينكسر وينهدم عند مس الشر ومن يصبر ويحتسب.

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَنْ أَدْفِنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

هذه الآية الثانية وهي معطوفة على الآية الأولى ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ وقد ابتدأت بما يفيد اختصاصها بأمر يجب التنبه إليه، وذلك باجتماع القسم والشرط وقد جاء الشرط في الآية قبلها من غير قسم، وجاء الشرط مرتين في الآية بعدها من غير قسم، والجواب المذكور في الآية هو جواب القسم وهو مؤكد باللام ونون التوكيد الثقيلة، ثم تكرر اجتماع الشرط والقسم وحذف جواب الشرط استغناء عنه بجواب القسم وهو مؤكد بأن واللام، وسيظهر لنا من التحليل الخصوصية التي يراد اللفت إليها، ثم إن كلمة ﴿أَدْفِنَهُ﴾ تعنى أنه وجد هذه الرحمة وجوداً ظاهراً وأنه تمتع بها واغتبطت نفسه واستمتع بها وذاق حلاوتها، ثم إن قوله سبحانه: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ المراد بالرحمة النعمة التي لا يسأم من طلبها فهو خير بطلب النعمة، ولكن هذه الرحمة لم تكن بكسبه لأن الرحمة لا تكون بكسب وإنما هي محض عطاء الرحمن الرحيم لا تمتنع لإمته سبحانه، ثم إنه قال: ﴿مِنَّا﴾ فأضافها إلى ضمير العظمة المفيد أنه لا كسب له فيها البتة وأنها رحمة عظيمة جاءت من قبل الواحد الأحد. ثم قال سبحانه: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ يعنى عجز عن دفع الضراء ومس الشر رغم أنه محترف في باب طلب خير الدنيا، وكان هذا قمينا بأن يلفته إلى عجزه الذى عجز فيه عن دفع مس الشر ومس الضراء، وعجز فيه عن تحصيل الرحمة بطلبه وإلحاحه وكسبه، كان هذا قمينا بأن يلفته إلى الواحد الأحد وأنه كغيره من الناس يعيشون فى نعم أكثرها لا كسب لهم فيها كالأسماع والأبصار والأرض التى قدر الله فيها أقواتها والماء النازل من السماء إلى آخر هذا مما لا يحصى من نعم لا دخل لنا فى تحصيلها، ثم إن الله من على هذا النموذج الغريب برحمة منه بعد الضراء، ومراجعة هذا

الشرط ومراجعة تدقيق المعنى فيه، ضرورة لإدراك السر في ترتيب الجواب عليه، وهذا الجواب هو ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وهذه الجمل الثلاثة هي خلاصة هذه الآية وهي الواصفة المبيّنة للطبيعة النفسية التي يعيش بها هذا النموذج الذي قال: ﴿قَلُّوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ولن أستطيع أن أوضح المعنى العميق وراء كل جملة من هذه الجمل لأن ذلك لا يستطاع إلا بأن تقرأ أنت كل جملة وتدخل خواطرك فيها، وسأقول شيئاً مما أجده لأفتح الباب ولا أستقصى. وأول شيء هو أنهم نسبوا إلى أنفسهم الرحمة التي هي من محض فضل الله، والتي دلنا ربنا على مقامها لما قال «منا»، وبدلاً من شكرها نسبوها إلى أنفسهم، وقال «هذالي»، ووصول النعمة إلى الإنسان العادي جداً توجب عليه الشكر، فإذا كان خبيث النفس كفرها ولم يشكرها، وإذا كان أجنبي وأبشع أنكر مصدرها ونسبها إلى نفسه، وهذا من الكذب والفجور في الكذب، ولك أن تتخيل هذا النمط وما هو عليه من السقوط والبشاعة، والجملّة الثانية هي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وأبرز ما في هذه الجملة ترتيبها على شرط لا ترتب عليه، لأنه ليس هناك علاقة بين أن يذيقهم الله الرحمة منه وبين إنكار الساعة، لأن إذاعة الرحمة لم يكن القصد منها الإقرار بالبعث لأن الله يذيق رحمته كل خلقه، وإنما هو إعلان عقيدة فاسدة ليس لها دليل وليس عليها من الكلام برهان بعد ما أنكروا العقيدة التي أقامت عليها السورة الأدلة والبراهين، وهذا خلق أعجب من الخلق الذي في الجملة الأولى. لأنه هناك خلق أثره وأثانية وفجور في الكذب وادعاء ما ليس لك فيه شيء، وهو هنا إنكار حقيقة من حقائق الدين الذي جاءت بها الرسل وأقام القرآن عليها الأدلة كالشمس الساطعة، وأقربها ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، وكل هذا تراه العيون، ثم هم يجعلون جزء الرحمة إنكار البعث، وهذا كلام مستفز وخلق يجر عليهم المقت والزراية.

والجملة الثالثة هي ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وفيها التوكيد الذي تراه، وأداة الشرط إن الدالة على أن ما دخلت عليه غير متوقع، وهو هنا مقطوع بعدم وقوعه لقوله قبل ذلك ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وإنما بنى كلامه على الفرض والتقدير أى على فرض أنى رجعت إلى ربي وكانت هناك ساعة قائمة فإن لى عند ربي للحسنى مع أنه أنكر كل آياته ولم يكتف بإنكار رحمته، وإنما ذكر أنها له يعنى بكسبه كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصاص: ٧٨] ثم يدعى أن له عند ربه الحسنى. وتأمل هذا الادعاء وهذا الكذب وهذا الغرور وهذا الصلف وكل ذلك يهديك إلى سر التركيب فى قوله سبحانه فى التعقيب على هذا السلوك المضطرب والمختل والخالى من ضوابط العقل ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهذه الفاء تدل على ترتب ما بعدها الذى هو العقاب الموصوف فى الآية على ما قبلها الذى هو الفجور والإلحاد والغرور والصلف من غير مهلة، ووراء ذلك من شدة الغضب ما وراءه، ثم ابتداء الجملة بلام القسم ثم تأكيد الفعل بالنون الثقيلة ثم اختيار كلمة نبأ على كلمة خبر أو حدث، والنبأ يكون فى الخبر الأهم والتميز كما قال تعالى. ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وكان هذا النبأ العظيم هو ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤] وهذا خبر عن ملكها الذى أوتيت فيه من كل شىء، وخبر عن عرشها وخبر عن عقيدة قومها وضلالهم، وخبر عن أن امرأة تملكهم، وكل هذا غريب، ثم إنه سبحانه قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ووضع المظهر موضع المضمرة ووضع الجمع مكان الواحد الذى هو الإنسان، ويقال فى مثل هذا إن وضع المظهر موضع المضمرة لبيان العلة وهى الكفر وللتشهير بكفرهم، وهذا كله صحيح ويضاف إليه هنا كفرانه بالنعمة التى هى الرحمة التى ذاق حلاوتها، وأنه كَفَرَهَا أَحْسَنَ الكفر لأنه نسبها إلى نفسه وقال هذا لى. ثم إن قوله سبحانه: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾

فيه معنيان جليان الأول هو الدلالة على العدل، وأن أساءة المسيء مهما كانت خساستها ومهما كان كذبه وفجوره واختلال منطقته لا يجوز أن يزداد في عقابه شيء، وإنما يكون بما عمل وأن ينبأ بما عمل، ولا يجوز أن يعاقب على ذنب إلا وهو يعلم أنه يعاقب على هذا الذنب، وهذا كلام جليل جداً، وليس الذى نراه الآن فى الدولة المدنية التى تشدق بحقوق الإنسان من العدل فى شىء- لأنها ترمى الناس فى المعتقلات وهم لا يدرون لماذا هم فى هذه المعتقلات، هذا أمر والأمر الثانى هو أن أصحاب هذا المنطق الفاسد الذى يروغ عن الحق ويتهجم على كل باطل ويسلك كل سبيل من سبل الضلال فى الاستتاج وفى الاعتقاد جمعوا إلى أحسن الأقوال أحسن الأعمال، والآية تكلمت عن أقوالهم ولم تتكلم عن أعمالهم، ثم كانت هذه الجملة مفيدة معنى إساءتهم فى أعمالهم كإساءتهم فى أقوالهم، وفى هذا إشارة حاسمة إلى أن نظافة المجتمعات من الأفكار المهلكة يجب أن تكون هى الأساس فى إبعاد الأعمال المهلكة، وأن العقل والعلم أولاً لأن سلامة العقل وسداد المعرفة هو الذى يفضى إلى سداد الفعل- وأن هذا هو جذر الإصلاح وليست مقاومة الفساد بالقمع وحدها هى الأجدى، وسبيل ذلك هو التعليم القوى الجيد وإذا وجدت مستوى التعليم يهبط فاعلم أنك فى أمر مخوف، وقوله جل شأنه:

﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو فاصلة الآية الكريمة وأصل معناها لأن جملة ﴿فَلَنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقدمة لها وإن كان فيها من الغضب ما لا يخفى.

وهاتان الجملتان هما من كلام الله وتعقيبه سبحانه على ما روى لنا من فساد نفوسهم، ويلاحظ فيها التوكيد الذى فى الجملة السابقة التى هى أختها، وأنها حذيت على حذوها، وهذا التوكيد فى دلالتة على مزيد الغضب أظهر من دلالتة على مواجهة الإنكار؛ ثم إن السياق هو الذى يمنح الدلالة عمقها، وأعنى بالسياق ملاحظة القائل جل شأنه وأنه يحدثنا عن من عاندوا رسله وكفروا نعمه وكذبوا خبره بالبعث سبحانه، وراغوا من الأدلة التى هى كفلق الصبح، ثم يلاحظ أن الجملة استعملت الفعل الأصلى الذى بنى عليه الكلام

السابق والذي يمثل عطاء الله لهذا النمط الفاسد، وأن الله سبحانه أذاقه رحمة منه فلم يكفرها فحسب وإنما كان منه ما كان فأذاقه سبحانه العذاب الغليظ بدل الرحمة، وأن رحمة الله سبقت غضبه، وأن ابتلاءه سبحانه لبعض عباده بالنعيم قد يكون استدراجاً للإيقاع بهم، وأن كلمة ذاق تستعمل في الخير وفي الشر وفي الرحمة وفي العذاب، لأن المغزى هو شدة الإصابة وأن المرء يجد ما كتبه الله له أو عليه كما يجد أحدنا حقيقة الشيء يذوقه بلسانه فيخبر كنهه حلوه ومره، أذاقه الرحمة فلما كفرها أذاقه العذاب، ووصف العذاب بالغليظ يعني الشديد وهي كلمة انتقلت من الحس إلى العقل، وهي في الحس تعنى القوة والشدة يوصف بها الحبل ويوصف بها الرجل ويوصف بها الإبل والخيل، والغليظ ضد الرقيق، وكان العذاب يغلظ عليهم ويجفرو بهم وينكل بهم كأن يعذبوا وهم مكبلون بالأغلال، وقد نبه علماؤنا رحمهم الله إلى أن لفظ الرحمة قدم على الجار في هذه الآية ﴿وَلَّيْنُ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وقدم الجار على الرحمة في آية هود ﴿وَلَّيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾ [هود: ٨] وذلك لأن الذي جاء في سورة فصلت كان بعد مس الشر ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْتُوسُ قَنُوطًا﴾ فكان المقام لتقديم الرحمة لمقابلتها لمس الشر ومجيئها بعده بخلاف هود، فلم تسبق بذلك وإنما سبقت بالحديث عن فعل الله بهم ﴿وَلَّيْنُ أَخْرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٩] وهذا مقام يقتضى أن تكون الآية ﴿وَلَّيْنُ أَذَقْنَاهُ مِّنَّا رَحْمَةً﴾ لأن الحديث عن فعل الله ﴿مِنَّا﴾ وليس الحديث عن مزاولتهم وأنهم لا يسأمون من دعاء الخير إلى آخره وهذا جيد.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

مراجعة هذه الآية ترشد إلى أنها تحدث عن حاله مختلفة عن الحالات التي تحدث عنها الآيات قبلها، والآيات قبلها ما ضيقتان في خط واحد يبدأ من

الإنسان الذي لا يفتُر في دعاء ما تتعلق به أهواؤه من خير الدنيا، ثم تسكت الآية عن حاله إذا أصابه الخير الذي لا يسأم في طلبه، ثم تذكر حاله إذا مسه الشر وأنه ينكسر وينهدم وربما انتحر كما هو الحال في الحضارة المعاصرة ذات الجذور الجاهلية، ثم تبيّن الآية حاله إذا أذاقه الله رحمة منه بعد هذه الضراء وتصف طيشه وغروره وكذبه واجترأه وقوله: ﴿هَذَا لِي﴾ وإعلانه الكفر بالقيامة وقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ثم غروره وحماقته وتوهمه أنه إن رجع إلى ربه فإن ربه يُعدُّ له عنده الحسنَى. ويؤكد هذا بلام القسم الداخلة على الشرط والتي تفيد تأكيد ترتب جواب الشرط المحذوف على فعل الشرط، وجواب الشرط مدلول عليه بجواب القسم المؤكد بأن وتقديم الظرف (لى) وزيادة كلمة عنده ولو قال إن لى الحسنَى لكفى، ولكنه أضاف كلمة عنده وكأن الله أعد الحسنَى لمقدمه على الله وجعل جائزة مقدمه على ربه هى الحسنَى المعروف بأداة التعريف الدال على الكمال إلى آخر ما تدلك عليه الأحوال اللغوية.

والأمر هنا مختلف جداً لأن الله سبحانه يصف هذا الإنسان بأنه إذا بدأ ربه بالنعم أعرض ونأى بجانبه، ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ فهو أولاً لم يوصف بأنه ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ وإنما باغته نعمة ربه وهذا فرق كبير جداً، ومقتضى ترتب الإعراض والنأى بالجانب على النعمة أنه كان قبل النعم ليس معرضاً ولا نائياً بجانبه، والنأى معناه البعد والجانب هو الجنب والناحية، وهو تصوير للإعراض، ومن نأى بجانبه أعرض وتكبّر، ويقال كلمته فازورّ والتوى؛ وأبعد فى ضلاله وغوى وهذا يعنى أنه من النوع الذى تطره النعمة، وليس بلازم أن يكون منكراً للبعث ولا كافراً بالذى خلق، ويمكن أن يكون من العصاة الذين أغلظ لهم ربهم القول رحمة بهم ونبههم إلى أن بطر النعمة يلقي بك على الجدار الفاصل بين الإيمان والكفر، وأن هذا البطر ينتهى بك إلى خطر عظيم.

وفى الجملة الشريفة إشارة كريمة إلى أمور أولها أنه جىء فيها بإذا الدالة على أن ما دخلت عليه متوقع، ونعم الله على عباده من هذا المتوقع وأن

رحمته وسعت المطيع والعاصي، ثم دلت الآية على عظم هذه النعمة ووجوب تلقيها بالشكر، وذلك بإسناد (أنعم) إلى ضمير العظمة وأن هذا الشرط يوجب عند أصحاب الفطرة المبرأة الإقبال والرضى والتواضع والرفق بعباد المنعم جل شأنه، والأصل في نعمه أن تذكروا بالنعم على خلقه لأننا سنتنعم بنعمه على خلقه هو، وهذا هو الشكر والذي ترتب عكس ذلك وهو الإعراض بدل الإقبال والتكبر بدل التواضع، وأقول مرة ثانية: الأصل في النعم أن تُقربك إلى الذي يُرضى المنعم وإنما يُرضى سبحانه بخفض الجناح لخلقه والرفق بهم وإكرامهم.

وهذه الرذيلة التي وصفت بها الآية من بادأه ربه بالنعمة رذيلة تلحق كثيراً من الناس ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧] والجملة الثانية ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

أولا جرى بإذاء في مس الشر على غير الأكثر وذلك للإشارة إلى أن هذا الإنسان الذي تطفية النعمة جدير بأن يكون مس الشر له أمراً متوقفاً، ففيها إذا شوب من الغضب واللوم والمعاتبة لهذا الإنسان والذم له، ثم جاء الجواب الدال على أنه يلزم الدعاء، وذو بمعنى صاحب يعنى صار صاحب دعاء متسع جداً عريض عرضه وطويل طوله وكأنه يملأ الأفق من حوله ضراعة ودعاء ورجاء أن يذهب الله عنه مس الشر.

وهذا جيد لأن الله سبحانه قد يتلى عباده بالضراء لعلمهم يتضرعون وهذا منهم وليس كالذى إن مسه الشر فيئوس قنوط. الأول نفسه خالية من الله فامتلكه اليأس ثم زاد اليأس وصار قنوطاً، وهذا بخلافه لأن الله له وجود داخل نفسه فركن على جناب ربه ورفع يديه ورفع عقيرته وملاً الطول والعرض راغباً إلى ربه أن يكشف عنه الضر، والفرق بينه وبين الأول هو الفرق بين اليأس والرجاء وهما متعارضان، وهذا يقتضى أن يكون النموذجان الإنسانيان الموصوفان بهما مختلفين وهذا ظاهر، وقد تقول إن هذا النموذج

الثانى كثير ومألوف ومن أبطرته النعمة ثم ذكر ربه فشكر هو النموذج المرضى، ومن استفزه البلاء ثم ذكر ربه وفرغ إليه فهو أيضاً من النموذج المرضى. ولهذا لم تر الآية تبدأ بما يشير وإنما بدأت بداية مألوفة ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ بخلاف آية ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لأنها بدأت ببيان خلق غير محمود، وكذلك آية ﴿وَلَنْ أَدْفِنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ إلى آخره.

والدعاء العريض والعذاب الغليظ من باب واحد فى الوصف البياني لأن كلا منهما وصف فيه العقلى بالحسى، وأفاد الأول فظاعة العذاب وغلظه وقسوته بالمعذب وأنه يعذب وهو مكبل فى الأغلال، وأفاد الثانى شيوع الدعاء فى الآفاق واتساع مداه وأنه ملأ الآفاق ضراعة وتذللاً.

وهذا الذى قلته فى الآية استأنست فيه بكلام العلماء لما وقفت لأتبين ملامح النفس التى تُحدثنا عنها الآية الأولى والتى تُحدثنا عنها الآية الثانية، ووجدت اختلافاً كما أشرت، ثم رأيت الشهاب الخفاجى يتحدث عن اتحاد الموصوف فى الآيتين واختلافه، والذى دعا الخفاجى إلى هذه الإشارة هو أن الإنسان فى الآية الأولى يثوس قنوط وفى الآية الثانية يدعو دعاء عريضاً، وهذان وصفان يتنافيان لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء، قال الشهاب: وقد اعتبر فى القنوط ظهور أثر اليأس فظهور ما يدل على الرجاء ياباه.

وقد أجاب الخفاجى عن هذا التعارض بقوله «ليس المراد بما ذكر فى الآيتين إلا بيان ما طبع عليه الإنسان من الرغبة فى الخير والسعة. والنفرة والكراهية للشدة والبلاء، لا حقيقة ما ذكر، بل إنه حريص الطمع، هلوع الجزع، قولاً وفعلاً، حتى إنه لعدم اعتماده على خالقه وسخافة عقله، أحواله متناقضة وظاهره مناف لباطنه وهو لشدة ذهوله وولفه واضطرابه يصعد فى هبوطه ويدعو مع قنوطه كما أشار إليه السمرقندى فى تفسيره، وتبع أثره المدقق فى الكشف حيث قال فى ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النُهة ضعيف الهمة، إذ اليأس والقنوط يتنافيان الدعاء العريض وأنه كالغريق المتمسك بكل

شيء، انتهى كلام الشهاب وهو كلام جيد ومرورى عن الأئمة المعترين رضوان
 الله عليهم. والآية تحتمله كما تحتمل الذى قلناه، وقد رأيت فى كلام
 الزمخشرى ما يرشح الذى ذهبت إليه، قال رحمه الله: «هذا ضرب آخر من
 طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة، أبطرته النعمة وكأنه لم يلق بؤسا قط
 فنسى المنعم وأعرض عن شكره»، انتهى ما أريده من كلامه ومقصودى قوله
 «نسى المنعم وأعرض عن شكره» وهذا صادق على من كان قبل النعمة ذاكراً
 للمنعم ومقبلاً على شكره، والخلاصة أن هذا الإنسان المذكور فى هذه الآية لم
 تجر على لسانه كلمة الكفر كما جرت على لسان الذى قال ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً﴾ ولم يوصف بالكفر كما وصف فى الآية السابقة ﴿فَلَنُنِشِّنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا﴾ ولم يهدد بعذاب كما قال فى التى قبلها ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾
 هذا والله أعلم، قوله سبحانه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ
 مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ (٥٢) سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
 الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ
 أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ بعد الفراغ من تحليل الأحوال النفسية التى تضبط
 سلوك المعاندين للحق وأنهم يتبعون أهواءهم ورغائبهم الحسية المحضه، وأنهم
 لم يتكيفوا مع هذا الوجود الذى تكيف معه الإنسان العادى جداً، وأن الأيام
 تتقلب بين النعماء والضراء، وأن هذا هو مألوف هذه الحياة الذى رضىه
 عوام الناس وخواصهم من كان منهم من أهل الإيمان ومن لم يكن ما داموا
 يعيشون فى سلام نفسى مع هذه الحياة، وأن هذا النموذج يعانى اختلالاً
 واضطراباً جعله تحت خط الإنسان العادى، أقول: بعد بيان هذا الاختلال
 النفسى انتقلت الآيات إلى بيان اختلال منطقى ما كان ينبغى أن يقع فيه من
 تدبير وينظر فيما يقال له ويراجع ما يسمع، ثم يتخذ موقفه من الذى يطالب به
 بعد تدبر ومراجعة، فرجع الكلام إلى خطابهم بعدما كان يخاطبنا عنهم، وهذا
 الخطاب الذى أمر به رسول الله ﷺ هو خطاب لكل من يأتى بعدهم من أجيال
 الناس. وخصوصاً تلك الفئة المصرة على إنكار الغيب والإيمان به، وهذا وإن

كان داءً جاهلياً قديماً فإنه رأى تنويرى حديث وله وسائله وفلسفاته وأدبياته التى هى الآن أكثر تطوراً وإن كان يرجع إلى أصل واحد.

وفى هذه الآيات التى رجع فيها الخطاب بواسطة رسول الله ﷺ إلى الذين نزل فيهم القرآن إشارات لغوية ترجع بنا إلى مطلع السورة، وترد عجزها على صدرها، وأول ذلك هو ابتداء هذه الآيات بقوله سبحانه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ ، كما قال فى أولها ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ﴾ ثم أكد هذا بقوله ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ وبقوله ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ وهو هنا يقول له عليه السلام ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ وكل هذا تأكيد أنه عليه السلام مبلغ عن ربه، ثم إن هناك تشابهاً آخر يتجاوز هذه الصيغة المتمثلة فى فعل الأمر وفى الخطاب، وهو أنك لو وضعت مقول القول وجدت شيئاً آخر وهو أنه قال هناك ما أمر به من الدعوة إلى الواحد الأحد ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ وهو هنا يقول لهم أرايتم إن كان هذا الذى قلته لكم وبلغتكم به من عند الله ثم كفرتم به من أصل منكم، يعنى مقول القول واحد فى أول السورة وآخرها، ولكنه فى آخرها بعد ما ساق الأدلة الساطعة من خلق الأرض والسماء والآيات المذكورة فى السورة يطالب فى نهاية ذلك بإعمال المنطق ورفض الأسلوب غير المقبول الذى واجهوه عليه السلام به لما قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ إلى آخره، ولذلك تجدد فى هذه الآية اقتراباً حميماً ولطيفاً منهم وكأنها تعلمنا أن الداعى إلى الحق لا يجوز أن يئأس مهما قوبل بالرفض والعناد الواصل إلى سداد الآذان وإغلاق القلوب فى الأكنة حتى لا تسمع دعاة الهدى والصواب والخير، عليهم ألا يئأسوا وأن يكونوا دائماً أصحاب منطق وأصحاب تल्प وأصحاب إصرار، والهمزة فى قوله ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ هى همزة التقرير والمراد حمل المخاطب على الإقرار بما يعلمه من مضمون الكلام بعدها، ويفسر العلماء قوله سبحانه ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ بقولهم

أخبروني. وهذا صواب، وهذا الفعل وهذا التركيب كثير في الكتاب العزيز ولا بد أن تعلم أن التفسير غير المفسر، وأن رأيتم فيها شيء ليس في أخبروني وإلا لقال أخبروني. والبحث عن الفرق بين لفظ القرآن وما نفسره به بحث دقيق وصعب ولكن لا بد من محاولته، وليس أماننا إلا تحليل المادة اللغوية وأن الخبر غير الرؤية وأخبرني غير رأيت، لأن رأيت فيها معنى الرأى والرؤية، فإذا قلت لصاحبك رأيت لو أنك فعلت كذا كان معناه أخبرني بعد المراجعة والتروى وإبعاد العصبية، وهكذا تقول الآية وكأنه سبحانه أمر رسوله أن يقول لهم راجعوا ما أنتم عليه وانظروا فيما سقناه من أدلة وتأملوا وتدبروا بصدق وتجرد وسيظهر لكم صدق البرهان وصواب الدليل. وأنه من عند الله ثم كفرتم به، وهل ترون في الضلال من هو أضل منكم، وهل من المعقول أن تغلقوا باب المراجعة وأن تقولوا في مواجهة الدليل ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾، ولهذا أقول إن هذه الجملة الرائعة تأخذ بأيديهم إلى طريق الحق وترشدهم بمنطق هادئ ومقنع إلى التخلي عن سلوكهم، والأخذ بالسلوك الأشبه بالعقل، وهذا كله من إشارات كلمة ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ ولو قال أخبروني لم يكن فيه شيء من هذا، وقوله سبحانه ﴿ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ جيء فيها بالشرط الدال على أن ما بعده مشكوك فيه مع أن ما بعده مقطوع به، وذلك لاستمالتهم أكثر والاقتراب منهم، ويسميه العلماء الكلام المنصف لأنك جاريت الخصم على وفق اعتقاده وأنصفته وبنيت الكلام على سبيل الفرض والتقدير، وكلمة ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لها معنى جليل جداً في هذه الجملة لأن الذي من عند الله بإضافته إلى الله الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، فيه عز الألوهية وكمالها، ومعنى هذا أنه بالغ الكمال، فإذا وجدت في غمزة صح لكم أن تقولوا إنه ليس من عند الله، فابحثوا عن الغمزة وأنتم أهل اللسان وأنتم قوم تعلمون كما جاء في أول السورة ولا تخفى عليكم غمزه إن وجدت في كلام هو من كلامكم، وكان كلمة ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فيها تحمداً لهم كما تقول هذا أجود كلام وأعلاه وأسماء فإن وجدت فيه شيئاً غير ذلك فضع اليد عليه، وقوله جل

شأنه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ تأتي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ وبعدها معنى لا يترتب على ما قبلها فتفيد الاستبعاد، وهذا من أكرم مواقعها وهي كثيرة في الكتاب، وهي أخت التي في قوله تعالى في أول الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿ [الأنعام: ١-٢] راجع ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وهذا غير ﴿ثُمَّ قَضَى أَجْلاً﴾، قلت: إن هذه الآية تأخذهم برفق إلى سبيل الصواب الذي يهذى إليه الفكر السديد، ثم هي مع ذلك تطوى في طيها تهديدا بالغاً مزلزلاً، وتجد هذا التهديد البالغ في مواطن؛ منها مجيء ثم الدالة على أنهم رتبوا الشيء على الشيء لا يترتب عليه، وإنما يستبعد أن يترتب عليه، وكان كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا تمثل هوة منخسفة في منطقهم وأنهم افتقدوا أوليات المنطق، ومن مواطن التهديد المزلزل في الجملة أن الكلام انقطع بعد بيان هذا الاختلال وهذا العيث في التفكير، وحذف جواب الشرط لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، وأنه من المفيد لك أيها السامع أن تقف بعقلك وفكرك على ما هو المناسب لجواب هذا الشرط، وجاءت جملة ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ناطقة بمعنى هو من التهديد البالغ ودالة على جواب الشرط المحذوف وفي نظمها ووصفها معان دقيقة، وأول شيء هو: هذا الاستفهام الإنكارى ومعناه ليس ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، والثاني: أنها عدلت عن أن تقول من أضل منكم حتى لا تواجههم بما يزيدهم نفرة وبعدا عن الحق، وإن كان هذا هو المراد كما قال المفسرون، وقد وضعت الآية ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضع «منكم» وبهذا تحول الوعيد والتشهير من الخاص الذين قالوا ﴿قُلُوبَنَا فِي أَكْثَةٍ﴾ إلى العام وفي طيه أنكم في شقاق بعيد، والأمر الثالث: وهو الأهم أنها جاءت بمعنى لا يخالف فيه مخالف ولا ينكره منكر وهو أنه ليس في الضلال أضل من الذي هو في شقاق بعيد، ثم جعلت هذا المعنى المسلم من الكافة دالا على المعنى المحذوف الذي هو جواب الشرط، والذي يمكن أن يقدر

فليس أضل منكم وعدلت الآية عن ذكر الجواب الذى يجب أن يكون نصاً فى خبرهم والذى يسمهم لا محالة بالإغراق فى الضلال، إلى هذا الأصل العام والذى يؤكد الجواب المحذوف ويقرره من غير أن يدخل وحشة عليهم، ويلاحظ أنه ذكر صدر الصلة وقال ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ والمراد هم وفى ذكر هذا الصدر تأكيد لإثبات الشقاق البعيد لاسم الموصول، وهذا من جهة أخرى تأكيد لإثبات الشقاق البعيد الذى يوصف به الأضل، وقد فسروا الشقاق البعيد بالخلاف البعيد أو الضلال البعيد وإن كان فى لفظ الشقاق ما ليس فى لفظ الخلاف ولا الضلال، لأن فيه قدراً من المنازعة والمغاضبة، والمحاداة والاستفزاز، ومعنى أنه بعيد أن صاحبه مفارق لما اتفقت عليه الجماعة ورضيه العقل وقبلته الأخلاق ودعت إليه الحكمة، فهو بعيد عن الحق والعدل والحكمة والجماعة، وكأنه لهذا الشذوذ وهذا الفساد صار معزولاً بعيداً مطروداً يتحاماه الناس، وهذا مثال لمن يكفر بالقرآن، وقد قلت إن قوله ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ ليس جواب الشرط لأن معناه غير مرتب على الشرط لأنه معنى من المعانى الثابتة فى العقول والتي تقرها المعرفة وترضاها الحكمة، والخلاصة أن الذى من عند الله يجب الإيمان به، وأن من كفر به بعد النظر والمراجعة ليس ضالاً فحسب، وإنما لا تجد أحداً أضل منه، وقد ساقى الآية هذا المعنى الكريم مساقاً منطقياً مقنعاً لا وجه لذى عقل فى إنكاره.

وقوله سبحانه ﴿سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها وراجع لندرك لأن وعد الله سبحانه بأنه سيربهم آياته فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يظهر لهم أنه الحق ظهوراً لا يستطيع معاند ولا جاحد أن يجاهر بإنكار أنه الحق، أقول هذا الوعد تأكيد لأنه من عند الله وإن كان جىء به على سبيل القرض مجارة للخصم وتالياً له وإنصافاً كما سبق أن ذكرنا، ووجه آخر فى ارتباط هذه الآية بالآية قبلها، وهو أن قوله سبحانه ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ تسم المعارضين بأشنع وأبشع ما يوسم به الإنسان، فجاءت هذه الآية ترشد

إلى أن هذا السخف كله وهذه البشاعات كلها سنزول وسيرون آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم رؤية لا يستطيعون دفعها، وفى إشارة خفية إلى دخولهم فى دين الله أفواجاً وهذا يؤنس رسول الله ﷺ المحب لأمته وقومه بعدما أوحشته آية ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾، ويمكن أن تكون آية ﴿سُنْبُهِمْ آيَاتِنَا﴾ راجعة إلى قوله سبحانه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ الذى هو مطلع السورة وأن هؤلاء الذين أعرضوا سيرون من آيات الله ما لا يستطيعون دفعه، والضمير المفعول به فى قوله سنربهم هو الفاعل فى قوله ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ وبهذا تكون هذه الآية الواردة فى عجز السورة آخذة بتلايب الآية الواردة فى مطلعها، وهذا من عجيب البيان، ثم إن تنوع هذه العلاقات الممكنات أيضاً من عجيب البيان، هذا كله فى موقع الآية مما قبلها وأن موقعها فى بناء السورة بمثابة الخلية فى بناء الجسد يودى تغيير ترتيبها إلى هدم البناء كله، والسين فى قوله ﴿سُنْبُهِمْ﴾ جاء فى أنف الآية وكان أول حرف فيها ليفيد المعنى الأساسى. وأن هذه الإراءة فى المستقبل وأنها أكيدة وأنها شىء غير الذى أراههم الله فى هذه السورة وفى غيرها، وقد أراههم الله فى هذه السورة وفى غيرها الكثير من آياته فى الآفاق وفى أنفسهم، ومن ذلك خلق الأرض والسماء والجبال والشمس والقمر والأرض الخاشعة التى اهتزت بالماء وريت، كما أراههم آياته فى أنفسهم وقد خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ويعلم ما تحمل كل أنثى. ثم إنها لا تحمل ولا تضع إلا بإذنه إلى آخر الآيات التى آمن عليها من آمن وعاندها من ساند، هذه السين تدل على أنها آيات أخرى فى الآفاق يعنى النواحي والجوانب وفى أنفسهم، ومن البلاغة العجيبة لهذا الكتاب العزيز عموم لفظه وقابليته للتأويلات المتنوعة، ولهذا فسر الآيات هنا على وجوه كثيرة ومختلفة والآية تحتملها، وكانت هذه الوجوه المتنوعة من أثر الثقافة الغالبة على المفسر، فالزمخشري يرى أن الآيات هى الفتوحات الإسلامية ووقائع المسلمين فى الأمم مع قلة عدد جيوش أهل الإسلام وكثرة عدد جيوش الأمم، وهذا غريب وعجيب فى سياق أحداث التاريخ،

والفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين والممالك التي سقطت في أيديهم وهذا الانتشار المتسع للدين في هذا الزمن الوجيز، كل ذلك خارج عن المألوف فلم يعرف التاريخ دولة قامت ثم استولت على هذه الممالك ودخل دينها ما دخل عليه الليل في مثل هذا الزمن الذي تم فيه ما تم للدولة الإسلامية، وكل ذلك رآه هذا الجيل كما رأى المسلمين بدؤوا مستضعفين في الأرض توشك أن ينخطفهم الناس. ثم رأوا هؤلاء وهم يسقطون الممالك العتيدة في التاريخ كالفرس والروم، ويرون الدين الذي كان لا يجهر به بعض من آمنوا به من خوف بطش المشركين، يرونه وقد أتم الله نوره ودخل ما دخل عليه الليل وقد زادهم كل ذلك يقينا وحدثوا به ووصفوا ما كانوا عليه أول أمرهم وما آلت إليه غلبتهم، وقد أوماً الزمخشري إلى هذا في عبارة مختصرة وأن الآيات التي سيربهم الله تعنى ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الأرض وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم وتسلط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاليمها، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب. لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله وآية من آياته، انتهى كلامه، ولا شك أن تاريخ المسلمين وحروبهم فيه كثير من آيات الله، وأن الله أيدهم بجنوده وحسبنا أنه أنزل لهم ملائكته وحاربوا معهم ورأوهم يعيرونهم، ونصرهم وأواهم وأيديهم، وأنهم اعتصموا بالله فعصمهم، ونصروه فنصرهم، ولا بد من ملاحظة إسناد الإراء إلى ضمير العظمة في قوله سبحانه ﴿سُرِّيهِمْ﴾ وناهيك عن إراءه يريها صاحب العظمة والجلال، ثم نلاحظ إضافة الآيات أيضاً إلى ضمير العظمة، وناهيك عن آيات مضافة إلى صاحب الجلال والسلطان هذا وجه من وجوه تفسير الآيات، والوجه الآخر

ما ذهب إليه الرازي وخلاصته، أنهم رأوا ما رأوا من آيات الله فى الآفاق بحسب ما عندهم من علم، وأن الذى سيريههم الله هو اكتشاف ما فى هذه المخلوقات من سنن وقوانين غاية فى الدقة والإبداع سواء كان ذلك فى الأفلاك السماوية أو كان ذلك فى آفاق الأرض أو كان فى الأنفس وعجائب صنع الله فى الإنسان، وعبرة الرازي فى ذلك مختصرة، قال رحمه الله «إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء يعنى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم إلا أن العجائب التى أودعها الله فى هذه الأشياء مما لا نهاية له فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً، ومثاله كل أحد رأى بنية الإنسان وشاهدها إلا أن العجائب التى أودعها الله فى تركيب هذا البدن كثيرة، وأكثر الناس لا يعرفها، انتهى كلامه. ومعناه أن الله سبحانه يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً، يعنى أن الإعجاز فى الآفاق وفى النفس باب مفتوح للزمان بعد الزمان ومعين لا ينضب للأجيال جيل بعد جيل، والتقدم العلمى هو مفتاح أبوابه يفتح باباً بعد باب، ومعراج الصعود إلى آفاقه جيلاً بعد جيل. وهكذا ترى العلم الذى هو إبداع الخالق الذى أودعه فى خلقه فى خدمة الدين الذى ارتضاه لعباده لا يصادمه، وإنما يفتح له آفاق البرهان وهذا كله جيد ويصلح احتجاجاً للقائلين بالإعجاز العلمى، وهو تفكير مستقيم إذا فهم على وجه وطبق بفهم وروية.

قوله سبحانه ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ونبدأ بفهم وتحليل هذا التركيب حتى تتجلى لنا علاقته بالذى قبله، وأول شىء هو همزة الاستفهام الداخلة على النفى والمفيدة إثبات الجملة والمعنى يكفى بربك أنه على كل شىء - شهيد، وفرق بين هذا وبين ما جاءت عليه الجملة، لأن دلالة الاستفهام على الإثبات غير دلالة الجملة من غير هذا الاستفهام، ورجوعك إلى نفسك وتذوق التركيبين يدلك على ذلك، ثم إن هذه الهمزة دخلت على واو العطف وهى مؤذنة بأن ثمة كلاماً مسكوتاً عنه، وأن عليك أيها القارئ أن تجتهد فى تقديره وهو صعب، ومثل هذا التركيب يوصف بأنه حين لم ينطق كان أنطق؛ لأن

الاجتهاد والحيرة فى تصيد الذى لم ينطقه من جوهر البلاغة، ثم إن دخول همزة الاستفهام على الواو لا أراها إلا وقد تقدمها كلام له خطر وتأخر عنها كلام له خطر. أما خطر ما قبلها هنا فهو الوعد الإلهى بأنه سيريهم آياته حتى يتبين لهم أنه الحق، يعنى حتى يظهر لهم أنه أى القرآن الحق الذى هو كل الحق، والمقصود بالبيان الظهور الذى لا يستطيع أحد أن يجادل فيه، وهو غير الآيات الملجئة لأن الآيات الملجئة لا ينفع معها الإيمان، وجملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ دالة على أن ذلك فى دار التكليف وكلمة يتبين إنما تكون قبل كشف الغطاء ومواجهة الآيات الملجئة. وأما خطر ما بعدها فهو أن الله يشهد على ذلك وكفى به شهيداً، والباء فى قوله ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ زائدة وداخلة على الفاعل وهذا قليل. وقالوا إن الباء لا تدخل على الفاعل إلا مع كفى وفعل التعجب مثل أحسن بزيد وأحسن فعل ماضى جاء على صورة فعل الأمر وقوله ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل أو عطف بيان من الفاعل وهو المقصود بالحكم والمبدل منه فى نية الطرح كما يقول النحاة، وإنما جىء به من أجل لفظ ربك المفيد الرحمة والرعاية، ومن أعظم رحمته برسوله عليه السلام وبأتمته أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يظهر الحق ويتجلى لهم فى صورة لا يستطيع صاحب لجة أن ينكره، وتأمل الجملة وابحث عن سر التوكيد فى أنه شمل العموم فى قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم تقديم الجار والمجرور، ثم المجىء بالشهيد على صيغة المبالغة، والمهم أن المعانى التى وراء هذه الخصوصيات من مقاصد الحق جل سلطانه، وأنها يجب أن يفهم القارئ أنها موضع عناية، وناهيك عن معنى هو موضع عناية خالق الخلق ومالك يوم الدين، وقد فسر الشهيد بالمطلع والمعنى أن غيب المستقبل الذى وعد بتجليات آياته فيه هو مطلع عليه، لأن الغائب والشاهد عنده سواء، وإذا فسرت الشهيد بالشاهد كان المعنى أنه شاهد على كل شىء، ومن جملة الأشياء وعده بأنه سيريهم آياته، يعنى هو سبحانه وعد وشهد هو على وعده لنا وناهيك هذا المعنى، وإذا فسرت الشهيد بأنه جعل كل شىء شهيداً على وجوده سبحانه وتفردته بالخلق والألوهية وأنه

واحد أحد عزيز غالب رحمن رحيم . أقول . إذا فسرتَه بهذا استقام المعنى وكان المراد أنه سبحانه نصب الوجود كله شاهداً على أنه المعبود بالحق، وصاحب هذه الآيات التي لا حصر لها سيريتهم غيرها من الآيات لا يستطيعون معها عنادا وستفتحهم القلوب التي في الأكنة وتخرق الوقر الذي في الآذان .

قوله جل شأنه ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾
هذه الآية الكريمة مكونة من جملتين حديثاً وحداً وابتدأت كل جملة بـ «ألا» التي هي أداة استفتاح كما يسميها النحاة، وهذه تسمية بالغة الدقة لأنها معنى أن هذه الأداة أداة إيقاظ وتنبيه وطلب فتح آفاق النفس والوعى لنستقبل معنى هو موضع عناية، ولو تسبعت مواقع أداة الاستفتاح في الكتاب العزيز وفي كلام رسول الله ﷺ وكلام الفصحاء لرأيت بين يديك مادة علمية حافلة بالتقارب والتباعد والتفاوت والتشارب ولرأيت تنوعاً عجيباً جداً، والذي جاء في الجملتين بعد أداة الاستفتاح هو التوكيد، الأول يؤكد أنهم في مرية، يعني في شك وجدل ولجاجة ومرءاء، والثاني يؤكد أنه سبحانه بكل شيء محيط، ثم هم في الجملة الأولى ليسوا شاكين مجادلين ممارين وإنما هم في مرية والمرية بكسر الميم وضمها وقرئ بهما، وهي ظرف لهم يعني هم مغموسون غارقون منغمسون في هذا المرءاء والمرية من لقاء ربهم، يعني من البعث لأن المشكلة التي حالت بينهم وبين الإيمان بالبعث هي استحالة العودة بعد أن يكونوا تراباً وعظاماً، والشك في البعث شك في كل ما بلغهم عن الله لأن من شك في أي شيء بلغه رسول الله ﷺ فقد رد عليه أمره كله، ولذلك لا تجد فرقاً بين من شك ومن كان في ريب ومن كان في مرية ومن كفر كل هؤلاء سواء، ولهذا تجد هذه الجملة التي في صدر هذه الآية راجعة رجوعاً ظاهراً إلى مطلع السورة وإلى قوله سبحانه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ وقالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ إلى آخر الآيات التي عرضت لهذا النموذج وما قارنته به من الأمم البائدة من عاد وثمود وحشرهم على وجوههم إلى جهنم وشهادة أعضائهم، والذين قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ إلى آخر هذا النوع الرافض

الذى يطالعك فى السورة فى مواطن كثيرة ولم تنفع معه الآيات الكبيرة ابتداء من خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى إلى آخر ما تراه يتخلل السورة، أقول: إن هذه الجملة الفاصلة والخاتمة مشتبكة مع هذا كله وموصولة بهذا كله وليس فى هذا تكلف وإنما التكلف فى الغفلة عنه.

والجملة الثانية موقعها من أشد المواقع وأمكنها، وذلك لأنها رجعت أولاً إلى الجملة التى قبلها وردت شكهم فى لقاء ربهم ونقضت الشبهة التى حالت بينهم وبين الإيمان بالبعث، لأن المحيط بكل شىء لا يعجزه أن يجمع عظامكم ولا أن يعيد خلقكم، والمحيط بكل شىء يلزم لزوماً عقلياً أن يكون قادراً على كل شىء، عليمًا بكل شىء، سميعًا لكل شىء، بصبراً بكل شىء، وهذا لا يجوز معه استعظام البعث والنشر، ثم إن هذه الجملة راجعة إلى الجملة الأسبق وهى قوله ﴿سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ لأن المحيط بكل شىء تأكيد لهذا الوعد، وفاصلة آية ﴿سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ هى فى المعنى أخت هذه الجملة وهى قوله تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ والذى على كل شىء شهيد هو الذى بكل شىء محيط، وإذا كانت الجملة الأولى راجعة إلى الآيات التى ذكرت الذين قالوا قلوبنا فى أكنة بصور مختلفة، فإن هذه الجملة راجعة إلى ما رجعت إليه الجملة قبلها وإلى غير ما رجعت إليه من مثل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وآيات الليل والنهار والأرض الخاشعة و﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، وضع جملة ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ بإزاء كل آية فى السورة تجد هذه الجملة متضمنة لها ومؤكدة لها وهذا من غريب البيان، لأن آخر جملة فى السورة حاملة لكل ما جاء فى السورة. هذا والله أعلم.

تم الفراغ من الكتابة الثانية لغافر وفصلت يوم الأحد ٣ من شعبان ١٤٢٩هـ الموافق ٣ من أغسطس ٢٠٠٨م وكنت قد فرغت من الكتابة الأولى فى ٢٦ من شعبان ١٤٢٨هـ.

محتويات الكتاب

الموضوع

الصفحة

المقدمة

(٢ - ١١)

- ١- التفسير باب محفوف بالمحاذير ٣
٢- العربية لا تزال منطوية على أسرار بيانية لم تستخرج بعد ٨
٣- العدو اللدود لعقل الأمة هو التقليد وهو بلاؤها في هذا الزمن ١١
٤- خطأ المجتهد أفضل من صواب المقلد ١١

سورة غافر

(١٢ - ٢١٠)

- ١٣ المعنى الأم في السورة
١٥ تكرار المعاني واختلاف الصيغ باب في فقه القرآن لم تشعبه الدراسة .
١٧ كلام العلماء في الحروف المقطعة
١٩ الكلمات التي تعلقت بكلمة تنزيل
٢٢ وجه ترتيب الصفات في آية المطلع
٢٦ أول فاصلة في غافر ممسكة بآخر الزمر
٢٧ امتصاص الكلمات من جاراتها في المعاني والإعراب
٢٧ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا
٢٩ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم
٣٣ وكذلك حقت كلمة ربك
٣٤ الذين يحملون العرش ومن حوله
٣٩ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً
٤٣ ربنا وأدخلهم جنات عدن
٤٧ وقهم السيئات

- ٥٠ إن الذين كفروا ينادون
- ٥٤ فهل إلى خروج من سبيل
- ٥٨ هو الذى يريكم آياته
- ٦٠ فادعوا الله مخلصين له الدين
- ٦٢ رفيع الدرجات
- ٦٥ يوم التلاق
- ٦٧ لمن الملك اليوم
- ٦٩ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت
- ٧٢ يوم الآزفة
- ٧٤ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع
- ٧٦ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور
- ٧٨ إنه هو السميع البصير
- ٧٩ أو لم يسيروا فى الأرض وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها
- ٨٠ دخول همزة الاستفهام على حرف العطف
- ٨٢ فروق فى صياغة الآيات المتشابهة
- ٨٥ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات
- ٨٧ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا
- ٨٨ لماذا ذكر هذا القسم من قصة موسى عليه السلام؟
- ٩١ فلما جاءهم بالحق من عندنا
- ٩٢ موازنات بين ما جاء فى غافر وما جاء فى الشعراء
- ٩٥ قمع الفراعنة المعاصرين أهول من قمع فرعون موسى
- ٩٦ ذرونى أقتل موسى
- ٩٧ إنى عدت بربى وربكم
- ١٠ موسى وفرعون ويوسف والعزيز
- ١٠٢ الآيات التى حكى كلام مؤمن آل فرعون

- ١٠٣ متى تأت الواو فى أساليب الحوار ومتى تغيب
- ١٠٤ مؤمن آل فرعون لماذا كنتم إيمانه؟
- ١٠٥ السحرة لم يكتموا إيمانهم
- ١٠٦ أقتتلون رجلاً أن يقول ربى الله
- ١٠٩ وإن يك كاذباً فعليه كذبه
- ١١٢ يا قومى لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض
- الفرق بين حياة المرء فى وطن عزيز غالب وحياته فى وطن مقموع
بالغطرسة
- ١١٣ لكم الملك اليوم
- ١١٤ ما أرىكم إلا ما أرى
- ١١٥ إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب
- ١١٧ وما الله يريد ظلماً للعباد
- ١٢٠ إنى أخاف عليكم يوم التناد
- ١٢٢ المستهلكون فى التبعية والمغبونون تحت ضغط القمع
- ١٢٤ ما لكم من الله من عاصم
- ١٢٥ النظم الفرعونية تدور حول تثبيت الحكم وليس حول رعاية الشعب
- ١٢٧ ولقد جاءكم يوسف من قبل
- ١٣٣ مراجعات فى الفواصل
- ١٣٥ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أناهم
- تأكيد ما ذهب إليه الرازى من أن المجادلة فى الآيات أصل معانى
السورة
- ١٣٩ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً
- ١٤١ موازنة بين آيات غافر وآيات القصص
- ١٤٢ وكذلك زين لفرعون سوء عمله
- ١٤٧ اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد
- ١٤٩

- ١٥٢ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها
- ١٥٦ معنى التنكير فى كلمة «صالح» كما فهم الرازى
- ١٥٦ ويا قومى مالى أذعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار
- ١٦٠ نفاذ كلام فرعون فى قومه وضياع كلام موسى عليه السلام والمؤمن
- ١٦٣ آخر ما قاله المؤمن لقومه
- ١٦٦ فوقاه الله سيئات ما مكروا
- ١٦٩ النار يعرضون عليها
- ١٧٠ يوم تقوم الساعة
- ١٧٣ وإذ يتحاجون فى النار
- الاحتجاج بين الضعفاء والذين استكبروا يكشف حقائق فى تاريخ
- ١٧٥ الأديان
- ١٧٦ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار
- ١٧٩ حوار الذين فى النار مع خزنة جهنم
- ١٨٢ دخول همزة الاستفهام على الواو
- ١٨٤ الجملة المعلقة بين محذوفين
- ١٨٥ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا
- ١٨٧ يوم لا ينفع الظالمون معذرتهم
- ١٨٩ ولقد آتينا موسى الهدى
- ١٩٢ فاصبر إن وعد الله حق
- ١٩٦ لماذا تقدم العشى على الإبكار
- ١٩٨ الذين يجادلون فى آيات الله
- ١٩٩ تنوع صور المجادلة فى السورة
- ٢٠٠ إن فى صدورهم إلا كبر
- ٢٠٢ جملة ما هم ببالغه ونظائرها
- ٢٠٢ المراد بقوله سبحانه «بغير سلطان»

- ٢٠٥ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير
 ٢٠٦ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس
 ٢٠٨ وما يستوى الأعمى والبصير
 ٢١١ مراجعات فى الفواصل
 ٢١٢ إن الساعة لآتية
 ٢١٤ ادعونى استجب لكم
 ٢١٨ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه
 ٢٢٤ إن الله لذو فضل على الناس
 ٢٢٦ ذلكم الله ربكم
 ٢٣٠ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون
 ٢٣٤ وصوركم فأحسن صوركم
 ٢٣٦ فتبارك الله رب العالمين
 ٢٣٨ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه
 ٢٤٣ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله
 ٢٤٨ هو الذى خلقكم من تراب
 ٢٥٣ هو الذى يحيى ويميت
 ٢٥٦ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله
 ٢٦٠ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا
 ٢٦٤ أين ما كنتم تشركون
 ٢٦٨ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق
 ٢٧٤ فاصبر إن وعد الله حق
 ٢٧٨ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك
 ٢٨٠ فإذا جاء أمر الله قضى بالحق
 ٢٨٤ الله الذى جعل لكم الأنعام
 ٢٩١ ويرىكم آياته

٢٩٣ أفلم يسيروا فى الأرض
٢٩٩ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات
٣٠٢ فلما رأوا بأسنا
٣٠٨ وخسر هنالك الكافرون

سورة فصلت

(٣١١ - ٥٠٤)

٣١٢ فروق فى المطلع بينها وبين غافر
٣١٤ فصول السورة ممسك بعضها ببعض
٣١٦ كلام لابن فارس من الحروف المقطعة
٣١٩ تنزيل من الرحمن الرحيم
٣٢٢ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم
٣٢٤ قلوبنا فى أكنة
٣٢٧ إنما أنا بشر مثلكم
٣٣١ الذين لا يؤتون الزكاة
٣٣٣ الذين آمنوا وعملوا الصالحات
٣٣٦ أنثكم لتكفرون بالذى خلق الأرض
٣٣٩ ذلك رب العالمين
٣٤٣ ثم استوى إلى السماء
٣٤٧ فقضاهن سبع سموات فى يومين
٣٥٠ ذلك تقدير العزيز العليم
٣٥٢ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة
٣٥٦ عتبة بن ربيعة فى مجلس رسول الله ﷺ يستمع إلى الآيات
٣٥٨ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم
٣٦٠ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة
٣٦٢ فأما عاد فاستكبروا

- ٣٦٨ فأرسلنا عليهم ريحاً
 ٣٧٢ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى
 ٣٧٨ ونجينا الذين آمنوا
 ٣٧٩ يوم يحشر أعداء الله إلى النار
 ٣٨٣ حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم
 ٣٨٦ وما كنتم تستترون
 ٣٨٨ وذلكم ظنكم الذى طنتم بربكم أرداكم
 ٣٩٢ وقيضنا لهم قرناء
 ٣٩٧ حق عليهم القول
 ٣٩٨ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن
 ٤٠٠ فلنذيقن الذين كفروا
 ٤٠٢ ذلك جزاء أعداء الله النار
 ٤٠٦ ربنا أرنا اللذين أضلانا
 ٤٠٩ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
 ٤١٤ ألا تخافوا ولا تحزنوا
 ٤١٦ نحن أولياؤكم
 ٤١٩ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
 ٤٢٢ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة
 ٤٢٤ وما يلقاها إلا الذين صبروا
 ٤٢٨ وإما يترغتك من الشيطان نزع
 ٤٣١ ومن آياته الليل والنهار
 ٤٣٦ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر
 ٤٣٨ فإن استكبروا
 ٤٤٠ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة
 ٤٤٤ إن الذين يلحدون فى آياتنا

٤٤٧ الذين كفروا بالذكر
٤٤٩ لا يأتيه الباطل
٤٥٣ ولو جعلناه قرآنا أعجميا
٤٥٥ هو للذين آمنوا هدى وشفاء
٤٥٧ أولئك ينادون من مكان بعيد
٤٦٠ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه
٤٦٥ من عمل صالحًا فلنفسه
٤٦٩ إليه يرد علم الساعة
٤٧٥ ويوم يناديهم أين شركائى
٤٧٧ وظنوا ما لهم من محيص
٤٧٩ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير
٤٨١ وإن مسه الشر
٤٨٦ ولئن أذقناه رحمة منا
٤٨٨ فلننبتن الذين كفروا
٤٩٢ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض
٤٩٥ قل أرأيتم إن كان من عند الله
٤٩٨ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد
٤٩٨ سنريهم آياتنا فى الآفاق
٥٠٢ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد
٥٠٣ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم
٥٠٥ محتويات الكتاب



